فاروق مَنجونه

قصة الحروب والسلام بين أبناء العم

ثلاثية الوطن الحائر

معادلة التاريخ والمعاناة - أحجية الجهاد والحرية - الزيارة وما تلاها



Ezer Weizman and Syrian writer Farook Manjouneh discuss the peace process yesterday during th

فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر
الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة
فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروقمنجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر
الوطن الحائر □فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثي
منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروقمنجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
منجونة ثلاثية الوطن الحائر □فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
حائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
جونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروقمنجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
جونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
حائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
جونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
حائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروقمنجونة ثلاثية
جونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
ائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
جونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
حائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
جونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فا
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ث
فاروقمنجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر
الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة
فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر
الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة
فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر
الوطن الحائر □ فاروقمنجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية
منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروقمنجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فار
الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية الوطن الحائر □ فاروق منجونة ثلاثية

دار البردي للنشر - لندن

فاروق منجونة

ثلاثية الوطن الحائر

THE TRIOLOGY OF A
PERPLEXED HOMELAND

ثلاثية الوطن الحائر

THE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND

BY
FAROUK MANJOUNEH

دار البردي للنشر ـ لندن

FIRST PUBLISHED IN 1995

FAROUK MANJOUNEH
93, WAYCROSS ROAD
CRANHAM
UPMINSTER
ESSEX RM14 INS, U.K.

كتب أخرى للمؤلف

١ ـ صدى أغنيات مجموعة قصصية دار النهضة الفكرية ـ حلب ١٩٥٦

٢ ـ ثلاثية «تأشيرة إنسحاب من صحراء الخليج العربي» سيرة ذاتية اجتماعية ـ ثقافية

«أنا كويتي» .... دار البردي ـ لندن ١٩٧٩

«قطر بنت آل ثاني» .... دار البردي ـ لندن ١٩٨٦

«فرسان الجنادرية» .... دار البردي ـ لندن ١٩٩٠

٣ ـ الحب بين ضفتيه دراسة نقدية دار البردي ـ لندن ١٩٨٩

٤ ـ شهوة الرحيل الى السرّة (رواية) المركز العربي الحديث القاهرة ـ دار البردي ـ لندن ١٩٩١

٥ ـ حبيبتي وشم في المدى (شعر) المركز العربي الحديث ـ القاهرة ـ دار البردي ـ لندن ١٩٩٢

٦ ـ حبيبتي من كوكب آخر (شعر) المركز العربي الحديث ـ القاهرة ـ دار البردي ـ لندن ١٩٩٣

٧ ـ يوسف يتجسد فيكم (رواية شعرية) الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٤

المحتـــويات

فاروق منجونه

ثلاثية الوطن الحائر

شبه سيرة ذاتية ..

من قرار التقسيم إلى مفاوضات السلام

المقـــدمـــة

أن يتقصّى المرء - كاتباً أو مراقباً أو معلّقاً - ما يتخذه الساسة من مواقف، وما يُدلون به من آراء في خطبهم، أو ما يصرحون به في أحاديثهم، وفي المؤتمرات التي يشاركون بحضورها، أو يدعون إليها، مهمة صعبة، وعمل شاق جداً. ذلك لأن المتتبع لما يضطلع به السياسيون، يشقى الشقاء كله، ويتعذب عذاباً مضنياً في محاولات لا تهدأ، مستهدفاً معرفة «الثوابت والمتغيرات» في مواقف السادة السياسيين، الذين يجدون دائماً «مخارج» يبررون بها آراءهم المتغيرة، ومواقفهم التي يبدّلونها؛ إذا ما أقتضت الحاجة الى التغيير والتبديل.

* * *

ولئن كانت السياسة هي «فن الممكن» فإن السياسي الحاذق، يستطيع أن يجعل من «المستحيل» أمراً ممكناً. والسياسي الذي لا يأخذ بالنظرية «الميكيافيلية» القائلة، بأن «الغاية تبرر الوسيلة» لا يستطيع أن يضمن النجاح، ولا يمكنه تحقيق هدفه، أو أهدافه الإستراتيجية على المدى القريب أو البعيد،لأن السياسة - أولاً وآخراً - هي «المصالح» وليست شيئاً آخر.

* * *

وعلى مدى نصف قرن - تقريباً - هو عمر القضية الفلسطينية، منذ سقوط الإقتراح العربي بإنشاء دولة موحدة للعرب واليهود، مروراً بقرار التقسيم، وإنتهاء بمؤتمر مدريد للسلام، وقعت أحداث جسام في منطقة الشرق الأوسط، يكاد المرء يعجز عن إحصائها... ولئن كانت الحروب التي نشبت بين العرب واليهود، بسبب المسألة الفلسطينية، هي الأبرز، فإن الإنقلابات العسكرية التي وقعت في عدد من الأقطار العربية، وغير العربية، والثورات التي شهدتها دول هذه المنطقة الدائمة الغليان - ربما بسبب وجود النفط تحت رمالها - وربما بسبب «الدم الساخن» الذي يجري في عروق شعوبها وربما للسببين معاً، لا تقل حضورا في الذاكرة، وبروزاً على الساحة الشرق أوسطية من الحروب «الجانبية» التي نشبت بين «العرب والعرب» والتي تأتي، من حيث موقعها في «أرخبيل الذاكرة»، لتحتل «مكانتها» الأكثر بروزاً بين الأحداث الناغلة والمتراكمة؛ لا بسبب أهميتها التاريخية، بل بسبب إنعدام الموضوعية في نشوبها، مَثَلُها كَمَثَلِ النزاعات القبليّة في إنعدام موضوعيتها، كحرب «البسوس» أو حرب

«داحس والغبراء» الشهيرتين في التاريخ العربي.

* * *

ولأن «مربط الفرس» في هذا الكتاب، ومحوره، هو «القضية الفلسطينية»، وما رافقها منذ قرار تقسيمها، وحتى مؤتمر مدريد، وما اعترضها من ثوابت ومتغيرات في السياسة العربية والدولية، فرضت مواقف أصابها تبديل وتغيير - حسب مجريات الأحداث - فقد حرصت على تقصّي «بعض» أبرز تلك المواقف بدءاً من الدور الذي لعبه الملك الراحل عبد العزيز آل سعود، عبر رسائله الى الرئيسين الأميركيين «ترومان وروزفلت»، مروراً بموقف الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، والملك الراحل فيصل بن عبد العزيز، ثم مواقف خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز، التي بدأت بدعوته الى «الجهاد المقدس» لتحرير القدس منذ أن كان ولياً للعهد، واستمرت دعوته الى ما بعد توليه الحكم ملكاً للمملكة العربية السعودية، خلفاً لشقيقه الراحل الملك خالد. ثم مبادرة الرئيس الراحل أنور السادات في القيام بزيارة إلى القدس، أعقبتها اتفاقية «كامب ديفيد» كأول اتفاقية للسلام بين طرف عربي واحد، وإسرائيل. وبين هذا وذاك، انعقدت مؤتمرات «قمم» عربية، كان أكثرها شهرة، مؤتمر الخرطوم الذي أعقب انعقاده حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧، وأجمع القادة العرب في جلسته الختامية، على اتخاذ موقف بالإجماع بإعلان «اللاءات الثلاث» الشهيرة «لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف» بإسرائيل.

* * *

وتوالت الأعوام...

ووقعت أحداث أُخَر، غيرت بعض المواقف، وقلبت المفاهيم والموازين. وبات صعباً على المرء أن يتابع ويتقصى ليتعرف على «المواقف» التي ترسمها الأحداث المتسارعة.. بل غدت المتابعة عملاً شاقاً جداً؛ واكتفى المراقب، والمتتبع، والمهتم بمسيرة القضية الفلسطينية بالتركيز على الأحداث الأكثر بروزاً، حتى يتمكن من تكوين صورة معقولة للمسار الذي آل إليه الصراع العربي الإسرائيلي، لإستشراف المستقبل الذي يتم رسمه خلف كواليس السياسة، لتأطير طبيعة العلاقة بين العرب وإسرائيل التي ستتمخض عن مفاوضات السلام، كانت إتفاقية «غزة وأريحا» أول إفرازاتها، ثم تلتها اتفاقية السلام بين الأردن وإسرائيل.. ولم يبق سوى الوصول الى إتفاق سلام توقعه إسرائيل من جهة، وسورية ولبنان من الجهة الأخرى، لتبدأ منطقة الشرق الأوسط مرحلة جديدة من مراحل تاريخها الحافل بالمواقف المتغيرة.

* * *

بدءاً بما اضطلع به قادة العرب وزعماؤهم قبل نصف قرن بشأن القضية الفلسطينية،

وما رافقها من متغيرات في السياستين العربية والدولية، مروراً بما اضطلع به الرئيس الراحل أنور السادات الذي خطا أول خطوة في إتجاه السلام، فجعل من مصر دولة رائدة في توسيع دائرة السلام، بين العرب وإسرائيل التي دأبت على العبث بأمن واستقرار منطقة الشرق الأوسط، بما ترتكبه من أعمال تتنافى مع مبادىء الإتفاق مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتتعارض مع القرارات الدولية وصولاً الى الدور الذي يضطلع به الرئيس السوري حافظ الأسد، مبلوراً بمواقفه الإيجابية، هدف سورية الاستراتيجي من قضية السلام، تحاول الولايات المتحدة تقييمها تقييماً سلبياً، مدفوعة بانحيازها الى جانب إسرائيل، رغم ما تلقيه من عراقيل وعقبات تؤخر وصول قطار السلام الى محطته الأخيرة، ما جعل مصر في عهد الرئيس حسني مبارك، تعلن دعمها للموقف السوري، مختلفة بذلك مع واشنطن في تقييمها السلبي لما يضطلع به الرئيس الأسد، الذي يقف بثبات ليؤكد أن سورية الساعية الى تحقيق هدفها الاستراتيجي في إقامة السلام على أسس الحق والعدل والمنطق، لن تتوانى عن منح «السلام» جميع الفرص الممكنة لإقامته على مبادىء القرارات الدولية.

بدءاً من تلك المواقف ـ قبل خمسين سنة ـ وصولاً الى المواقف الحالية، يتمحور كتاب «ثلاثية الوطن الحائر» الذي توخيت من وضعه، مواجهة جميع الحقائق التي استخلصتها من تاريخ القضية، ومن معايشة ما رافقها من أحداث ومتغيرات، قبل البدء برحلة السلام، وبعد الزيارة التي قمت بها الى القدس ومنطقة الحكم الذاتي في غزة وأريحا، وإلى الجولان السوري المحتل، يحدوني في ذلك أمل كبير، في أن أكون قد أسهمت في تقديم رؤية مستقبلية موضوعية استخلصتها من معطيات المرحلة الراهنة، التي يحاول فيها جميع المعنيين بمستقبل المنطقة، الخروج من نفق الصراع الذي يدور منذ نصف قرن، إلى موقف شجاع، ينهي حالة الحروب التي أنهكت شعوب دول المنطقة، وأشقتهما، وانتزعت الشعور بالأمان والإستقرار. ولقد آن الأوان كي يمد كل طرف يده الى الطرف الآخر، لمصافحة صادقة من أجل ترسيخ قواعد السلام. وعلى من يأنس بنفسه صدق النوايا، أن يبدأ، ويبادر الى ترجمة نواياه، عملاً إيجابياً، ينعكس على شعبه، أمناً، ورخاء، وإستقراراً وسلاماً، يخيم على جميع دول المنطقة... ودول العالم قاطبة.

فاروق منجونة

لندن ـ ٥ حزيران ـ يونيو ١٩٩٥

الكتاب الأول

معادلة
التاريخ.... والمعاناة

من اجتهد فأصاب، له أجران
ومن اجتهد فأخطأ، فله أجر الإجتهاد

«حديث شريف»

«رأيُنا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب، ومن جاء بأفضل من قولنا قبلناه»

الإمام الشافعي

**

الجهاد المقدس هو الحل الأمثل لاستعادة حقوقنا

الأمير فهد بن عبد العزيز
آب ـ اغسطس ١٩٨٠

* *

نداء القدس يدوي في أسماعنا...
نحن أمة ترفض الاستسلام ولا حياة لنا بدون كرامة

الملك فهد بن عبد العزيز
خادم الحرمين الشريفين
ايلول ـ سبتمبر ١٩٨٤

1

وصلنا ـ بحمد الله ـ الى الموقع..

ورأينا البنادق مشرعة نحو السماء.

عبرنا «المقر» بعد «حفلة» تفتيش دقيقة لا تخلو من خشونة!...

دخلنا وجلسنا على الكراسي الحديدية المرصوفة صفاً صفاً، ومكثنا صامتين ننتظر دخول «الرئيس» علينا، وكان رجال الحرس الخاص بيننا، وأمام الباب، وموزعين حولنا.

مرت دقائق طويلة ممضّة. رجال الحرس يحملقون في وجوهنا، وبعضنا كان يتفادى النظر الى أسلحتهم، منعاً للإلتباس وإثارة الشكوك، والبعض الآخر كان يحاول تغييب قلقه بابتسامة.

دخل «الرئيس» علينا من وراء حجاب، يحيط به بعض رجال حرسه، ويحف به عدد من رفاقه... نهضنا... لبثت واقفاً مكاني، فوق موقعي... وهرع الجميع اليه يصافحون، ويعانقون... ويهتفون.

بادل «الرئيس» كل من أقبل عليه بالعناق والقبلات، البعض دفع البعض الآخر للوصول إليه أولاً.

ألقى البعض كلمات حيّا فيها «الرئيس» وأثنى على إتفاقية «أوسلو» واصفاً إياها بأنها خطوة شجاعة على طريق السلام المنشود.. فصفق الآخرون، وصفقت معهم.

واقتربتْ من «الرئيس» السيدة حياة أبو النصر، فعانقته، وقبلته، ثم ابتعدت عنه خطوتين، وأخذت تلقي من «محفوظاتها» مقاطع زجلية باللهجة المصرية، حيث

فيها «الرئيس»، والسلام، والحب، والبطولات.
صفق الآخرون، فصفقت معهم.
وتقدم الحشد المسرحي المغربي، الطيب الصديقي، وألقى كلمة قصيرة بأسلوب خطابي مسرحي، مباركاً ومهنئاً، ومتمنياً أن تستمر رحلة السلام حتى نهايتها المرجوة.
صفق الضيوف... وصفقنا أيضاً.
وبرز علي سالم الكاتب المسرحي المصري، بقامته المديدة متميزا بين الجمع.
وعلا صوته عريضا جهوريا يحيي «الرئيس» ويحفزه على مواصلة النضال من أجل تحقيق الأهداف والآمال الكبيرة.
وكان التصفيق له شديداً... وأنا صفقت أيضا بـ... حماس!..
أعقبت الكلمات، لحظات صمت و«الرئيس» صامت يبتسم - أو هكذا خيل لي - ثم تلفت يمنة وتلفت يسرة، ثم قال، وكان صوته يشبه الهمس:
- هل هناك أحد من الإخوان يحب أن يقول شيئاً؟
... ومن موقعي المنزوي على مقربة من الحشد، رفعت يدي، ولم يعتم أن لمحني «الرئيس»، فرفع يده مشيرا علي بأن أتقدم، فخطوت نحوه، وفي وجداني تمور مشاعر تجيش بانفعالات متوترة.. وعلى لساني، تتراكم العبارات بلا ترتيب ولا تنسيق. لم تكن المسافة التي تفصلني عن «الرئيس» سوى ياردات معدودات. قطعت المسافة ألقصيرة بأقل من ست أو سبع ثوان، وكان وقع ضربات قلبي، أعلى من وقع خطواتي على الأرض المبلطة.

* * *

لم يكن من طموحاتي على مدى معايشتي للقضية الفلسطينية أن ألتقي بـ «الرئيس» أو بأي رئيس آخر... ولم يخطر في بالي أن أقابل زعيماً من زعماء العرب في يوم من الأيام... وفجأة، أجدني وجهاً لوجه أمام «ياسر عرفات» في مقره الرسمي، ليس في بيروت، أو في تونس... إنما، هنا... في غزة «المحررة»

وبين ثلة من جنود الحرس المسلح... وحوله عدد من رفاق النضال، أعضاء اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية. وقفتُ للحظة.. حائراً بين أن أعانقه وأقبله.. أو، أمد يدي لمصافحته... وكان يقف أمامي بقامته الربعة، ينظر في وجهي بعينين نفاذتين... وأمام حيرتي، وجدته يمد إلي يده، شددت عليها .. ثم قدمت إليه نسخة من روايتي الشعرية «يوسف يتجسد فيكم» وأنا أمعن النظر في وجهه الذي بدا لي مكدوداً.. مرهقاً.. ورأيت في عينيه وهجاً من بريق يرسل مزيجاً من الرؤى.. وخيل إلي أنني أرى دموعاً عالقة فوق الأجفان... وشبح ابتسامة يحاول أن يتجسد.

ابتدرت الرئيس عرفات بقولي:

- أبا عمار... إنك لن تسترجع بيتك إلا بالقوة، ذلك حين تجيء الصحوة...

اتسعت حدقتا «الرئيس» ياسر عرفات، وبدا البريق فيهما دموعاً حقيقية.. أحسست بيده تشد على يدي.

قلت:

- لقد خسرنا معارك وحروباً عسكرية عديدة يا أبا عمار، وإذا كنت أقول، إنك لن تسترجع بيتك إلا بالقوة، فلست أقصد قوة الدبابة، والطائرة، والمدفع. إنما قوة العزيمة، وقوة الحجة، وقوة الإرادة على الصمود.. فضلاً عن الإيمان بالحق الذي لا يموت. والصحوة المطلوبة - يا أبا عمار - صحوة العقل والضمير... وليس مطلوباً منك، أو من أحد منا إلا مضاعفة التوعية والتنوير، ليعم الوعي و... لمحت وجه «ياسر عبد ربه» صارماً، لا يبتسم.

شعرت بأنني أنزلق - لا إرادياً - في هوّة الوعظ والخطابة.. وكدت استرسل بالإستشهاد، لألقي على مسامع «الرئيس» ومسامع الحضور، حكاية والٍ من ولاة عهد الخليفة الراشد الخامس «عمر بن عبد العزيز» كتب إليه طالبا تخصيص مبلغ ينفقه في مشروع بناء سور حول عاصمة ولايته - على غرار سور الصين - فرد عليه الخليفة «العادل» برقعة جاء فيها:

«وما حاجتك الى بناء السور إذا كنت قادراً على تحصين الولاية بالعدالة وبرفع

الظلم، وبنشر الوعي والحرية؟».
لكنني التزمت الصمت...
لبثت واقفاً...
ولبثنا نتبادل النظر.
وقبل أن أسحب كفي من كف «الرئيس» أو يسحب كفه من كفي، قلت:
- لا أدري يا أبا عمار، لماذا أشعر بحزن عميق الآن!!
تراخت الأصابع، وانفصل الكفّان.. وصفق «أبو عمار»، وصفق معه الجميع.. وطبعاً، لم أصفق أنا.
تراجعت الى موقعي، بعدما فرغت عدسات المصورين من التقاط الصور التذكارية، وقبل الجلوس على الكرسي الحديدي، اقترب مني «عنصر» من الحرس المسلح.. وضع ساعده على كتفي، فارتعش قلبي بين الضلوع هلعاً.. فالود بيني وبين «العسكر» مفقود منذ هزيمة ١٩٦٧ .
حاولت أن أخفي هلعي بابتسامة مصطنعة.. أدرك الأخ «العنصر» ما أكابده، إذ قرأ ذلك على ملامح وجهي المذعور، فابتدرني مشجعاً:
- تفضل معي الى ذلك الركن، نريد إجراء حوار معك لإذاعة فلسطين..
تفضلت، ومشيت بصحبته الى حيث أشار، فقدمني الى من كان واقفاً بجوار نافذة، وأمامه جهاز تسجيل، ودار بيننا حوار حول «القضية».. جف حلقي خلال الحديث، وشعرت بعطش قاتل، وجلب لي أحدهم «كازوزة» لم تكن باردة.

* * *

2

انتهت الزيارة...

وانتهى الحوار الإذاعي.. وعدنا الى مقاعدنا في حافلة «الباص» المكيفة.. كنت آخر الصاعدين.. فانتبذت لنفسي مقعداً في أقصى الحافلة التي درجت على الطريق الأسفلتي المليء بالحفر والأتربة والنفايات.. أخذ الزملاء والزميلات يهزجون ويغنون، وأخذت الذاكرة تقفز من موقع الى موقع، تستحضر مشاهد تاريخ القضية الفلسطينية، صورة بعد صورة.. والعربة المكيفة تتضاعف سرعتها في إتجاه «أريحا» مخلفة وراءها «غزة» الغارقة في أحزانها.

«... فقط لو نستطيع استرداد بعض الأرض.. قطعة صغيرة من الأرض المنهوبة، نزرع فوق إحدى هضابها الراية الفلسطينية.. ونواصل النضال حتى نعيد قيام الدولة الفلسطينية التي صارت كلها أرضاً محتلة».

تتواتر في الذهن كلمات «غسان كنفاني» خلال جلسة من الجلسات التي كانت تضمنا في أمسيات «الدولتشي فيتا» البيروتية، بعد الفروغ من أعمالنا في الصحف والمجلات.. فنتجمع بعد منتصف كل ليلة، ونمضي في حوار حول «القضية» ومستقبلها، والمصير الذي ستلقاه الأمة العربية عامة، والشعب الفلسطيني خاصة.. ويطول الحوار ويتشعب، فنستهلك الليل حتى مطلع الفجر.

«ـ لماذا لا يتبع الزعماء والقادة سياسة (خذ وطالب) التي طرحها الحبيب بورقيبة، ما دمنا عاجزين عن استرداد الحقوق بالقوة؟.. لماذا يا أستاذ

غسان؟».

يتأملني غسان كنفاني، باشفاق، فهو يعرف أنني أجهل الكثير من الخفايا والأسرار التي لا يعرفها إلا قلة قليلة ممن لهم اتصالات مباشرة مع أهل «العقد والحل» أو أهل السياسة الضالعين في «اللعبة».. ويعرف «غسان» أنني قد أفلح في كتابة قصة قصيرة، أو قصيدة، وربما قد أنجح في كتابة رواية طويلة - كما كان يقول لي - خلال بعض الجلسات التي تجمعني به في مكتبه بصحيفة «المحرر» التي كان يصدرها الراحل هشام أبو ظهر، ثم أصدر لها ملحقاً أسبوعياً باسم «فلسطين» ترأس تحريره غسان كنفاني.. يتأملني - باشفاق - وترتسم على وجهه ملامح ابتسامة رقيقة.. شاحبة، ويرد على سؤالي بصوت هادىء جداً:

- يجب أن تعود الى القضية من جذورها لتعرف الجواب.. ان ثقافتك السياسية ليست مكتملة يا فاروق.. والمشكلة أكبر وأكثر تعقيداً مما ظن، أو رأى «الحبيب بورقيبة» وأكثر مما تظن وترى أنت وغيرك كثيرون من أبناء جيلك و... وأقاطعه بقولي:

- إذا لم نكن قادرين على تحرير فلسطين بقوة السلاح، رغم أننا - كأمة - أكثر عدداً، وكثروة، أغنى بكثير من أميركا ربما!! فعلى الأقل، يجب أن نعمل بوسائل أخرى.

ولا يضيق «غسان» بمقاطعتي.. ينصت إلي جيداً، وعندما أكف عن الكلام.. وأنظر في وجهه صامتاً، ومتلهفاً - في الوقت نفسه - لسماع إجابة تقنعني، أو تهدىء من غليان صدري.. يتناول علبة سكائره، يقدم لي واحدة، ويعلق بين شفتيه واحدة.. ثم يقول قبل أن تمتد يده الى علبة الكبريت.. وأحياناً كان يشعل سيكارته، وينسى أن يشعل سيكارتي.. ويسترسل في القول:

«لا يمكن لأية حركة تحرير ان تتم، أو أن تبدأ، قبل أن يكون في أول جدول أعمالها هدف أساسي هو توحيد أداة التحرير.

لدينا الآن حوالي اربعين منظمة فلسطينية، كلهاتعمل تحت الأرض، وإذا كان من

الضـروري الإعـتـراف بأنه من الصـعب جداً تـوحـيـد أداة التـحـرير حـين تكون المنظمات المعنية بهذا التوحيد منظمات سرية، فإنه من الضروري أكثر الإعتراف بأن معركة التحرير تكون أكثر صعوبة دون هذا التوحيد.

أهـم ما يجب على منظمة التحرير الفلسطينية أن تفعله الآن ليس التنظيم الإداري، ليس ترتيب المـحـاسـبـة... ليس تعـيـين المـوظفين، ليس الدعـاية والإعـلام، ليس تنظيم وفود الشكر الى العالم، ليس الإستعداد للأمم المتحدة، على أهمية ذلك كله، ولكن وضع خطة لتوحيد العمل التحريري الفلسطيني.

وكي نكون عادلين فان هذه المهمة ليست فقط مهمة منظمـة التحرير، بل المنظمات الأربعين، وعليها أن تبادر، مـهما اعترضت مبادراتها من مـصـاعب. ورخيصة هي، ان لم تفعل».

ـ إذن، نحن نحتاج الى وحدة بين الفصائل، والمنظمات الأربعين؟

ويهز برأسه مؤكداً على ضرورة تحقيق ذلك.

ـ طيب.. لمـاذا لم تدم الوحـدة بين مـصـر وسـورية؟.. لمـاذا مـزقـوها بعـد سنة، ونصف السنة؟.. ثم لماذا....

ـ بس.. بس.. كفى فلسـفة فـارغة «فاروق باشـا» عد إلى التاريخ.. إقرأ ثم تعـال نتفلسف معاً.

* * *

أضـحك... أضـحك.. أضـحك، وأنا، أتأمل المنحدرات والمنعطفـات من وراء زجاج نافذة «الباص» المتوجه بنا إلى.. أريحا.

ويبدو أن ضحكي كان عالياً.. مثلما يتحدث البعض الى أنفسهم.. أو ـ كما يقولون ـ يفكرون بصوت مـرتفع.. إذ بلـغ سمـعي صوت أحد زمـلاء الرحلة يهدر من مقدمة الحافلة:

ـ تجلس وحدك في آخر الباص.. وتضحك كأن أحداً يدغدغك!!..

* * *

وأحسست بأنني بدأت أكبر...

حواراتي الثنائية المتكررة مع «غسان كنفاني» الأديب، القاص، الروائي ـ والمناضل ـ كما عرفت فيما بعد، حفزتني الى الإهتمام بالفكر السياسي... وجلساتنا الليلية مع بعض الزملاء والزميلات، ضاعفت من اهتمامي بالقضية الفلسطينية، التي أصبحت هاجسي اليومي، وشاغلة أيامي منذ أوائل عقد الستينات.. قبلئذ، لم يكن ينصب اهتمامي ـ جدياً ـ إلاّ على «الأدب والفن».. فكنت لا أكترث إلا بما يصدر من أعمال قصصية وروائية فأتتبعها، وأقتني كل ما يتاح لي اقتناؤه مما يصدر عن دور النشر في القاهرة وبيروت من أعمال لمبدعين عرب، أو أعمال مترجمة لمشاهير المبدعين العالميين.. أما الشعر، فلم أكن أقبل على قراءته، ولم أقتن ـ أو ـ على وجه الدقة، لم أشتر منذ ريق عمري، وبداية تعلقي بالأجناس الأدبية، مجموعة شعرية واحدة، كنت أحرص على حضور الأمسيات الشعرية التي تقام في المنتديات الثقافية، إذ كان يطيب لي الإستماع الى «شاعر» فاستمتع بالقائه قصائده، دون أن أعبأ بالبحث عن ديوان أو مجموعة شعرية في المكتبات. ومن خلال الأمسيات، عرفت الطريق الى تذوق الشعر، دون حفظه.

وكنت مشغوفاً بالأفلام السينمائية والفنون التشكيلية، وقد نمّى لدي «غسان كنفاني» موهبة الرسم الزيتي، لكنني لم أزاوله، فقد كنت أعمل على صقل مواهبي الأدبية بالإقبال على المطالعات الروائية، حتى أدمنت ذلك، فشغلتني تلك الميول عن الفكر السياسي والفلسفي وسواهما.

لكن غسان كنفاني، الذي كنت أحبه، أديباً، وإنساناً، استطاع ـ من خلال الحوارات ـ أن يصيبني بالعدوى، ما جعل «جرثومة» السياسة تجد ـ من خلال

فتحة الجرح الفلسطيني - طريقاً الى دماغي لتتغلغل في عقلي، وبالتالي لتعبث بي، وتذروني، وتشردني في المهاجر والمنافي.
«آه يا غسان.. ليتك تركتني أنعم بسذاجتي وقلة فهمي السياسي، لكنت صرت إلى ما أردت أن أصير اليه، ولما كنت وصلت الى هنا!!»

* * *

الحافلة تصعد مرتفعاً، وتهوي فوق منحدر من منحدرات الطريق المتعرج بين «غزة - أريحا»، وأنا لاه.. سادر مع تهويماتي، أتابع الشريط المتواتر صورة بعد صورة، ومشهداً بعد مشهد من تاريخ القضية الفلسطينية.. القضية التي تحولت إلى هاجس يومي شغلني، مثلما شغل الملايين من أبناء جيلي.
كان عمري نحو عشر سنين عندما اندلعت الحرب الأولى بين العرب واليهود. كنت أسمع باسم فلسطين، وأعرف أن فلسطين ترزح تحت الإنتداب البريطاني من خلال الدروس التي تلقيتها في المرحلة الإبتدائية.
لم يكن قد مضى على استقلال سورية - وطني الأم - سوى ثلاثة أعوام، بانهاء الإنتداب الفرنسي عليها. وكنت، قد اشتركت بعدة مظاهرات ضد الإحتلال، او الإنتداب الفرنسي. (لم أكن أفهم الفارق أو الإختلاف بين الكلمتين). ولما اندلعت الحرب الأولى عام ١٩٤٨، وافتتحت مراكز للتطوع، وجدتني أتوجه مندفعاً الى مركز الحي الذي أعيش فيه مع أهلي، تدافعت مع المتدافعين رغبة في الإلتحاق بجيش المتطوعين.. ولما وقفت أمام «المسؤول» عن مركز التطوع، رمقني بنظرة حرت في تفسيرها، لكنه لم يدعني طويلاً استغرق في حيرتي، اذ نهض وتناول بندقية كانت تحت الكرسي، واقترب مني ثم وضع البندقية بجانبي عمودياً فبدت ماسورتها أطول من قامتي، عندئذ، ربت على كتفي وقال:
- لما تكبر وتصير أطول من البارودة، تعال وتطوع.
وبكل براءة الطفولة، قلت:
- لكن لما بصير بطول البارودة بتكون فلسطين تحررت!

- طيب روح على بيتكم.. مع السلامة.
كان ذلك اليوم، أول يوم من أيام الجهاد من أجل فلسطين انتهى بطردي من مركز التطوع، وكنت متفائلاً بتحريرها مع نهايةالحرب.
ولما بدأنا نسمع أخبار الحرب من إذاعة دمشق معلنة عن الإنتصارات التي تحققها «الجيوش العربية» كنا نفرح.. ونبكي من شدة الفرح.. وكنا ننجذب الى جهاز الراديو كباراً وصغاراً كلما سمعنا الشارة الموسيقية لنشرة الأخبار.. فيرين الصمت على الجميع.. وتلتصق الآذان بالمذياع، شوقاً لتلقي أخبار انتصارات جديدة.
إتخذ «نضالي» من أجل فلسطين، شكلاً آخر من أشكاله، بعدما انتشر خبر استشهاد البطل عبد القادر الحسيني في معركة «القسطل».. فقد شغلت مطابع الصحف في «حلب» بطباعة صورة الشهيد، وطلب من التلاميذ ان يذهبوا الى المطابع للحصول على كميات من الصورة، لتوزيعها على المحلات والمخازن التجارية مجاناً.. فنفرت مع من نفر من المدرسة، وخرجنا في مظاهرة نملأ بصراخنا وهتافاتنا جنبات الشوارع حتى بلغنا مطبعة «النهضة» فحمل كل طفل منا رزمة من صور الشهيد البطل عبد القادر الحسيني، ورحنا نطوف بها الشوارع والطرقات والأسواق، نوزع الصورة على الناس ليرفعوها على الواجهات الزجاجية.. وكان أصحاب المحلات التجارية يعطونا ثمنا للصورة «فرنك» وهو مبلغ يساوي خمسة قروش سورية، تشجيعاً لنا على مواصلة «النضال» من أجل تحرير فلسطين.
وعندما بلغت في «مسيرتي» شارع «خان الحرير» الذي تقوم على جانبيه محلات بيع الملابس والأقمشة الفاخرة، وفي بداية الشارع المتصل بساحة «باب الفرج» تقوم محلات «آ.ب.ث» الشهيرة.. وهي شركة تمتلكها أسرة يهودية حلبية معروفة، فوجئت بازدحام شديد وبعدد كبير من الشباب يقتحمون أبواب الشركة ويحطمون الواجهات الزجاجية العريضة، وينهبون ما تطاله أيديهم من البضائع ثم يولون هاربين. وقفت مذهولاً أمام المشهد الذي تكرر عشر مرات، أو أكثر ربما .. ولما

خوت أقسام مخازن الشركة، من معروضاتها الثمينة، ولم يبق سوى القليل القليل من البضائع الرخيصة، كالأحذية، والقمصان، أو ألعاب الأطفال المطاطية أو البلاستيكية،عمد بعض «الشباب» الى إضرام النار في المخازن، وخلال دقائق، علت ألسنة اللهب، وتصاعدت سحب الدخان الأسود بكثافة.. وفر الناس في إتجاهات مختلفة، ووجدتني أجلس على الرصيف المقابل، احتضن ما تبقى لدي من صور البطل الشهيد عبد القادر الحسيني.. وأبكي.

تناهت إلي أصوات أبواق سيارات الإطفاء، وهرع الرجال بخراطيم المياه، وشرعوا باطفاء الحرائق.

أحسست بأن الحرائق اشتعلت في جوانحي.. ومشيت حزينا كاسف البال، تتنازعني الفكر الشواغل، ويضج رأسي بخيالات لقتلى وجرحى، وعربات إسعاف وسيارات عسكرية. واستمر الضجيج يزداد ويتعالى.. وأحسست كأن مطارق ثقيلة تهوي على رأسي.. وخيل لي أنني أمشي في طريق ملأى بالجثث المتناثرة، أحاول تجنبها كي لا أتعثر بالأشلاء المبعثرة.. وغامت عيناي بعدما فاضت منهما الدموع.. وكاد يغشى علي.. وكدت أقع؛ فقد تملكتني حالة إعياء وغثيان، لكن يداً امتدت إلي تساندني، ثم تطوقني ذراع.. وشعرت بأنني محمول.. ولم أعد أمشي.

3

تحولت تلك المشاهد والصور الى ذكريات، طافت في المخيلة.. وحين تنبهت إلى صوت هدير محرك الحافلة المكيفة، وهي تنحدر إنحداراً سريعاً.. زالت المشاهد، وتوقف قرع المطارق في رأسي، وسمعت «عوفر» يقول، بعد أن انتصب واقفاً في منتصف «الباص» موجهاً الكلام لنا جميعاً، وفي يده «جهاز الهاتف» المحمول:

ـ نقترب من «أريحا» أحاول الإتصال بمقر قيادة الشرطة والأمن العام الداخلي الفلسطيني، لترتيب زيارة ولقاء مع (...) ولكنني لا أتلقى رداً... سأحاول مرة ثانية.. وثالثة.. حتى..

ذكر «عوفر» اسم ضابط شرطة فلسطيني يحاول الإتصال بمقره فلا يحظى برد على إتصالاته. ثم علق قائلاً:

«يبدو، وكأن المقر ليس فيه أحد.. وهذا غير منطقي.. لكنني سأعاود المحاولة».. ومضى يحاول.. ويحاول بعد أن جلس.

* * *

«لو لم أتجه في مطلع حياتي الى إختيار الورق والقلم، لكنت جنبت نفسي الكثير من المتاعب والمزالق.. لكنها المقادير والمصادفات، هي التي تصنعنا ـ على ما يبدو ـ أو ربما هي الرغبات الكامنة في أعماق كل منا، هي التي تدفعنا في إتجاهات ليس لنا سلطان عليها، أو قدرة على تغييرها».

ولو لم يصدر «الرائد سليم حاطوم» أمراً بايقافي عن العمل في تلفزيون دمشق؛

بعد أسابيع من قيام «ثورة» الثامن من اذار ـ مارس ١٩٦٣، لأنني أقدمت على إذاعة إنشودة «وطني حبيبي الوطن الأكبر» لإعتقادي بأن تقديمها قبل موعد آخر نشرة للأخبار، ينسجم مع أهداف «الثورة» التي رفع «أصحابها» شعار القضاء على الإنفصال، والعمل على إعادة الوحدة بين «مصر وسورية»، وبالتالي إصدار «قرار» بإيقافي عن عملي ككاتب ومعد ومخرج منفذ للبرامج في تلفزيون دمشق.. ولولا تعرضي للإعتقال ـ بعدئذ ـ في حلب بتهمة «ناصري» يعمل على إثارة الشعب، ويحرض على اغتيال ـ أحد ضباط ثورة آذار ـ واحتجازي في أحد «أقبية» التعذيب التي يتولاها «بدر جمعة». ولولا أن تمكنت من الهرب الى بيروت في مطالع شهر آب ـ أغسطس من العام نفسه، متسللاً مع خيوط الفجر الى محطة «بغداد» في حلب، ليحملني قطار «الأوتومتريس» عبر طرابلس الى بيروت.. ومن ثم انخراطي في العمل الصحفي بدءاً بمجلة «الحسناء» التي كان يصدرها «نبيل خوري» وتترأس تحريرها «ماجدة عطار» وتديرها «سونيا بيروتي». مروراً بمجلة «الشبكة» التي تصدرها «دار الصياد» بعدما استدعاني «سعيد فريحة» إثر اطلاعه على تحقيق فني نشرته في مجلة «الحسناء» عن المسرحية الغنائية «أرضنا الى الأبد» التي قدمت في إطار مهرجان بعلبك الدولي من بطولة الفنان «وديع الصافي» والمطربة «صباح» وإخراج «نزار ميقاتي». فكان أن أعجب صاحب دار الصياد، الراحل الكبير «سعيد فريحة» فطلبني من صديقه وتلميذه، الأديب والصحافي والإذاعي الكبير «نبيل خوري» لأعمل في مجلة «الشبكة» وكان «نبيل خوري» هو أول صحافي لبناني ـ من أصل فلسطيني ـ يتولى شأني في بيروت، ويضمني الى أسرة تحرير مجلة «الحسناء» التي كانت ـ في الستينات ـ من أشهر وأرقى المجلات الإجتماعية، الثقافية، الفنية الصادرة في بيروت. ولولا اختلاطي وامتزاجي في أسرة الصحافة اللبنانية وانتقالي من موقع الى موقع في مختلف مؤسساتها، مروراً بمجلة «الأحد» التي كانت تصدر عن «دار الكفاح» التي يملكها الراحل «رياض طه» ويرأس تحريرها، الشاعر الصديق «رفيق خوري»... ثم مشاركتي بالتحرير في صحف يومية، ثم تفرغي ـ بعدئذ ـ لمجلة

«النور العربي» التي توليت إدارة تحريرها لفترة، حولت صفحاتها الى منابر «للرأي الحر» وميدان لتصارع الأفكار، واستقطبت للكتابة على صفحاتها عدداً من الأسماء اللامعة المتوهجة من الأدباء والصحافيين البارزين، كانت تربطني بهم ـ فضلاً عن الزمالة ـ مودة وصداقة، منهم على سبيل المثال «راجح خوري» وكان من أبرز المحررين في جريدة «الحياة». والأديبة الكبيرة «ليلى عسيران» وهي من أبرز الروائيات اللبنانيات الملتزمات بالقضية الفلسطينية. كذلك، استقطبت على صفحات المجلة، الأديبة والأستاذة الجامعية «نور سلمان» فضلاً عن عدد آخر من الصديقات والأصدقاء الذين نزحوا، أو رحلوا عن دمشق، أو هاجروا منها واستقروا في بيروت للعمل في صحافتها، أذكر منهم على سبيل المثال «عماد تكريتي، غادة السمان، عدنان مراد»... وغيرهم.. وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم.

ولولا لقائي الأول في تلك الحقبة ـ من أواسط الستينات ـ بالأديب والكاتب الفلسطيني «غسان كنفاني» بعيد صدور مجموعته القصصية «عالم.. ليس لنا» التي تناولتها بالعرض والتحليل، على صفحات مجلة «النور العربي» التي كنت مديراً لتحريرها، وكان غسان يرأس تحرير ملحق «فلسطين» الذي يصدره الصحفي الراحل «هشام أبو ظهر» عن صحيفته اليومية «المحرر» التي كانت ـ أيامئذ ـ أبرز جريدة لبنانية، تنتهج الخط القومي في سياستها، وتلتزم الشأن الفلسطيني بقوة، حتى برزت وتفوقت في انتشارها على جريدة «الأنوار» التي يصدرها «سعيد فريحة» مع مجموعة صحف وملاحق ومجلات عن «دار الصياد» وقد تحولت الى قلعة من قلاع الإعلام العربي الوحدوي، في عهد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، وترسخت قواعدها مع بداية قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ .

لولا لقائي بغسان كنفاني، الذي أحببته - قبل أن أعرفه معرفة شخصية - في أعقاب قراءتي روايته «رجال في الشمس» التي صور فيها مأساة عدد من الفلسطينيين الذين توجهوا الى الكويت - تهريباً - عبر الحدود العراقية في شاحنة «صهريج» فماتوا قبل بلوغهم «الفردوس» الكويتي.

لولا ذلك اللقاء، لكانت علاقتي بالقضية الفلسطينية، تجمدت عند باب «مركز التطوع» للقتال من أجل تحرير فلسطين، أو، لانقطعت رحلة «النضال» وتوقفت، مع استشهاد البطل «عبد القادر الحسيني» في معركة «القسطل» مع نفاد «صورته» التي توليت - مع زملاء المدرسة الإبتدائية - توزيعها في شوارع حلب.

لكن لقائي بغسان، والتحامي به، فكراً، وعملاً صحفياً، غير مجريات سير الأمور في حياتي، فاستغرقني الهم الفلسطيني، وتحولت القضية الفلسطينية الى هاجس يومي.. وباتت مسألة التحرير، هي نقطة الإنطلاق الصحيحة، لتحقيق وحدة الوطن العربي.

لولا ذلك اللقاء؛ والإلتحام بغسان كنفاني، وتعرفي بعدد من المثقفين الفلسطينيين، أدباء.. وشعراء.. ومفكرين، ومنظرين.. وبعض المناضلين، في تلك الحقبة الممتدة من عام ١٩٦٣ إلى نهاية عام ١٩٦٩، لما كنت قبلت - ربما - دعوة «منظمة السلام العالمي» لزيارة «فلسطين المحتلة» التي تكرست دولة تعرف باسم «إسرائيل» بقرار من الدول العظمى أصدرته هيئة الأمم المتحدة، وحظي بتأييد واعتراف دول كثيرة من دول العالم، نتيجة ضغوط القوى العظمى، وفي مقدمتها بريطانيا، والولايات المتحدة الأميركية التي غدت «الأم» المثالية التي تحتضن «إسرائيل» وترضعها من أضرعتها، حليباً، وعسلاً، وسلاحاً!

ومع صدور قرار التقسيم الذي أقرته المنظمة العالمية، في دورتها الخريفية من عام ١٩٤٧، وقضى بقيام «إسرائيل» دولة معترفاً بها.. غدا من المؤكد، ان الوجود العربي كان هزيلاً جداً، بل كان ملغياً من «الذهن» العالمي!... بل لم يكن لهذا «الوجود العربي» أي قوة سياسية تستطيع الضغط على المجتمع الدولي، لعدم الإعتراف بالقرار، أو العمل على تغييره، أو إلغائه كلياً، أو جزئياً، إذ أن

اللجنة التي تشكلت لإتخاذ القرار، والعمل على تنفيذه باسم الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في الثالث والعشرين من شهر أيلول - سبتمبر، من العام المشؤوم ١٩٤٧، اعتمدت - تلك اللجنة - في جميع توصياتها على «الغياب» العربي سياسياً، غياباً تاماً، ليس على الصعيد الدولي وحسب، بل على الصعيد المحلي أيضاً.

لذا، تم اتخاذ القرار، بدون أي إعتبار للحق العربي على الإطلاق.. وبدون الأخذ بالحسبان، ما كان طرحه ممثلو فلسطين من إقتراحات، وتوصيات، تُعنى بحل المشكلة المتشابكة بين العرب واليهودالذين يشتركون في العيش على أرض فلسطين منذ القدم.

وكان من الممكن تجنب «الحرب» عام ١٩٤٨، لو تم الأخذ بوجهة النظر القائلة أنه «من الممكن تجنب النزاع المسلح إذا وافق الطرفان - العربي واليهودي - على العيش بسلام على الأرض الفلسطينية، التي يجب أن يتمتع العرب واليهود فوق ترابها، بحكم ذاتي، يُقصي القضية عن التعقيدات الدولية». وقد أجرت تلك اللجنة التي قَدِمَت الى «فلسطين» مشاورات مع «زعماء الصهيونية»... ودرست «وجهات نظرهم» فاقتنعت بامكان التعايش بين العرب واليهود. كما قررت اللجنة، تشكيل لجنتين فرعيتين، مهمتهما القيام باعداد «مشروعات» تتفق مع ما يأتي في التقريرين اللذين يتم إعدادهما - بالتفصيل - من قبل اللجنتين الفرعيتين، اللتين، ستكونان ممثلتين للأكثرية والأقلية، وتشكلان - بالتالي - معاً، اللجنة الأصلية.

وكان «المشروع» الذي قدمته إحدى اللجنتين، يتضمن:

«انتهاء الإنتداب في وقت لا يتجاوز أول آب - أغسطس ١٩٤٨ وإتمام الجلاء خلال ذلك وبروز الدولتين (العربية واليهودية) بعد الجلاء بشهرين، وإشراف لجنة إنتقال دولية تعينها هيئة الأمم على إدارة فلسطين وتنفيذ التقسيم في فترة الإنتقال بين نهاية الجلاء وبروز الدولتين، بحيث تؤلف حكومة مؤقتة في كل منهما تقوم بإجراء انتخابات لجمعية تأسيسية لوضع دستور ديموقراطي على اساس حكومة مسؤولة أمام مجلس نيابي، وضمان الحقوق للجميع بروح المساواة وعدم التمييز، وتنشيء

كل من الحكومتين المؤقتتين قوة وطنية لحفظ الأمن والحدود».
أما «المشروع» الذي تقدمت به اللجنة الأخرى، فقد:
«تضمن تشكيل حكومة مؤقتة تدير جميع فلسطين على أن تبدأ بريطانيا بالجلاء بعد قيامها وتنتهي منه خلال سنة واحدة، وتوقف الهجرة خلال هذه المدة وتبقى قوانين الأراضي نافذة وتعالج مشكلة اليهود بصورة عامة وبموجب اتفاقات دولية. وتدعو الحكومة المؤقتة جمعية تأسيسية لسن دستور ديموقراطي ينص على وحدة فلسطين واستقلالها وسيادتها ومنح جميع رعاياها الحقوق المتساوية بدون أي تمييز».
فما الذي جرى بعد إنجاز اللجنتين «مشروعيهما» وتقديم كل منهما تقريرها الى «اللجنة الخاصة» التي كان قد تم تشكيلها بقرار أصدرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، في الثالث والعشرين من شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٤٧؟.
مما لا شك فيه، أنه جرت «مياه» كثيرة خلف الكواليس، في مبنى هيئة الأمم، وهي «مياه» آسنة، وملوثة.. عكرت الصدور والنفوس.. ولعبت «الأمم المتحدة» المتمثلة بهيمنة «القوى العظمى» لعبتها القذرة التي نضّجت ثمرة «التقسيم» بطريقة تتعارض مع روح تقريري اللجنتين الفرعيتين، ما أدى الى نشوب النزاع المسلح بين العرب واليهود، وبالتالي إعلان الدول العربية «حربها» التي أفضت الى «الهزيمة الأولى».. فوقعت «النكبة».. ونزح الشعب الفلسطيني الى البلدان المجاورة (مصر، والأردن، وسورية، ولبنان)، ثم أخذ نزوحه يتسع الى بلدان الخليج، ثم انتشاره في أرجاء العالم، ليغدو شعباً مشرداً عن وطنه، وسبب ذلك «غياب» العرب كقوة سياسية ضاغطة، وقوة عسكرية قادرة على التصدي للمؤامرة الدولية... ما أدى الى عدم تمكن الغالبية الكبرى من الشعب الفلسطيني، من التشبث بأرضه، فنزح.. وتشرد.. وابتُلي العرب بما ابتلوا به من انقلابات عسكرية.. بدأت بانقلاب الزعيم حسني الزعيم عام ١٩٤٩ في سورية، ولم تنته حلقات سلسلة الإنقلابات التي انتشرت وامتدت لتشمل مساحة الخارطة العربية من رؤوس جبال أطلس وأوراس، الى الشواطىء الدافئة عند نهايات كثبان رمال

الخليج بضفتيه، العربية، والفارسية، ولتصل حُمّيًا الحركات الإنقلابية، بعد مصر والسودان والصومال، وأرتيريا وجيبوتي، والعراق، الى رؤوس الجبال في اليمن، وعمان، وحتى بطاح نجد، والوهاد والفيافي الحجازية في شبه الجزيرة العربية.

وعلى مدى ما يقرب من نصف قرن، لم تتوقف الحركات والإنقلابات العسكرية في الأقطار العربية، ومن نشوب حروب جانبية بين قطر وقطر.. نعمت الدولة اليهودية «إسرائيل» بإستقرار نسبي، إذ، لم تقم فيها حركة عسكرية واحدة.. أو يتعرض أحد من حكامها الى إنقلاب، أو اغتيال.. ما جعلها ـ أمام التمزق العربي ـ تقوى، وتنمو وتتطور وتتقدم، رغم جميع أشكال «المقاطعة» التي ضربها العرب عليها مستهدفين «الضغط» ـ ربما ـ على القوى العظمى، كي تعيد النظر في علاقاتها مع «إسرائيل» الدولة «المزعومة» التي زرعوها في قلب الوطن العربي!!؟... وألف علامة تعجب واستفهام لا يمكن أن تفي بغرض الإجابة عن السؤال، لماذا ضاعت فلسطين؟.. ولماذا تشرذم العرب وتفتتوا.. وتاهوا عن الطريق؟.. لماذا خاضوا الحروب، حرباً تلو حرب وخسروها.. ولماذا التهافت على عقد إتفاقيات «السلام» مباشرة بعد الحرب الخليجية الثانية، التي تمثلت بغزو الكويت من قبل جيش «صدام حسين» العراقي.. الثوري.. التقدمي.. الى آخره؟!..

لماذا جرى كل ما جرى؟

ولماذا أنت الآن في الطريق من غزة إلى أريحا؟.. الى القدس؟.. الى تل أبيب؟.. الى الناصرة؟.. الى دالية الكرمل؟.. الى الجولان المحتل؟.. الى حيث لا تدري أين

سينتهي بك المطاف والرحيل؟

لماذا... لماذا... لماذا؟...

* * *

وعودة الى السؤال الأهم...

ما الذي جرى في أعقاب إنجاز تقريري اللجنتين الفرعيتين المنبثقتين عن اللجنة الأصلية، التي تشكلت بقرار من المنظمة الدولية؟

في ٢٤ تشرين الثاني - نوفمبر طرح مشروع الدولة الموحدة للتصويت في اللجنة الخاصة فسقط حيث رفضته ٢٩ دولة وأيدته ١٢ دولة وامتنعت ١٤ دولة عن التصويت. وكان من المؤيدين له عدا عن الدول العربية، افغانستان وإيران وباكستان وتركيا وكوبا وليبيريا. واقترح العرب نقل القضية برمتها الى محكمة العدل الدولية فسقط اقتراحهم، ثم اقترحوا إستشارة هذه المحكمة في صلاحية هيئة الأمم بتنفيذ أي نوع من التقسيم دون موافقة السكان الأصليين، فسقط إقتراحهم هذا أيضاً... وفي ٢٥ تشرين الثاني - نوفمبر طرح مشروع التقسيم فقبل بموافقة ٢٥ دولة ضد ١٣ وامتناع ١٧ دولة.

ورغم سقوط قرار مشروع «الدولة الموحدة» دون تحديد اسمها إن كان سيكون «فلسطين» أو «إسرائيل»، فان الولايات الأميركية المتحدة، لم تتخل عن فكرة مشروع التقسيم، الذي لو قبل به العرب، لما آل بهم الوضع - ربما - الى ما هم عليه اليوم.

وبإصرار - أو بطلب - من الولايات المتحدة على ضرورة تبني مشروع التقسيم؛ فقد تم تحويل «القضية» الى الهيئة العامة للأمم المتحدة، بسبب تبني «واشنطن» مشروع التقسيم، الذي مارست من أجل إخراجه وتنفيذه، مختلف أنواع الضغوط على الدول التي تدور في فلكها.

وتم التصويت مساء ٢٩ تشرين الثاني - نوفمبر وأقر المشروع بموافقة ٣٣ دولة ضد ١٢ وامتناع عشر دول وغياب دولة واحدة. وقد قضى نص قرار التقسيم:

«أن الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة بعد أن عقدت دورة خاصة بناء على طلب الدولة المنتدبة «بريطانيا» للبحث في تشكيل وتحديد صلاحية لجنة خاصة يعهد اليها بتحضير إقتراح يساعد على حل المشكلة، وبعد أن تلقت وبحثت تقرير اللجنة الخاصة الذي تضمن عدة توصيات قدمتها اللجنة بموافقة إجماعها ومشروع التقسيم مع الإتحاد الإقتصادي الذي وافقت عليه اغلبية اللجنة تعتبر، ان الحالة الحاضرة في فلسطين من شأنها ايقاع الضرر بالرفاهية العامة والعلاقات الودية بين الأمم وتأخذعلما بتصريحات الدولة المنتدبة؛ التي اعلنت بموجبها، أنها تنوي إنهاء الجلاء عن فلسطين في أول آب - أغسطس ١٩٤٨، وتوصي انكلترا بصفتها دولة منتدبة على فلسطين وكل دولة أخرى من أعضاء الأمم المتحدة بالموافقة وتنفيذ مشروع التقسيم مع الإتحاد الإقتصادي لحكومة فلسطين العتيدة على الصورة المبينة أدناه:

أولا - يجب على مجلس الأمن أن يتخذ التدابير الضرورية المنوه عنها في المشروع للعمل على تنفيذه.

ثانيا - يقرر مجلس الأمن إذا أوجبت الظروف ذلك، اثناء المرحلة الإنتقالية، ما اذا كانت الحالة في فلسطين تشكل تهديداً للسلم، فاذا قرر، أن مثل هذا التهديد موجود فعلاً، فيجب عليه للمحافظة على الأمن والسلم الدوليين، أن ينفذ تفويض الجمعية العامة باتخاذ التدابير اللازمة وفقا للمادتين ٣٩ و٤١ من الميثاق، وذلك في إعطاء الصلاحية الضرورية الى اللجنة الدولية للقيام في فلسطين بالأعمال الملقاة على عاتقها كما هو منوه عنه في المشروع.

ثالثا - يجب على مجلس الأمن أن يعتبر تهديداً للسلم، وقطعاً للعلاقات السلمية وعملاً عدوانياً بموجب نصوص المادة ٣٩ من الميثاق، كل محاولة ترمي الى تغيير

نظام حققه وقضى به المشروع بواسطة القوة.
رابعا - يجب أن يطلع مجلس الوصاية على الصلاحيات التي ستمنح له بموجب المشروع.»

* * *

وقد قررت الجمعية العامة على إثر القرار ان تكون اللجنة الدولية مؤلفة من ممثلين عن بوليفيا وتشيكوسلوفاكيا والدانمارك وبنما والفيلبين.

4

جميل...

إذن، على مجلس الأمن، أن يعتبر كل محاولة ترمي الى تغيير نظام حققه وقضى به «مشروع التقسيم» بالقوة... يعني بالحرب، عملاً عدوانياً، وتهديداً للسلم.

النص، واضح وصريح...

والسؤال...

من الذي خالف «الأوامر» وتحدى القرار، وكسره بالقتال المسلح، وبالعدوان وتهديد السلم؟..

هل هم الفلسطينيون أصحاب «البلاد» وأهلها؟.. أم عصابات آراغون.. والهاغاناه وغيرهما من غلاة الصهيونية؟.. أم الحكومات العربية التي أيدت مشروع «الدولة الموحدة» وصوتت لصالحه، واقترحت ـ من ثم ـ نقل «القضية» برمتها الى محكمة العدل الدولية... لكن الإقتراح سقط. ثم عاودوا المحاولة، بأن اقترحوا إستشارة محكمة العدل الدولية في أحقية هيئة الأمم، أو صلاحيتها في إتخاذ قرار التقسيم دون موافقة السكان الأصليين.. لكن اقتراحهم الثاني، سقط أيضا؟!

فهل استنفرت الحكومات العربية ـ بعد سقوط الإقتراحين ـ جيوشها؛ متحدية «القرار» الذي تبنّته الولايات المتحدة، و«حظي» بموافقة ٢٥ دولة ضد١٣دولة وامتناع١٧دولة عن التصويت... عازمة على تحرير فلسطين من أيدي

اليهود؟!.

إن الإجابة عن السؤال تستوجب الرجوع الى أكثر من مرجع، وأول هذه المراجع، يتألف من مجموع الفلسطينيين الذين نزحوا عن فلسطين بعد نشوب الحرب... وثاني هذه المراجع، تتشكل مصداقيته، بالرجوع الى الفلسطينيين الذين مكثوا.. وتشبثوا بالوطن ـ رغم المذابح والمجازر ـ ولم يغادروا بيوتهم. وثالث هذه المراجع، يتمثل بالتاريخ، وبالنصوص السرية والمعلنة التي صدرت بشكل «قرارات» عن هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي،على مدى الحقبة التاريخية الممتدة من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٩٥ ..

أي أن الجواب عن السؤال، يتطلب القيام برحلة طويلة عمرها نصف قرن إلا قليلاً، يغوص المرء في لجج بعيدة الغور، بين الكتب والدراسات والمراجع التاريخية، التي يتكون منها عمر القضية الفلسطينية برمتها.

إنها رحلة شاقة بلا شك...

بل إنها عملية منهكة، متعبة، ومضنية أيضاً، لكن واجب الوصول الى الحقيقة.. أو إلى جواب شافٍ، يروي غليل العطشان الى المعرفة، يقضي القيام بهذه الرحلة.

والقيام بزيارة «البلاد» وهي ما تزال ترزح تحت الإحتلال العسكري الإسرائيلي، بدعوة رسمية من «منظمة السلام العالمي»، تؤيدها «حكومة إسرائيل» ممثلة بوزارة الخارجية. هل يزيدك معرفة.. ويختصر طريقك الى إكتشاف الحقيقة؟

بدا لي الأمر ضرورياً...

فالرحلة التاريخية ـ على مشقتها ـ مطلوبة ومهمة.

والزيارة ـ مسألة حيوية ـ تزيد في توضيح الصورة الجديدة، التي بدأت ملامحها تتشكل، منذ بدأت عملية «السلام» تأخذ مكانها على مسرح الأحداث، مع الجلسة الأولى التي انعقدت في العاصمة الأسبانية «مدريد» عام ١٩٩٢ وبدء المفاوضات من أجل إحلال «السلام» بين «إسرائيل»

والفلسطينيين من جهة، وبين «إسرائيل» والدول العربية من جهة ثانية.

إنك مقبل على خطوة تتطلب إجراء حسابات دقيقة، وتتطلب إستعداداً عليك أن تدرك متاعبه، وعواقبه، وينبغي - قبل أن تخطو خطوتك - التأكد مما إذا كنت على قدر من «الشجاعة والإقدام» يؤهلك لخوض هذه «المعركة»؛ مع التأكد من أنك تمتلك «الحق» في إتخاذ القرار.. وهو قرار لا يمكن لأحد أن يصنعه ويعزم على تنفيذه،إلا إذا كان حراً مستقلاً، لا يخشى ركوب موج البحار العاتية. ولا تؤثر فيه الرياح الهوج؛ إذا ما عصفت حوله، لتقتلعه وتجعله شلواً بلا جذور.. أو تمزقه أشلاء، وتبعثره هباء في كل فضاء، أو تذروه كحفنة من رماد جثة محترقة، لا تبقي له أثراً بعد عين. تلك هي «معادلة التاريخ والمعاناة» التي ستخوض غمارها.

إنه «القرار» الأصعب من بين القرارات التي صنعتها ونفذتها، على مدى العمر. إنه «القرار» الذي سيصنع «الإطار» لهويتك.. إنه «القرار» الذي تتحتم صياغته على أسس من تحديد الإنتماء، وعلى قواعد من الوعي والمعرفة بطبيعة ما يجري من متغيرات؛ تتناول الأوضاع الذاتية التي هي شأن خاص.. والأوضاع الوطنية، التي يتحتم أن تتضح معانيها وأبعادها في وعيك وفي وجدانك.. والأوضاع العالمية، أو الدولية، التي تتشابك مع الوضع الإقليمي؛ الذي يضع وطنك «الأم» في بؤرة الأحداث المتفاعلة، وفي واجهة المخاطر.. وتضعك - بالتالي - وجهاً لوجه، أمام جميع الإحتمالات، السلبية منها قبل الإيجابية، التي ستنتج عن عزمك على تنفيذ هذا «القرار» الأصعب من القرارات السابقة كافة.. أو «القرار» الأكثر تعقيداً، والأشد خطورة من إتخاذ قرار الهجرة من الوطن الأم، ومن بقية أقطار الوطن العربي، الى بريطانيا، بعد الإحباطات المتكررة التي منيت بها خلال سنوات العمل في صحافة الكويت وقطر، بعد أن أمضيت سنوات في لبنان، تعمل في مؤسساته الصحفية.. فكانت تلك السنوات «عصراً ذهبياً» من صدر شبابك، إذ اكتمل تكوينك ثقافياً في بيروت، وتبلورت ملامح شخصيتك بين

أقرانك وزملائك، محباً للعدل والحرية ونشر الوئام، والدعوة الى الديمقراطية في كتاباتك الصحفية، وفي إنتاجك الأدبي قصة، وشعراً، ورواية، بعد حرمانك من حق العيش والعمل والإستقرار في «الوطن» بقرار ارتجله «سليم حاطوم» أحد ضباط الجيش الذين برزوا واحتلوا مواقعهم في «الوطن» مع بداية هبوب «ثورة آذار» التي قامت رافعة شعار «إعادة الوحدة» و«تصحيح المسار» القومي الذي «هدمه» وقوضه «دعاة الإنفصال».. فكان قدرك أن تبدأ رحلتك من موقع الى موقع، ومن منفى اختياري الى منفى اختياري آخر، حتى انتهى بك الأمر في «المهجر» البريطاني، بعد اتخاذك «قراراً» باختيار بريطانيا وطناً.. ولندن، مستقراً.

* * *

كان لا بد لي من الإستمرار في الحياة فوق أرض «المستقر الآمن» في الموطن الجديد، مع الإحتفاظ بالهوية والإنتماء الى «الوطن الأم» والى «الشعب» الذي تجري في أوردتي وشراييني «دماء» العروبة منه.. والعمل على قدر الطاقة والعزم، لتنشئة أبنائي تنشئة تعمق فيهم هذا الإنتماء.

كانت «معادلة» صعبة جداً...

فأنا من جيل نشأ وتربى وعجم عوده؛ على أسس وقواعد وتقاليد تختلف إختلافاً جذرياً.. عما سينشأ ويتربى عليه أبنائي، في مجتمع غربي لا يعرف ولا يمارس طقساً واحداً من طقوس التربية والتنشىء الذي استقام أمر جيلي في مجتمعي عليه... فكيف سيستقيم الأمر لأبنائي مع ما أحب أن يستقيموا عليه؟

كانت «المعادلة» صعبة جداً...

وكانت «المعركة» ضارية...

بل كانت أشد ضراوة من جميع «المعارك» السابقة التي خضت غمارها على مدى

السنوات الأربعين التي عشتها من عمري.

ولم يتوقف الأمر عند حدود هذه «المعركة».. بل تعداه الى تخوم «المعركة» المطلوب خوض غمارها من أجل تحقيق هدف «تحرير» الذات من نزعة «الأبوية» أو عقدتها المتأصلة في نفسي، حتى لا تنتقل عدواها الى نفوس أبنائي، فيعجزون ـ بالتالي ـ عن اتخاذ قراراتهم في صياغة مستقبلهم، واختيار الأسلوب ـ بملء الإرادة والحرية ـ الذي يرونه مناسباً، لإختيار «شكل» الحياة التي يحبون اختيارها لأنفسهم، بمعزل عن تأثيرات «الأبوية» التسلطية، التي أثرت في بناء شخصيتي... ولا أريد أن تكون لها تأثيرات مباشرة على أبنائي، في طريقة اختيارهم أسلوب الحياة في «الوطن ـ المهجر» الذي قادتهم مقاديري إليه.

كانت المعركة على جبهتين..

وكانت «الجبهة» التي أقاتل فيها لتحقيق ما تصبو إليه النفس من أجل ضمان مستقبل أبنائي، أشد ضراوة من «جبهة» القتال لتحقيق التفاعل والتواصل مع قضايا «الوطن الأم» المرتبطة ارتباطاً عضوياً ومصيرياً بقضية فلسطين، التي حملتها معي الى مهجري الإختياري.. جرحاً عميقاً، وهاجساً دائماً ينغل في البال والوجدان.

ورغم ذلك، فقد كان التوصل الى حد معقول من التوازن على «الجبهتين» ليس بالأمر المستحيل، أو المتعذر بلوغه، بفضل الدور الرائع الذي كانت تقوم به زوجتي ـ على الجانب الآخر ـ من المعركة، ما أتاح لي قدراً كبيراً من التحرك بحرية، يتوازى مع حجم المسؤولية التي حملته عني، فأثقلت على نفسها أكثر مما تحتمل إمرأة عادية، وخففت عن كاهلي الكثير الكثير من الأحمال والمسؤوليات التي كان بمقدرتي أن أتولى حملها، لكنها كانت تأبى دائماً علي أن أقوم بما ـ تعتقد ـ أنها قادرة على حمله عني، وإذا ما تركته لي، سيجعلني أنوء تحت عبء ثقله.

بهذا الموقف الصلب، أتاحت لي زوجتي مساحة عريضة أتحرك فيها بحرية ...

ولا أعرف - الآن - إن كان ذلك قد أفادني في اتخاذ قراراتي، أم تسبب لي بأضرار، كان يمكن لي تفاديها .. حتى أتمكن من تجاوز «فشل» محتمل نتيجة قرار - غير حكيم - قد أقدم على إتخاذه.

إن نسبة «الحصافة» في هذا الوضع «العائلي» الذي طرحته من خلال رأيي، ورؤيتي، قد لا تكون عالية، ولكنني اعترف - هنا - بأن الوضع «العائلي» الذي أفرزته حياتي الزوجية على مدى ثلاثين عاماً، كان له التأثير البالغ على أسلوبي في اتخاذ جميع قراراتي المتعلقة بتحديد مواقفي من الحياة فكراً، وعملاً، وممارسة... خاصة، في ما يتعلق بالشأن الوطني، القومي، من خلال التوجه السياسي العروبي الوحدوي، الذي جهدت في توضيحه وبلورته عبر كتاباتي الصحفية، ومن خلال الكتب التي ألّفتها.

وبسبب من هذاالوضع الخاص، وقعت أخطاء بعضها طفيف لم يكن له تأثير مهم على مواصلة الحياة «العائلية» وبعضها الآخر، كان يصعب معالجته وتصحيحه، لأنه خطأ يترك ذيولا ومضاعفات، لم تكن نتائجها تظهر حين ارتكابه، لذا لم تتح لنا - زوجتي وأنا - معالجته حين وقوعه، أو حدوثه، بارادتنا المنسجمة معاً، أو لظروف موضوعية خاصة بكل واحد منا - كزوجة وزوج - لكل منهما توجهات ورؤى، لا تتفق مع توجهات ورؤى الآخر.. هذا وسواه من «المواقف» غير المنسجمة والمتناسقة في الحياة الزوجية، جعلنا - زوجتي وأنا - نواصل حياتنا المشتركة، من أجل النهوض معاً بأعباء الأسرة، ومن أجل الحرص على القيام بالمسؤولية نحو أولادنا، الذين كنا نعمل - معاً - من أجل توفير أسباب الإستقرار لهم، حتى ينشأوا في جو عائلي صحي، يعينهم على المضي في متابعة الدراسة في مهجرنا الإختياري، وحتى نوفر لهم أسباب الإستمرار في الدراسة ليتحقق لهم النجاح المأمول.

ولقد أفلحنا - زوجتي وأنا - في تحقيق إستراتيجتنا التي استهدفنا منها مستقبل أولادنا، في معركة مشتركة، ولكننا فشلنا - معاً - في بناء جسر من التواصل بيننا وبينهم.. أو، على وجه آخر، فشلت أنا، ربما، في إقامة ذلك

الجسر بيني - كابن جيل سابق - وبين أولادي - كأبناء جيل لاحق - ومتقدم علي بعناصر ومعطيات، لم تتوفر لي في جيلي.. بينما، استطاعت زوجتي، أن تنجح في بناء جسر «خاص» يصل بينها وبينهم، وقد يكون هذا طبيعياً من ناحية «تكتيكية» من وجهة نظر «الأم» ولكنني رأيت فيه، من وجهة نظري - كأب - خطأ إستراتيجياً، سبب في فشل حل «المعادلة» وعدم النجاح في تحقيق الهدف.

تخرج الأولاد... وأخذ كل منهم موقعه باختياره.. واستمرت الحياة الزوجية في مسارها، دون أن تزول الفوارق في اختلاف وجهات النظر من حيث «التكتيك»... ودون أن تلغى «التناقضات» في اسلوب صياغة «الطريق» لتحقيق الهدف الإستراتيجي لحياة زوجية مثالية ترضي الزوجين.

ما دفعني الى طرح هذه الصورة للتجربة الزوجية، على النحو الذي تم، هو الشبه الكبير بينها، وبين تجارب زوجية مماثلة، تنتشر على وجه خريطة الوطن العربي... وبالتالي، فان هذه التجارب التي تسود وتحتل مساحة عريضة في المجتمع العربي، تعكس - بشكل ما - الفشل الذي أصاب الأمة العربية في معالجتها القضية الفلسطينية، منذ بدايتها، والى اليوم الذي وصلت فيه مفاوضات السلام مع سورية - تحديداً - ومع الأطراف العربية المعنية - تعميماً - الى ما وصلت اليه من إخفاق وتمييع لمسار مفاوضات «السلام» بسبب المواقف التي تتخذها «إسرائيل» في وضع العقبات، وابتكار العراقيل، التي تجعل هدف إقامة سلام عادل وشامل في المنطقة برمتها، بعيد المنال، إن لم يكن مستحيل التحقيق.. خاصة، وأن الدور الذي تلعبه واشنطن، باتفاق وانسجام مع بعض عواصم الدول الغربية، هو دور يستهدف «فرض»السلام على الطرف العربي، دون أن تتسبب في أي «إزعاج» لإسرائيل، أو إضعاف «لمكانتها» أو تحجيم لطموحاتها، أو قوتها العسكرية التي تواصل واشنطن ترميمها ومضاعفتها كلما استدعت الظروف ذلك.

و«إسرائيل» التي يشبهونها بالزوجة الأثيرة، أو العشيقة الساحرة.. أو

«البنت» المدللة للغرب متمثلا بمن يحكم العالم سعيدا على كرسي الحكم في «البيت الأبيض» باسم النظام العالمي الجديد، تدرك - أي إسرائيل - أن ما ترغب فيه، وتشاء، وتعزم على تحقيقه، لا يواجه من «الغرب» بأي رفضا.. بل ان الغرب بعواصمه، يسعى الى اكتساب مرضاة «إسرائيل» بتحقيق جميع رغباتها، مستهدفاً ودّها، والعرب باتوا يعرفون جيداً، أن كسب الغرب «ود» إسرائيل» لا يتحقق إلا على حسابهم... ومع ذلك، فانهم لا يضعون إستراتيجية موحدة؛ تتصدى لما يواجهون به من صلف وعنت ومراوغات. استراتيجية، يُسعى الى تحقيقها بأسلوب «تكتيكي» يتم وضعه بالتنسيق المتوازن، تتولى الأنظمة العربية - على اختلاف اسلوب الحكم في كل منها - رسمه وتخطيطه، ويعهد به الى الجامعة العربية للعمل على تنفيذه، باسم جميع الحكومات العربية، بل يجعل الجامعة العربية، التي تمثل جميع الدول العربية ذات الإستراتيجية الموحدة قادرة على أن تضغط سياسيا واقتصادياً على جميع الدول التي تملك حق «الفيتو» في هيئة الأمم، وفي مجلس الأمن، دون أن تخشى - أي أمانة الجامعة العربية - من الإنقسامات التي - يجب - ان لا تحدث بين الأنظمة، والتي - بالضرورة - في حال حدوثها ستصاب تلك «الإستراتيجية الموحدة» بالشروخ والتفتت، تماماً، مثلما تنهار «العائلة»الواحدة،، عندما يفتقد التوازن والتماثل بين الزوجين ويؤدي ذلك بالتالي؛ الى التفكك والتفتت، ما ينعكس على «الأبناء» بأشد الأضرار وأبلغها.

ومنذ فجر «القضية» ومن قبل اندلاع شرارة الحرب الأولى، أي منذ صدور قرار التقسيم، بعد سقوط فكرة «الدولة الموحدة» بسبب الضغط الذي مارسته الولايات المتحدة بالتنسيق مع الغرب - وبعض دول الشرق أيضاً، على المنظمة الدولية... منذ ذلك الحين، لم يستطع العرب أن «يقنعوا» العالم بعدالة قضيتهم، لأنهم لم «يفرضوا» قوتهم، أو بالأحرى لم يستطيعوا استغلال قدراتهم، وإمكاناتهم وطاقاتهم - على

اختلاف انواعها ـ لإسترداد الحق... ذلك أن الحق، إذا لم تدعمه القوة، قد لا يضيع، ولكن يصعب إسترداده في مدى زمني منظور.

ومع أن تمسك العرب بقرار اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية برفض قرار التقسيم الصادر في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٤٧، كان سبباً مباشراً في دفع القضية الفلسطينية الى أروقة الأمم المتحدة... إلا أنه كان رفضاً خاطئاً.. بل كان خطأ فادحاً، جر على العرب جميعاً، وعلى الفلسطينيين بشكل خاص، أبشع النتائج. فقد تسبب رفض ذلك القرار بجميع الحروب والكوارث التي لا يجهلها أحد، بل يدرك هولها، اكثر الناس سذاجة وجهلاً.. فكيف لم يدرك الزعماء العرب ذلك؟ وقد يكابر البعض ـ من السذج ـ فيرفض هذا الرأي.. لكن الحقائق التاريخية تؤكد موضوعيته وواقعيته.

طبعاً هناك من يقدم مبررات «جاهزة» قد تغفر لهم ـ أي للزعماء ـ الذين كانوا يحكمون قبل نحو خمسين عاماً، خطأهم في رفض قرار التقسيم، الذي صدر بعد سقوط مشروع «الدولة الموحدة» وارتضاه جميعهم، وقبل به العرب بالإجماع... لكن واشنطن التي لم تقبل به ـ ارضاءً ـ للزعامات الصهيونية، استطاعت ان تمارس مختلف الضغوط على دول العالم التي تدور في فلكها، للتصويت في صالح «قرار التقسيم». إن العودة الى القول؛ لو أن العرب قبلوا ـ بالإجماع ـ بقرار التقسيم، وسعوا الى بناء قوتهم.. لكانوا وفروا على بلادهم وشعوبهم الويلات التي نعرفها جميعاً... والكوارث التي أوصلتنا إلى... هنا.. هذا القول، لم يعد مجدياً تكراره والتبجح به.. ولو عدنا بالذاكرة التاريخية لإستعراض الأحداث التي أعقبت رفض قرار التقسيم، لأصابنا الذهول، ولفغرت الأفواه دهشة!. إذ أخذ أعضاء الوفود العربية يبذلون المساعي والجهود لإحباط المسعى البريطاني لفرض قرار التقسيم.. فنشروا بياناً مفصلاً عن ملابسات القضية وتطوراتها، منوهين بالعواقب التي سوف تنجم عن قرار التقسيم، معلنين إصرارهم، على أن «الدولة الموحدة» هي الصورة المثلى، والحل

العادل الذي يطلب العرب تبنيه، ولا يرضون عنه بديلاً. سأعود في فصل لاحق الى تفاصيل - بعض - ما جرى عقب صدور قرار التقسيم، وسأركز على المرحلة «الناصرية»، وما بعدها.

يعرف «عرب» ذلك الزمان، أنهم فشلوا في إقناع العالم، بعدالة فكرة «الدولة الموحدة»، فكيف يخاطرون برفض قرار التقسيم، وهم لا يملكون ورقة واحدة من أوراق الضغط، لإقناع الآخرين بالوقوف معهم في رفض القرار؟ بل إنهم يملكون أوراق ضغط عديدة، لكنهم لم يدركوا - على ما يبدو - أسرار اللعبة.

هذا الخطأ، أصاب العرب في «مقتل» لم يتمكنوا من علاجه على مدار نصف القرن الذي انصرفت سنواته بين «كر وفر».. كانت الأخطاء متلاحقة، وفادحة.

ومعروف، أن أي خطأ يرتكبه فرد ما، سوف يجر الى ارتكاب أخطاء متلاحقة، قد تكون مماثلة في فداحتها... وغالباًما تكون أشد فداحة من الخطأ الأول الذي لم يتعلم منه مرتكبه، ولم يعمل على تصحيحه.

وقد جرت الأمور - آنئذ - أثناء انعقاد دورة هيئة الأمم المتحدة في فصلها الخريفي، على نحو، كانت فيه الولايات المتحدة، تستعد لإجراء انتخابات الرئاسة. ووجد المندوبون العرب أن الظرف ليس مناسباً لإثارة موضوع بحث قضية فلسطين، ورأوا، أن تجميدها الى ما بعد ظهور نتائج الإنتخابات، قد يكون في صالح القضية.. إذ - في تصورهم - أن الموقف الأميركي قد يتغير.. وما شجعهم على الإتفاق على هذا الموقف، أن الوفد الأميركي شجعهم عليه، وأعطاهم أملاً - كما ظنوا - بأن العودة الى فكرة «الدولة الموحدة» - قد تكون مقبولة عند الإدارة الأميركية الجديدة التي سيشكلها «ترومان» في حال فوزه. ولما فاز «ترومان» أسقط في أيدي المندوبين العرب، فقد أيد «ترومان» موقف الصهيونية، وكان تأييده أشد صرامة من تأييد سلفه. ولم يتعلم «العرب» الدرس، فقد كانوا في جهل تام - على ما ظهر - من أسرار السياسة الأميركية القائمة، والمبنية على «إستراتيجية» لا تتغير، حتى لو تغيرت وجوه الرؤساء.

ومنذ تلك الجلسة، وقضية فلسطين تدور في الحلقة المفرغة.

وكلما أقترب موعد انتخابات الرئاسة الأميركية، يعود «العرب» الى سماع «إسطوانة» احتمالات تغيير الموقف الأميركي مع فوز رئيس جديد، أو، مع إستمرار رئيس لفترة رئاسية ثانية.

وبالعودة الى تفاصيل ما جرى، بعد فوز «هاري ترومان» الذي أبدى في سياسته انحيازا فاضحا نحو قرار التقسيم، وتأييداً مطلقاً لقيام «إسرائيل» تسلسلت الأحداث على النحو التالي:

* حُوّل بحث القضية الى اللجنة السياسية، فأيد المندوب البريطاني إقتراحات الكونت «برنادوت»، وكان رد فعل المندوبين العرب «الرفض» - طبعاً - والحملات «الصوتية» عليها ولما دعا بعض المندوبين - المتعاطفين مع القضية العربية - أو الذين لدولهم موقف محايد، الى بذل الجهود من أجل تحقيق «تسوية سلمية» برز المندوب الأميركي، معلناً وقوف «بلاده» الى جانب مشروع «برنادوت» لكنه طالب بابقاء «النقب» في أيدي اليهود. وهذا ما شجع «شرتوك» المندوب الصهيوني الى إعلان رفض مقترحات برنادوت، والتشديد على رفض فكرة التخلي عن «النقب» فضلاً عن الإحتفاظ بـ:

١ - البحر الميت.
٢ - ميناء حيفا.
٣ - مطار اللد.
٤ - الجليل.

وأعلن - على رؤوس الأشهاد - وعلى مسامع العالم و«العرب» أن اليهود سيقاومون أي محاولة يمكن القيام بها لإسترجاع هذه الأماكن والمواقع، وأكد أن اليهود سيحتفظون بجميع المناطق المذكورة.. بالقوة.

ويبدو أن «فارس الخوري»، وهو سياسي سوري متمرس، وكان يمثل سورية في هيئة

الأمم، يبدو أن الأمل كان يحدوه، فقدم إقتراحاً بتأليف لجنة من خمسة أعضاء، تنحصر مهمتها في إعداد دراسة تبحث في مسألة إيجاد «الطرق المؤدية الى انشاء دولة موحدة في فلسطين على أساس نظام اتحاد او نظام الكنتونات مع منح المقاطعات امتيازات محلية واسعة». وقدم المندوب الإنكليزي اقتراحا بمبادلة الجليل الغربي بالنقب، مما يجعل القسمين العربي واليهودي منفصلين عن بعضهما ومما يحول دون الإحتكاك والمناوشات. واقترح كذلك إناطة مصير القسم العربي وشكل الحكم فيه لأهل فلسطين العرب وإعادة اللاجئين الى ديارهم ودفع التعويض لمن لا يريد العودة، وإيجاد نظام دولي لمنطقة القدس وتأليف لجنة توفيق مهمتها تعيين الحدود الجديدة والإشراف على تنفيذ الإقتراح، وقال إن العرب لن يتفقوا، وأن واجب هيئة الأمم ان تفرض الحل بالقوة. ثم عرضت الإقتراحات للتصويت فسقط إقتراح فارس الخوري لتساوي الأصوات، كذلك سقط اقتراح عربي بعرض القضية على محكمة العدل الدولية.

ثم انتقل البحث الى الهيئة العامة فوافقت على قرار اللجنة السياسية في ١١ كانون الأول - ديسمبر ١٩٤٨ وأقرت ما يلي:

«ان الجمعية العامة بعد ان اتخذت في ٢٩ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٧ قرار التقسيم وفي ١٤ آذار - مارس ١٩٤٨ قراراً يخول الوسيط الدولي بذل مساعيه في تنمية العلاقات الودية بين العرب واليهود وبعد أن أطلعت على تقرير الوسيط الذي تضمن اقتراحاته تقرر ما يأتي:

١ - تؤلف لجنة توفيق من ثلاثة أعضاء يختارهم الأعضاء الخمسة الدائمون تقوم بالأعمال التي كانت أنيطت بالوسيط أو بأي أعمال أخرى قد يطلب القيام بها اليها مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة، وتنمي الصلات الحسنة بين دولة إسرائيل وعرب فلسطين والدول العربية، وتتخذ الخطوات اللازمة لمساعدة الحكومات والسلطات المختصة لإنهاء جميع الخلافات القائمة بينها، وتتخذ التدابير اللازمة لوضع جميع

الأماكن المقدسة والمباني الدينية تحت حماية وإشراف منظمة الأمم المتحدة على أن تخضع منطقة القدس لنظام دولي دائم.

٢ ـ تحدد منطقة القدس بموجب التعريف الوارد في قرار التقسيم وتعامل معاملة خاصة وتوضع تحت إشراف منظمة الأمم.

٣ ـ يسمح لمن يرغب من اللاجئين بالعودة الى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم أما الذين لا يرغبون فتدفع لهم تعويضات بمقتضى القوانين الدولية ويدفع كذلك تعويض لمن أصابهم أضرار في ممتلكاتهم وعلى لجنة التوفيق تسهيل أمر إعادة السكان واستقرار اللاجئين.»

* * *

ولم يتحقق بند واحد من هذه البنود...

وازدادت «معادلة التاريخ والمعاناة» تشابكاً وتعقيداً.. وتعمق الجرح والتهب في الوجدان العربي، وما يزال يزداد إلتهاباً وصديداً.

5

وهكذا نرى أن «الأسطوانة» ظلت تدور.. وتدور.. وتدور والنغمة تتكرر، منذ صدور قرار التقسيم حتى اليوم الذي بدأت فيه «التحركات» لتنفيذ «مخططات» السلام.

والمتتبع لمجريات الأحداث، منذ مؤتمر «مدريد» يستنتج أن الخطة الموضوعة لا تتجاوز «اتخاذ الخطوات اللازمة لمساعدة الحكومات والسلطات المختصة لانهاء جميع الخلافات القائمة بينها». كذلك، يتم «إتخاذ التدابيراللازمة، لوضع جميع الأماكن المقدسة، والمباني الدينية تحت الحماية وإشراف هيئة الأمم المتحدة، على أن تخضع مدينة القدس لنظام دولي.. دائم».

* * *

الأخطاء القديمة، تتكرر..

فإلى متى تبقى «الأسطوانة» تدور في فلك الأخطاء؟..

وكيف يمكن الإستفادة من أخطاء الماضي، للإستفادة من نتائجها في هذه المرحلة التي يعلو فيها صوت «الدعوة الى السلام» على صوت «الحروب»؟..

أليست الحكمة عند العرب، أن «المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين؟». فهل يستطيع «إحصائي» أن يحصي عدد «اللدغات» التي أصابت «العرب» على مدى نصف القرن المنصرم من «جحر» واحد؟...

* * *

إن «قطار» السلام قد تحرك..
ومجريات الأحداث توحي بأنه يسير الى الأمام..
وإنه لشيء جميل أن تقتنع جميع الأطراف المعنية بأهمية «السلام»، وأنه لأمر رائع، أن يعمل الجميع على تحقيق «السلام».. على أساس من العدل، ينصف جميع الأطراف ويرد لكل ذي حق حقه.. وليس حسب ما تتصوره «واشنطن» وتريد تحقيقه، منطلقة في «مساعيها الحميدة» من مبدأ «يفنى الغنم، وينعم الذئب برغد العيش».. أي يتنازل العرب عن «معظم» حقوقهم أو أكثر قليلاً من معظمها.. ويتم تجريدهم من ثرواتهم المنقولة وغير المنقولة، والمحمولة والثابتة.. وتدمر قدراتهم العسكرية، ويتم تقليص جيوشهم، أو «تفكيكها».. أو إلغاؤها إذا أمكن، وتبقى إسرائيل على حالها الراهن ـ لا زيادة ولا نقصان ـ مع وعد منها «تضمنه» الولايات المتحدة بأنها لن تتجاوز «حدودها» التي لم تفرغ من تحديدها.. ولن تلجأ الى استعمال ترسانة أسلحتها النووية... ولن تعمل على طرد «الإسرائيليين العرب» الذين لم يغادروا ديارهم، وظلوا «مؤدبين» لا يقلقون «الإسرائيليين اليهود» بقصائدهم الثورية، وأغانيهم الشعبية، و«خبطات» أقدامهم عندما يرقصون «الدبكة» في الأعراس والأفراح.. ولن يلقوا حجارة على عابري السبيل.
إن «قطار» السلام يسير الى الأمام..
لكنه يسير سيراً بطيئاً.. ومراوغاً..
وعلى العرب ـ عرب اليوم ـ الإستفادة من أخطاء الماضي التي ارتكبها ـ عرب الأمس ـ بقصد، أو بحسن نية، أو بتصديقهم الوعود التي يعرفون «نغمتها» منذ أن فاز «ترومان» بكرسي الرئاسة قبيل صدور قرار التقسيم.
فالسلام، أمل منشود، ومطلب ملح يرجى تحقيقه اليوم قبل الغد. ولكنه لن يتحقق إذا كان من صنع واشنطن.. ولن يكون السلام، سلاماً دائماً، وقوياً، وعميقاً، إذا انتقص حق طرف، أو أطراف، لحساب «تل أبيب»حبيبة واشنطن الى الأبد...

الكل يريد السلام..

وجميع الأطراف المعنية تطالب وتلح على تحقيقه، ولكن..

يجب أن لا يكون سلاماً مفروضاً بشروط «تل أبيب» تتعهده «واشنطن» مثلما تعهدت «قرار التقسيم» الذي رفضه العرب.

لقد مضى زمن «ترومان» وزمن «هرتزل» و«بن غوريون».. مثلما ولت عهود زعامات عربية، عجزت عن استيعاب أسرار اللعبة الدولية، ولم تحسن استعمال «أدوات اللعبة» لأسباب لم يعد أحد يجهلها. وجاءت زعامات جديدة، أدركت أن الحروب تجر الحروب، والدماء تستصرخ الدماء.. والأحقاد تولد الثارات.. وكان لا بد لهذه الزعامات أن تختار «السلام» هدفاً إستراتيجياً.. مع أهمية اختيار «تكتيك» يفضي الى تحقيقه.

يخطىء من يظن أن مطلب «السلام» أعلنه الرئيس المصري الراحل أنور السادات، وهو الذي بدأ خطوته الأولى باتفاقية «كامب ديفيد» بعد مفاوضات عسيرة.. وزيارته التي قام بها الى «القدس» متحدياً مشاعر جميع العرب والمسلمين.. ومع التسليم - الآن - بأنها خطوة شجاعة، إلا أنها لم تأخذ حقها من التفكير والدرس والتمحيص.

يخطىء من يعتقد، أن أنور السادات الذي دفع حياته ثمناً لخطوته التي أراد بها أن يحقن دماء أبناء الشعب المصري، أنه حقق «السلام» المأمول والمرتجى.

ولو عدنا بالذاكرة قليلاً، واسترجعنا بعض صفحات القضية الفلسطينية، لعرفنا أن الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، جرّب تصحيح «الخطأ» الذي ارتُكِبَ في كواليس هيئة الأمم المتحدة برفض مشروع «الدولة الموحدة» وفرض «قرار التقسيم» إبان عهد «ترومان» الذي خلف «روزفلت» وتابع النهج نفسه الذي رسمته السياسة الأميركية لكيفية التعامل مع القضايا التي تمس «كيان إسرائيل».. ومستقبل وجودها على خارطة الشرق الأوسط.

ولقد سمعت من «محمد حسنين هيكل» أثناء لقائي به في فندق «كلاريجز» في لندن،

وكنت أعمل محرراً ثقافياً في مجلة «المسلمون » الأسبوعية التي صدرت عام ١٩٨٢، رأيا يقول ما معناه وخلاصته أن السادات لم يكن أول من سعى الى السلام. وأنا ـ الكلام لهيكل ـ لا يمكنني أن أسلم بأن السادات هو من وضع خطة العبور، مستهدفاً بعد نجاحه أن يدعو الى مفاوضات سلام مع إسرائيل، من موقع القوة.. أبدا لم يكن الأمر كذلك، فخطة اقتحام قناة السويس كانت موضوعة ومخططاً لها من قبل توليه الرئاسة خلفاً للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ـ وكان السادات أحد نواب الرئيس ـ إذن فان خطة العبور كانت قائمة في عهد عبد الناصر الذي كان يريد بها «تصحيح» الهزيمة التي لحقت بنا، وبالعرب في حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ .ويستطرد «هيكل» في حديثه، خلال الجلسة الصباحية التي ضمتنا معاً في «ردهة» الفندق، فيقول:

يجب أن لا ننسى، أيضا موقف عبد الناصر خلال انعقاد مؤتمر «باندونغ» عام ١٩٥٥، عندما اقترحت إحدى الدول المشتركة ـ وأظن أنها كولومبو ـ أن يتم توجيه دعوة الى «إسرائيل» للمشاركة بالمؤتمر باعتبارها من الدول الآسيوية.. لكن عبد الناصر اعترض على الفكرة باعتبار أن «إسرائيل» دولة معتدية، وبلغ تمسكه بهذا الإعتراض ان لا يكتفي بمقاطعة مصرية للمؤتمر، بل بمقاطعة عربية.. لكن أحد الزعماء الأفارقة المشاركين، سأله عما إذا كان لديه فكرة يمكن طرحها لحل النزاع القائم بين العرب وإسرائيل حول المسألة الفلسطينية.. وأذكر أن عبد الناصر رد على السؤال بأن مصر مستعدة للعودة إلى قرار التقسيم وقبوله، ومستعدة للعمل على إقناع بقية العرب على القبول به.. وبذلك ـ والكلام لعبد الناصر على لسان هيكل في حواري معه ـ يمكن إحلال السلام في المنطقة اذا رضيت إسرائيل بالتسليم في حق الفلسطينيين والعرب.

هذه خلاصة لمضمون حواري مع محمد حسنين هيكل عام ١٩٨٢ ..

وأثناء الحوار، طرحت بعض الأسئلة في الشأن الإسلامي، ودور بعض «الحركات» و«الجماعات» من قضايا «التحرير» في بعض دول العالم الإسلامي، ودورهم على صعيد الشأن الفلسطيني، والدور الإعلامي الديني ومدى فاعليته في خدمة القضايا التي تتفاعل في بعض أقطار العالم العربي.

ابتسم «الأستاذ هيكل» وأجابني قبل أن يتهيأ للإنصراف، لأنه مرتبط بموعد «اقترب وقته» وقال:

«هذه الأسئلة، دقيقة، وتحتاج للإجابة إلى تأليف كتاب، أو إعداد محاضرة، ولا يمكنني ـ الآن ـ أن أجيبك عليها. ولكنني أعدك بلقاء خاص ـ في الزيارة المقبلة ـ لإجراء حوار متكامل».

ولما كنت طلبت موعدي عندما اتصلت به، لإجراء حوار لمجلة «المسلمون» وفوجئت به «يختصر» الجلسة، قلت:

ـ ولكنك ـ يا أستاذ ـ حددت لي الموعد من أجل حوار لم نحدد له وقتاً.

ورد علي بشيء من الضيق، دون أن يتخلى عن ابتسامته:

ـ يبدو أنه وقع «سوء فهم».. فأنا رحبت بزيارتك ليتم بيننا التعارف أولا، ثم نحدد موعداً آخر للحوار.. وكما وعدتك، سأكون مستعداً للقائك في الزيارة التالية وأرجو أن تعتبر، منذ الآن أننا على موعد هنا ـ ذاكراً تاريخ الرابع من أيلول ـ سبتمبر ـ في نفس موعدنا اليوم. وكان لقائي معه ـ اذا اسعفتني الذاكرة ـ أواخر أيار ـ مايو أو أوائل حزيران ـ يونيو من العام ١٩٨٢ . ثم نهض مودعاً وهو يوصيني بأن لا أنشر ـ الآن ـ حوارنا القصير، لأنه «حوار تعارف» على حد تعبيره، وأن أرجىء الموضوع، لينشر الحوار كاملاً بعد إجرائه في الزيارة المقبلة.

ولقد التزمت بطلب «الأستاذ» هيكل، وبرغبته في عدم النشر.. وترقبت عودته، ولما حل التاريخ المحدد للقائنا، ذهبت للقائه في الموعد المضروب، وفي التاريخ الذي حدده، وعند تمام الساعة المتفق عليها.. لكن موظف «الإستقبال» في فندق «كلاريجز» أخبرني

بأنه لا يوجد حجز للـ... مستر هيكل... ما علينا، فليس هنا مربط الفرس. ولا يمكن لأحد أن يستخلص من هذا الكلام شيئاً.

ما يعنينا - هنا - الوصول الى نظرة موضوعية بشأن حل «معادلة التاريخ والمعاناة» التي عاش الإنسان العربي، فرداً وحكومات - على جميع المستويات - في أتونها. وتكبد بسببها خسائر فادحة، تركته في حالة من الضياع والتمزق، بعدما تعرض بسببها، إلى فقدان حق العيش في الوطن، وخسارة الحرية. والمعضلة التي تشكلت منها «معادلة التاريخ والمعاناة».. تركت آثارها على حياة الفرد العربي، وتسببت له بحرمانه من العلم والعلاج.. وقبل هذا وذاك، قلّصت أمامه فرص العمل، بانعدام التكافؤ بين فئات المواطنين وشرائحهم، إذ إقتصرت الفرص على شريحة واحدة تتصل بأهل الحكم.

6

في يقيني أن العرب أمة مسالمة تكره الحروب، ولكنها أمة لا تطيق الضيم، وترفض الظلم وإجحاف الناس حقوقهم.. ولقد بذل زعماء هذه الأمة - على مدى سنوات مسار القضية - كل ما يمكن بذله في سبيل إحلال السلام بعد إعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.. لكنهم فشلوا في مساعيهم، ودفعوا دفعاً الى خوض حروب لم تكن متكافئة مع إسرائيل.. وألحقت بهم هزائم وكوارث... وأصابهم التمزق، وفرقت ما بينهم الخطوب والأحداث، والدسائس والمؤامرات، على المستويين الإقليمي والدولي.. لكنهم ما زالوا صامدين، وسيظلون قادرين على إعادة النظر بأوضاعهم، وبالتالي على تحقيق السلام العادل والشامل، بقبول إسرائيل أو برفضها. وكما يقال «إن غداً لناظره قريب». ولسوف يسجل التاريخ للعرب موقفهم الكريم بعد أن ينجزوا ما وعدوا به.. وسوف يكتشف حكام إسرائيل أنهم ظلموا أنفسهم ظلماً عظيماً بما تكسب أيديهم، وبما يرتكبونه بمراوغات سياسية، باتت معروفة لأصدقائهم قبل خصومهم؛ أن أوان الكف عنها. (وسأعود الى هذه النقطة بالتفصيل) عندما يحين الوقت في أحد الفصول التالية، وسأخصصه للحوار الذي دار بيني وبين «عيزر فايتزمن» رئيس إسرائيل.

وأعود هنا، لأؤكد يقيني وقناعتي، بأن أمة العرب، أمة تحب العدل وتعمل لتحقيقه بمختلف الأساليب والسبل والأدوات المتاحة لها.. ولم يذكر عنها تاريخها - القديم والحديث - أنها عملت على تسخير قدراتها وما تملك، لتبغي أو تعتدي على أحد.. ولنا

من صفحات التاريخ شواهد وأمثلة لا تحصى.. ويكفي الإستشهاد بما حض «القرآن الكريم» أمة العرب ـ بمسلميها ومسيحييها ـ عليه، وطالبها بالجهاد في سبيله.
ففي سورة «البقرة» نقرأ:

«يا أيّها الذّين آمَنوا ادخُلوا في السِّلم كَافة، ولا تتَبِعوا خَطَوات الشّيطان إنّه لَكُم عدو مبين».

فالحرب إذن في الشريعة الإسلامية، شر مستطير، لا يؤذن لمسلم أن يبادر الى إشعال فتيلها، لأن في الإسلام، من يبعث فتنة نائمة، ويوقظها ملعون.. والملعون لا يكون مسلماً.

وقد حضت الآية الكريمة بأمر من الله، أن (أدخلوا في السلم كافة) أي أن الأمر موجه الى المؤمنين جميعا، ليكونوا دعاة سلم.. وأهل سلم. ذلك أن الحروب يغري بها الشيطان، والشيطان «عدو مبين» لكل من آمن وأسلم وجهه لله. وهؤلاء المؤمنين، وصفهم «القرآن» بقول الحكيم العليم، أنهم هم:

«الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور» «الآية ٤١ من سورة الحج».

ومن أحاديث الرسول العربي «محمد بن عبد الله» روي عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه قال:

«لا تتمنوا لقاء العدو، فاذا لقيتموهم فاصبروا».

في هذا الحديث الشريف، نلمس دعوة الى لجم الرغبة في القتال، ونلمس نهياً عن تأجيج شهوة القتال في النفس. «لاتتمنوا لقاء العدو».. إما إذا لم يكن بد من لقائه، أو ملاقاة المعتدي، فليكن اللقاء مصحوباً بالصبر، ومدعماً

بالإقدام، والدعاء لطلب النصر.

يقينا، أن العرب دعاة سلام، إذ ليس لدين الإسلام عند المسلمين، أرضى من السلام، ولا أحب إليهم من سلام يظلل الناس جميعاً.. ويجري أمورهم بالحق، والعدل، والإحسان، فهل عند «اليهود» مثل ذلك؟.

وهل يؤمن «اليهود» بما آمن به العرب، لإحلال السلم محل الحرب في تسوية الخلافات، والعمل على إصلاح الأمور باعادة الحق الى نصابه بالحسنى، وإقامة العدل؟.. إن المراقب المتتبع لمجريات الأحداث لا يستطيع أن يجزم جزماً قاطعاً، وهو يرى الممارسات التي تجريها «إسرائيل» على أهالي الأرض المحتلة الواقعين تحت سلطتها، بأنها تعمل من أجل السلام العادل. ونحن الذين تتاح لنا - هنا في لندن - مشاهدة ما تمارسه القوات الإسرائيلية من أعمال وحشية ضد أهالي الأرض المحتلة، عبر شاشات التلفزيون؛ لا نستطيع الوثوق بدواعي اسرائيل الى السلام.. مهما حاولت عبر الآلة الإعلامية الخطيرة التي توظفها لنشر دعاواها.. فالحقائق التي تصورها عدسات المراسلين لقنوات التلفزيون بمحطاته الأربع في لندن، للممارسات التنكيلية ضد العُزَّل، شواهد دامغة، تدين زيف إسرائيل وحديثها عن السلام.. وليس ثمة داع لضرب أمثلة، يكفي القول إن المشاهد البريطاني - رجلاً كان أو إمرأة - يبدي ذعره، واشمئزازه عندما يرى جندياً إسرائيلياً، يسحق ببندقيته عظام شاب أو طفل فلسطيني لا يملك ما يدافع به عن نفسه، ثم يرميه على الصخور في العراء، دون أن تبدو على وجهه إشارة من إشارات الألم أو الندم على ما فعل.

لقد رأينا مشاهد مماثلة لا تحصى، وكان معنا أصدقاء بريطانيون من جيراننا.. سمعناهم يعلقون على أحد المشاهد بالقول: «غير معقول.. هذا لا يصدقه عقل... هل ما نراه بأعيننا حقيقي» ويمثل هذه التعليقات «العفوية» كان المشاهد البريطاني يقع في الحيرة وهو يسمع عن «دعوات» إسرائيلية الى إجراء مفاوضات لإحلال السلام،

ويتساءل: «كيف يمكن أن يقوم سلام، ولا أحد يقبل بمثل هذا السلوك النازي؟». وما يراه المشاهد البريطاني على شاشات التلفزيون يراه كثيرون من الناس في عواصم الدول الغربية.. لكن آلة الإعلام الإسرائيلي التي تتقن فن «غسل الأدمغة».. تعرف متى وكيف يتم تنظيم حملات إعلامية مضادة.. وغالبا ما تحقق نجاحاً منقطع النظير بتمرير شرائط وثائقية عن «الهولوكست» الذي تعرض له اليهود على أيدي «النازي».. تغسل بعرضها أدمغة الذين شاهدوا - مصادفة - مشهد ذلك الجندي الإسرائيلي وهو يسحق عظام الفلسطيني، وقد لا يتكرر المشهد بعدئذ!!.

* * *

العرب واليهود، شعبان متخاصمان..

العرب واليهود، خاضوا حروباً خاسرة، لم يتحقق لكليهما بعدها هدف، ولا أمن، ولا إستقرار.

والعرب واليهود - كلاهما - يطلب - الآن - السلام.

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين».

تلك دعوة من الله الى المؤمنين في «سورة الحجرات الآية التاسعة». والعرب، بمسلميهم ومسيحييهم، أمة فاءت الى أمر الله. واليهود، كما نعلم «أهل كتاب» يؤمنون بالله إلهاً واحداً.. وهم والعرب كما نعلم أيضاً، أبناء عم. وقد يختلف «أبناء العم» على نصيب من أرض، أو تركة، أو ميراث، وهذا يحدث لكل الناس، وقد اختلف «قابيل وهابيل» على «إمرأة» فاقتتلا حتى قضى الأخ

على أخيه.. إذ ـ يبدو ـ أنه لم يتيسر لهما من يصلح بينهما؟!. فهل فاء ت اليهود الى أمر الله، وردت الحق الى أهله، وامتنع العرب عن الإستجابة الى السلام؟.

المطلوب الآن تحقيق هدف..

وهذا الهدف؛ هو السلام لكلا الطرفين المتنازعين، وعلى «الوسيط» أن يكون حيادياً وعادلاً، ومطلوب منه النزاهة والحيدة في لعب دوره: «فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا».. فهل هذا الوسيط مؤهل لتأدية هذا الواجب؟ ليسأل كل طرف من الطرفين نفسه، هل «الوسيط» الأميركي حكم مؤهل للإصلاح بين الطائفتين بالعدل؟ أنا أشك في ذلك شكاً قاطعاً.

إن المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية، أكدت أن الدور الأميركي ـ منذ البداية ـ ألحق أضراراً بالغة بالقضية، وبحقوق الطائفتين المتنازعتين. ولقد ألقينا بعض الضوء على هذا «الدور» الذي تسبب في وقوع كوارث إنسانية، عملت على تعميق الفجوة بين «أبناء العم» وباعدت بينهما وبين امكانية إحلال السلام وبكل مشاعر الحزن والأسف والأسى العميق، أقول، إن اعتماد الفريقين على الوسيط الأميركي، في هذه الحقبة التي تسعى فيها الأطراف المعنية بالقضية الى «السلام»، سيتسبب بأضرار كبيرة أيضاً.. وأن الضرر الأعظم ـ هذه المرة ـ لن يعود على العرب واليهود، بل سوف يصيب الولايات المتحدة والغرب معها.

وإذا كانت إسرائيل تسلم بحق الفلسطينيين في إقامة دولتهم، وتسلم بحق سورية في إسترداد الجولان، وتسلم بحق لبنان في تحرير جنوبه، مثلما سلمت بحق مصر باسترداد سيناء، وسلمت بالحقوق الأردنية، فعقدت اتفاقيتي سلام بشأن ذلك، فما عليها الا أن تتسلح بالشجاعة وتعلن موقفها بلا مغالطات، وبلا مواربة، وبلا مراوغات سياسية تمارسها حكوماتها المتعاقبة وراء الكواليس. وما عليها إلا أن تقوم «بمبادرة» لا تقل عن مبادرة الرئيس الراحل أنور السادات، حين قام برحلته الى القدس، وأعلن

موقفه بوضوح.. ورغم ان خطوته الشجاعة كلفته حياته، إلا أنه أثبت أن التعامل المباشر بلا مراوغات، كفيل باختصار الوقت والجهد، وبدرء المخاطر والكوارث عن شعبه.

* * *

في حواري مع الرئيس الإسرائيلي مساء الثالث عشر من أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٤، لمست رغبته في أن تبادر حكومة إسحق رابين الى اتخاذ خطوة مشابهة لخطوة السادات. وقد ألمح لي بذلك، وسيكون لي وقفة حول ذلك الحوار في فصل لاحق.

المهم.. الآن يتوجب على إسرائيل، اذا صدقت نواياها، أن تختصر على نفسها جهداً كثيراً وتقلل من اعتمادها على «الوسيط الأميركي».. وتبادر الى اتخاذ خطوة عملية، تحقق لنفسها ـ أولاً ـ السلام الذي تطبل وتزمر له، لكنها تدعي، بأن الموقف السوري لا يشجع.

والعالم كله يعرف حقيقة الموقف السوري، وقد أكده مرات عديدة، وفي أكثر من مناسبة الرئيس حافظ الأسد، كما أنه لم يعد خافياً على أحد، أن سورية لا تضع أي شروط أو عراقيل تعيق مسيرة السلام.. ولكنها لا يمكن أن تقبل بالمساومة على جزء من الحقوق.. ولا يمكن أن تفرط بما يوازي أنملة، أو حبة خردل من حقوقها وحقوق الأشقاء أيضا من أجل سلام هش مصطنع ـ يحيك نسيج حبائله «الآخرون» والوسطاء.

وإذا كانت حكومة «اسحق رابين» غير مؤهلة، وعاجزة عن القيام بالخطوة الجدية، وتكتفي ـ لإرضاء الناخب الإسرائيلي ـ بذر الرماد في عيونه، عبر المغالطات في خطابها السياسي الإنتخابي، دون أن تواجه الحقائق وتسلم بها، فان سورية، كما بات معروفا للجميع، ليست على عجل من الأمر، ولديها قدرة على الصبر والإحتمال،

وتدرك، وبوعي تام، أنها بالغة أهدافها في إسترداد ما هو حق لها، وما هو حق لغيرها..

وبإلقاء نظرة متفحصة لتحليل ملامح الصورة، نصل الى قناعة لا مناص من الإعتراف بوجودها في جميع الأذهان، وهي، أنه في حال سقوط حكومة «رابين» ستتولى حكومة «ليكود» التي سيشكلها «ناتينياهو» أخذ المبادرة، وتسلم بالمطالب العادلة التي حددتها سورية. عندئذ يتم التوقيع على «إتفاقية سلام دائم قائم على العدل وحق جميع الأطراف في الوجود والعيش في أمن». وهذا ليس رجماً بالغيب، لكن المعطيات التي تفرزها الأحداث المتلاحقة توحي بذلك.

إن جميع الضغوط التي تمارسها الولايات المتحدة الأميركية على العرب، وبينهم أصدقاء لها، للتسليم بما تضعه إسرائيل من شروط، لن تعود على العرب بضرر ما، اكثر مما وقع عليهم. وبصفتها «راعٍ» لمسيرة السلام، مطلوب منها أن تنظر الى «القضية» بموضوعية، وأن تعود الى البداية لتدرك أنها «أي واشنطن - تزيد في تعقيدها، وقد برز دورها في تعقيد مسار القضية، منذ طرح العرب فكرة «الدولة الموحدة». هذه الحقائق وغيرها، لم تعد غائبة عن رؤية المفاوض السوري.. وعليها أن تدرك - لمصلحتها مع أصدقائها العرب - أن «لكل زمان دولة ورجال».. وأن بقاء «إسرائيل» مرهون بمدى الإدراك الذي يبلغه «الحكماء» إذ أن الأمة التي لا يكون الحاكم فيها حكيماً... تتعرض لما لا تحمد عواقبه.

ولقد تكشفت بعد غزو جيش صدام حسين للكويت، حقائق كانت مموهة، وغائمة في العيون والأذهان. لكن الدور الذي لعبه الرئيس المصري حسني مبارك والرئيس السوري حافظ الأسد، اكد للرأي العام «السوري والمصري» وبالتالي للرأي العام العربي والدولي، مدى الحكمة والتبصر والحصافة في معالجة «الأزمة» لتفادي مخاطر، كان مقدراً أن تصيب ليس العرب وحسب، بل منطقة الشرق الأوسط برمتها، وربما تمتد ذيولها الى أطراف أخرى من العالم.

و«رأس الحكمة مخافة الله».. والعمل بإخلاص على تجنيب الشعوب، أهوال الحروب وبشاعة القتال، وهذا ما لم تفعله أميركا في الماضي.. فهل آن الأوان لتعمل بذلك في الحاضر، لتحقيق السلام من أجل مستقبل تسوده العدالة، وينتشر الرخاء ويعم؟

7

تراني أحلم؟..

أم أن الهاجس الفلسطيني الذي بات شاغلي اليومي، منذ عرفت غسان كنفاني، وبعد أن استقر مقامي في «وطني المهجري» جعلني أقترب أكثر من القضية وأرى صورتها - عن بعد - بوضوح أكثر، وأشد نقاء؟

إن الشريط الذي تتلاحق صوره ومشاهده أمام عيني، وتعكسه مرآة الذاكرة، يجعلني أرى - أو ربما - أعتقد أن شبح الحروب آخذ في الإبتعاد عن المنطقة وأن «السلام» العادل والشامل آت لا محالة... وأن حالة الفوضى التي تصاحب عمليات التفاوض منذ أيام مدريد، مروراً بـ «أوسلو» التي أفرزت اتفاقية (غزة - أريحا) ووقوفاً عند الإتفاق (الأردني - الإسرائيلي)، ذلك أن عنصر الثقة بين مختلف الأطراف آخذ في النمو. وعلى ضوء التنسيق الذي يجري عبر الإتصالات بين الرئيس المصري حسني مبارك والرئيس السوري حافظ الأسد، من جهة، والأطراف العربية، من جهة أخرى، على ضوء ذلك، أجدني أزداد تفاؤلاً بمستقبل مشرق قريب.

وإذا كنت أحلم، فإني لا أرى غضاضة من أن يكون حلمي إنعكاساً لرغبة أكيدة في إحلال السلام، والبدء بقطف ثماره قبل أن «يقطفنا» الموت بمنجله. والسلام، بعد أن غدا هدفاً إستراتيجياً، لا يتطلب كثيراً من الرحلات المكوكية للوسطاء.. إنه - وببساطة - يتطلب من المعنيين بتحقيقه، وبشكل عاجل، التخلي عن «تكتيك» المغالطات... والتوقف عند حد معقول من التباهي بالبراعة على المراوغة والمناورات.. واستبدال ذلك بـ

«ماراثون» جماعي، يبلغ بالجميع نقطة تنتهي عندها المتاعب، والمشاغبات.. وتبدأ حالة الراحة المفضية الى الإستقرار الذي تنشده شعوب المنطقة بأسرها.

إنني، إن كنت أحلم، فليس في حلمي ما يعيبني، أو يشوه صورتي أمام الآخرين.

لقد دفع السادات ثمناً باهظاً لتحقيق حلمه من أجل إحلال السلام، كي يتفرغ لمعركة البناء والتنمية. وإن لبنان تحمل عبئاً أكبر من طاقته من أجل الوصول الى حل منصف يعيد للاجئين حقوقهم... وإن سورية ضحّت من أجل ذلك بأكثر من الكثير من أجل بلوغ الهدف نفسه.. وأن الأردن، كاد يفقد وجوده في يوم من أيام ١٩٦٧ في سبيل القضية وأبنائها..

فما الذي تبقى بين الأيدي؟

السؤال موجه الى جميع الأطراف المعنية بالقضية، والى «إسرائيل» أولا!..

لماذا إلى «إسرائيل» أولاً؟..

هاكم الجواب:

لم يعد خافياً - في هذه المرحلة الراهنة - أن المراهنات في إسرائيل، هي على «الحصان» السوري. ففريق يرى أن سورية ستأخذ «مقعدها» في قطار السلام، بعد أن أخذت منظمة التحرير «مقعدها» واستقرت في «غزة - أريحا» أو أن العمل على توطيد إستقرارها، قائم - على قدم وساق - رغم ما تقوم به «حماس» والمنتمون الى كوادرها من «شغب» يقلق الشارع الإسرائيلي، وينغص قليلا أو كثيرا - بعض الأحيان الشارع الفلسطيني؛ وفريق آخر - إسرائيلي - يرى عكس ذلك.

واستقرار، أو إستتباب «الأمور» للمنظمة، يقود الى «عمان» التي وصلت مع «تل أبيب» الى صيغة، يطلقون عليها «اتفاقية سلام»... لكن فئة أردنية «معارضة» تتصور أن «الإتفاقية» تمثل شكلا من أشكال «الصلح» أو «المصالحة» بين نظام الحكم في الأردن، ونظام الحكم في تل أبيب، قد تفضي إلى سلام حقيقي بين البلدين.. وقد تفضي إلى

شيء آخر، ينقض الإتفاقية - بطريقة أو بأخرى - ولكنه، لن يعيد حالة «الحرب» في المدى المنظور. فأطراف المثلث «الأردني - الإسرائيلي - الفلسطيني» تعمل - جادة ومخلصة - على توطيد وترسيخ هذا «السلام» الوليد!..

إذن، يبقى «الحصان» السوري في الساحة.

هذا ما يجعلنا نطرح السؤال في وجه «إسرائيل» الرسمية، أي في وجه حكومة «رابين» التي تمثل، أو تدعي أنها تمثل «الحمائم» في المرحلة الآنية؛ والسؤال:

◆ ما الذي تبقى بين الأيدي من أوراق اللعبة، لم يتم كشفه بعد، حتى تستمر المراوحة في دائرة «المناورات»، ما يؤدي الى تأخير بلوغ نقطة النهاية من «ماراثون» اللعبة؟..

والمعروف أن عدد اللاعبين، يقتصر - فعلياً - على إثنين، هما الطرفان (السوري - الإسرائيلي) لأن التنسيق العملي القائم بين سورية ولبنان، يجعل الموقف واحداً وموحداً.. فاذا أضفنا دور «الوسيط» الأميركي، يمكننا أن نضيف لاعبا ثالثاً.. وإذا أشرنا الى أن ما يهم سورية هو عدم «المزايدات» حتى لا يعيق تلاطم الموج، حركة سير مركب المفاوضات، فان ذلك يدعو الجانب الإسرائيلي الى إظهار «حسن النية»؛ لكي تدفع المركب في طريق السلام العادل والشامل، دفعاً متزناً وهادئاً، اذ لم يعد من المجدي لإسرائيل، سوى السعي في هذا الإتجاه، وتجنب الإتجاه الآخر المناور والمراوغ - الذي يهدد بتحطيم المركب، وربما إغراقه.

ما يجعل المرء يصل الى هذه القناعة في الوقت الحاضر، هو الدلالات التي تستخلص من الشريط الذي تتلاحق صوره ومشاهده، لواقع الممارسات الإسرائيلية - الأميركية التي صحبت ماضي القضية الفلسطينية.

وقبل البحث في احتمالات «حرب أخرى» قد تقع فعلاً، بعد أن هددت حكومة «رابين» بها، أو، لوحت بأن إسرائيل مستعدة، أو تستعد لها، وهو في

تصورنا - تكتيك - يستهدف خلق أجواء من التوتر، لدفع سورية الى «التعجيل» بالتوقيع على إتفاقية سلام، قد ترضي إسرائيل والوسيط الأميركي، ولكنها - أي تهديدات الحرب - قطعاً لن تخيف سورية، وتجبرها على أن ترضخ لهذا الإبتزاز المكشوف.

قبل البحث في هذه الإحتمالات، من المستحسن أن نُذكر - جميع الأطراف - بالتاريخ الذي تعرضه مشاهد الأحداث التي صاحبت نشوء القضية من الأساس، وتطورها حتى بلغت ما بلغته من تعقيد، أدى - بالتالي - الى البحث في إيجاد حل يرضي جميع الأطراف، ويخرج بالمنطقة من حالة الحرب، الى حالة جمود اتفق على وصفها بحالة (اللاحرب - واللاسلم)، وانتهاء بحالة (التفاوض) لتحقيق السلام.

ومن المستحسن، أيضاً، النظر نظرة تحليلية الى مختلف التطورات التي تقود الى «حل» على ضوء ما يقدمه شريط تاريخ القضية.

وبداية، فان المشكلة الفلسطينية، هي مشكلة صنعت في بريطانيا بوعد «بلفور». وبريطانيا هي التي احتلت فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، وحكمتها حكماً مباشراً، بصفتها دولة منتدبة، واستمرت في حكمها حتى تمكنت من اتخاذ جميع الإجراءات - سياسياً واقتصادياً وعسكرياً - لتحويلها من دولة تحت الإنتداب البريطاني تدعى «فلسطين» الى دولة جديدة؛ إسمها «إسرائيل» وفرضتها أمراً واقعاً حتى قبل صدور قرار التقسيم، وقبل الإعلان عن قيامها رسمياً. ثم، بعد الحرب الأولى ١٩٤٨، سلمتها كـ: «العروس المجلوة» لليد الأميركية، لتكون في رعايتها.. وهكذا «تبنت» الأم الأميركية، «الإبنة» المتنازل عنها من بريطانيا، وأحاطتها بكامل العناية والرعاية، ومنحتها جميع المقومات المادية، ووفرت لها أسباب القوة العسكرية، فضلاً عن المساندة السياسية الدائمة.. فضمنت لها البقاء، والإستمرار في وقت كانت مجموعة الدول العربية؛ في حالة «إنعدام وزن» أو فقدان توازن، بسبب حداثة بعضها بالإستقلال بعد التخلص من الإستعمار الفرنسي

(سورية ولبنان) وبقاء بعضها تحت الوصاية البريطانية، أو السيطرة عليها بابقاء القبضة الإستعمارية مطوقة أعناقها (مصر والأردن والعراق). والى ذلك، فانه يمكن لنا وصف الإطار العام للموقف الإنكلو- اميركي تجاه إسرائيل بأنه موقف أهدافه العاجلة ضمان بقاء إسرائيل، مع عطف تام على أقصى أمانيها بأقصى ما تستطيع تحقيقه من توسع.

* * *

بريطانيا وأميركا تدركان أن الصهيونية قد حققت - في إسرائيل الموجودة حاليا - خطوة ضخمة، ربما كانت تفوق ما كان متصورا لهذه الخطوة. فان مجرد وجودها مستقلة ذات سيادة، يشكل تحقيقا هائلا لأماني الصهيونية، لأن هذه الأماني قد تجسدت في دولة، ونالت ذاتية محددة من الناحية القانونية، وأن لمثل هذه الذاتية متضمنات وامتدادات معروفة، أصبحت ملتصقة بصورة طبيعية بإسرائيل وملازمة لها كحق التسلح العلني، وانشاء الجيوش، والدفاع والهجوم، والتحالف والوقاية، والوجود الدولي، والقيام بأوجه النشاط المتعارف بها للدول الخ.. ثم لما أوصل المخطط الإنكلو- سكسوني الصهيونية العالمية الى مرحلة انشاء دولة مستقلة ذات سيادة، فانه أمن لها اكبر مساحة من فلسطين.

فليس من يجهل أن أميركا وضعت كامل ثقلها لهذا الغرض في لجنة الإستقصاء الدولية لفلسطين (انسكوب) التي انشأتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٧، وارتكزت الى تقرير الأكثرية من أعضائها في قرار تقسيم فلسطين.

وعندما تفرعت دراسة قضية فلسطين في الأمم المتحدة نفسها عام ١٩٤٧ الى لجنتين فرعيتين عن الجمعية العامة - احداهما تتدارس اقتراحاً عربياً لحل المشكلة والأخرى تتدارس حلا صهيونيا - كانت اللجنة الثانية هذه مسرحاً للصهيونيين وحدهم، لأن

العرب لم يحضروا أمامها أبداً، وهيأت لهم السياسة الأميركية دولا تتقبل كل ما يقولون. هذه اللجنة بالذات، هي التي وضعت حدود التقسيم، تماما كما طالب موسى شرتوك ممثل الوكالة الصهيونية آنذاك، امامها.

وكأنما هذا كله لم يكن كافيا، فان الدولتين ضمنتا لإسرائيل واقعياً، حرية التسلح والحركة، واستطاعت بذلك أن تغدر بالهدنة الدولية مرتين وتتجاوز حدود التقسيم.

وكأن هذا أيضا لم يكن كافيا، فقد مكنت مرة أخرى من تجاوز آخر بالهدنة السلمية التي أعطت إسرائيل من الضفة الغربية اراض لم تكن قد احتلتها. بهذا التسلسل من انسكوب، الى اللجنة المختصة بالتقسيم في الأمم المتحدة، الى عمليات الغدر بالهدنة العسكرية، الى عمليات الإحتلال السلمي بموجب اتفاقيات الهدنة، تحققت لإسرائيل استناداً الى اميركا وبريطانيا، حدودها الحالية. وهذه الزيادات المتلاحقة كلها هي زيادات على اقصى الأماني المحددة لهذه المرحلة بالذات.

ثم هناك مسألة طرد العرب من اسرائيل والإستيلاء على ممتلكاتهم. طبعا كان هذا الشيء مفهوما منذ اللحظة الأولى بين بريطانيا والصهيونية العالمية، ولكن بريطانيا لم تستطيع ان تجاهر به.

لذلك جاء وعد بلفور نفسه يتضمن عدم المساس (لاحظ عدم المساس لا الحماية) بالحقوق المدنية والدينية للسكان «غير اليهود» في فلسطين، فالقضاء على الحقوق المدنية والدينية لشعب فلسطين، يتجاوز ما خطط له وعد بلفور، ويكفي لتبيان الأهمية الهائلة لهذه النقطة ان نستعيد ما قاله حايم وازيمن في وصفها - في كتابه التجربة والخطأ - اذ وصفها بأنها «المعجزة الإلهية التي بسطت مشاكل إسرائيل»، أي أن تخطي وعد بلفور بهذا المقدار غير المنظور يدخل في عداد المعجزات التي لا تحصل إلا في الأحلام.

وعلى ذلك فان سياسة اميركا وبريطانيا هي «تثبيت إسرائيل» وتأمين الشرعية الكاملة لها، بتذويب وإزالة جميع المشاكل التي تعترض ذلك، والحصول لها على اعتراف من

العرب، يتدرج من الإعتراف الواقعي صعودا الى التعامل المحدود حتى الصلح. كل ذلك مع عدم اعتبار هذه الأهداف نهائية، ومع العطف على أية أهداف وراء ذلك تسعى اليها إسرائيل، وتتحين لها الفرص، ومع دعمها في أية فرصة قد تسنح، اذا حصل اقتناع ما بامكان الوصول بدون مخاطرة كبيرة.

بالنسبة لتثبيت اسرائيل بالذات فان الهدف المباشر هو حماية أمن إسرائيل، وفي وسعنا ان نقول بتاكيد جازم أن أمن إسرائيل كان يلقى المكان الأول من الإعتبار في سياسة بريطانيا واميركا للشرق الأوسط منذ قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨، حتى هذه المرحلة التي يتعرقل فيها الوصول الى اتفاق سلام عادل وشامل، بدعوى إسرائيل أنها تصر على ضمان أمنها.

وثمة أساليب عديدة تتبع من الدولة الراعية - أميركا - لضمان أمن إسرائيل.

أول هذه الأساليب المعادلة العسكرية القائمة على أساس ايجاد تكافؤ عسكري بين إسرائيل وحدها، وجميع الدول العربية مجتمعة، بحيث يكون لإسرائيل في أي لحظة تفوق ساحق في اي نقطة من نقاط حدودها مع الدول العربية. وقد كان تطبيق هذه المعادلة سهلا في الفترة التي انقضت بصفقة السلاح المصرية السوفياتية عام ١٩٥٥، لأن الدول العربية كانت تعتمد على الدول الغربية في تسليحها، وكانت هذه الدول تخبر بعضها بعضا بما تعطيه اي منها لأي من الدول العربية ولاسرائيل، وتتعاون فيما بينها على تطبيق معادلة التكافؤ في التسلح، وكانت فرنسا آنذاك، (ولا تزال الى حد كبير) طرفا في هذا التفاهم.

يبقى ان الدول الغربية تظن أن تذويب الحرب الباردة يتضمن امكانية اعادة معادلة التكافؤ العسكري بين العرب وإسرائيل في اي اتصال او محادثة او مباحثة تجري بين هذه الأطراف.

غير أن هنالك صيغة أخرى أخطر من هذه هي صيغة المواجهة النوعية للتسلح. فاذا ظهر أن العرب قادرون على التفوق بالسلاح التقليدي، أفلا يمكن أن ينقل التفوق الى

إسرائيل بتمليكها السلاح الذري؟

نحن لا نشك أبداً في أن اسرائيل نفسها - بمقدار ما لها من ذاتية خاصة - سائرة بكل امكانياتها في هذا الطريق لتستبق مقدما اي تفوق عربي حصل، او قد يحصل، في مجال السلاح التقليدي.

بعد وقوفنا على هذه المشاهد التي تنقل لنا شريطاً متكاملاً عن المراحل التي مرت بها القضية، نصل الى حقيقة أن إسرائيل التي وجدت بفضل القوى العظمى، ما تزال موجودة ليس بفضل تلك القوى وحسب.. بل بحساب قوتها الذاتية التي بنتها عبر سبعة واربعين عاماً، اغتنمت الواقع العربي المهلهل، فلم تبدد الوقت، بل دأبت على بناء قدرتها الذاتية، مع العلم أنها مطمئنة تماماً الى استمرار ضمان الدعم والمساندة من «الدول» التي تبنت وجودها وبقاءها واستمرارها، كأكثر دول المنطقة قوة وتقدماً. وهذا ما يجعلنا ننظر الى التلويح بحرب أخرى، نظرة فاحصة، وحذرة أيضاً. إذ أن إسرائيل، ما تزال تسيطر على كامل الأرض التي قامت عليها، وأضافت اليها مساحات جديدة بعد حرب الأيام الستة، باحتلالها الجولان كاملا، والضفة الغربية وسيطرتها على القدس، فضلاً عن وصولها الى الضفة الشرقية من قناة السويس واحتلالها صحراء سيناء، - وقد تم تحريرها - بموجب إتفاقية كامب ديفيد. وكذلك، فانها ما تزال الدولة الأقوى بين دول المنطقة، بفضل الترسانة السلاحية التي تُخزّنها أميركا لدى «إسرائيل» بما في ذلك السلاح الذري «المخزون» الذي قد يتجاوز المئتي رأس نووي، يثور الجدل حولها.

ولو أردنا استقراء لمحة عن تاريخ بناء الجيش الإسرائيلي، منذ وُضِعَتْ نواته الأولى، والأسلوب الذي اتبعته، تدريباً وتسليحاً، لتبين لنا، أنها في مرحلة البداية اعتمدت الأسلوب السويسري العسكري كقاعدة في بناء جيشها، ثم أدخلت عليه بعض التغييرات التي تناسب موقعها الجغرافي ومتطلباتها العسكرية الخاصة.

ففي عهد الإنتداب البريطاني كان لليهود في فلسطين عدة منظمات سرية شبه

عسكرية مثل الأرغون والشترن (ليهاي). وقد ألف الزعيم الصهيوني الارهابي ز. جابوتنسكي سنة ١٩٣٦، الارغون كمنظمة يهودية هدفها الأول محاربة العرب والإنكليز. وكان عدد أعضاء هذه المنظمة يتراوح حول خمسة آلاف شخص.

اما اليهاي (شترن) فهي منظمة أصغر بكثير من الأرغون تفرعت عن الارغون سنة ١٩٤٠ تحت قيادة أ. شترن. وقد حاربت هاتان المنظمتان الإنكليز والعرب بكراهية ووحشية بالغتين حتى ادخلتا في الهاغانا (الجيش اليهودي النظامي) بعد انتهاء الإنتداب البريطاني. وهكذا تألف الجيش من هذه العصابات المسلحة ومن عدد وفير من المتطوعين اليهود في الداخل والخارج.

وفي حرب سنة ١٩٤٨ كان لجيش إسرائيل نوعان أساسيان من الجنود:

جنود الهاغانا وهم من المتطوعين الأجانب، وسكان الكيبوتز وجنود البلماخ وهم نخبة شباب الهاغانا.

ومما لا شك فيه ان المعونات التي حصل عليها اليهود خلال الحربين العالميتين قد ساعدتهم كثيرا على استعمال الأسلحة الثقيلة وغيرها من المعدات الحربية الفنية، والتي تدفقت عليهم من أوروبا الشرقية بنوع خاص، وقد انضم الى الجيش الإسرائيلي (زحل) عدد لا بأس به من المتطوعين الأجانب (محل) والمغتربين اليهود (عخل). أما من حيث التدريب والإعداد، فقد كانت تتراوح مدة التدريب العسكري الإجباري الإسرائيلي بين سنة ونصف السنة للسيدات، وسنتين للرجال لكل من يتراوح عمره بين الـ ١٨ و٤٩ سنة. وتعفى المرأة الحامل او التي تحمل خلال فترة التدريب، من الخدمة حتى تضع مولودها. واذا كانت المرأة من عائلة محافظة استبدلت خدمتها العسكرية بخدمة في الفرع الطبي للجيش، كممرضة. اما الذين يعملون في المستعمرات الزراعية على الحدود (الكيبوتز) فيعفون من اية خدمة ايضا (عدا الخدمة الإجبارية) التي يتعرض لها سائر سكان إسرائيل الآخرين.

يُنتقى الضباط من بين الجنود الذين تفوقوا في الخدمة او الحرب، وبعد انتهاء الخدمة الوطنية، يخدمون سنتين اضافيتين من التدريب المشدد.

ويجب على الضباط الإشتراك في المناورات العسكرية مرة كل عام، بينما يتحتم على الأنفار وصف الضباط، الإشتراك في المناورات العسكرية مرة كل سنتين، ويجب على الجندي أيضا اقامة ليلة واحدة في وحدته مرة كل شهر. وبعد انتهاء الجندي من الخدمة العسكرية الإجبارية، يحتفظ بكامل بزته وعدته ويحال الى الإحتياط.

وجنود الإحتياط هم الذين يؤلفون القسم الأكبر من جيش إسرائيل، اذ ان الجيش النظامي الإسرائيلي مكون من مدربين ومدرسين وإداريين فقط. ويتعرض جنود الإحتياط في كل ساعة ودقيقة الى التعبئة الفجائية في حال وجود تمرينات مفاجئة او مخطط لعدوان فجائي على الحدود العربية او حرب حقيقية.

ومن ناحية أخرى تشدد القيادة على التدريب الليلي اذ انه من المعروف ان اكثر هجومات الجيش الإسرائيلي الكبرى تتميز بطابعها الليلي.

عند دخوله الجيش، يجب على الجندي ان يبقى ستة أشهر على الأقل كنفر. وإذا أبدى استعدادا فائقا في الجندية ينقل الى معسكر خاص حيث يبقى خمسة اشهر تحت التدريب على قيادة جماعات صغيرة من المحاربين. يعمل هذا الجندي ٥٢ ساعة على الأقل كل اسبوع.

وعاماً بعد عام، تعمد القيادات العسكرية والسياسية، الى تشكيل لجان خاصة، مهمتها دراسة وإعداد برامج لتطوير المؤسسة العسكرية، بما يتوافق وتطور التكنولوجيات العسكرية.

ولقد وقعت بين ملفاتي على تحقيق نشرته صحيفة «الإكسبريس» النمساوية عن كيفية إعداد «المجندات» في الجيش الإسرائيلي، وقد جاء في التحقيق المنشور قبل نحو ثلاثين عاماً، ما يلي نصه على لسان إحدى المجندات الإسرائيليات:

«بعد أن استعملت شتى فنون الحديث، وقمت باستعمال كل امكانياتي للبرهنة على انني لست عميلة ولا جاسوسة لناصر سمح لي أخيرا أن أعيش يوما طويلا قاسيا في معسكر لتدريب الجيش النسائي الإسرائيلي على الطريق المؤدي الى القدس بالقرب من تل أبيب.

لقد شاهدت هؤلاء المجندات من قبل في شوارع تل ابيب، ويبدون لي كعارضات ازياء في لباس عسكري!..

ووراء عمود خشبي جلس شاب وشابة في لباس عسكري «يتعلمان». ان العلاقات حرة للغاية وغير مقيدة بين الرجل والمرأة في المعسكر، وقد بدأتني قائدة المعسكر النسائي - ٢٧ سنة - الماجور ميشال قائلة بحرارة:

«هنا يعيش الشباب والبنات معا، وعندما يأتي الشباب الى هنا للخدمة ويتخذون «صاحبات» فان ذلك شيء عادي، انهم يستطيعون انشاء صداقات كثيرة كما يرغبون، ولكنهم لا يستطيعون جرح قواعد الأدب للمخيم، وفي أوقات الفراغ يستطيع المجندون رجالاً ونساء القيام بالأعمال الجنسية كما يحلو لهم!

وتستطرد المجندة في حديثها، فتصف ما يجري على الطبيعة أثناء التدريبات فتقول: «انني أتيت في الوقت المناسب لأرى مجموعة من خمسّين جندية يقمن بعرض عسكري في حقل التدريب، ورغم العرض فقد ظهرن كراقصات في مشيهن، ثم شدت الضابطة روث - ٢١ سنة - تنورتها قائلة وهي تضحك:

- «انها قصيرة اكثر من اللازم اليس كذلك؟ وعندما تأتينا الملابس العسكرية نستطيع تقصيرها وتضييقها كما نرغب». وعندما تكلمت مع احداهن بعد التمرين وهي في طريقها الى صالة الطعام، وكانت متعبة تتصبب عرقاً - ٢٠ سنة - قالت: انه لوقت سعيد، نحن البنات في إسرائيل نعلم كم هو ضروري أن نتدرب على هذه التمارين

كجنديات، نحن نجلس هنا على برميل من البارود، لهذا يتوجب على كل واحدة منا أن تعرف، في حالة نشوب حرب، كيف تدافع عن نفسها.

«سوف لن نكون حقيقيين إذا لم نحسب حساب الحرب».

* * *

انتهى ملخص التحقيق الذي نشرته الصحيفة النمساوية، ووجدته محفوظا بين أوراقي وملفاتي التي كنت أحرص على شحنها مع كتبي ومتعلقاتي الشخصية، الى كل بلد أنتقل للعمل فيه. وقد رأيت من المفيد ضمه الى هذا الكتاب، الذي عزمت على وضعه بعد رحلتي الى «إسرائيل» التي بدأت يوم الثاني عشر من أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٩٤، تلبية للدعوة التي تلقيتها مع عدد من المثقفين العرب، بمناسبة مرور عام على توقيع إتفاقية «أوسلو» وبعد عودتي الى بيتي في مهجري اللندني، عكفت على تنسيق الأوراق والمراجع التي أسعفتني في وضع الحقائق في نصابها الطبيعي، لتكون الصورة متكاملة عن «القضية الفلسطينية» التي باتت هاجساً يومياً ليس بالنسبة لي وحسب، بل بالنسبة لكل مثقف عربي، ولكل مواطن عربي، عايش مأساة الشعب العربي الفلسطيني منذ بدايتها والى اليوم.

8

لم يشكل قيام «إسرائيل» نكبة للفلسطينيين والعرب على السواء ـ وحسب ـ بل تحول ـ بمرور الزمن ـ الى مشكلة كبرى عانى منها الغرب وما يزال يعاني من تفاقمها. اذ كان بنتيجة قيام «إسرائيل» أن فقدت أميركا ومعها دول القارة الأوروبية كثيرا من مصالحها في البلاد العربية.

ومع قيام ثورة «٢٣» يوليو عام ١٩٥٢ بقيادة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، بعد أربع سنوات من انقلاب الزعيم حسني الزعيم في سورية الذي أطاح بالنظام الديموقراطي وهو ما يزال حديث الولادة، بعد أن نالت سورية استقلالها الناجز التام عام ١٩٤٥، وانتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية، بدأت تتوالى الإنقلابات، ومعها بدأ «هم» أميركا والدول الغربية يكبر، بتواتر الأحداث في المنطقة، وسجل تاريخ العرب الحديث، عدداً من الأحداث في مراحل متلاحقة، شكلت علامة فارقة في التاريخ الحديث، مع نهاية الحقبة الإستعمارية التقليدية التي أفرزتها ظروف الحرب العالمية الثانية.

وبعد الحقبة التي تم فيها وضع حد للنفوذ البريطاني ـ الفرنسي الذي استهدف الحلول محل الإمبراطورية العثمانية في المنطقة العربية.. بدأت الحركات التحريرية التي أخذت شكلاً إنقلابياً، أخذ يتعاظم بتواتر سريع، ومعها بدأ «هم» أميركا والغرب يتعاظم ويكبر.

أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس وطرد بريطانيا من مصر.. تلاه سقوط

الحكم الملكي في العراق.. وتم التلاقي بين العواصم الثلاث «القاهرة ـ دمشق ـ بغداد» على خط التحرر الوطني، وبذلك باتت مصالح الغرب مهددة.. وأهم هذه المصالح الغربية في الوطن العربي، هي السيطرة على ابار النفط.. فالصناعة في الغرب تعتمد إعتماداً كبيراً على البترول العربي، فكان لا بد لأميركا مع دول أوروبا الغربية من حماية مصالحها التي باتت مهددة، بعد قيام دولة «إسرائيل». وقد أدرك الغرب الخطأ الفادح الذي ارتكبه بزرع إسرائيل، عوضاً عن إقامة دولة موحدة بين العرب واليهود؛ فأخذ يفكر في تصحيح الخطأ!!..

ومع انتعاش حركة القومية العربية وبروزها، وامتدادها الى أقطار أخرى، شملت «الكويت» التي هب شعبها، تأييدا للوحدة السورية المصرية، بقيام الجمهورية العربية المتحدة ببداية عام ١٩٥٨ . مثلما اتسع انتشار المد القومي العربي ليتجاوز الكويت، الى المحميات العربية الأخرى، وليصل الى رؤوس الجبال في «اليمن السعيد» الذي لم يكن سعيداً أبداً. خلال تلك الحقبة، بدأت أميركا ومعها دول أوروبا الغربية، بالتخطيط لتصحيح «الخطأ» المرتكب بقيام «إسرائيل». طبعا لم يكن الإتجاه التكتيكي الجديد يقضي بالعودة الى فكرة «الدولة الموحدة» بل كان يستهدف كسر حدة تيار القومية العربية، وإنهاك الدول العربية التي تقود هذا التيار المتعاظم، وهي (مصر وسورية) بالدرجة الأولى، ومعهما «العراق» بالدرجة الثانية... ثم يأتي الدور على البقية الباقية من الدول العربية المتعاطفة مع تيار القومية العربية، وفي مقدمتها «الأردن والكويت».. وبعدهما يأتي الدور على الآخرين.

وقد قضت خطة «تصحيح الخطأ» باشعال نار حرب سريعة «تقصم ظهر» العرب.. ليتم لأميركا والغرب السيطرة على آبار النفط في شبه الجزيرة العربية (السعودية ومحميات دول الخليج) التي كانت قد نالت من بريطانيا صكوكاً للإعتراف باستقلالها الصوري، لكنها ربطت على نحو ما ببريطانيا، لتبقى تحت نفوذها واقعياً. وهذه حقيقة

مؤكدة لا يختلف حولها إثنان، اتضحت صورتها في أعقاب الغزو العراقي للكويت، وكانت إسرائيل هي «الأداة» في تنفيذ المخطط الغربي، إذ تم لأميركا والدول الغربية؛ تحقيق الهدف بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، التي قصمت ظهر العرب فعلاً، وتركتهم في حالة من العجز، بسبب ما أصابهم من تمزق وتفتت، بعد «اللطمة» التي أذهلتهم فعلاً.

وكان من الممكن أن تسترد الأمة وعيها كاملاً بعد حرب «رمضان» ـ «تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٧٣» ـ لو أن «السياسة» لم تلعب دورها. والسياسة ـ كما هو معروف ـ ما دخلت مكاناً إلا وأفسدته. وقد فسدت نتائج حرب ١٩٧٣، بسبب من هذه السياسة التي وأدت «الحلم» وخذلت الإنجاز الكبير الذي تحقق على كلا الجبهتين «السورية ـ المصرية» بفضل الجندي السوري والجندي المصري بالدرجة الأولى، ولا ننسى ما أداه الجندي الأردني الشجاع، وما أدته فصائل المقاومة الفلسطينية من قواعدها في جنوب لبنان، دعماً للجبهتين، اللتين أدى «الجندي العربي» عليهما أروع الأداء،وبذل بسخاء بذلاً إعجازياً شهد له الخصوم به قبل الأصدقاء. ولكن السياسة... السياسة.. السياسة. استطاعت أن تكون أقوى من الجيوش.

في كتابه "THE ARAB -ISRAELI WARS" الصادر عن مؤسسة "VINTAGE" في نيويورك عام ١٩٨٤، والمتضمن فصولا يروي عبرها «حاييم هيرتزوغ» قصة «الحرب والسلام في الشرق الأوسط بدءاً من حرب الإستقلال الى اجتياح لبنان» مروراً بما يطلق عليه صفة «حملة ١٩٥٦» اي العدوان الثلاثي على مصر، و«حرب الأيام الستة ١٩٦٧» وهي حرب (حزيران ـ يونيو) التي «أذهلت العرب وقصمت ظهرهم» وأعقبتها «حرب الإستنزاف» التي هيأت الفرصة أمام القيادتين السورية ـ المصرية للإعداد لحرب رمضان «اكتوبر ـ تشرين الأول ١٩٧٣» التي يطلق عليها «هيرتزوغ» إسما عبرياً "yom kippur" أي «حرب يوم الغفران» في هذ

الكتاب الذي وضعه «حاييم هيرتزوغ» باللغة الإنكليزية، وضمنه وثائق وصورا وخرائط، توضح مخططات إسرائيل التوسعية، وجميع الأدوات التي لعبتها اميركا وبريطانيا ومعهما عواصم دول أوروبا الغربية، فضلا عن دور الإتحاد السوفييتي، في إقامة دولة «إسرائيل» والعمل على تقويتها وتثبيت وجودها في القلب من منطقة الشرق الأوسط، في هذا الكتاب، يستخلص القارىء الأسباب والعوامل التي ادت الى التخطيط للإبقاء على وجود إسرائيل في المنطقة العربية؛ كدولة تحمي مصالح أميركا والغرب، والظروف التي دفعت الى البدء بمفاوضات تقضي باحلال السلام بينها وبين العرب، مع الإبقاء عليها قوية، وعلى ردع واحباط أي محاولة عربية تستهدف القضاء على وجودها.

و«حاييم هيرتزوغ» الذي خدم في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، مع بداية حياته العسكرية، اختتم نشاطه العسكري الذي استغرق من عمره نحو أربعين عاماً، ليتحول بعدئذ الى «رجل سياسة» ويصبح رئيساً لدولة إسرائيل.

و«حاييم هيرتزوغ» المولود في إحدى جزر المملكة المتحدة وتلقى تعليمه العالي في جامعتي «كامبريدج ولندن» هاجر الى «فلسطين» مع والده الدكتور اسحق هيرتزوغ، بعد الحرب العالمية الثانية. وبعد قيام الدولة الإسرائيلية، تولى منصبه كمدير للمخابرات العسكرية الإسرائيلية لمدة استغرقت نحو ثلاث سنوات، مع بداية قيام «إسرائيل» الى عام ١٩٥٠، ليلتحق بعدئذ كملحق عسكري للسفارة الإسرائيلية في واشنطن ويمضي أربع سنوات، يعود بعدها ليتولى منصبه السابق كمدير للمخابرات العسكرية، حتى عام ١٩٦٢ . كما تولى عدداً من المناصب الحساسة في القوات الإسرائيلية، جعلته مؤهلا ليكون أول حاكم عسكري للضفة الغربية بعد انتزاعها من الأردن، واحتلالها في اعقاب حرب ١٩٦٧ . ثم تم تعيينه - بعد اعتزال الحياة العسكرية - وقد أمضى في الخدمة أكثر من أربعين عاماً، سفيراً لإسرائيل لدى هيئة الأمم المتحدة.

وتخللت حياة «هيرتزوغ» أنشطة إعلامية متنوعة، كمعلق سياسي وعسكري وإذاعي عمل مع هيئة الإذاعة البريطانية "B.B.C" وغيرها من الإذاعات في أوروبا وفي الولايات المتحدة كذلك عمل مراسلا لعدد من الصحف وكاتباً ومحللاً، في عدد من كبريات الصحف الإسرائيلية والأوروبية والأميركية، ونال أوسمة وألقاباً عديدة، أبرزها لقب «فارس» مع مرتبة الشرف عام ١٩٧٠

هذا التاريخ «الحافل» بالمكارم والأعمال «الجليلة» والخبرات المتعددة، فضلاً عن الدراسة الجامعية العالية، أهلّتْ «حاييم هيرتزوغ» لرئاسة الدولة الإسرائيلية، لينظر من «سدة» الحكم، نظرة متأملة، هادئة، تتيح له الفحص والتحليل، يقيّم به الوضع الراهن ـ خلال فترة الرئاسة ـ ويضع تصوره لمستقبل إسرائيل، فيستخلص، بالنتيجة، أن لا مستقبل لإسرائيل إذا لم تبدأ بالإعداد والتخطيط للمرحلة المقبلة.. وتضع نصب الأعين على أول درجات سلم «الأولويات» خطة محكمة، تطرح فكرة «السلام» وتبدأ بتنفيذها على مراحل، عبر عقد «إتفاقيات» منفردة تبدأ بـ «منظمة التحرير الفلسطينية» وتنتهي بسورية، عبوراً بالأردن ولبنان. ولاقت «الفكرة» استحساناً من السياسيين والعسكريين على حد سواء، ذلك أن جميع من يقود العمل السياسي والعسكري في إسرائيل، على اختلاف التوجهات الحزبية، أيقن، أن لا مستقبل لإسرائيل في المنطقة، اذا لم يتحقق لها العيش بسلام، وأن الحروب لا يمكن أن تضمن «للشعب» الإسرائيلي حياة آمنة مستقرة، في محيط عربي متلاطم الموج، الى الأبد.

ومن هذا المنطلق، بدأت «إسرائيل» تنسق تنسيقاً دقيقاً مع الإدارات الأميركية، لتلعب الدور الأساسي بعدما تم لها «السلام» مع أكبر وأهم دولة عربية هي «مصر» في عهد الرئيس الراحل أنور السادات، الذي ترك لخليفته الرئيس حسني مبارك تركة ثقيلة، وإرثاً من الهموم والمشاكل الداخلية، تحتاج الى حكمة وحصافة، وتتطلب جهداً وتعباً شديدين، للخروج بمصر من «العزلة» التي طوقت بها عربياً؛ ولإعادة الهدوء

والإستقرار والثقة بين نظام الحكم، وبين مختلف الشرائح الحزبية والمنابر السياسية والثقافية والإجتماعية، التي يتشكل منها قوام المجتمع المصري؛ واتجهت الأنظار الى الوضع الإقتصادي أولاً، ذلك أن وضع سياسة إقتصادية جديدة، تخرج بمصر من حالة التدهور والتخبط، وتستدعي الأخذ بعين الإعتبار، توفير حاجة الشعب المصري من السلع الأساسية، تحتاج الى شحذ الطاقات والهمم، وتحتاج الى وضع استراتيجية اقتصادية، تقوم بالأساس على ثروات مصر الذاتية وقدراتها البشرية الهائلة.

ومن هذا المنظور، وعلى أساس من الوعي بما تتطلبه المرحلة الجديدة... بدأت معركة الرئيس حسني مبارك، غب توليه رئاسة الجمهورية، بدعوة أهل الإختصاص الى مؤتمر يخصص لبحث واستعراض الوضع في مصر إقتصادياً؛ وعلى المسار نفسه، قام الرئيس مبارك بإطلاق جميع المعتقلين السياسيين الذين كان الرئيس السادات اعتقلهم.

وبهذه المبادرة برهن الرئيس مبارك على إيمانه بالحرية الفردية لكل صاحب موقف ورأي، وأكد بهذه الخطوة الشجاعة، أن عهده سيكون عهداً ديموقراطياً يحترم جميع الآراء التي تتعارض مع رأي الحزب الحاكم، وأنه شخصياً، يقدس الحرية، ولن يترك المجال أمام خصومها بالعبث بهذا الحق المقدس لكل فرد من أفراد الشعب المصري، أياً كان توجهه، أو انتماؤه السياسي والحزبي.

وقد تبلور ذلك من مواقف عديدة اتخذها الرئيس حسني مبارك خلال بداية مسيرة عهده الديموقراطي الذي بدأه في أعقاب انتقاله من منصب نائب الرئيس، الى توليه منصب رئيس «جمهورية مصر العربية» رسمياً، عشية يوم الثلاثاء السادس من شهر

تشرين الأول - اكتوبر من عـام ١٩٨١، بعد دوي الطلقات على المنصـة الرئيسـية في ساحة الإستعراضات العسكرية في مدينة نصر، واستهدف مطلقو النار حياة الرئيس أنور السادات، أول رئيس عربي يوقع اتفاق سلام مع إسرائيل.

9

يمكننا ان نستخلص من العرض الذي تقدم، أن إستمرار العمل لمتابعة مسيرة السلام رافق وجود الرئيس حسني مبارك فوق قمة هرم الحكم في مصر. ففي الوقت الذي كانت إسرائيل تحشد الرأي العام العالمي لتقنعه بأنها «دولة تريد العيش مع جيرانها بسلام» كان جيرانها يبحثون عن الوسائل الناجعة للخروج من الأزمات التي ضربت اقتصادهم بسبب الحروب التي شنتها عليهم إسرائيل.. فنعمت «هي» بالرخاء بفضل «الأم» الحنون، وعانى الجيران من الشظف والتقشف بعدما انهارت اقتصادياتهم بسبب ما انفقوه على جيوشهم التي كان دورها، رد الإعتداءات، ودرء المخاطر عن حدودها التي لم تسلم من الهجمات المتتابعة.. وكانت مصر، أكبر دولة عربية، تغرق في فوضى اقتصادية، أفرزتها سياسة «الإنفتاح» التي أعقبت عقد اتفاق جزئي عام ١٩٧٥ بين مصر وإسرائيل، التزمت بموجبه مصر بعدم استخدام القوة، وتعهدت بأن يستمر العمل بالإتفاق الى أن يتم الوصول الى اتفاقية نهائية للسلام بين البلدين... وبالفعل، وبعد أن توالت الإجتماعات والمباحثات، تم التوصل في الثاني من شهر شباط ـ فبراير ١٩٧٩ الى اتفاق على مشروع معاهدة الصلح في شكلها النهائي، بعد التفاهم في مباحثات كامب ديفيد الثانية بين وزير خارجية إسرائيل موشي دايان، ورئيس وزراء مصر الدكتور مصطفى خليل، وبحضور وزير الخارجية الأميركي سايروس فانس.. بعدئذ سافر الرئيس السادات الى واشنطن ووقع على معاهدة السلام مع رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيجن وكان ذلك في السادس

والعشرين من آذار ـ مارس من العام نفسه.

* * *

ثم جرى ما جرى... وانتشر خبر الفاجعة!.

كنا مجموعة من الإذاعيين والكتاب العاملين في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية، نستمتع بشرب فناجين القهوة والشاي، متحلقين حول طاولة تتوسط «مقصف» الإذاعة في الطابق الأرضي من مبنى «بوش هاوس» في وسط لندن، عندما اقترب زميل إنكليزي يعمل في قسم الإخبار، ودون ان يلقي التحية، وقف بمحاذاة مائدتنا، وبلهجة تخلو من أي مشاعر الإنفعال، ألقى على مسامعنا قنبلته:

«قتل أنور السادات»!!....

كان ذلك عصر يوم الثلاثاء، السادس من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨١ .. أي بعد ساعات من بدء العرض العسكري احتفالا بالذكرى الثامنة لحرب.. رمضان.

وخيم الوجوم على الوجوه...

ثم بدأ اللغط يثور بيننا. كانت لحظة شديدة الوطأة على كل واحد منا، وأخذنا «نغمغم» بكلمات لا يفهم منها أي معنى. بعضنا، بكى.. وتساءل أحدنا، الى متى يستمر بعضنا في تصفية بعضنا الآخر، بسبب موقف، او رأي يرى أنه محق في اتخاذه؟

كان الخبر حاداً.. فاجعاً..

وبدا لي، أن وقع الخبر لم يحمل إلينا «دهشة» بقدر ما فجر من إحساس؛ هو مزيج من الألم والسخط والمرارة. فغرت «الدهشة» أفواهنا، بل أصابتنا بما يشبه الذهول، في جلسة مماثلة، يوم أعلن الرئيس أنور السادات في يوم من أيام تشرين الثاني ـ

نوفمبر من أواخر عام ١٩٧٧ عن استعداده لزيارة القدس، وقبول دعوة رئيس الوزراء الإسرائيلي التي وجهها في نداء، أطلق عليه «النداء الى السلام» وجاء فيه مذاعاً على الأثير: «أيها المصريون.. أخاطبكم مباشرة... أنتم جيراننا، ونحن نمد يدنا إليكم إلخ...» نظر بعضنا في وجوه بعض.. كالبلهاء!..

وذهب السادات الى القدس... وعاد!..

ولست هنا بمعرض الحديث عن الزيارة، وما نتج عنها من سلبيات وإيجابيات ومواقف متناقضة في جميع العواصم العربية والعالمية، رغم أن السادات ربط قيامه بها بشرط أن تكون مدخلا للحل الشامل أو حسب ما وصفته الصحافة المصرية بعد الإعلان عنها.. بالتسوية الشاملة.

لكني أتوقف عند اللحظة، التي اقترب فيها فريق الإغتيال من المنصة، فوقف السادات - ظناً منه ان «الجند» يقتربون لتحيته لكن الرصاص، انهمر عليه زخاً، فأرداه قتيلاً...

عندما شاهدنا ذلك على شاشات التلفزيون - مساء اليوم نفسه - ثار سؤال في الذهن:

- لماذا لا يفعل الإسرائيليون بزعمائهم وقادتهم، مثلما يفعل «بعض» العرب عندما يختلفون في رأي أو قضية؟. لماذا لم نسمع أن «إسرائيليا» على مدى سبعة وأربعين عاماً، هي عمر الدولة الإسرائيلية التي قامت «بقرار» صدر عن المنظمة الدولية «بضغوط» أميركا، والقوى العظمى، قام باغتيال واحد من «الزعماء» أو «القادة» الإسرائيليين، لأنه يختلف معه في الرأي والتوجه والهدف؟.. إن أكثر ما يؤلم - أنك - عندما تعود الى صفحات التاريخ، تجدها حافلة بقصص الإغتيالات والقتل، ومهما كانت الدوافع الى ارتكاب هذه «الجرائم» فاني لا أجدها مبررة ولا مشروعة مهما كانت الأسباب والمسببات!

سؤال محير، يبقى مغلقا، ومستعصياً، والإجابة عنه، أشد تحييراً واستغلاقاً.. لكن السؤال يظل مطروحاً ومتداولاً.

صحيح أنه شددت الحراسة وكثفت منذ أن هبطت طائرة السادات على أرض مطار اللد «مطار بن غوريون».. وعندما أقلعت منه أيضاً. وصحيح أنه اتخذت تدابير أمن مشددة، حول المسجد الأقصى، وداخل الحرم الشريف عندما صلى السادات فيه.. وهذا طبيعي ومفروغ منه.. فالسادات رئيس دولة.. دولة حققت العبور وانتصرت بالقفز الى الضفة الأخرى من قناة السويس، ودمرت «خط بارليف» وصمدت قواتها في سيناء... ومصر هي أكبر دولة عربية، والسادات الذي خطا خطوة «المبادرة» هو رئيس هذه الدولة العربية الكبرى، ويفترض أن «خطوته» التي أذهلت العالم... ولم تخطر ببال عربي، زعيماً، أو مواطناً عادياً، أن تكون نتائجها «محسوبة» بدقة.

وصحيح أن الزيارة تمت وانتهت؛ وعاد السادات الى عاصمة بلاده، متصوراً أنه بها قد فتح باباً عريضاً، سيعبر منه العرب والإسرائيليون، ويلتقون عند نقطة «حد أدنى» من التفاهم وإقامة العلاقات.. ورغم أن شيئا من هذا لم يتحقق، بل حدث العكس تماماً.. إلا أن أحداً لم يتصور، أن عملية الإغتيال، ستُنَفَّذ بعد عودته، على أرض بلده.. وفي يوم ذكرى انتصار القوات المصرية الباسلة التي حققت «معجزة» العبور.. وهي أولى «خطوات» حرب «اكتوبر - تشرين الأول» التي كان من المفروض ان تتواصل وتستمر، حتى يتم تحرير سيناء... ذلك أن:

«الروعة الحقيقية في حرب تشرين الأول - اكتوبر، تتمثل في ذلك الأداء المدهش الذي هاجمت به سورية في الجولان، ومصر في سيناء، وفي توقيت واحد وبكفاءة عالية، بحيث أنها كانت المرة الأولى التي تواجه فيها إسرائيل حرباً حقيقية على جبهتين عربيتين».. حسب الوصف والتعبير الدقيقتين اللذين عبر بهما السيد محمود رياض، في مذكراته التي تناولت الفترة الواقعة بين ١٩٤٨ - ١٩٧٨ عن «البحث عن السلام.. والصراع في الشرق الأوسط»..

إن عدم إستمرار القتال على الجبهتين المصرية - السورية، أدى الى مايشبه

«سوء تفاهم» بين الرئيسين «حافظ الأسد ـ وأنور السادات» وجر هذا الى «سوء تنسيق» في إدارة الحرب على الجبهتين. ويبدو أن تراكمات الضغوط على الرئيس السادات، هي التي جعلته، ينفرد في المرحلة الأخيرة من الحرب، باتخاذ قرارات فردية، لم تحظ بموافقة شريكه في الحرب الرئيس الأسد، وكذلك لم تلق هوى في نفس الملك حسين؛ مثلما أدى الى ما يشبه التمرد على قرارات الرئيس، بعد فجوة «الدفرسوار» التي كان الفريق سعد الدين الشاذلي له رأي في الخروج منها، يتناقض مع رأي الرئيس السادات.

وفي التصور أيضاً، أن اليأس الذي أصاب الرئيس السادات من «الوعود الأميركية» في الضغط على إسرائيل للوصول الى ذلك أن وفاة الرئيس جمال عبد الناصر المفاجئة، وضعت الرئيس أنور السادات ـ الذي كان تعيينه نائباً للرئيس ـ قبل نحو عشرة أشهر، وجهاً لوجه أمام الأحداث بكل ضخامتها وتعقيداتها. ورغم قربه من الرئيس عبد الناصر، كنائب أول للرئيس، إلا أنه كان في حاجة، حسب تعبير محمود رياض «الى التعرف على أبعاد الموقف السياسي والعسكري» كانت لديه قناعة مسبقة، بضرورة إتاحة فرصة أمام الولايات المتحدة للشروع في البحث عن حل سلمي، يغني عن حرب أخرى.

لكن السادات بلغ به اليأس حده الأقصى..

فقد أتاح لأميركا فرصاً عديدة.. ولم يكن يتلقى الا وعوداً غير مسؤولة ـ ولا معنى لها، إذ؛ لم تكن سوى تكرار لوعود قدمتها أميركا على طول مسار القضية منذ ولادتها الى ما بعد هزيمة حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ . بل ان أميركا واصلت تقديم وعودها التخديرية حتى أثناء حرب الإستنزاف، التي تسببت بأضرار بالغة لإسرائيل، بل تسببت بإنهاكها. وقد جاء في مذكرات «إسحق رابين» يصف الأيام الأخيرة لهذه الحرب الإستنزافية قوله:

«في أعقاب عودتي الى واشنطن ـ كان رابين إبان حرب الإستنزاف، سفيراً في واشنطن ـ مساء الثلاثين من حزيران ـ يونيو، وقفتُ على حقيقة الوضع، فاتضح لي

أن جل اهتمامنا كان منصبا على الجبهة العسكرية، إذ تم أثناء الليلة السابقة، تحريك نظام الصواريخ المصرية ـ السوفيتية الصنع ـ حوالي ثلاثين كيلومتراً غرب القناة. كما تم نصب بطاريات الصواريخ المصرية، الى مواقع أقرب من القناة، وقد كان مجومنا على شبكة الصواريخ غير ناجح.. وتمكنت ـ يعني الصواريخ ـ من إسقاط العدد من طائراتنا ـ الفانتوم ـ وكان هذا الوضع من وجهة نظري، جديداً وخطيراً جداً».

أليس في القول «شهادة» من العدو، بالكفاءة العسكرية للجندي المصري القادر على تجاوز حد اليأس الذي تفرزه السياسة؟

أما وزير خارجية إسرائيل «أبا إيبان فان وصفه لبعض مراحل حرب الإستنزاف، كان أكثر دقة، إذ قال: «إن قصف المدفعية المصرية مع شن بعض الغارات الجوية عبر قناة السويس، سبب لنا خسائر فادحة في عدد القتلى.. وهذا ما أدى الى إضعاف قوتنا.. والى هبوط في الحالة النفسية والمعنوية عند الجندي الإسرائيلي»، وهذا يكفي للدلالة على قدرة الجندي العربي المصري، القدرة التي تجعله يتحدى ذاته، معتمداً على الإيمان بالحق لينتصر.

وعلى الرغم من ذلك، فان يأس الرئيس السادات جاء منسجماً مع رأي الرئيس حافظ الأسد، في الوعود التي تقدمها أميركا، ولم تكن على أدنى قدر من الصدقية. فقد استمرت المحادثات بينه وبين الإدارة الأميركية ـ مستهدفا منحها مزيدا من الفرص لتحقيق الحل السلمي ـ وتركزت تلك المحادثات طوال عام ١٩٧١ مع روجرز، واستمرت حتى أواخر العام ١٩٧٢ مع هنري كيسنجر، الذي أغرق الرئيس السادات بوعوده في أن البحث جاد للحل السلمي، وفي الوقت نفسه كانت الولايات المتحدة، تواصل إمداد إسرائيل بمختلف العتاد الحربي، والمعدات والأسلحة المتطورة، وفي مقدمة ذلك تقوية سلاح الطيران الإسرائيلي. وكان كيسنجر الذي أغرق السادات بوعوده، يهيىء

إسرائيل، ويعدها لدخول حرب جديدة، تستهدف خلق واقع جديد، يفرض على مصر الرضوخ للمطالب الإسرائيلية لعقد اتفاق سلام. وهذا ما دعا الرئيس حافظ الأسد الى تأكيد «عدم ثقته في أي تعهدات أميركية، وعدم ثقته في وعود تصدر عن أي مسؤول أميركي، حتى لو كان رئيس الولايات المتحدة نفسه». - ولمن يرغب مزيدا من التفاصيل - يمكن العودة الى «مذكرات محمود رياض» التي يروي فيها تفاصيل الحوار الذي جرى بينه وبين الرئيس الأسد على الصفحتين (٥١٠ و٥١١) في الفصل الخامس عشر المعنون بـ «إنهيار السلام الشامل».. وقبل أن يقوم الرئيس السادات بزيارة القدس، زار واشنطن والتقى الرئيس الأميركي جيمي كارتر، وأعلن في ختام المباحثات، أنه يرفض المنطق الإسرائيلي الذي يجعل تطبيع العلاقات بينهما - أي بين مصر وإسرائيل - مستحيلاً. إذ أن «هذا الأمر لا يمكن التباحث بشأنه قبل أن يولد جيل آخر، وأن الماضي الدامي للصراع العربي - الإسرائيلي، يجعل تحقيق ذلك الآن مستحيلا» حسب تصور الرئيس السادات اذ عبرعنه بوضوح لكارتر؛ الذي لم يفاجأ عندما اجتمع بالرئيس السوري حافظ الأسد في شهر أيار - مايو في جنيف، أي بعد شهر من مباحثاته مع السادات في واشنطن، لم يفاجأ حين لمس إصرار سورية على «حل شامل» يقوم على أساس تهيئة الظروف لقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة. وأن سورية - حسب تعبير الرئيس الأسد - سوف تبارك أي علاقة تتم بين الدولة الفلسطينية والأردن، طالما تتم بموافقتهما.

ثم...

يقوم مناحيم بيغن بزيارة الى واشنطن في حزيران - يونيو، أي بعد شهرين من مباحثات (السادات - كارتر) في واشنطن، وبعد شهر من لقاء (الأسد - كارتر) في جنيف، ليعلن - أي بيغن - عدم انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وغزة؛ بل أعلن بعد عودته الى اسرائيل عن العزم على إنشاء مستوطنات جديدة... وهذا يعني، أن

مصر وإسرائيل ومعهما العرب بلا تفرقة، يتوخون ـ فعلا ـ لا قولاً، الوصول الى الحل الشامل العادل وإحلال السلام... وأن أميركا تلقي الوعود جزافاً... وأن إسرائيل، تماطل.. وتراوغ.. وتتحدى ليس العرب وحسب، بل تتحدى العالم، وعلى رأسه، حليفتها الأولى، الولايات المتحدة الأميركية، التي ـ تعتبر ـ أن إنشاء مستوطنات إسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة، يتعارض مع القانون الدولي، ويشكل عقبة في طريق السلام!!...

10

هذا ما حدث على مدار السنين، وما يزال يحدث...

قرار تقسيم.. ثم حروب.. ثم مفاوضات... تليها حروب.. ثم مماطلات، ومراوغات مع إعلان رغبات «صادقة» من قبل الحكومات الإسرائيلية بالسلام، يرافقه بناء مستوطنات، وتزود بالأسلحة المتطورة من اميركا وغير أميركا... ثم مؤتمرات ومجيء وسطاء أميركيين يقدمون للعرب الوعود تلو الوعود، يصحبه تحدٍ إسرائيلي بعدم الإستجابة لأي مطلب حق. ومماطلات أميركية جديدة، مع وسطاء جدد يأتون الى المنطقة ويعودون، دون أن تتحقق نقلة نوعية على صعيد هذه القضية التي تحولت الى أغنية شيطانية لا تنتهي، بفضل «الوسيط» الأميركي الذي استمرأ اللعبة، واستهوته، لدرجة أنه لم يعد يطيق فراقها.. فوظف لها دهاقنة السياسيين لإطالة أمدها، ومضاعفة تعقيداتها، مستغلا حالة التمزق والتشظي والعجز وغيرها من عوامل التنافر والفرقة التي يعاني منها الوطن العربي من حدوده المائية الأطلسية الى حدوده المائية الخليجية، الى حدوده المائية على سواحل الأبيض المتوسط.

يأتي موفد ويذهب مبعوث..

إسرائيل تزداد قوة وبأساً، والعرب تعلو أصواتهم عبر وسائل إعلامهم الصحفية والإذاعية والتلفزيونية، وفي الوقت نفسه؛ تستنفد قواهم وطاقاتهم، بحركات عسكرية انقلابية، تزيد في تفككهم وإرهاقهم... وضعفهم، ناسين قول شاعرهم:

«تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن، تكسّرت آحادا»

فلا يخطون خطوة جدية واحدة، يترجمون بها القول الى فعل.

يأتي الى المنطقة موفد، ويعود مبعوث..

يعاد فتح ملفات «القضية».. ويعاد درسها - من بدايتها - الى المرحلة التي بلغتها حتى تاريخ وصول ذلك الموفد، ثم تطوى الملفات مع عودة ذلك المبعوث، والقضية لا تراوح في مكانها.. بل تزداد تشابكا وتعقيداً.

ولا حاجة بنا لتقديم براهين أو دلالات، للتأكيد على أن الأفكار والمقترحات التي يحملها الموفدون والمبعوثون، لا هدف لها الا «تمييع» المواقف... وإطالة أمد «البحث والتمحيص» ومن ثم العودة - من جديد الى نقطة البداية.

فالزعيم الراحل جمال عبد الناصر، كان يؤمن إيماناً قوياً وقاطعاً بأن «ما أخذ بالقوة لا يستعاد إلا بالقوة» لذا، فهو عندما اتخذ قرار البدء بحرب الإستنزاف، كان قراره نابعاً من أن الحرب الإستنزافية؛ هي أفضل وسيلة لإنهاك إسرائيل، وإرغامها على دخول مفاوضات تفضي الى الحل الشامل والحاسم. فاسرائيل لا طاقة لها على الحروب الطويلة الأمد، وبسبب «قصر نفسها» القتالي، فانها تلجأ الى الحروب الخاطفة السريعة. وأميركا التي لا تسمح «للعرب» بانهاك إسرائيل؛ تعمل - من جانب - على ذر قرون الفرقة بينهم، بكل ما تملكه من وسائل «الإستقطاب» لمن يقيمون معها «علاقات صداقة» من الحكام الذين في أيديهم مقدرات البترول وخزائن المال.. وتعمل على تصفية من يجرب، أو يفكر بالخروج عن إرادتها.. ومن جانب آخر، تلجأ الى أسلوب إظهار «حسن النية» ومحاولة إقناع الزعماء العرب المعنيين مباشرة بقضية فلسطين، وهم قادة «دول الطوق» بأنها تريد الوصول الى «حل» يرضي جميع الأطراف، فترسل مبعوثيها وتوفد ممثليها.. فيأتي - هؤلاء - حاملين الرسائل التي تطرح أفكاراً ومقترحات، ويعودون برسائل تحمل ردوداً على الأفكار والمقترحات، وتستمر الرحلات

المكوكية... ولا يتم الوصول الى أي اتفاق.

وكان عبد الناصر وقد عرف «أبعاد اللعبة» يدرك أيضا، أن «المفاوضات» إذا لم تكن مدعمة بقدر من الـ «القوة» يساند الحق، فانها لن تفضي الى أي حالة من حالات السلام. لذا، فانه عندما قبل مبادرة روجرز بوقف حرب الإستنزاف فترة ثلاثة أشهر، يعطي خلالها فرصة معقولة للتفاوض من اجل الوصول الى حل، لم تنطل عليه الحيلة الأميركية... لكن قبوله بمبادرة روجرز، كان قائما على أساس استئناف حرب الإستنزاف بعد منح هذه الفرصة الأخيرة.. ورغم وثوقه التام بأن ما دفع واشنطن الى إيفاد «روجرز» هو لتخفيف الضغط العسكري عن كاهل إسرائيل، فانه، أراد أن لا يبقى «لأحد» حجة عليه، وهو بقبوله وقف اطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر، يتيح لنفسه فرصة للتشاور مع الزعماء العرب.. فاذا لم تحقق «المبادرة» جدواها، فان استئناف حرب الإستنزاف تمهيدا للمعركة الحاسمة، يكون هو القرار «الفصل» بعد الوصول بمشاوراته مع الزعماء العرب الى موقف موحد، يدعم موقفه.

لكن مبادرة «روجرز» التي طرحت على عبد الناصر خلال شهر آب ـ اغسطس من عام ١٩٧٠ وأخذت تتعثر منذ بدايتها، مما أوحى لعبد الناصر أن «تحقيق السلام» هدف بعيد المنال، وأن معركة التحرير ـ لا مناص ـ من خوضها حتى لو لم يتحقق توازن لميزان القوى بين العرب وإسرائيل. لذلك، لا بد له من مواصلة حرب الإستنزاف، التي كان قراره لمتابعتها قائماً، وحدد له موعداً مع مطلع الشتاء، أي ما بين تشرين الأول ـ اكتوبر، وتشرين الثاني ـ نوفمبر، لأن مبادرة «روجرز» تحمل ـ في قناعته ـ أسباب موتها معها، وأن وصولها الى «طريق مسدود» يؤكده طرحها المبني على «التعاطي» بأسلوب مراوغ، هدفه تثبيط الهمة العربية، وإتاحة الفرصة أمام إسرائيل، لإعادة حساباتها في التعامل مع «حرب الإستنزاف» التي بات مؤكداً؛ أن ليس في

تفكير عبد الناصر الرجوع عن قراره بشأنها.

لكن «القدر» كان له حسابات مختلفة...

ففي يوم الثامن عشر من أيلول ـ سبتمبر من العام نفسه، أي بعد أقل من شهرين على طرح مبادرة «روجرز» توفي عبد الناصر.. وتولى نائبه الأول، الرئيس أنور السادات المسؤولية، وهو يؤمن بالقناعات نفسها التي انتهى اليها عبد الناصر.. فأخذ ـ منذ البداية ـ يعد العدة لمعركة التحرير؛ بعدما نفض يديه من جدوى جميع المبادرات الأميركية عبر مبعوثيها وموفديها، الذين كان آخرهم «هنري كيسنجر» الذي أسرف في وعوده للرئيس السادات، أكثر مما أسرف أسلافه لعبد الناصر.

كان العزم على اتخاذ قرار «معركة التحرير» يشغل ذهن عبد الناصر، منذ مطلع عام ١٩٦٨، أي بعد ستة أشهر من هزيمة حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ . وكان التوجه السياسي، هو تعبئة الرأي العام في مصر والعالم العربي.. لذا، فقد كانت أحاديثه الصحفية، ومناقشاته مع القيادات السياسية والعسكرية، تصب في قناة التهيئة والإعداد لهذه المعركة. وكان يركز دائما على أنه لم يعد هناك سبيل لتحرير الأرض، إلا عن طريق القوة؛ لأن القوة هي اللغة الوحيدة التي تفهمها إسرائيل، ولأن حلفاءها، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأميركية، لا يعملون إلا على تأخير ذلك عن طريق المفاوضات والمماطلات، والمناورات التي لم تعد تنطلي على أحد. وقد ثبتت صحة الرؤية، فإسرائيل التي تكبدت في حرب تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٧٣ من الخسائر العسكرية والبشرية ما لم تتكبد في جميع حروبها السابقة مع العرب، أدركت، أنها لا قبل لها بتحمل حرب طويلة المدى؛ فأخذت تلح على واشنطن باتباع «حرب» المفاوضات.

وسياسة الإعداد والتعبئة التي كانت خطة عبد الناصر، ولم يسعفه القدر بتنفيذها، تولاها خلفه الرئيس الراحل أنور السادات. فعلى الصعيد

الإعلامي، كان السادات في مقابلاته وحواراته مع الصحافة، يشير دائما الى أن معركة التحرير بات موعدها قريبا دون أن يحدد تاريخاً لها. ولعل الحديث الذي أدلى به لمجلة الـ «نيوزويك» الأميركية، كان أحد أهم الأحاديث التي كرر الإشارة فيه أكثر من مرة، الى أن «المعركة باتت قريبة»، ومع ذلك لم يؤخذ هذا الحديث في واشنطن على محمل الجد، كذلك اعتبره الإسرائيليون «بالون» إختبار من «بالونات» أنور السادات الذي سبق له أن أطلق منها اكثر من «بالون» اختبار.. وأشهرها، احاديثه عن «عام الحسم»، والإيحاءات التي لوح بها بأن «ساعة الصفر» اقترب موعدها.

والواقع أن الرئيس السادات من خلال تصريحاته الصحفية، كان يضع إسرائيل أمام مفترق طريق، وكان يسبب القلق والحيرة ليس للإسرائيليين بل للأميركان أيضاً.

وفي تلك الحقبة التي بدأ فيها أنور السادات عهده بعد رحيل عبد الناصر، كنت في الكويت. فقد غادرت بيروت مع سقوط آخر ورقة من أوراق عام ١٩٦٩، لأصل الى الكويت متعاقداً للعمل في مجلة «النهضة» التي يصدرها عبد العزيز المساعيد، عن دار «الرأي العام» الصحفية التي يملكها، وكان في الوقت نفسه «عضواً في «البرلمان الكويتي» ورئيساً للجنة الشؤون الخارجية فيه. ومع بداية عام ١٩٧١ تركت عملي في مجلة «النهضة» لأتولى عملي الجديد، كرئيس لتحرير مجلة «صوت الخليج»، وفي موقعي الجديد، كنت ملزماً بمتابعة الأحداث العربية، ومتابعاً لكل ما يجري على صعيد التطورات المتعلقة بالقضية الفلسطينية.

وأذكر أنني كنت لا أدع مناسبة تفوتني، يكون لها مساس بالشأن الفلسطيني. ولما رجعت من رحلتي الى «القدس» أواخر شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٤، عكفت على مراجعة جميع المطبوعات من دوريات يومية واسبوعية؛ كتبت فيها حول الشأن الفلسطيني، عملت على تنسيقها، واختيار ما يتلاءم منها مع طبيعة مضمون هذا الكتاب.

وتصادف أن مررت بافتتاحية نشرت في العدد - ١٣٩ - الصادر صباح يوم الخميس الرابع من شهر شباط - فبراير ١٩٧١، من مجلة «صوت الخليج» أجد من المناسب إدراجها بنصها الحرفي، لاتفاق ما جاء فيها مع ردود الأفعال الإسرائيلية، على حديث الرئيس الراحل أنور السادات، الى مجلة «نيوز - ويك» الذي أشرت اليه آنفاً، وحول ذلك كتبت تحت عنوان:

ماذا سيحدث بعد حفلة أم كلثوم؟.

«محرر رئيسي في مجلة «نيوزويك» الأميركية، أجرى حوارا مع «ليفي أشكول» نشره قبل موته، تناول الوضع بين العرب وإسرائيل، وفيه حدد اشكول موقف إسرائيل «بوضوح» من المناطق العربية التي احتلت في حرب الأيام الستة، قائلاً:

«بوضوح وبدون مواربة، لن تكون ثمة عودة الى الوضع الذي كان قائما قبل حرب حزيران.. بل علينا ان نبحث في حدود جديدة، وإجراءات جديدة.. نحن لا نفكر بالتخلي عن مرتفعات الجولان ولن نتنازل عن شبر من القدس.. أما الضفة الغربية من قناة السويس وسيناء فهذه المنطقة ستصبح أرضا إسرائيلية» - !! -

هذا الكلام نشر قبل سنتين.. وقبل أيام نقلت «الأهرام» تصريحا لغولدا مائير قالت فيه:

«إن إسرائيل لن تقبل ابداً طلب العرب بالإنسحاب من جميع الأراضي العربية التي احتلتها في حرب الـ ٦٧ ثمناً لإقرار السلام».

ومؤخراً أجاب دايان عما ستفعل اسرائيل اذا ما هوجمت من قبل الجمهورية العربية المتحدة في الساعة السادسة من صباح الخامس من شباط.. قائلاً:

«إننا سنهاجمهم في الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم».
هذه التصريحات ومثل هذه التصريحات يرددها حكام إسرائيل، بينما لعبة البحث عن السلام تستمر بين أروقة الأمم المتحدة، ومبعوث السلام «يارينغ» رايح.. جاي من القاهرة الى القدس... ومن عمان الى واشنطن.. وكلما احس بالتعب ـ ! ـ يستريح في سفارة بلاده بموسكو.
هذه التصريحات يطلع عليها الرأي العام العالمي والعربي.. ورغم ذلك ما تزال المفاوضات غير المباشرة مستمرة بين العرب وإسرائيل!؟
ورغمها ايضا، استمر التحرك السياسي المصري الذي شمل معظم العواصم في أوروبا وآسيا، وافريقيا، لشرح موقف العرب ولكسب التأييد التام والمطلق من الدول «الصديقة» وبعد هذا كله، ما الذي سيحدث بعد منتصف الليل الآتي؟
وقبل الإجابة نتساءل، الى أين وصلت القضية بعد استمرار وقف اطلاق النار ستة أشهر؟.. الى أين وصلت القضية بعد المباحثات والمفاوضات والتحركات السياسية والديبلوماسية؟ الى أين وصلت بعد كل ما ارتكبته إسرائيل من اعتداءات خلال فترة وقف إطلاق النار، وبعد الإشتباكات الدموية «الأخوية»؟.. وبعد سلسلة مؤتمرات القمة التي انعقدت للبحث عن حل للقضية؟
الجواب بكل هدوء.. وبكل بساطة.. «القضية» سارت في طريق مسدود.. وأصحاب «القضية» ما يزالون تحت الخيام، أو باتوا بلا خيام.
نعود الى السؤال، ما الذي سيحدث بعد منتصف الليل الآتي؟.. تقول الأخبار انه «ليس في القاهرة ما يشير الى ان مصر مقبلة على معركة والذي يجري في القاهرة يشير الى ان الأمور بخير» ـ ! ـ

هل هذا يعني ان «أم كلثوم» ستحيي حفلها الغنائي الشهري في بداية هذه الليلة التي ينتهي بعد منتصفها موعد وقف إطلاق النار؟. هل ستحيي «أم كلثوم» حفلتها الغنائية في جو «تجارب الغارات الجوية وإطفاء الأضواء في القاهرة»؟. مندوب مصر لدى الأمم المتحدة أعلن «ان رد إسرائيل على المذكرة المصرية لا يشكل نبأ ساراً بالنسبة اليه» ومع هذا يقول المراقبون الدبلوماسيون ان الزيات لم ينتقد الموقف الإسرائيلي، وهذا ما يدفع الى التكهن بأن الباب ربما فتح أمام تمديد وقف إطلاق النار قبل بزوغ فجر غد، رغم ان السيد محمود رياض صرح الى «وكالة الأنباء السعودية» انه «اتضح لنا ان إسرائيل غير جادة في تنفيذ قرار مجلس الأمن لذلك لا نستطيع الإلتزام مرة أخرى بوقف اطلاق النار ما لم يكن هناك تحرك جدي من اجل تنفيذ قرار مجلس الأمن».

لو ان إسرائيل أرادت الإلتزام بهذا القرار لما ألحت في مطالبتها بتمديد وقف إطلاق النار، ان اسرائيل تعرف كيف تحاربنا سياسيا وإعلاميا وعسكريا. ومن يتفهم ويدرك معنى تصريحات اشكول ومائير ودايان، يؤمن بضرورة العمل برأي ديغول الذي نشره محمد حسنين هيكل في مقاله «بصراحة» بعدما سمعه من فم كوف دي مورفيل. هذا الرأي يقول:

«ان اصحاب اي قضية مطالبون بأن يجعلوها قضية ساخنة، ولا ينبغي لهم مهما كانت الظروف ان يتركوها تبرد».

وبعد.. هل نلصق اذاننا هذه الليلة بأجهزة الراديو لنستمع الى غناء أم كلثوم، ونترقب ما سيحدث بعد حفلة أم كلثوم، أو نريح أعصابنا وننام على حرير لاننا غير مستعدين - الا لتمديد وقف إطلاق النار؟».

انتهى نص الإفتتاحية...

وبقي السؤال مطروحاً، وما يزال قائماً منذ أربعة وعشرين عاماً.

لكن أحداً - مهما كان موقعه وشأنه - لا يمكن له إلا الإعتراف بأن سياسة إطلاق «بالونات» الإختبار، التي اعتمدها الرئيس الراحل أنور السادات، قد أجدت.. وأتت أكلها.

فمع مطلع عام ١٩٧٣، غدا في حكم المؤكد، وانطلاقا من القناعة باستحالة جدوى المفاوضات، أن اللجوء الى عمل عسكري كبير، لم يعد منه مناص. وكانت الإتصالات السرية بين الرئيس السادات والرئيس الأسد مستمرة، والتنسيق قائم ومستمر على أعلى المستويات، وأثمر ذلك، عن استعدادات عالية بين القيادات العسكرية في دمشق والقاهرة، ولم يبق، الا تحديد موعد «ساعة الصفر».. المتوقف على قرار «سوري - مصري» مشترك، بقي سراً بين الرئيسين، ولم يعلم به أحد من رجال القيادات العسكرية في البلدين الشقيقين، الا قبل ساعات معدودات من بدء عبور القوات المصرية قناة السويس، وبدء هجوم القوات السورية على مرتفعات الجولان.

وبقية تفاصيل «حرب رمضان» باتت معروفة من القاصي والداني، وقد كتب حولها الكثير، ووضعت مؤلفات عديدة حول أسرارها.. ولا أظنني أضيف جديداً في كتابة المزيد عنها، ولكن، يحسن بنا العودة الى المنطلقات الأساسية التي اندلعت من اجلها الحرب، وهي مسجلة بتفاصيلها، وبوجهات نظر متعددة في كتب عربية، واسرائيلية، وانكليزية.

ولعل أبرز هذه المنطلقات، هي ما سجله السيد محمود رياض في مذكراته على النحو التالي:

أولا - إن الهدف من حرب اكتوبر هو تحريك القضية سياسياً.

ثانياً - إن دخول مصر وسورية المعركة بعد مضي اكثر من ست سنوات على الإحتلال الإسرائيلي [المقصود ما استولت عليه إسرائيل نتيجة حرب الأيام

الستة] قد أكد أن الدول العربية لا تقبل بالأمر الواقع الذي أرادت إسرائيل أن تفرضه عليها بالتنازل عن الاراضي او اجزاء منها.

ثالثاً ـ ان وقف إطلاق النار الذي دعت الولايات المتحدة مصر وسورية لقبوله دون ربطه بانسحاب إسرائيل من الاراضي العربية، هو اقتراح في صالح إسرائيل. ولذلك فقد كان هناك إجماع على ضرورة ربط وقف إطلاق النار بالإنسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية.

انتهى كلام محمود رياض...

وبقي السؤال قائما ومطروحاً بالحاح..

ما الذي تحقق منذ ١٩٧٣ الى الآن؟..

قد يجيب البعض بأن الفلسطينيين توصلوا الى اتفاق «أوسلو» الذي منحهم «شبرين» من الأرض، شبر في غزة وآخر في أريحا.

وقد يرد البعض الآخر، بأن الأردن توصل الى عقد اتفاق سلام مع إسرائيل يضمن حقوقه؟؟..

وقد يقول بعض ثالث، ان المفاوضات جارية لعقد اتفاقية سلام بين سورية وإسرائيل... وبذلك تكون المشكلة قد حلت نهائياً، وأن «السلام» وجد ـ أخيراً ـ فرصته ليخيم على منطقة الشرق الأوسط، وينشر الرخاء والرفاهية على شعوب المنطقة!!..

فهل هذا هو المطلوب فعلا؟..

وهل ما تحقق ـ حتى الآن ـ تحقق بعدل وإنصاف؟..

أبدا.. هذا ما يرد به ـ بحدة ـ «البعض» الأخير.

وأنا «واحد» من هذا «البعض» الأخير؛ الذي «يدعو» الى (السلام العادل)، القائم على إعادة الحقوق المشروعة بكاملها للعرب.. ويرفض «الإستسلام» الذي يلحق المهانة ليس بالأنظمة العربية الحاكمة، بل بكل فرد عربي، لديه قدر من عزة النفس والكرامة.

11

لقد كانت مشاريع الحل الشامل - قبيل كامب ديفيد - تتضمن إنسحابا إسرائيليا من الأراضي العربية كافة، مقابل، إحلال سلام دائم مع إسرائيل - ما دامت قدراً مقدوراً - على العرب - وإقامة علاقات طبيعية بينها وبين العرب.

وقد مضى حتى اليوم، إثنان وعشرون عاماً على حرب ١٩٧٣، وهي الحرب التي نشبت من أجل تحرير الأراضي المحتلة برمتها، وليس من أجل «تحريك القضية سياسياً» على حد تعبير السيد محمود رياض، - الذي كان مستشارا للشؤون السياسية للرئيس أنور السادات عام ١٩٧٢ ثم تولى منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية الى ان استقال في اذار - مارس ١٩٧٩ - وهو رأي يعكس موقف وزراء الخارجية العرب الذين تواجدوا في نيويورك للإتفاق - حينها - على موقف موحد، ينتج عنه ما يجب عمله في الأمم المتحدة من خلال الإتصالات مع ممثلي الدول الكبرى الأعضاء في مجلس الأمن.

نعم... لقد قامت حرب «تشرين - اكتوبر» من اجل تحرير كامل للأراضي العربية، وليس من أجل «تحريك القضية سياسياً» لأنها كانت حرب «تحرير» وليست حرب «تحريك»... وحسب، وما أزال أذكر كلمات للرئيس السوري حافظ الأسد، في خطاب ألقاه - خلال الأيام الأولى من الحرب - وردده بعض الإذاعات العربية، ونقلته شاشات التلفزيون، وكنت أتابع الخطاب مع عدد من الزملاء والأصدقاء، على شاشة التلفزيون الكويتي،. وأذكر أنني سمعته يؤكد ما معناه، وليس بالنص الحرفي، قوله: «إننا لم نقم بهذه

المعركة من أجل تحرير الجولان فقط، بل قامت الحرب من أجل تحرير فلسطين وكامل الأرض العربية لأننا نعتبر فلسطين هي جنوب سورية ولا بد لنا من تحريرها».

ومايؤكد صدقية الرئيس حافظ الأسد في أن هذه الحرب هي «حرب تحرير»؛ حواره مع السيد محمود رياض ـ وأنا أنقل نص الحوار من الصفحات (٤٤٦ و٤٤٧ و٤٤٨ و٤٤٩) ـ وقد جاء في الحوار على لسان الرئيس حافظ الأسد:

«إن سورية عندما فقدت معظم مدرعاتها فإنها لم تتراجع عن الإستمرار في الحرب، وإنما استخدمت المدفعية والطيران بكفاءة كاملة للإستعانة بهما في وقف التقدم الإسرائيلي».

ان الرئيس حافظ الأسد يشرح الموقف العسكري في الجولان للسيد محمود رياض في بداية اللقاء الذي تم قبيل منتصف الليل واستمر الى ما بعد الثانية صباحاً، فذكر له:

«إن سورية ـ الكلام للرئيس الأسد ـ ظلت تواصل هجومها على المواقع الإسرائيلية، وفي نفس الوقت الذي كثفت فيه إسرائيل هجماتها الجوية على القوات السورية، مما أدى الى فقدان سورية لألف ومائتي دبابة». ويتابع الرئيس الأسد: «وقد استطاع الجيش السوري ان يلحق خسائر جسيمة بالقوات الإسرائيلية، خصوصا عندما ركزت إسرائيل كل مجهودها لتدمير الجبهة السورية، فدفعت بقواتها المدرعة من خلال الثغرة التي أحدثتها في الجبهة السورية، ووصلت بقواتها الى قرية سعسع. مع ذلك فإن القوات السورية نجحت في وقف الهجوم الإسرائيلي تماماً».

ثم أردف الرئيس الأسد، متحدثاً بالتفصيل، وهو يشرح المعارك الجوية على الجبهة السورية، وباعتباره ضابطا طياراً، فقد جاء حديثه معبراً عن خبرة،

إذ قال:

«إن سورية كانت تستعد للقيام بهجوم مضاد ضد القوات الإسرائيلية يوم ٢١ تشرين الأول - اكتوبر للقضاء على الجيب الإسرائيلي.. وقد لاحظ السوريون.. أن طلعات الطيران الإسرائيلي قد انخفضت في الجبهة السورية من ألف طلعة في اليوم الواحد الى مائتين وخمسين طلعة تقريباً فقط. ومثل هذاالمعدل في الجبهة المصرية، وهذا في حد ذاته دليل أكيد على الخسائر الجسيمة التي أصيب بها الطيران الإسرائيلي».

ويضيف الرئيس الأسد:

«.. لكننا فوجئنا بقرار وقف إطلاق النار، بالإضافة الى ذلك يبدو، أن اسرائيل علمت بهذا القرار عن طريق واشنطن، فقامت بهجوم كبير على موقع هام في جبل الشيخ واحتلته وهو موقع يمكن منه رصد تحركات الجيش السوري حتى دمشق» ثم - وهنا يجب التركيز لإستخلاص حقيقة الموقف الذي أخذ يتخلخل - حين نقرأ كلمات الأسد:

«إنني عندما علمت برغبة الرئيس السادات في الحصول على وقف سريع لإطلاق النار، رجعت الى المعلومات التي وردت لنا من القيادة المصرية، فتبين أنه توجد فرقتان ميكانيكيتان مازالتا موجودتين في الإحتياطي المصري، ولذلك اقترحنا عليهم استخدامهما في مواجهة الموقف، وسد الثغرة الإسرائيلية على الضفة الغربية لقناة السويس. مع ذلك عندما اجتمعت مع الرئيس السادات في وقت متأخر، بعد وقف إطلاق النار، فانه قال لي ان مصر كان لديها وقتها لواءان وليس فرقتين ميكانيكيتين».

ثم... «إن الإتفاق - يقول الرئيس الأسد - بيني وبين الرئيس السادات كان يقضي قيام مصر باحتلال المضايق، الا ان القوات المصرية

توقفت بعد عشرة كيلومترات من شرق القناة».

وأكد الرئيس الأسد بـ «انه لم يكن هناك تنسيق كاف بيننا وبين القيادة المصرية بالرغم من أن الفريق احمد اسماعيل هو القائد العام للجبهتين، وكان المفروض أن تصلنا بيانات صحيحة ودقيقة عن حقيقة الموقف على الجبهة المصرية». وأختتم الرئيس السوري شرحه الدقيق للسيد محمود رياض بقوله: «إن الذين عبروا من القوات المصرية الى سيناء، هم مائة ألف جندي، فأين بقية القوات المصرية»، ويبدو أن الشرح الدقيق الذي تلقاه محمود رياض من الرئيس حافظ الأسد، جعله يعلق بالقول:

«تبين من حديث الأسد ان معلوماتهم قليلة حول مؤتمر السلام المقترح».

فهل يعني تعليقه، أن السادات وصل الى النقطة التي أرادها من الحرب، فعطل التنسيق مع شريكه الرئيس الأسد، تمهيداً للمرحلة التالية التي ستشهد مفاوضات «كامب ديفيد» فلم يعد يعبأ بما يجري على الجبهة السورية؟.

يبدو أن الأمر كان كذلك، لأن السيد محمود رياض يعبر عن قلقه وحيرته بقوله: «شعرت بالقلق الشديد بعد هذا الحديث، فكل ما يجري الآن، وما سيجري في المستقبل، يتوقف تماماً على وجود ثقة كاملة وتنسيق كامل بين مصر وسورية بالذات، وإذا دب الخلاف بينهما فإن إسرائيل والولايات المتحدة تكونان قد حققتا انتصارا أهم وأخطر بكثير مما يجري في ساحة القتال».

وهذا ما حدث فعلا..

فقد سار السادات في طريق «الكامب»، وسارت العرب.. في إتجاه آخر.

وكان التصدع خطيراً، والشرخ ينبىء بانهيارات سوف تحدث مستقبلاً.

* * *

وحتى لا ننكأ الجراح باعادة ذكرى ما جرى، ننتقل الى الدور الذي قام به الرئيس حسني مبارك، لرأب الصدع وإعادة اللحمة بين دمشق والقاهرة.

فعندما تتوقف المعارك العسكرية، وتكف المدافع عن إطلاق قذائفها، يبقى ان يظل العمل بين الأخوة مشتركاً، لتحقيق الهدف الواحد، والمشترك.

وهذا ما حدث منذ بداية عهد الرئيس حسني مبارك، اذ عمل على إعادة اللحمة بين الأخوة، ولقي استجابة... وبدأ التنسيق يعود ليأخذ مجراه الطبيعي بين «دمشق والقاهرة» وتكررت الزيارات واللقاءات بين الرئيسين الأسد ومبارك في اكثر من مناسبة، ولأكثر من غاية... وجميع المناسبات والغايات، كانت تصب.. في قناة البحث عن سلام... وعلى تمتين الروابط بين البلدين الشقيقين.

هنا لا بد لنا من طرح سؤال..

هل أرادها السادات «حرب تحريك» فوصل الى ما أراد بعقد اتفاقية السلام؟..

وهل أرادها الأسد.. «حرب تحرير» لكن توقف التنسيق بينه وبين القاهرة.. ثم انعدامه وتلاشيه، حرمه من أن يحقق الهدف ليرى الأرض وقد تحررت، وتم استردادها كاملة؟

وهنا أيضا، لا بد لنا قبل الإجابة عن السؤال؛ من القيام برحلة سريعة في ذاكرة المرحلة التي أعقبت حرب تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٧٣، لنتعرف الى ما تركته الحرب على النفسية الإسرائيلية من آثار، وما نتج من ردود أفعال.

12

عام ١٩٧٤، وبعد أقل من عام على معالجة الجراح الثخينة التي خلفتها حرب «رمضان»، صدر في إسرائيل كتاب، أعتُبِرَ من أهم الكتب الموضوعة باللغة العبرية عن حرب «يوم الغفران» بعنوان «المحدال». اشترك في وضعه، سبعة كتّاب إسرائيليين يعتبرون من المؤمنين بالصهيونية، وربما من غلاة الصهيونية، لأنهم يلتقون في مسألة قيام الدولة العبرية؛ عند نقطة واحدة أساسية، هي فكرة «الدولةالعنصرية».. ورغم أن مضمون كتابهم، يعكس «إسرائيليتهم» الصحيحة، إلا أنهم لم يكونوا على وفاق في الرأي والتوجه اللذين تنتهجهما المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة.. وبالتالي، لم يتوجهوا في محتويات الكتاب الى «السلطة» التي تحكم؛ بالمديح والتملق، والنفخ في «أبواق» التأييد المطلق، لكل ما تقدم عليه «أجهزة الحكم» الإسرائيلية، ولكل ما تفعله، حتى لو كان خطأ، أو يتعارض مع مصالح الشعب اليهودي في إسرائيل.

وهؤلاء الكتاب السبعة، قدموا وجهات نظرهم بشأن ما ترتب على النفسية الإسرائيلية من نتائج حرب «يوم الغفران» التي سببت جروحاً بليغة، وزرعت الأحزان والمآتم، دون أن يكترثوا بما قد يأتي من «المؤسسة الحاكمة» من رد فعل يناهضهم، أو يحاسبهم - وهذا يذكرني بموقف الحكومة الكويتية الذي اتخذته مني في أعقاب صدور كتابي «أنا كويتي» الذي طرحت فيه تجربتي الذاتية كعربي عاش وعمل في الكويت، ثم ما اتخذته حكومة قطر، بعدما أصدرت كتابي الذي قدمت فيه «تجربتي في قطر» ثم ما صدر من

قرارات من الحكومتين، عُمِّمت على دول مجلس التعاون الخليجي، تقضي بمنعي من ممارسة أي عمل ثقافي أو إعلامي في المؤسسات الإعلامية العربية، التي لدول «المجلس العتيد» سلطان وتأثير عليها. وقد أعود بالتفصيل الى هذا الموضوع في فصل لاحق ـ أقول، إن الكتاب السبعة الإسرائيليين الذين اشتركوا في تأليف كتاب «المحدال»، لم يتوخوا أن يكونوا بوقاً للسلطة الحاكمة في إسرائيل، ولم يكترثوا بما ـ قد ـ ينجم عن موقفهم من أضرار، ربما تلحقها بهم أجهزة الحكم.

كتاب «المحدال» ترجمته الى العربية، وأصدرته «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» في بيروت عام ١٩٧٤ بعنوان «التقصير»، وهو كتاب ـ تقول عنه المؤسسة المترجمة والناشرة ـ تم اختياره «من بين عدد من الكتب العبرية عن حرب ـ يوم الغفران ـ » وذلك للأسباب التالية:

أن الكتاب:

١ ـ يؤكد الحقائق الأساسية التي تنطوي عليها حرب تشرين الأول ـ اكتوبر. وأهمها، كفاءة الجندي العربي، وقدرته على القتال، واستعمال السلاح، بمهارة؛ وسقوط ما أحاط بالإنسان العربي كمقاتل وبسلاحه من تشويه، بعد هزيمة حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ .

٢ ـ يمثل الكتاب شهادة إسرائيلية على هذه الحقائق، شهادة تتسم بالكثير من العفوية. فمؤلفو الكتاب قدموا من تجربة النار تواً، وأصدروا كتابهم بعد الحرب مباشرة.

يقول مترجمو الكتاب في الـ «تمهيد» له:

«تعي المؤسسة ـ يعني مؤسسة الدراسات الفلسطينية التي قام قسم الترجمة فيها بإعداد الكتاب ـ وهي تقدم هذا الكتاب الى القارىء العربي، المزالق التي قد تنجم عن ذلك، ولعل من واجبها، على أي حال، أن تشير بوضوح الى أن في الكتاب الغث

والسمين. وإذا كانت قد حرصت على ترجمة النص الكامل للكتاب، فليس ذلك إنسجاماً مع تقاليدها في الأمانة العلمية فحسب، بل أيضاً لأن عملية الإختيار بحد ذاتها، وفي مثل هذا المجال، ستدخل في الحساب اعتبارات عديدة، تفقد أي عمل جديته، وبالتالي فائدته، ولا تنم في مطلق الأحوال، عن احترام لعقل الإنسان العربي، وحقه في الإطلاع على مصادر متنوعة - ومنها مصادر العدو - وتحقيقها ومناقشتها ومقابلتها. «فالمحدال» ليس مرجعاً تاريخياً عن حرب تشرين، ولكنه جزء من مواد تلك الحرب، يمكن إخضاعه للتحقيق، والمقابلة بمواد من مصادر أخرى»·

ولقد حرصت وأنا عاكف على مطالعة الكتاب، أن أكون على قدر من التركيز، فكنت أضع علامات على فقرات ومقاطع، أجد فيها شيئاً من المبالغة.. وكنت أختار منه ما أراه - من وجهة نظري على الأقل - مقاطع فيها من الصدق والعفوية، ما يجدر بي الإستشهاد به - توثيقاً - لمشاهداتي الشخصية خلال الزيارة التي اطلعت أثناءها، على الكثير مما لم أتمكن من معرفته - بحياد وموضوعية - في الكتب العربية، التي صدرت حول حرب تشرين، أو في وسائل الإعلام، وفي مقدمتها الدوريات العربية التي تصدر يومياً، او اسبوعيا في أقطار الوطن العربي، وفي «المهجر» خاصة في باريس ولندن وبروكسل.. وغيرها من عواصم الغرب.

يقول المؤلفون - مثلاً - في مقدمة الكتاب:

«عدنا من الحرب ووجدنا أنفسنا جزءاً من شعب حزين، ومصدوم، وحائر تساوره التساؤلات. عدنا الى منازلنا والى أعمالنا العادية، ووقفنا حائرين إزاء هؤلاء الذين يريدون السير وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن هذه الحرب لم تقع، وكأنها لم تغيرنا جميعاً. وقفنا مذهولين أمام محاولات الإخفاء والتشويه والتغطية عن التقصيرات التي أدت الى هذه الحرب التي جعلتها تقع كما وقعت، وتنتهي كما انتهت، وأمام

منظر قادة يسعون الى التملص من مسؤوليتهم عن هذا التقصير الرهيب».

وفي جميع الكتب التي قرأتها عن نتائج حرب تشرين على الصعيد العربي، لم أجد سوى اتهامات يكيلها جانب ضد جانب آخر... كذلك لم أقع في الصحف والمجلات العربية، التي احتفظ بأعداد كثيرة منها في «أرشيفي الخاص» على مقال أو تحليل لكاتب و«مُنَظِّر» من كُتّابنا العرب، يمارس عملية «نقد» بشجاعة وحرية - وما أكثر كتّاب العرب ومنظروهم - لكنهم في جل ما يكتبون، يحرصون على إجراء حسابات دقيقة، حتى لا يصطدموا بأمزجة «الرقباء» على المطبوعات التي قد لا تسبب في منع دخول «المطبوعة» الى هذا القطر العربي، أو ذاك القطر فقط.. بل قد تتسبب للكاتب في منعه من الكتابة، وقطع السبل عليه بايصاد أبواب العمل أمامه - وما حدث لي مع حكومتي قطر والكويت - نموذج «مثالي» لهذه الوسائل القمعية.

نتابع ما يقوله مؤلفو كتاب «التقصير» الذي نجد في كل صفحة منه اتهامات للقيادتين العسكرية والسياسية في إسرائيل. وقد جاء في تقرير لجنة «أغرانات» التي تولت التحقيق في تقصيرات الحرب، «مدعماً للإتهامات التي يوجهها المؤلفون الى قياداتهم، وكذلك، فان مسلسل الأحداث الداخلية في إسرائيل بعد الحرب، خصوصا الأزمة التي تمر فيها المؤسسة الحاكمة هناك، يدل على صدق الكثير مما جاء في الكتاب من التنديد بها... ونعود الى مقدمة الكتاب، لنتابع ما يقول مؤلفوه:

«... سبعة صحافيين من ثلاث صحف مختلفة «صقور»، و«حمائم» وأصحاب آراء سياسية متناقضة، وأصحاب وجهات نظر اجتماعية مختلفة(...) ومن الجائز أننا لم نقم دائما بواجبنا، كصحافيين، ولذا فنحن نتحمل قدراً من المسؤولية لا يقل - ولكنه لا يزيد أيضاً - عما حدث(...) إن ما يجمع بيننا هو الإعتراف المشترك بأنه من المستحيل تجاوز ما حدث، ومن المستحيل مواصلة إخفاء الحقيقة المجردة، ومن المستحيل أن

نحجب عن الجنود والمواطنين حقهم الأساسي من ـ المعرفة ـ حق الجنود الذين خرجوا من منازلهم ومن أحضان عائلاتهم مباشرة الى خط النار، أن يعرفوا ما حدث، وكيف حدث، ليس بأقل من حق أصحاب السلطة(...) أن يعرفوا الحقيقة، مهما كانت مرّة، كي لا تعود دولة إسرائيل أبداً تواجه وضعا كذلك الذي واجهته في يوم الغفران ١٩٧٣ في الساعة ١٤,٠٠ بعد الظهر».

* * *

وإني لأتساءل عن مكان ذلك الصحفي العربي وموقعه، ودوره في كشف الحقائق التي أدت الى «إنعدام» التنسيق بين القيادتين المصرية والسورية، وأدى ذلك الى ما أدى اليه؟!... من منا قرأ ـ مثلا ـ مقالة، أو تحقيقاً، توجه بهما كاتبهما الى «مسؤول» يطالبه بعرض الحقائق، لأن من حق الجندي العربي، والمواطن العربي، أن يعرف كل ما يمس الوطن والمجتمع، بل إني لأتساءل، أين ذلك الصحفي العربي الشجاع الذي يقف في وجه الباطل، ويساند «حق» زميل له اذا ما تعرض ذلك الزميل الى «هدر» حقوقه و«قطع» رزقه، و«سد» أبواب العمل في وجهه؟!..

أقول الحقيقة...

بهذه الجملة، استهل الجندي الإسرائيلي «إيلي».. المقطع الثالث من اعترافاته لضابط مدرعات في هضبةالجولان، ونشرت أقواله تحت عنوان «وثيقة» على الصفحة الحادية عشرة وما تلاها من صفحات الكتاب:

«... اشتركت في ثلاث حروب: حرب الأيام الستة، وحرب الإستنزاف، وهذه الحرب. [يقصد حرب ٧٣] وعندما سمعت من الإذاعة عن هذه الحرب، أخذت أرتعد. كنت واثقاً بأنه سيقضي علي هذه المرة وإن

أكون قادرا على التملص من ملاك الموت. خلال حرب الإستنزاف أصبت بشظايا في جبيني وعنقي، وارتطم عمودي الفقري بمؤخرة الدبابة بقوة ١٥٠ كيلوغراماً، وكان من المحتمل ان اصاب بشلل كامل» ـ ويستطرد الجندي بعد تفاصيل ـ «... كنا نرتعد من شدة قصف المدفعية المصرية.. عندما أطلقوا نيران المدفعية نزل علينا كل شيء ابتكره الإنسان ليقتل به أخيه الإنسان»..

ويقدم «إيلي» الجانب الآخر من الصورة بعد عرض مشاعره في حرب الإستنزاف، فيقول:

«...كل موقع محصن في هضبة الجولان كان بحد ذاته معركة أصعب بأضعاف المرات.. في هذه الأثناء استدعيت طائرات الفانتوم لتساعدنا في هذه المعركة الرهيبة، وهنا وقع الحادث الذي كاد يحطمني تماماً... سقطت شارة دبابتي المخصصة لسلاح الجو، ويبدو أن إحدى طائرات الفانتوم، ظنت أنني انتمي الى العرب، فقذفتني بصاروخين... وبأعجوبة سقطا على بعد ثلاثة أمتار من دبابتي، ونتيجة الإنفجار الهائل، طارت مؤخرة الدبابة».

لم أحاول تغيير كلمة من النص، بما في ذلك الأخطاء النحوية التي جاءت في الترجمةالعربية.

لكن ما اخترته من فقرات، استهدفت منه عرض صورة عن «الحرية» التي يتمتع بها الجندي الإسرائيلي، والكاتب الصحفي، وحقه في التعبير، وفي محاسبة المسؤولين. وهذا ما نفتقده في معظم صحافتنا العربية.

13

إن حرب الإستنزاف سببت لإسرائيل خسائر لا قبل لها بتحملها، وبسبب ما عانته من تصعيد قامت القوات المصرية به، بدأت إسرائيل تلح بالتعجيل بالمفاوضات.. فكانت ترسل المبعوثين الى واشنطن للإلحاح على البيت الأبيض بضرورة إيجاد «مبادرة» ديبلوماسية من قبلها تعرض على القيادة المصرية، لايقاف هذه الحرب التي باتت وطأتها شديدة، أو على الأقل يتم الإتفاق من خلالها مع مصر لايقافها لفترة ما، ريثما يجري التباحث لإيجاد مدخل الى مفاوضات صلح - قد - تفضي الى عقد اتفاقية سلام دائمة مع مصر، دون أن تلتزم إسرائيل بموجبها بالإنسحاب من بعض أجزاء سيناء ومن بعض أجزاء الجولان - فيما بعد - اذا تم التوصل الى صيغة، تأتي بسورية الى مائدة المفاوضات.

وقد تم - كما ذكرت - في صفحات سابقة، الوصول الى وقف مؤقت لإطلاق النار.. لكن إسرائيل - كعادتها - اغتنمت الفرصة، وقامت قواتها ببعض الإنتهاكات المحرمة. وخلال فترة وقف القتال، أخذت القوات الإسرائيلية تعد بصورة منهجية خططاً لعبور قناة السويس، فقامت تلك القوات بعدة غارات على الجانب الغربي من القناة، كانت أكبرها وأهمها، الغارة التي شنت في الحادي عشر من تموز - يوليو - ١٩٧٠ . وكانت النظرة العسكرية المعهودة في الجيش الإسرائيلي، تقضي بأنه «في حال تجدد القتال، سيكون من الضروري نقل الحرب الى داخل الأراضي المصرية» وذلك للتمكن من تدمير شبكات

الصواريخ المضادة للطائرات.

في تلك المرحلة، كان «الجنرال شارون» قائدا للمنطقة الجنوبية، مسؤولا عن خطط العبور. ويعترف مؤلفو كتاب «التقصير» بأن «شارون.. كغيره من قادة الجيش الإسرائيلي» يعتقد أنه في حال تجدد المعارك بعد انقضاء فترة الأشهر الثلاثة لوقف النار الذي تم اقتراحها على الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، بمبادرة «روجرز» وقدمنا شرحاً وافياً لها، مستندين الى معلومات استقيناها من مذكرات السيد محمود رياض، فانه ـ أي شارون ـ يعتقد «أنه اذا تجددت المعارك حقاً بعد فترة الأشهر الثلاثة التي سرى خلالها مفعول اتفاق وقف القتال الذي تم التوقيع عليه، لا يمكن لحرب الإستنزاف أن تستمر بمنوالها السابق كحرب دون حسم».

ولقد نوهت بأن إسرائيل بذلت ما في استطاعتها للحصول على هذا الإلتزام ـ من عبد الناصر ـ لوقف القتال، كي يمكنها التفرغ لوضع الخطط البديلة التي من شأنها اجهاض أهداف حرب الإستنزاف.

وقد نشر الجنرال ـ احتياط ـ عيزر وايزمن مقالا خلال فترة ما بعد التوقيع على وقف حرب الإستنزاف، وقد أصبح رئيسا لدولة إسرائيل وهو الذي ـ باسمه ـ وجهت الدعوات الى أعداد من المثقفين العرب، وكنت من الذين تلقوا الدعوة ـ وتمت بيني وبينه مقابلة طويلة، دار بيننا خلالها حوار حول مفهوم السلام عند العرب ومفهوم السلام عند إسرائيل، سوف أدون تفاصيله في فصل لاحق.

في ذلك المقال الذي نشره الجنرال احتياط وقائد سلاح الجو الإسرائيلي سابقاً «عيزر وايزمن» قال حسب النص الذي ورد في كتاب «التقصير» بالترجمة العربية:

«إن على إسرائيل أن تضرب المصريين لأنهم خرقوا وقف القتال بواسطة تقريب الصواريخ من خط القناة».

ولم يكتف «وايزمن» بالحث على ضرب «المصريين» بل طالب بـ «الوصول حتى مداخل القاهرة، لكي يصبح بالإمكان الوصول الى اتفاق للمدى البعيد، إذا لم يؤد هذا الأمر الى السلام».

والحقيقة، فان جزءا من الحوار الذي دار بيني وبين الرئيس الإسرائيلي «عيزر وايتزمن» مساء الثالث عشر من شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٤، تركز حول اهتمامه بمسألة «إحلال السلام» متمنياً على الرئيسين حسني مبارك وحافظ الأسد، أن يقوما بزيارة إسرائيل لانه يعتقد أن «السلام» معقود بهما. وقد أثارت لديّ رُغبة الضحك والدهشة معاً.

* * *

عودة الى ما جاء في كتاب «التقصير» للتعرف على رؤية «وايزمن» من مسألة السلام، كما يطرحها مؤلفو الكتاب:

«كان شارون قريباً من نظرية وايزمن، حتى كان يفكر أن بمقدور الجيش الإسرائيلي أن يشكل تهديداً للقاهرة، العاصمة المصرية، وأن هذا التهديد وحده هو الذي قد يحدث التغيير لدى المصريين لحملهم على توقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل».

إذن، فان «السلام» من وجهة نظر إسرائيلية، يتم تحقيقه «بالقوة» أيضا.. فالقوي، هو الذي يصنع السلام الذي يريده ـ على مقاسه أما الضعيف، فعليه ان يقبل بشكل «السلام» الذي يُفْرَضْ عليه. والذي حدث، أن الرئيس الراحل أنور السادات ـ لم يُحَمل ـ على توقيع معاهدة السلام، ولم يُفْرَضْ عليه فرضاً، إذ أنه أقدم عليه وسعى من أجله، حقناً لدماء المصريين، لكنه خرج بما أقدم عليه، على وحدة الصف العربي، مما عزل مصر عن شقيقاتها، وباعد بينها وبين سورية، شريكتها في حرب «رمضان» التي لو

قدر لها أن تستمر، لتغيرت ملامح الصورة التي ترسمها إسرائيل للسلام.

«لقـد هـددت حـرب يوم الغـفـران، خـلال الأيام الأولى، وجـود دولة إسـرائيل في الصـمـيم. بيـد أن إسـرائيل كـانت في وضع حـرج من الناحية السياسية منذ نشوب الحرب وحتى هذا اليوم بالذات».

هكذا يرى مؤلفو كتاب «التقصير» الصورة التي بدت عليها إسرائيل خلال المرحلة التي جرت فيها أيام الحرب.

ويرون أيضاً بأن إسرائيل أصبحت «معزولة تماماً تقريباً في الساحة الدولية، ومعتمدة بصورة مطلقة على حسن نية حكومة الولايات المتحدة»... وكأن مؤلفي الكتاب يريدون الإيحاء بأن الولايات المتحدة لم تكن بكل ثقلها العسكري والسياسي تدعم إسرائيل، وتمنع عنها الهزيمة. وكأنهم يشككون بنوايا حكومة الولايات المتحدة نحو إسرائيل. ومعروف أن الإعلام الإسرائيلي يلعب دوراً خطيراً على الساحة الدولية، ويعرف كيف يذرُّ الرماد في العيون.. وعلى هذا الوتر، يضرب مؤلفو كتاب «التقصير» فيقولون بأن «معظم الدول الأفريقية قطع علاقته بها - أي بإسرائيل - وحكومات دول أوروبا الغربية، التي رضخت لإبتزاز النفط الذي استخدمه الدول العربية، فضّلتْ الحصول على النفط، عن التضامن مع إسرائيل».. - يا للعجب!! - أيكون هذا حدث فعلا دون أن ندري؟ وإذا كان قد حدث، فلماذا توقف القتال إذن، على الجبهة المصرية، ثم على الجبهة السورية؟..

وللحقيقة، والأمانة، والإنصاف... فان الرئيس الراحل أنور السادات، لم يكن في وارد إقامة صلح، أو توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل، دون ان يحصل على تعهد منها، وبضمانة دولية، يلزمها بالإنسحاب من جميع الأراضي العربية.. وقد تولدت هذه القناعة بعد سلسلة من المواقف التي وقفها «السادات» قبل المفاوضات، وأثناءها، الى أن تم التوقيع بعد انتهاء الجولة الأولى من المباحثات التي قادها «هنري كيسنجر» واستخدم

كل ما يملكه من مقدرة سياسية، وديبلوماسية للضغط على مصر لمصلحة إسرائيل.

وبالعودة الى ملفات «أرشيفي الخاص» الذي احتفظ به في لندن، وقعت على ما يؤكد صلابة السادات في مواقفه التفاوضية. وأنا إذ أسجل هذه المعلومات، فانما استهدف عرض الصورة كما كانت عليه خلال مرحلة التفاوض، أوائل العام ١٩٧٥، لا دفاعاً عن «السادات» الذي دفع حياته ثمناً لمواقفه، وإنما إنصافاً للحقيقة التاريخية.

ففي مساء يوم السبت الثامن من شهر آذار ـ مارس ١٩٧٥ استقبل الرئيس أنور السادات، وكان مجتمعا بالدكتور كيسنجر في استراحة الرئاسة في مدينة أسوان، استقبل عددا من الصحافيين الأجانب بعيد انتهاء الجولة الأولى من مباحثات المرحلة الأخيرة لتحقيق انسحاب إسرائيلي يشمل الممرات في سيناء ومنابع النفط في «ابورديس». وكان أهم سؤال وجه الى الرئيس السادات، من مراسل «النيويورك تايمس» الذي كان من ضمن الوفد الصحفي المرافق للدكتور كيسنجر. لقد سأله: هل انتم على استعداد لإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل مقابل انسحابها من الممرات وحقول النفط؟

واجاب الرئيس السادات: اذا رضيت بانهاء حالة الحرب مقابل انسحاب جزئي، فكأني أعطي إسرائيل تفويضا بالبقاء في الأراضي العربية المحتلة الأخرى، واشجعها على عدم اعطاء الشعب الفلسطيني حقوقه المشروعة.. فهل تقبلون لي مثل هذا الموقف؟

وليس بي حاجة الى أي تعليق على ما جاء في إجابة السادات، سوى التأكيد، بأنه كان يحاول ان يصل الى أقصى ما يمكنه الوصول اليه، في موقفه التفاوضي، لارجاع الحقوق العربية، واستعادة حقوق الفلسطينين المشروعة، وليس القبول بتحرير سيناء، واسترجاعها كاملة وحسب.

لكن السؤال الذي يظل قائماً هو:

هل أراد الرئيس أنور السادات، ان تكون حرب رمضان حرباً محددة «لتحريك» القضية

سياسياً، فقبل الدخول في مفاوضات السلام مع إسرائيل، وأوجد بذلك فجوة بينه وبين الرئيس حافظ الأسد، الذي كان يريدها «حرب تحرير» لكامل الأرض المحتلة، لكن اكتفاء السادات بما وصل اليه، ثم قيامه بمبادرته التي «خرقت» الإتفاق الذي كان قائما قبل بدء الحرب وخلال المرحلة الأولى منها، جعلته يصاب - ربما - بخيبة أمل، واضطرته لتجميد الوضع على الجبهة السورية قبل أن يتحقق الهدف؟

عودة أخرى الى كتاب «التقصير» لنلتقط المشهد التالي عما كان يحدث على الجبهة السورية:

«... صحيح أن السوريين يقاتلون بصورة لا بأس بها، يقاتلون تماما كما تعلموا، وكما خططوا سلفا(...) وفي ظهيرة يوم الثلاثاء ٩ تشرين الأول - اكتوبر كلفت قوة قوامها مدرعتان، ووحدة مشاة مؤلفة من أربع ناقلات جنود، بانتزاع التل من أيدي السوريين، وكانت دبابة سورية واحدة متخندقة في مدخل التل، بينما كان على التل نفسه عدد كبير من جنود المشاة السوريين. وفي اللحظة التي ظهرت فيها القوة الإسرائيلية على سفح التل، اطلقوا عليها النيران من جميع أسلحتهم، وأصابوا فورا قائد إحدى الدبابات».

ونسترسل قليلاً مع ما جاء في الكتاب:

«... غير ان الدبابة السورية التي على مدخل التل، وهي مخفية كلها تقريبا، كانت تطل من حين لآخر لتخرج فوهة مدفعها وتطلق النيران على القوة المهاجمة... واصلت القتال فأصابت الدبابة وثلاثة من ناقلات الجنود، واشعلت فيها النار. كانت الطريقة الوحيدة لضرب الدبابة السورية المنفردة، بواسطة جنود المشاة.. فالجنود الذين قفزوا من الناقلات المصابة، أحاطوا بالدبابة وأطلقوا عليها النيران، وألقوا عليها قنابل يدوية. ولكن الدبابة السورية بدت وكأنها ترفض أن تصاب.. وكانت تطلق النيران بصورة

متتالية على مجموعات المشاة التي حولها، حتى ان قائدها القى قنابل يدوية من البرج على مهاجميه، وأصابت احدى القنابل التي ألقيت عليه الغطاء الذي يقيه، ولكنه استطاع ان يلقيها ثانية على الجنود الإسرائيليين، وأخيرا نفدت ذخيرة رجال الطاقم السوري، فقفزوا من الدبابة وحاولوا الهرب، لكنهم سقطوا بنيران مدفع رشاش».

في مقطع، نجد أن «السوريين يقاتلون بصورة لا بأس بها، يقاتلون تماما كما تعلموا».
ثم نكتشف في نهاية المقطع، ان دبابة سورية واحدة استطاعت ان تواجه قوة إسرائيلية، وأن تصيب «فوراً قائد احدى الدبابات الإسرائيلية»، وتظل تلك الدبابة السورية الواحدة تطلق النيران على مجموعة المشاة التي حولها، وتستطيع أن تعيد احدى القنابل فتلقيها ثانية على الجنود الإسرائيليين، ويواصل طاقمها القتال حتى تنفد ذخيرته، فيضطرون للقفز من الدبابة محاولين النجاة بأنفسهم، لكن نيران مدفع رشاش اسرائيلي تحصدهم.

إنها صورة تدعو الى وضع اكثر من علامة استفهام حول ما جاء على وصفه قلم كتاب «التقصير».. وما يدعو الى الدهشة والإستغراب اكثر، تتمة «المشهد» الذي جاء وصفه على النحو التالي:

«عندما استولى السوريون على الموقع والتلال المحيطة به، انزوى جنود الجيش الإسرائيلي داخل الحصن ذي الجدران السميكة من الإسمنت، وأغلقوا وراءهم الأبواب الفولانية غير القابلة للإختراق، ومنعوا السوريين من الدخول الى الحصن نفسه، وداخل الحصن، المبني من ثلاث طبقات تحت الأرض، انكفأت كل مجموعة في إحدى القاعات التي كانت تحتوي على معدات الكترونية، حديثة جداً، وأغلقت عليها الأبواب الفولاذية الداخلية.. وفي اليوم التالي، استطاع السوريون دخول الحصن نفسه عن طريق الباب الذي تركه قائد الموقع

مفتوحاً وراءه، واستولوا على الأجهزة الموجودة فيه، وعلى رجاله.. واستطاعت احدى الوحدات الصمود خمسة أيام وهي محصنة وراء الأبواب الفولاذية الى ان استسلم افرادها واسروا».

حول هذا المشهد، أرى من الواجب ان اسجل القصة كما رواها أخ لي - غير شقيق - كان قد اشترك في هذه العملية - أو عملية مماثلة فبعث الي برسالة بعد اعفائه من الخدمة لإصابته في أواخر ايام القتال، وقد نشرت الرسالة حين استلامها في مجلة «النهضة» الكويتية التي كنت عام ١٩٧٣ سكرتيراً لتحريرها؛ فان تمكنت من العثور على نص الرسالة بين أوراقي، نشرتها بنصها الحرفي. او سأعمد الى روايتها معتمداً على الذاكرة. وسأرجيء الأمر، الى أن أفرغ من عرض الاثار النفسية التي خلفتها حرب «رمضان» في نفوس شرائح المجتمع في إسرائيل، بعد استعراض الموقف المبدئي لسورية بشأن القضية الفلسطينية، وفي مجال علاقاتها السياسية دولياً، وبشأن قضية الحرية، وأهميتها لحياة الإنسان، حتى يكون مواطناً يرتبط بالوطن ويلتحم بقضاياه المصيرية، دون أن يخشى من أي مساءلة، أو حساب، حول رأيه ومعتقده.

* * *

ألقى الرئيس السوري حافظ الأسد - بصفته الأمين العام لحزب البعث العربي الإشتراكي - كلمة في الجلسة الختامية للمؤتمر القطري السابع يوم السادس من شهر كانون الثاني - يناير عام ١٩٨٠، استعرض فيها مختلف القضايا في المجالات المرتبطة بالحياة السياسية في القطر العربي السوري، ثم حدد خط سورية في سياستها العربية والدولية، والتزاماتها من منطلقات السياسة القومية لسورية، لتحقيق الأهداف المرحلية للأمة العربية؛ مركزاً على:

◆ التحرير الكامل لجميع الأراضي العربية المحتلة، وعدم التنازل، أو التفريط بأي جزء منها. (وهذا الطرح يأتي منسجماً ومتطابقاً مع ما جاء في «الميثاق» الذي قدمه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٦٢)، مثلما يتطابق مع السياسة المصرية في عهد الرئيس حسني مبارك.

وهذا التاكيد، يعني بوضوح، أن المساومات ـ من خلال المباحثات والمفاوضات ـ الجارية منذ «مؤتمر مدريد» ١٩٩١ لن يسمح بها، ولا يمكن الرضوخ لأي ضغط من الضغوط التي تحاولها الولايات المتحدة الأميركية. لجر سورية إلى «التوقيع» على أي اتفاقية سلام، قبل إعادة الحقوق المشروعة للأمة العربية، وأولها حق الفلسطينيين بإقامة دولتهم المستقلة على الأرض الفلسطينية.

وربط الرئيس السوري تلك النقطة المتعلقة «بالتحرير» بقرار:

◆ الإستمرار في التصدي لجميع محاولات تصفية قضية فلسطين، ومحاولات تحويلها من قضية شعب طرد من أرضه، الى مسألة «إدارة ذاتية للسكان» ـ على غرار اتفاقية «غزة ـ اريحا» ـ التي ما يزال تنفيذ بنودها متعثراً، تمهيدا لتصفية نهائية للسكان والأرض.

كذلك أكد على:

◆ إبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية أمام الرأي العام العالمي، والتاكيد على أنها جزء من الشخصية القومية للأمة العربية، وتعزيز البعد القومي لهذه الشخصية والقضية الفلسطينية.

وأنهى هذه التأكيدات، بضرورة:

◆ بذل الجهود لتحقيق الوحدة الوطنية الفلسطينية، ودعم منظمة التحرير الفلسطينية، باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني.

بهذه الصورة الواضحة، لا يبقى ثمة لبس في مواقف سورية من القضايا المصيرية، التي لا تقبل المساومات، مهما حاولت إسرائيل إطالة أمد المفاوضات من أجل تحقيق السلام الذي تعرقل السعي اليه، وفي الوقت نفسه، تضع في طريق تحقيقه العراقيل

والعقبات، وتقيم في وجهه أسيجة من الإسلاك الشائكة؛ وتضاعف من استعداداتها لشن الحرب باسم «السلام» أو، باسم الأمن الذي تريده لنفسها من العرب، الذين [يملكون] القنابل الذرية، أو يهددون وجودها!!... وهذا ما يدعو الى الدهشة والعجب!..

وفي كتاب «التقصير» ما يعرّي غايات ونوايا الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة؛ عندما نقف على نماذج من الشعارات التي يرفعها الإسرائيليون - جنوداً ومدنيين - في وجوه حكامهم؛ تفضح المفارقات الغريبة؛ بتقديم تبريرات للحروب التي تشنها على العرب:

- من أجل السلام... تجب الحرب.
- نحن نقاتل من أجل السلام.
- حرب من أجل السلام!!... يا سلام!

ويأتي في سياق التعليق على هذه المفارقات، حوار بين إسرائيليين على النحو التالي:

«مفارقة! أنظر من يتكلم عن المفارقات...»

ويرد الآخر:

«مفارقة، هي كلمتي التي تنوب عن الغش...».

يقول أحدهما:

«وأيضاً - طهارة السلاح - هي مفارقة؟».

ويأتي الرد:

«ماذا قال؟ ألا يخجل؟ طهارة السلاح!... أقال طهارة السلاح؟!!!».

«نعم، في نظري هذه مفارقة، لأن السلاح الذي يقتل الناس، لا يستطيع أن يكون طاهرا...».

ثم تتتابع الإستطرادات الساخرة من أحد الإسرائيليين:

«وهكذا، سيداتي وسادتي، غدا «السلام» كلمة، خرافة، يوتوبيا .. عنوان فصل آخر في

الصفحات المجعّدة للسياسيين المسنين الذين يضعون شروطاً صعبة جداً للسلام».

وهؤلاء السياسيون المسنّون؛ الذين يسخر منهم الإسرائيليون، هم «اسحق رابين وشمعون بيريز» وقد دفعا الفلسطينيين ـ بوعود تقطر عسلاً ـ الى توقيع إتفاقية «غزة ـ اريحا» وبسببها ازدادت معاناة الشعب الفلسطيني اليومية. **ونحن الذين نشاهد ما يجري من أحداث التفجيرات على الحافلات الإسرائيلية، وفي قلب تل أبيب، على شاشات التلفزيون، نوجه السؤال الى «رابين وبيريز» ومعهما، الراعي الأميركي الصالح: أهذا هو السلام الذي تريدونه؟**
والحقيقة، فان ما تعرضه شاشات التلفزيون في لندن، يعكس «العبث» الإسرائيلي بالسلام، والدلائل على هذا العبث الإسرائيلي، يؤكده السلوك «الميكافيللي» بسياسة رابين.

«إن السلام عندهم، هو عنوان فصل في الإجتماعات الإنتخابية... بينما هو عندنا، مسألة حياة أو موت» يقول الإسرائيليون.

تريدون مفارقة أخرى؟... يسأل الإسرائيلي، ويجيب ساخراً:

«تفضلوا، الشباب الإسرائيلي ـ ولم يبق منه الكثير بعد الحرب الرابعة من أجل السلام ـ يصبو حقيقة، وباخلاص لأن يكون مقبولا لدى العرب، وقريباً منهم.. لكن سياسيينا، يستعملون سوء التفاهم المأساوي الذي حصل بين الشعبين، كسلاح للمساومة السياسية ولتحسين أوضاعهم المهنية الشخصية». ولا يملك المرء حيال ذلك الا ان يرفع حاجبيه، مستغربا ازدواجية السياسة الإسرائيلية، حيال قضية مصيرية!.

نتابع معا: **«.. ويقولون لنا قبل كل حرب وبعدها، إننا ذاهبون الى القتال من أجل السلام، والأمن. ولكني أعرف عدداً من الذين قتلوا، دون أن يفكروا أبدا بالسلام والأمن... فكروا بالزوجة والطفل، وبالوالدين والأبناء... الخ...».**

ويكثير من المرارة في السخرية، يستطرد الإسرائيلي الذي يعاني من خداع حكوماته، بقوله:

«لأن الحرب من أجل السلام شيء لا يكفيني. لا ياسيدي «الوزير» - عضو الكنيست - الجنرال الباسم. لأنني نضجت قليلاً، وقرأت قليلاً من الكتب، وتحدثت مع عدد من الرجال، وأنا أريد أن أعرف، عن أي نوع من السلام تتكلمون بالضبط. أي سلام؟.. كم من السلام؟، سلام مع من؟.. سلام مع زوجتي؟.. سلام مع ريتشارد نيكسون؟.. وأي أمن بالضبط؟. أمن ذاتي؟.. أريد أن أعرف، لأنني تاكدت أن سلامي ليس سلامكم... وأمنكم دائماً أكبر من أمني.. هل هذا هو السلام الذي وعدتموهم به؟»...

وجوابا على السؤال، تزداد السخرية مرارة، إذ يقول:

«سيدي الوزير - القائد الموهوب - رئيس الأركان - الجنرال - المحدال - الرئيس - المحترم - والوطني!.. أنا ابن ست وعشرين، ولدي ولدان، وليس عندي بيت. الأمن والسلام شيئان رائعان ولكن حياتي، أهم من كلامكم.. لست غبياً، وعندما أقاتل، أريد أن أعرف بالضبط من أجل ماذا أقاتل.. فإن كان من أجل السلام، فعندها أي سلام بالضبط؟.. سلام أبيض - أسود؟ سلام ملوّن؟ مرصّع؟.. سلام الثلاثة أشهر؟... سلام حتى يُجَنّد إبني للجيش، ويحارب من أجل نفس السلام بالذات؟...

« ... إنني مستعد للتنازل عن الكثير جداً من أجل سلام وأمن حقيقيين... ولكني غير مستعد للموت من أجل كلمات لا أفهمها إلخ... إلخ...».

ويرتفع صراخ من حناجر الإسرائيليين؛ الذين دمرتهم الحروب من أجل سلام يتحدث عنه حكامهم، ولكنه لا يتحقق.

سخرية مليئة بالمرارة؛ خلفتها حرب «رمضان» التي انتهت؛ ولم يتحقق بها السلام لأحد، ورغم إنجاز اتفاقية «سلام» بين مصر وإسرائيل الا انها ظلت مجرد «إتفاق» حكومي

رسمي، لم يتحول الى «سلام» طبيعي يكتسب شرعيته شعبياً.

فهل انتهت الحروب؟...

من وجهة نظر الكاتب الإسرائيلي «يهونتان غيفن» فإن:

«الحرب لم تنته، ولكن شعراء الأرامل بدأوا يكتبون الأوصاف الزاهية الألوان لذلك الحزن المعربد.. وكتب ذلك الشاعر قصيدة جديدة:

«إنني أعدك يا ابنتي الصغيرة، أن هذه ستكون آخر الحروب.
ربما حربك الأخيرة
ليس حربي
قبل أن يطفئوا جميع الأضواء.. قبل أن يبدأوا التحقيق مع أنفسهم.. ليبرئوها ويغسلوها من كل عيب... قبل أن تفقد كلمة «سلام» كل معانيها الرائعة، التي كانت لها قبل سنوات كثيرة...
تعالوا جميعا نذهب الى البحر.
تعالوا نريهم أننا ما زلنا أحياء.. ولو قليلا!..

14

هنا، تجدر بي العودة الى قضية «الحرية» حرية الرأي والعقيدة... اسمحوا لي بطرح سؤال:

ـ أليست صحوة ضمير أمة ما؛ تكون مرهونة بمدى ما يتمتع به أفرادها من حرية؟...

وهل يمكن لأمة غفا ضميرها، أن تصحو دون أن تسترد حريتها.

إن «الحرية» الفردية، حق من حقوق الإنسان لا يجوز لأي قوة أو سلطة انتزاعها من صاحبها.

وقد حدد ذلك الرئيس السوري «حافظ الأسد» في ختام خطابه، الذي نوهت بأهم ما جاء فيه، ولم يبق إلا أن نعرف نظرته الى الحرية، وموقفه منها في كلماته عن هذه القضية، بقوله:

◆ كما أريد أن أؤكد مجدداً، على الحرية كقيمة كبرى في الحياة، وعلى أهمية أن نتابع العمل لتعزيز مناخ الحرية في بلادنا. فالإنسان الحر هو الإنسان القادر على العطاء.

إن أحداً في بلادنا لن يُسأل بسبب معتقده أو رأيه، ما دام يمارس معتقده ويعبر عن رأيه في حدود الدستور والقانون. طبعاً سيظل دائماً هناك أناس لن يفهموا حدود الدستور والقانون. ولكنهم قلة ولا يمثلون اي شيء فاعل في بلادنا، وبين صفوف شعبنا. ولهذا نحن سنتمسك وسنؤكد أن أحداً في بلادنا لن يُسأل بسبب معتقده، أو رأيه، ما دام

يمارس معتقده أو يعبر عن رأيه في حدود الدستور والقانون.

وإننا نبني مرحلة، أريد لكل مواطن فيها دوراً، وأحمّل كل مواطن فيها مسؤولية، فالوطن بحاجة الى جميع أبنائه... فيه فرص للجميع، وعمل مسؤول للجميع.

* * *

وأذكّر - قبل طي الصفحة الأخيرة من هذا الفصل - بأنني كنت قد نوهت بكتاب «حاييم هيرتزوغ» الذي روى عبر فصوله قصة «الحرب والسلام في الشرق الأوسط» مستشهداً ببعض الفقرات منه التي توضح مخططات إسرائيل التوسعية بتشجيع ودعم ومساندة من الولايات المتحدة الأميركية، وشركائها من الدول التي اعترفت بقرار التقسيم، وعملت على تثبيت وجود إسرائيل في قلب الوطن العربي... وبعد مرور نحو خمسين عاماً.. أخذت الولايات المتحدة، تلعب دوراً مخادعاً - باسم إحلال السلام في منطقة الشرق الأوسط، تنبه له بعض العرب، ولكن في وقت متأخر؛ ذلك أن سياسة الإحتواء والخروج التي تنتهجها واشنطن مع العرب والإسرائيليين، لم تعد مقبولة - على الأقل - من الجانب العربي.

وما أحب التذكير به، والإشارة اليه، هو ما سجله أيضاً «حاييم هيرتزوغ» بعد حرب تشرين الأول - اكتوبر ١٩٧٣، التي كانت سبباً في إنزال أفدح الخسائر - الممكنة - بقوات الجيش الإسرائيلي، مما جعل وجودها - بعد اهتزاز الزلزال - في خطر حقيقي... وما سجله «هيرتزوغ» جدير بالتوقف عنده، إذ اجتاحت إسرائيل - بعد توقف القتال نهائياً - فوضى لم تشهد مثيلاً لها.. كما امتلأت شوارعها وغصت بشتى الفئات من الناس، آباء، وأمهات، وزوجات، وأبناء، فيهم من فقد الأب، وفيهن من فقدت الزوج،

وبينهم أبناء وبنات أصبحوا بلا أسرة... أيامى.. ويتامى.. وأرامل، وعجائز... وعدد كبير من الشباب العائد من ميدان القتال، ملأوا الشوارع وسدوا الطرقات بأجسادهم احتجاجاً على ما ترتكبه إسرائيل، باسم السلام... وبعدما تواصل الإجتياح، أياماً وأسابيع، ولم تعد تعرف القيادات المسؤولة في الحكم كيف تجد مخرجاً من المدّ الشعبي؛ الذي تسبب ليس بتعطيل الأعمال الرسمية وغير الرسمية فقط، بل عرّض البلاد لأزمات شديدة في شتى المجالات الحيوية، نتيجة المظاهرات الغاضبة. احزاب تدعو للسلام ونبذ الحرب مثل حركة (السلام الآن) وغيرها، وراح الإسرائيليون الذين ألّهوا من قبل، وزير دفاعهم (موشيه ديان) يطالبون بطرده ومحاكمته. وشكلت في إسرائيل لجنة (اجرانات) للتحقيق فيما أسموه (التقصير) الذي بدا واضحا في تلك الحرب الرابعة ضد العرب. وصار الشعب الإسرائيلي يشك في كل شيء، بعد أن ضاعت الثقة بينه وبين قادته الذين أعلنوا له اكثر من مرة اثناء الحرب نجاحهم في تدمير الجسور المصرية على قناة السويس، بينما كان في امكان الشعب في إسرائيل، أن يشاهد الدبابات المصرية أثناء عبورها لتلك الجسور المدمرة على قناة السويس، وذلك عبر شاشات التلفزيون الأردني.

كان القادة في إسرائيل قد اعلنوا للشعب هناك ان حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ هي الحرب التي انهت كل الحروب.

والجنرال حاييم هيرتزوغ، مدير المخابرات الإسرائيلي الأسبق والناطق العسكري الرسمي لإسرائيل اثناء حرب تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٧٣ ـ بلور الوضع بأسره حينما قال: لقد تحدثنا اكثر من اللازم قبيل يوم الغفران، وكان ذلك يمثل احدى مشكلاتنا، **فقد تعلم المصريون كيف يقاتلون. كذلك السوريون ـ بينما تعلمنا نحن كيف نتكلم. لقد كانت بياناتهم اكثر واقعية وكانوا يقولون ويعلنون**

الحقائق تماما حتى بدا العالم الخارجي يثق بما يقولون»...

***

ولعل الإشارة التي أحب التوقف عندها، هي في ما يمارسه الإسرائيلي من ضغوط على القياديين من السياسيين والعسكرين، بحرية كاملة - لا تتوفر للمواطن العربي - في العراق - مثلا - أو حتى في البحرين، أو غيرهما من الأقطار العربية التي «تعلن» أن النظام فيها، يقوم على الديموقراطية والحرية، والحقيقة، فان العكس هو الصحيح، إذ ليس خافياً على أحد - أو على الأقل - لم يعد خافياً على المواطن العربي، في الوطن، ان حقوق الإنسان في ٩٩٪ من الدول العربية المنضوية تحت «لواء» جامعة الدول العربية، هي حقوق منقوصة، إن لم نقل معتدى عليها. وأن لا أحد يستطيع المطالبة بهذه الحقوق، التي أقرتها المنظمات والهيئات العالمية، وردها إلى الفرد العربي. بل ليس من المبالغة في القول، إن حقوق الإنسان في بعض البلدان العربية ليست اكثر من سراب خلّب... والسبب أن الأنظمة التوتاليتارية حكمت بالإعدام على الديموقراطية - بدون محاكمة ومن يتذكر أحكام الإعدامات التي أصدرتها محكمة «المهداوي» في عهد عبد الكريم قاسم على مواطنين عراقيين أبرياء، وعلى شخصيات رسمية عراقية من «العهد البائد» لم يكن لها دور حقيقي أو فاعل في نظام الحكم، يعرف كيف كانت النظرة إلى حقوق الإنسان في ذلك النظام، وفي الأنظمة التي أعقبته في العراق وفي عدد آخر من الأقطار العربية المحيطة به، ويعرف أن الديموقراطية، تم اغتيالها، مثلما تُغتال العصافير، وظلت هذه الديموقراطية جثة مهدورة الدم، إلى اليوم؛ الذي انعقدت فيه قمة «الإسكندرية» التي دعا اليها الرئيس المصري «محمد حسني مبارك» كلاً من

الرئيس السوري حافظ الأسد، والملك فهد بن عبد العزيز، ملك العربية السعودية، ذلك أن الرئيس مبارك، الذي بدأ عهده، ببعث الروح في «جثة» الديموقراطية، وعى دروس وتجارب الماضي، ان الأمة التي تحرم من الديموقراطية، تتعرّض حضارتها للإنهيار. والذين غادروا سورية بعد ثورة الثامن من آذار ـ مارس ١٩٦٣، وما قبلها، وتشتتوا في المنافي والمهاجر شرقاً وغرباً بسبب غياب الديموقراطية، أخذوا يعدون حقائبهم للعودة الى الوطن، بعد «الحركة التصحيحية» التي قادها حافظ الأسد.

وبهذه النقلة النوعية؛ مع بداية عهد الرئيس «مبارك» وبعد سنوات على حركة تشرين الثاني التصحيحية في سورية، بعيد انتخاب حافظ الأسد رئيساً للمرة الأولى عام ١٩٧٠، بدأت الروح تعود الى «جسد» الديموقراطية التي بقيت غائبة قبلهما، ثم عادت للنهوض تدريجياً، وما تزال تتعافى. وبعودة الديموقراطية، عودة كاملة، سوف يتعافى «جسد» الأمة، عندئذ يمكن القول، إن الأنظمة التوتاليتارية التي خسرت الحروب، ستنتصر في معركة «السلام» بسلاح الحرية والديموقراطية، ولعل من الأسباب التي تجعل حكومة اسحق رابين تبطيء في الوصول الى اتفاقية سلام مع سورية، هو أن «ديموقراطية» الحوار في إسرائيل بين الحزب الحاكم والأحزاب المعارضة لا تسمح لها بالإنفراد في اتخاذ القرارات المصيرية.

ويذكرنا الكاتب والمعلق الصحفي الأستاذ «رياض نجيب الريس» في فصل من كتابه «قبل أن تبهت الألوان» بما قاله «جان بول سارتر» على لسان بطل قصته «الحائط» بأنه ـ أي بطل قصة سارتر ـ شعر بحريته التامة المطلقة، وللمرة الأولى في حياته، عندما كان ظهره الى الحائط، قبل أن تُطلق عليه النار.

على أنني أختلف مع «رياض الريس» ومع «سارتر» في نوع هذه الحرية التي لا ينالها بطل الحائط إلا بعد اطلاق النار عليه، فهي حرية محكوم عليها بالإعدام سلفاً، وهي

حريةعبثية لا تجدي، ولكنها قد تعطي أمثولة للآخرين، وربما كان هذا ما رمى اليه سارتر، ودفع «الريس» الى التعليق بقوله: «الأمة العربية اليوم، ظهرها كله الى الحائط، بسقوطها نهائيا أمام إسرائيل في الحرب اللبنانية. لذلك يجب أن تشعر هذه الأمة المنكوبة، بمنتهى حريتها، حيث لم يعد لها شيء تخسره قبل أن يطلق عليها أعداؤها النار». انتهى كلام الريس - ويقي أن أقول، في يقيني، فان أحداً، بعد اليوم، لن يستطيع أن يطلق على الأمة العربية النار، ما دامت الروح قد عادت الى «جسد» الديموقراطية؛ التي تشير دلائل عديدة، أنها سوف تزهر عاجلا في بستان «هشام» مثلما أزهرت على أرض الكنانة، وأن شذاها سوف يعطر الهواء الذي يستنشقه كل عربي. وعندئذ، لن يستطيع أحد أن يطلق النار على أي بقعة من بقاع الوطن العربي الكبير... ولن يكون من المحال على الأمة العربية، أن تنتصر في معركة «السلام» دون أن تخاف الحروب العسكرية، التي تلوح بها إسرائيل من أجل «السلام» كما رأينا، وعرفنا.. وكما نرى. ونتعرف على الخطط: التي تعتمدها حكومات اسرائيل المتعاقبة، والمرتكزة على التهديد والوعيد ورفع «العصا» بيد، والراية البيضاء باليد الأخرى.

ولسوف يثبت خطأ رئيس تحرير صحيفة «الحياة» اللندنية، الأستاذ جهاد الخازن، الذي كتب قبل ستة أشهر، من إعلان اتفاقية «غزة - اريحا» مقالة حول قضية الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان جاء فيها بالنص:

«حقوق الإنسان في العالم العربي، مهضومة، وربما كان الحديث عن هضمها خطأ، فهي لم توجد أصلاً حتى تهضم. وحقوق الأقليات مثلها هضماً وانعداماً. ولايختلف بعض الدول العربية عن بعض إلا في أن الوضع سيء في بعضها، وأسوأ في بعضها الآخر»وقد يصح هذا القول وينطبق على الفترة الممتدة من حرب حزيران - يونيو الى حرب رمضان.

وإذا كان هذا الكلام الذي نشر يوم ٢٧ اذار - مارس من عام ١٩٩٣، يصح قوله على

الحقبة الماضية، فانه لا ينطبق - في جلّه - وليس كله، على الحقبة الراهنة، خاصة في المرحلة التي بدأت، بعدما تنفس قطار السلام ... وأخذ يتحرك في اتجاه التسوية الشاملة، ليتحقق السلام على أسس الحق والعدل والحقوق المشروعة لجميع شعوب المنطقة.

* * *

والآن، لا أرى ما يمنعني من القول، ان الزيارة التي قمت بها الى «فلسطين المحتلة» التي صار اسمها «إسرائيل» منذ سبعة واربعين عاما، تجولت خلالها في «القدس» وقابلت مسؤولين وتحاورت معهم بصفتي الشخصية كمثقف «بريطاني» من جذور وأصول عربية سورية، يقرأ ويكتب باللغة العربية، ولا يمثل أحداً، ولا يمثل هيئة، أو نقابة، أو إتحاداً؛ او مؤسسة رسمية، أو غير رسمية.

كما زرت «غزة - وأريحا» وتحاورت مع فلسطينيين على مختلف المستويات؛في مقدمتهم «ابو عمار» ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

وزرت «الجولان» وبعض المناطق الأخرى من الأرض المحتلة، وتحاورت مع الصحافة الإسرائيلية، وتحدثت الى الإذاعة والتلفزيون الإسرائيليين بملء الحرية التي أتمتع بها..

لا أرى - الآن - ما يمنعني من أن أتابع رواية الأحداث كما عشتها،، وليس كما روتها بعض الصحف العربية في الوطن، والمهجر، فشوهت «الحقائق» بقصد أم بدون قصد، ولم يُسمح لي بتصحيحها، ولم تُتَح لي فرصة التوضيح، لأسباب، لن أعفي قلمي مسؤولية شرحها، على امتداد الفصول التالية.

فلنعقلها معاً، ونتوكل على الله... ولنبدأ الرحلة.. ولنتعلم قول الحقائق بصدق، وكما حدثت!..

الكتاب الثاني

أحجية

الجهاد ... والحرية !

دور النفط العربى حرباً وسلماً

1

تجلس وحيداً، وتفكر بما قرأت ليلة أمس...

ما أسوأ أن تصحو متأخراً، وتبدأ باعداد قهوتك وأنت تتثاءب، ثم تبدد بقية نهارك ضجراً... دون أن تتمكن من تنفيذ ما عزمت على تنفيذه، فقد انهكك السهر، وأضنت القراءةعينيك طول الليل.

* * *

«أيها الفلسطينيون...

أخرجوا من بيوتكم، توجهوا نحو التلال.. لا تخافوا.. إننا نعمل على نشر الأمن، وسنعمل على استتبابه في وطننا».

التقطت أذنا الطفل الفلسطيني تلك العبارات التي أطلقها الضابط اليهودي، عبر مكبر الصوت، وتعلقت عيناه بوالده.

لم يفهم الطفل الفلسطيني ـ آنذاك ـ ما تنطوي عليه الكلمات التي التقطتها، أذناه من معانٍ وظلت عيناه متعلقتين بوجه والده، كأنه يبحث في قسماته عن إجابة تبدد الحيرة

التي طوقت رأسه، وملأت ذهنه، لكنه لم يفهم ماذا يدور... ولم يفهم، من بعد، ماذا جرى... وعندما بدأ يعي ويفهم، وجد نفسه خارج الوطن، مشرداً تحت الخيام.
كل ما وعاه، واختزنته ذاكرته، مشهد العربات المجنزرة، تسير فوق منحنيات الدروب الترابية، وتقتحم قريته الوادعة، ثم ينزل منها رجال يرتدون الملابس الكاكي، ويقدح الشرر من عيونهم، يحملون في أيديهم «مواسير» من الحديد، تنطلق النار من فوهاتها، عندما يسددونها الى الأمام؛ عرف - فيما بعد - أنها بنادق ينطلق منها رصاص يقتل.
... ثم يجد الطفل الفلسطيني - بعدئذ - نفسه، تحت خيمة بين مئات الخيام المنصوبة فوق مرتفعات ثلجية؛ ويعرف من ثم، أنه أصبح لاجئاً مع أسرته؛ التي أخرجت من دارها مع عائلات فلسطينية كانت تعيش آمنة، مسالمة، في تلك القرية من القرى الفلسطينية.
ومنذ عام ١٩٤٧، والمشهد المحفور كالوشم في ذاكرة الطفل الفلسطيني «الياس شكور»، يرحل معه، يسافر معه، يأكل معه، فيكبر المشهد.. ويتسع. تتشابك خيوطه وتتمازج ألوانه، لكنه يزداد رسوخاً في ثنايا أرخبيل ذاكرة «الياس شكور»... ويظل السؤال في الذهن قاتماً... ثقيلاً. ومنه تنبثق أسئلة أكثر تعقيداً. وعندما تلوح في أفق المأساة بوادر «السلام» الذي يحبه الياس شكور، ويدعو إليه، من أجل نشر الطمأنينة والأمان بعد تجفيف أنهار الدم، ونزع الأحقاد المتراكمة منذ عام ١٩٤٧، يبرز السؤال الأشد حدة، والأشد قسوة؛ والأكثر مثاراً للحيرة:
} هل يستطيع «السلام» أن يمحو ما تمتلىء به القلوب من حقد متراكم في الصدور؟.. وهل يقدر أن يلغي الكراهية، ويغسل القلوب من أدرانها؟... هل يمكن أن تصفو الحياة والنفوس بعد.. السلام؟..

* * *

عبر روايته «أخوة في الدم» أو «أخوة الدم» التي كتبها الياس شكور بالإشتراك مع "David Hazard" ونشرها بالإنكليزية تحت عنوان "BLOOD BROTHERS"، صدرت عن دار "BAKER BOOK HOUSE" في الولايات المتحدة الأميركية، عبر صفحات هذه الرواية التي تنتمي الى جنس «السيرة الذاتية»، نتعرف الى أبعاد مأساة «الفلسطيني» وتفاصيل رحلته الطويلة على طريق اللجوء والشتات... ونحاول أن نستخلص الجواب عن السؤال المطروح بحدة:
- هل يمحو «السلام» الأحقاد والكراهية والبغضاء بين الفلسطينيين واليهود؟.. أو بين العرب الذين احتلت بقاع شاسعة من أراضيهم بعد حرب الأيام الستة ١٩٦٧، وبين الإسرائيليين الذين ما زالوا يرفضون الإنسحاب منها؟.

من خلال بناء درامي، مزج الياس شكور، بين المعاناة التي عاشها مع أسرته، منذ أن شردها الإسرائيليون، وبين الحالة العامة التي رافقت الشعب الفلسطيني بعد طرده من دياره، ومن ثم الأحداث التي رافقت نشوء مشكلة الشرق الأوسط ووصلت الى ما هي عليه.

بعض النقاد الذين كتبوا عن الرواية ظنوا، أو لاحظوا أن الياس شكور قد أوجد العذر لليهود حول ما ارتكبوه وهو يدعو الى السلام بين «إخوة الدم» بعد نبذ الحقد والكراهية. وأن الياس شكور، «هو أول داعية للسلام والمصالحة بين العرب واليهود» وكان، الياس شكور، أجرأ من دعا طلابه الفلسطينيين الى زيارة المستوطنات اليهودية الغربيين المعروفة باسم «الكيبوتيزم» مثلما دعا الطلبة اليهود؛ الى زيارة القرى الفلسطينية، والعيش وسط الناس لفترة، وذلك حتى تلتقي «القلوب والوجوه؛ لتتصافح الأيدي بعد ذلك بحرارة». فهل هذا ما رمى اليه من روايته؟

مع الإستطراد في تلخيص حياة الياس شكور - كما جاء في الرواية - نستشف الأسباب التي حفزته للدعوة الى السلام. فهو قد «نشأ نشأة مسيحية وحصل على

الدكتوراه من باريس، وكان أول فلسطيني يتخرج من الجامعة العبرية في القدس، بعد أن كسب مودة اليهود - الحمائم والصقور - على حد سواء، لأسلوبه المعتدل المتسامح في الدعوة للتعايش... في أرض الميعاد»! كما تصفها التوراة!..

يستهل الياس شكور «روايته - سيرته الذاتية» بجملة من «التوراة» تتألف من كلمات ثلاث:

«طوبى لصانعي السلام»...

وبعد أن يتعرض لمعاني «المحبة والتسامح، والسلام» التي يختارها من الإنجيل، ويطالب بتطبيقها «حتى مع من يناصبوننا العداء»، يدخل في مسار الرواية، مبتدئاً بصورة عن حياة أسرته البسيطة، يتحدث عن أبيه المزارع التقي، وأمه التي تزرع الأرض الخصبة بأشجار التين والزيتون!.. ثم ينتقل الى مشهد أعرض حين يصف «ذكريات الأفراح وأيام الآحاد والمناسبات الإجتماعية» التي كان أهل القرية من يهود ومسيحيين ومسلمين يجتمعون للإحتفال بها معاً.

يواصل سرد ذكرياته، فيروي بأسلوب مشرب بالنزعة الدينية، او المسحة الإيمانية، التي تشرّبها، وتأثر بها بسبب الجو العائلي الذي تربى بين أفراده، فنشأ «متسامحاً» لا يفرق بين يهودي ومسيحي ومسلم.

وبعد أن يستعرض جوانب من «المعاناة» التي عاشها الفلسطينيون - يهوداً ومسلمين ومسيحيين - عبر تاريخ طويل مشترك رزحت فلسطين على مدار حِقَبِهِ تحت القهر والإستعباد، بخضوعها للغزاة الرومان والفرس والصليبيين، والعثمانيين - لم يأت على ذكر الإنتداب البريطاني - بعدئذ... يَعْبُر، وبشكل يثير الدهشة والإستغراب، الى الحقبة التي بدأت فيها مأساة الشعب الفلسطيني مع الصهيونية، إذ تتفتح عيناه على المشهد الذي ظل عالقاً في ذاكرته وهو طفل، عندما تقتحم العربات المجنزرة والشاحنات قريته،

ثم تطل وجوه غريبة، يصفها بأنها «وجوه ذات قسمات حادة.. شريرة»..

عرف وقتها انها لجنود الصهاينة، ويصور شكور هذا اليوم بأسلوب مأساوي يبدو فيه مشهد القائد العسكري الصهيوني وهو يصرخ في مكبر الصوت:

«أيها الفلسطينيون عليكم أن تخرجوا من منازلكم وتذهبوا للتلال المجاورة ولا تخافوا على شيء، اننا نفرض الأمن على وطننا»!

وكان المنظر المفزع للجنود المدججين بالأسلحة أقوى من أن يفكر في أن يتهرب منه الشيوخ والنساء والشباب والأطفال في القرية الوادعة التي تغير حالها، وتحول سادتها وكبراؤها الى لاجئين في الخيام، أيام الصقيع القارس في عراء التلال الثلجية المتاخمة للحدود مع لبنان.

كانوا يلقون بالرجال والشباب والنساء في الشاحنات، ويقذفون بهم على الحدود في العراء وكثيراً ما دوى صوت الرصاص يشق بطون من اعترضوا او قاوموا من الفلسطينيين.

ويصف شكور مشاعر والده تجاه ما حدث على انها مشاعر الأب الطيب المتسامح الذي رفض أن يحمل أحد أبنائه السلاح في وجه من اقتلعوهم وشردوهم.

وتمر أسابيع والأسرة في العراء الجليدي؛ ولكنها تعود بعد ان بدأت السلطات العسكرية تتساهل تجاه الفلسطينيين لحاجة المستعمرات الجديدة لعمالة رخيصة في الكيبوتيزم وهي المستعمرات الخاصة بالمهاجرين اليهود القادمين من أمريكا وأوروبا.

وتكتمل المأساة حين تتحول الأسرة التي كانت تمتلك الأرض والدار، الى أجراء وعبيد في أرضهم التي آلت الى مستوطن ثري قادم من امريكا.

ومع الخمسينات توسعت إسرائيل في هذه المستوطنات التي احاطتها بالإسلاك الشائكة.. وسهلت للمستوطنين فيها حمل السلاح تجاه من وصفتهم بالإرهابيين واللصوص والقذرين!

وفي لحظات من التمرد والصراع النفسي، كثيراً ما كان يردد: «وما جدوى الحب والتسامح وصرخات الأطفال والنساء وذل الشيوخ تدمي القلب، أمام تحجر الآلة العسكرية المتعجرفة. ولكن قبل ان يتحول الغضب بداخله الى قنبلة كان والده يسرع بنزع فتيلها وهو يهدىء روعه قائلاً «طوبى لمن ظلموكم وظلموا قبلكم الأنبياء.. طوبى لصانعي السلام» وكان هذا الأب ومعه شيوخ القرية قد رفعوا الشكاوى للمحكمة العليا ضد طردهم واقتلاعهم. والمثير ان جيرانهم اليهود القدامى كانوايشاركونهم الألم والغضب مما يحدث، وقد حكمت المحكمة العليا بأحقيتهم في استرداد ديارهم وأراضيهم، ولكن كانت قرارات المحاكم تداس بأقدام العسكر بعد ان تحولت الدولة الجديدة التي أعلن عن وجودها ذات يوم «بن غوريون» في العام ١٩٤٨ كتجسيد للوطن الذي يجمع كل شتات اليهود، وهي فكرة بدأت في مؤتمر بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ بدعوة كاتب يهودي هو «تيودور هرتزل» مؤسس المذهب الصهيوني في أوروبا من اجل إنقاذ المطحونين في تجمعات «الغيتو» في العالم.

كان هذا الرجل هو أول من رفع شعار: فلسطين وطن بلا شعب تنتظر شعباً بلا وطن! ويمضي الكاتب مع مراحل ميلاد الوطن المزروع قسراً من تيودور هرتزل، الى وعد بلفور عام ١٩١٧ إلى غدر الإنكليز بالفلسطينيين الذين ساندوهم في حربهم ضد الأتراك والألمان آملا في الإستقلال. ولكن الإنكليز بعد فترة من الإنتداب سرعان ما حملوا عصاهم ورحلوا، بعد أن أصبحت الإمبراطورية، أضعف من ان يكون لها تواجد عسكري في الخارج، كما أن الضربات الارهابية التي وجهتها للإنكليز بعض المنظمات الصهيونية المتطرفة التي نشأت في الثلاثينات مثل «الهاجاناة» و«أرجون» والتي اصبح شبابها فيما بعد حكاماً لإسرائيل مثل مناحيم بيغن واسحاق شامير وحاييم هيرتزوغ قد دفعت الإنكليز الى التعجيل بالرحيل وترك فلسطين لليهود الصهاينة الذين رفعوا

شعار: فلسطين يهودية مثلما ان انجلترا بريطانية.

ويتابع وصول البواخر القادمة من الغرب بالمهاجرين اليهود في الثلاثينات وما اعقب ذلك من احتكاكات واعتداءات على الفلسطينيين، وصلت ذروتها بصدور قرارات تقسيم فلسطين، التي حملت قدرا هائلا من التحيز لليهود على حساب أصحاب الأرض الأصليين. الا ان المأساة الحقيقية التي فجرت وأجرت - فيما بعد - نهر الدم والحقد، هي مذبحة دير ياسين عام ١٩٤٨ التي قام بها «مناحيم بيغن» الذي رفع شعار «تطهير الأرض المقدسة من الفلسطينيين» وكان هذا الشاب على رأس قائمة المطلوبين لدى الإنكليز،لتورطه في حادث تفجير فندق الملك داود الذي راح ضحيته العشرات من الضباط.

ويصف شكور مذبحة دير ياسين التي راح ضحيتها نحو ٤٠٠ شخص، رجل وامرأة وطفل، بأنها كانت «محرقة» للفلسطينيين، وصلت الى ذروتها في الإجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ الذي تكررت فيه المذبحة بشكل أبشع في مخيمي «صبرا وشاتيلا»!!..

ويرصد تصاعد الكراهية والعدوان الصهيوني بدءاً من ١٩٤٨ وهي الكراهية التي لم ينج منها اليهود الأصليون الذين كانوا جيرانا للفلسطينيين، والذين منعهم بن غوريون من التعامل مع الفلسطينيين او استخدام عمالة منهم او الشراء منهم.

ثم يرصد مظاهر التحرك العربي الذي بدأ من مصر والعراق وسورية والأردن ولبنان لوقف التوسع والعدوان الصهيوني ثم ظهور الفدائيين وأعمال المقاومة، ثم يرصد بألم مظاهر التوسع الصهيوني يوم اجتياح غزة عام ١٩٥٥ ثم غزو سيناء عام ١٩٥٦ بزعم بن غوريون بضرورة وجود منطقة عازلة بين اسرائيل و(مصر - ناصر) التي كان تأثيرها الإقليمي والعربي مرعبا لقادة إسرائيل، في الوقت الذي كانت فيه عمليات مصادرة اراضي الفلسطينيين تجري على قدم وساق طوال الخمسينات لصالح المستوطنين

الجدد.

ويصل الكاتب بذروة الصراع العربي - الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧ دون ان يتجاهل الضغوط التي مارستها إسرائيل على الإدارات الأميركية المتعاقبة من عهد روزفلت وترومان وايزنهاور.. حتى عهد كينيدي وجونسون.. للضغط على البلاد العربية للسماح بخروج الطوائف اليهودية للهجرة الى إسرائيل، وكانت توجد في العراق اكبر وأقدم جالية يهودية في العالم بلغ عدد افرادها ١٣٠ ألفاً عدا ما كان موجوداً في سورية واليمن والمغرب والسودان ومصر.

وهو في رصده لعمليات الهجرة وعمليات الطرد والتهجير ومصادرة الاراضي الفلسطينية، يتبنى دائما موقفاً متسامحاً تجاه كل ما يحدث، بل مبرراً العنف بأنه إرث تاريخي لما لاقاه اليهود من تنكيل وتعذيب وتشتيت، ولكن ان يكون الإنتقام من اخوة الدم وأبناء ابراهيم من الفلسطينيين فهذا ما لا يتصوره...

ينتقل لمرحلة أخرى من حياته العملية في أواخر الستينات حتى يتقدم بأوراقه للجامعة العبرية كأول فلسطيني يدخل بشعار «الحب والسلام والحق»، ويصور السبعينات، على انها فترة المخاض الكبير للسلام، ورغم انه يعترف بأن صوت الصقور في إسرائيل كان قويا ومتصلباً، الا ان قطار السلام الذي اقتحم به «السادات» إسرائيل، قد غير من نبرة هذه الأصوات ثم ما تلا ذلك من وقوف لقطار السلم في أكثر من محطة عربية، فتح عهداً جديداً للسلام. ولكن وكما تساءل في كل رحلاته حول العالم.. هل تبدد الخوف؟ هل زالت الإسلاك الشائكة ونظرات الشك والتوجس في العيون؟...

وهل كف صوت العنف عندهم وعندنا ليفسح الطريق لقطار السلام أن يتحدث بلغة الحب والسلام؟؟ وهي اللغة التي مازال شكور يدعو اليها حتى اليوم، مؤكداً أن السلام الحقيقي هو سلام القلوب.

2

تجلس وحيداً، تفكر بما قرأته ليلة أمس!..

تتناول رشفة من فنجان قهوتك، وتشعل أول سيكارة...

ثم تحمل فنجان قهوتك، وتمضي متوكئا على سيكارتك صوب غرفتك المنعزلة عن حجرات البيت، لتستقر بين أكوام الكتب والملفات والصحف والمجلات، وقد اتخذت القرار على بدء الرحلة، ووضعته ـ للتو ـ موضع التنفيذ، منطلقاً من مبدأ قديم آمنت به، وسرت على هديه هو أن لا تخشى في قول الحق لومة لائم.

ولقد استفزّتك رواية الياس شكور «أخوة الدم» لأنها، أو بالأحرى، لأنه، جانب الحق والصواب في كثير مما سجله في فصول كتابه... رغم أنه حاول، أو ـ أراد ـ أن يقنعك، عندما تقدم بأوراقه ليسجل إسمه كأول فلسطيني، يريد الإلتحاق بالجامعة العبرية، بأنه يدخل أبواب الجامعة العبرية رافعاً شعار «الحب والسلام والحق».

وللحق، فانه أول فلسطيني ـ ربما ـ يعلن تنازله عن «الحق».. وإذا كان هذا «حقه» كفرد.. فليس من حقه أن يدعو الجميع الى تبني هذا الموقف الذي لا يقوم على «المحبة والتسامح» بل يدعو الى مزيد من التنازلات غير المبررة. ولقد عرفت خلال زيارتي، أن في إسرائيل فئة كبيرة، تريد سلاماً عادلاً بعد إعادة الحقوق المشروعة لأهلها ولأصحابها، فليتفضل السيد اسحق رابين بإجراء استفتاء!

لا أحد يجهل بأن التنازلات العربية، منذ صدور قرار التقسيم، بعد رفض قيام دولة موحدة ديموقراطية مستقلة، تضم جميع الفلسطينيين من يهود ومسيحيين ومسلمين، هو الذي جرّ الى المزيد من التنازلات.. وهو الذي أفضى الى ما وصلت اليه «القضية» من وضع مخز ومهين، فيأتي «شكور» ليكمل «النقل بالزعرور» حسب المثل الشعبي المعروف، ويدعو في روايته الى مزيد من التنازلات.

ولكي نوضح أكثر، لا غضاضة من بعض الشرح والتفصيل، بالقاء بعض الضوء مرة ثانية وثالثة:

ففي المقدمة التي كتبتها الروائية الإنكليزية «إيثيل مانين» لروايتها التي صدرت في أعقاب حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧، مترجمة الى اللغة العربية، بعنوان «الطريق الى بئر سبع» ذكرت أنه حتى التاسع والعشرين من تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٧ «كان ثمة بلد يسمى فلسطين، هو الوطن العتيق للفلسطينين القدامى، هو بلد عربي الصبغة بصورة واضحة». هذا ما تقوله كاتبة انكليزية معاصرة، يوحي اسمها «إيثيل مانين» أنها تدين بالدين اليهودي، لكنها لم تحد عن قول الحق. ذلك، بأن جميع المراجع التاريخية التي اطلعت عليها، أكدت لها، مثلما تؤكد لكل مُطّلع، أياً كان انتماؤه الديني، بأنه؛ حين صدر وعد «بلفور» عام ١٩١٧ الذي يؤيد «قيام وطن قومي لليهود في فلسطين، كانت غالبية السكان من العرب» إذ أن نسبة العرب تزيد على التسعين بالمائة، بينما كان عدد اليهود، لا يزيد عن الخمسين ألف يهودي. كان عدد العرب من مسلمين ومسيحيين يقترب من ثلاثة أرباع المليون.

تقول «إيثيل مانين» في مقدمة روايتها:

«في سنة ١٩١٥ كان «السير هربرت صموئيل» اليهودي والصهيوني البارز، قد نادى في مذكرة وضعها عن مستقبل فلسطين، بهجرة ثلاثة او اربعة ملايين من اليهود الى فلسطين، تحت الحماية البريطانية. فوضحت المطامع الصهيونية بصورة لا خفاء

فيها، وثبت ان ما يرمون اليه، ليس إنشاء موطن قومي وملاذ لضحايا الإضطهاد من اليهود في مختلف البلدان، بل الهدف الحقيقي، هو إقامة دولة يهودية مستكملة الأركان».. وهذا يعني الإستيلاء على كامل الأراضي الفلسطينية.

ولكل من يود التأكد ـ من اليهود ـ بالذات، وجميعهم يعرفون الحقيقة ومتأكدون منها، أسوق الحقائق التالية:

١ ـ لما صدر وعد بلفور، كان الحل البديهي ـ في نظر الصهيونية ـ هو مضاعفة الهجرة اليهودية الى فلسطين، ليصبحوا هم الأغلبية.

٢ ـ عام ١٩١٩ أصدر الدكتور «وايزمان» الزعيم الصهيوني تصريحه الشهير بأن «فلسطين» ينبغي أن تغدو يهودية، مثلما تعتبر انكلترا انكليزية!!..

٣ ـ تحقق عام ١٩٢٠ «وعد بلفور» في شكل انتداب بريطانيا على فلسطين. وكان العرب حين قاتلوا الى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك، ظناً منهم؛ أو إعتقادا بأنهم إنما يحاربون من أجل إستقلال بلادهم، فاذا بـ «النكبة» تصيبهم عندما تفرض بريطانيا وفرنسا وجودهما كدولتي «انتداب» عليهم.

ومع نشوب الحرب العالمية الثانية، لم يكن الوطن القومي لليهود قد تحقق.. لكن عدد اليهود ـ بفعل الهجرة ـ ارتفع الى اكثر من نصف مليون، اذ منحت حكومة «الإنتداب» البريطاني على فلسطين، اليهود امتيازات للسيطرة على مقدرات البلاد اقتصادياً، فكانت الصناعات الصهيونية تتمتع بحماية من الدولة المنتدبة، بينما كانت القرى العربية تُدمّر؛ ليفسح المجال أمام اليهود، لبناء المستعمرات. فصار لهم مدارسهم ومستشفياتهم ومنظماتهم السياسية، الى جانب تمتعهم بمعاملة متميزة من حكومة «الإنتداب» البريطاني على فلسطين.

٤ ـ بين عامي ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ طالب العرب في مؤتمر انعقد ـ آنذاك ـ في لندن بقيام «دولة عربية مستقلة في فلسطين» فأحيل الطلب العربي الى الأمم المتحدة.. وبقية القصة معروفة، كانت خاتمتها بصدور قرار التقسيم، وهو القرار الذي قضى بمنح ستين بالمائة من أرض فلسطين لثلث السكان اليهود.. بينما الفلسطينيون العرب من مسلمين ومسيحيين، وكان عددهم يناهز المليون، فقد انتزعوا من ديارهم، وجردوا من أملاكهم، وطردوا، وهُجِّروا، ليتحولوا الى «لاجئين» بعد الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل.

وكرت مسبحة الحروب...

وفي كل اجتماع تعقده الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة، يعاد التأكيد على حقوق الفلسطينيين، وشرعية عودتهم الى بلادهم، أو التعويض الكامل لمن لا يرغب في العودة... ولا يتحقق شيء من تلك الوعود، فهي «وعود» ليس لها قوة وعد بلفور!..

وفي كل اجتماع لمجلس الأمن، تصدر قرارات الإدانة، ولا تتقيد إسرائيل بأي قرار... بل لا تعبأ بما يصدر من قرارات عن مجلس الأمن، أو عن أي منظمة دولية تدينها على عمل من أعمالها العدوانية. ولا تنظر ـ بعين العطف او الإعتبار او الإحترام ـ الى كل ما تتفق المنظمات والهيئات الدولية عليه، بما فيها منظمة دول عدم الإنحياز، التي قامت في ما بعد النكبة بنحو سبع سنوات ولم تتمكن من فرض أي موقف على المجتمع الدولي، تجعله يقف الى جانب الحق الفلسطيني.

لقد انتهى عصر الشتات اليهودي مع قيام الدولة الإسرائيلية...

وبدأ عصر الشتات الفلسطيني منذ ذلك التاريخ، أي قبل ثمانية وأربعين عاماً من اليوم.

فهل يعيد التاريخ نفسه؟...

وهل تحقق اتفاقيات «السلام» قيام دولة موحدة يكون أساسها «الحب والتسامح والسلام» بإقامة العدل والحق، أم أن «القضية» باتت أكثر تعقيداً مما كانت عليه؟..

3

إشرب قهوتك، وخذ نفساً عميقاً من سيكارتك، وامض في رحلتك التي اتخذت قراراً بالقيام بها، ووضعته موضع التنفيذ..

ولتبدأ الرحلة منذ الآن...

ولتنطلق من بين طبقات الصحف والمجلات؛ وتلال الكتب المكدسة حولك، فوق أرفف مكتبتك المعلّقة على جدران «معتكفك» المنعزل وسط حديقة المنزل، بعيداً عن ضوضاء التلفزيون ولغط أفراد أسرتك.

* * *

أتأمل في أرجاء «معتكفي» أرفف الكتب، وقد هدأ طنين «الصوت» المنبعث في أذني. أقرأ عنواناً بعد عنوان «الموجز في تاريخ فلسطين الحديث»، للدكتور عبد الوهاب الكيالي/ «وانفضح سر الحمامة»، قصة عدوان حزيران كما يرويها ثلاثة كتاب سوفيات/ «الجاسوسية الإسرائيلية وحرب الأيام الستة»، تأليف، زفي الدوبي وجيرالد بالينغر. تعريب غسان النوفلي/ «أمتي بين حربين»، فؤاد العادل/ «مهنتي كملك»، الملك حسين/ «ذاكرة ملك»، الملك الحسن الثاني/ «لقاء ومواجهة» في الأدب العبري والعربي، نزيه خير/ «المسلمون والحرب الرابعة» ، زهدي الفاتح/ «العرب ظاهرة صوتية»، عبد الله القصيمي/ «أضواء على حقيقة القضية القومية»، كمال جنبلاط/ «أيام حسني الزعيم»، نذير فنصة/ «غزة... مقاومة دائمة»، معين بسيسو/ «تونس وقضية فلسطين»، الحبيب بورقيبة/ «عائد الى حيفا»، غسان كنفاني/ «يوميات شعب»، إميل توما/ «التصويت والقوى السياسية في الجمعية العامة للأمم المتحدة»،

مصطفى عبد العزيز/ «المطامع الصهيونية التوسعية»، عبد الوهاب الكيالي/ «الديبلوماسية الصهيونية»، الدكتور فايز صايغ/ «التخطيط في إسرائيل»، بسام أبو غزالة/ «أوراق سجين، عشرة أشهر في المعتقلات الإسرائيلية»، أسعد عبد الرحمن/ «الكيبوتز»، عبد الوهاب الكيالي/ «البترول العربي، سلاح في المعركة»، الشيخ عبد الله الطريقي/ «من وحي فلسطين»، عمر بهاء الدين الأميري/ «عاشق من فلسطين»، محمود درويش/ «الإقتصاد الإسرائيلي»، الدكتور يوسف عبد الله صايغ/ «عدم الإنحياز، من بلغراد الى بغداد»/ «القضية الفلسطينية، ندوة القانونيين العرب»/ «الحرب السرية، خفايا الدور الإسرائيلي في حرب الخليج»، سعد البزاز/ «الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية»، خالد القشطيني/ «فلسطين أولاً»، قدري قلعجي/ «من محاضر إجتماعات عبد الناصر العربية والدولية» إعداد عبد المجيد فريد/ «الصهيونية، فكراً، وهدفاً، وممارسة»، إعداد نجيب الأحمد/ «جبهة الصمود في مواجهة معسكر داود»، العماد مصطفى طلاس/ «ماذا بعد عبد الناصر»، صلاح البيطار/ «ضياع أمة» سعيد خليل السحال/ «المسار الصعب ـ المقاومة الفلسطينية، منظماتها، أشخاصها، علاقاتها»، رياض نجيب الريس/ «في قفص الإتهام ـ وقائع معركة حرية التعبير ضد سياسة القمع المنهجي» شفيق حبيب/ «الطريق الى فلسطين» رياض طه/ «حروب إسرائيل والعرب» حاييم هيرتزوغ/ «المنظمة تحت المجهر»، هيلينا كوبان، ترجمة وتقديم سليمان الفرزلي/ «دالية الكرمل في ثلاثمائة عام»، نزيه خير/ «هذا الكون ما ضميره، كبرياء التاريخ في مأزق، والكون يحاكم الإله»، عبد الله القصيمي/ «تأشيرة إنسحاب من صحراء الخليج العربي ـ أنا كويتي» فاروق منجونة(الكتاب الأخير وقد صدر قبل خمسة عشر عاماً) كان من الأسباب التي جعلتني أتخذ القرار بقبول الدعوة لزيارة «إسرائيل» التي كان إسمها «فلسطين» ثم صار لها ملف أخذ يتضخم.. وينتفخ، لدرجة أن أوراقه

باتت تغطي مساحة فلسطين.

* * *

جميع الكتب التي ذكرت عناوينها وأسماء مؤلفيها، وتوالى صدورها منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، قرأتها؛ ووضعت خطوطاً وعلامات على فقرات ومقاطع منها - حين قراءتها - الى جانب عدد آخر - صدر حديثاً - يربو عددها على مائة وثمانين كتاباً، جميعها تتناول القضية الفلسطينية، من جميع زواياها وأبعادها، غير آلاف الكتب الأخرى، كبَّدَتْ ناشريها مئات الأطنان من الورق والحبر، لكنها لم تحقق «للقضية» أي تقدم إيجابي على طريق الحل.. فضلاً عن أربعة حروب، كبدت العرب - حكومات وشعوباً - مئات.. بل آلاف المليارات من الدولارات الأميركية والجنيهات الإسترلينية، والماركات الألمانية، والفرنكات الفرنسية، ولم يصبْ «العرب» - حكومات وشعوباً - من ذلك كله سوى النكبات.. والنكسات.. والهزائم المتلاحقة.

يا إلهي...

كيف يكون الأمر كذلك؟..

وكيف يستهلك «العرب» آلاف الأطنان من الورق، ليطبعوا كتباً وصحفاً ومجلات من أجل «القضية الفلسطينية» دون أن يتقدموا خطوة واحدة الى الأمام على طريق التحرير؟... بل كيف ينفقون المليارات على إعداد الجيوش، ولا يحققون سوى الإنكسارات والهزائم.. ورغم كل الشهداء والضحايا، ضاعت فلسطين، واحتلت مساحات شاسعة من الأراضي العربية المحيطة بفلسطين. مع العلم أن الأناشيد والأغاني التي ألفت، ولحنت، وغنيت، على مدى نحو نصف قرن، كافية لإستثارة الهمم، ولشحذ القوى، ولإيقاظ الضمير.. بدءاً بـ «يا فلسطين جينالك» مرورا بـ «أخي جاوز

الظالمون المدى».. وانتهاء بقصيدة «لأجلك يا مدينة الصلاة».. وهلمجرا.. أفلم يحن الوقت لوضع استراتيجية عربية موحدة، تستهدف التحرير، واسترداد الحقوق المشروعة.. وبالتالي إحلال «السلام» الذي ما يزال البحث عنه جارياً؟.. بدون كتب وصحف ومجلات وبلا أناشيد... وبدون الحاجة الى أسلحة الدمار التي لا تقود إلا الى فناء الشعوب، وتدمير الأرض.

نصف قرن من الزمان و«القضية العربية» ما تزال تدور في حلقة مفرغة!!... هل مات الإحساس بالزمن؟..

* * *

يتحدث الفيلسوف «كيركغارد» عن ساعة حائط كبيرة بلا عقارب، ومصابة بعطب، لكنها لا تكف عن قرع جرسها كل ستين دقيقة، لتعلن، أنه قد مرت ساعة أخرى من عمر الزمن، ولأن عقارب الساعة ضائعة، وأرقامها غير واضحة، الساعة لا تشير، إن كان الوقت صباحاً أو مساء... أو ظهراً أو عصراً، أو منتصف الليل... لكن جرسها يدق!. فهل يرمز «كيركغارد» بهذه الساعة الى أن الإحساس بالزمن قد مات عند ـ بعض ـ من لا يكترث بمرور الزمن؟..

صحيح، أن هناك أناساً لا يحسبون حساباً للزمن، فتمضي بهم الحياة، أو يمضون بها، دون أن يكون لوجودهم نفع أو جدوى. وثمة أمم، وشعوب، تحسب لكل ثانية ودقيقة تمر وتنقضي من الحياة حساباً دقيقاً.. فيركضون في الحياة على دروب التقدم والوعي والمعرفة، يسابقون الزمن ليتفوقوا عليه في تحقيق الأهداف..

والسؤال الذي يقرع رأسي الآن: أين يقف العرب من ساعة «كيركغارد» التي لا تكف عن قرع الجرس كلما مرت ساعة من الزمن؟.. وأين يقف «الإسرائيليون» من هذه الساعة؟

أليس ثمة من يريد معرفة الجواب؟!..

بلى... أنا أريد.

إن من يعرف قيمة الحق، يستحيل عليه أن يراه مهضوما. وإن من يأتي عليه الليل، ولا يتمكن من إسترداد حقه؛ يعز عليه، بل يصعب عليه النوم قرير العين هادىء البال. فكيف يمكن للعرب أن يصبروا على ضياع حقوقهم، ولايكفون عن الصياح والصراخ والدعوة «عبر الصحف» الى الجهاد المقدس؟!..

كان الملك «الراحل» فيصل بن عبد العزيز الذي تولى الحكم عام ١٩٦٤ ـ قبل هزيمة حزيران بثلاث سنوات ـ قد أعلن أكثر من مرة، وكرر إعلانه أمام الدكتور «هنري كيسنجر» في أول لقاء له معه، قائلا له: «أنا رجل طاعن في السن، وقبل أن أموت، أريد أن أصلي في مسجد عمر.. في القدس»... لكن كيسنجر لم يلب للملك فيصل رغبته!!. وبعد اغتياله في قصره، ظهرت صحف ومجلات عربية، مستعرضة تاريخ الرجل ومواقفه، وأقواله «المأثورة» ومنها ـ مثلا ـ قوله الذي يعكس إيمانه بعروبته التي «يثق بقدرتها على تحقيق أهدافها» ومن أقواله حول ذلك:

«نحن أصحاب تاريخ وتراث وأمجاد، ديننا خالد، ومجدنا تالد. كان مكاننا في مقدمة الشعوب، فلن نرضى أن نكون في مؤخرتها».

لكنه... (مات.. قبل أن يصلي في القدس) حسب العنوان العريض الذي ظهر على غلاف مجلة «الحوادث» اللبنانية، العدد الذي صدر يوم الجمعة ٢٨ آذار ـ مارس ١٩٧٥ . يعني أنه حكم أحد عشر عاماً، كان يتمنى ـ وأضع خطاً تحت كلمة يتمنى ـ أن يصلي في القدس قبل أن يموت.. لكن أمنيته رحلت برحيله، مع العلم أنه كملك عربي مسلم، يعرف بأن العرب، كان مكانهم في مقدمة الشعوب، ولن يرضى أن يصيروا في مؤخرتها، ويعرف بيت الشعر القائل:

«وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً»

لكنه مات دون أن تتحقق أمنيته!..

إلا أن معظم الكتاب والمعلقين عبر مقالات تنشرها صحف العرب ومجلاتهم، أجمعوا على أن أمنية «الفيصل» سوف تتحقق في عهد شقيقه «الملك خالد» الذي تمت «البيعة» له، ولم يحكم طويلاً، لإعتلال صحته، ووفاته، تولى الملك بعده شقيقه «فهد» بن عبد العزيز» الذي ما يزال في سدة الحكم حتى يومنا، وقبل التعرف على دور «الفهد» من قضية العرب المركزية «فلسطين» بشكل عام، وقضية «القدس» خاصة.. أجد من الواجب الذي تفرضه «الأمانة» في التوثيق، الإعتراف بأنني حزنت حزناً عميقاً عندما بلغني نبأ اغتيال الملك فيصل، بل ان النبأ أصابني بالذهول، وأنا على رأس عملي في مكتبي بمجلة «العهد» القطرية. وكان المفروض أن أسافر الى «الرياض» عاصمة المملكة العربية السعودية، لأقوم بتغطية «الحدث المفجع» لكن الحصول على «تأشيرة» سفر، دونه ـ خرق القتاد ـ كما تقول العرب، يعني أن السفر من «الدوحة» عاصمة قطر، الى «الرياض» عاصمة المملكة، لا يستغرق ـ طيراناً ـ أكثر من ساعة أو نحوها، يحتاج حامل جواز السفر العربي الى أيام، أو أسابيع، حتى يحصل على «التأشيرة» ليسمح له بالإنتقال من مدينة عربية الى مدينة أخرى.. وبسبب صعوبة الأمر وشدة التعقيدات الروتينية، تولى زميلي «خليل ابراهيم الفزيع» المهمة عني، إذ أنه سعودي الجنسية، لكنه مقيم في قطر، ويعمل معي في المجلة نفسها. ولبثت أتابع التطورات، وتوليت كتابة المقال الرئيسي الذي ظهر على صفحتين من العدد السابع والثلاثين، الصادر يوم الثلاثاء للأول من نيسان ـ ابريل ١٩٧٥، مركزاً فيه على التساؤل عن الدوافع التي أدت الى اغتيال فيصل بن عبد العزيز، قبل أن يحقق أمنيته، ومستنكراً

«الإغتيال» كعمل يقترفه بعض «العرب» اذا ما اختلفوا في الرأي أو الموقف، مع من يعتبرونه خصماً لهم.. أو يعارضونه في مواقفه وأسلوب حكمه.. ذلك، أن «الإغتيال» جريمة بجميع المقاييس ومن مختلف الزوايا، لا يقرها شرع ولا قانون.. ولا تمارس - غالباً - الا في بلدان العالم الثالث، والعربي منه خصوصاً.

مما جاء في ذلك المقال:

«إن الرصاصات الغادرة، لم تصرع الملك فيصل، بل أصابت مقتلاً من قلوب العرب والمسلمين.. فلماذا فيصل، ولماذا في هذه المرحلة؟.

• لماذا يقتل فيصل.. وما الذي يمكن أن يحدث في المنطقة العربية بعد غيابه، وشعوب المنطقة تمر بالمنعطف الخطير، والمنطقة بجميع دولها، تعيش تطورات، هي بالتأكيد من أخطر التطورات التي تواجهها مع العدو منذ حرب رمضان.

• ألأن أمنيته كانت أن يحرر القدس قتل؟!

• ألأن رجاءه الأخير، كان أن يصلي في مسجد عمر؟! بعد أن يطهر القدس؟

• ألأنه وقف وقفة الرجل.. الرجل، في وجه جميع القوى التي تستهدف تمزيق الأمة العربية، وتشطير أقطارها؟

• ألهذه الأسباب استهدفت رصاصات الغدر المجنونة فيصل العرب؟

• أهي المصادفة وحدها، عجلت برحيل الفيصل بعد الفشل الذي منيت به السياسة الأميركية عبر «خطوات» كيسنجر؟.. أتكون الرصاصات وجهت اليه، وهو آمن مطمئن في ديوانه، هكذا، مصادفة، بعد الوقفة الصامدة التي اتخذها الراحل الكبير من التهديدات باحتلال منابع البترول؟

• أسئلة كثيرة جداً تقرع الرؤوس قرعاً فتصدعها.. فلم يكن أحد يحسب أن القدر يريد أن يصيب هذه الأمة المنكوبة، فيأخذ منها «الفيصل» الذي كان قبل أن يمضي في رحلته الى الغياب، ولا يريد الا ان يرى نفسه في محراب مسجد عمر، في القدس، يعانق جبينه الوضاء، ثرى أولى القبلتين.

ولعله الآن في رحاب المسجد الأقصى، ولعل روحه تهتف بالعرب من علياء الرحاب الإلهية.. أن تابعوا المسيرة بخطى قوية ثابتة على الطريق الصحيح. ذلك أن الفيصل كان يريد أن يقود آخر معارك جهاده نحو القدس ليحررها ويصلي، وهو القائل:

• «القدس الشريف» يناديكم يستغيث بكم لتنقذوه من محنته. وهو القائل أيضاً:

• «كيف يمكن أن تكون هناك حلول، أو أن يكون هناك سلام، أو يكون هناك تفاهم، ومقدساتنا مهانة.. وبلادنا محتلة، وشعبنا مضطهد ومشرد؟... واذا لم تكن هذه الحلول تؤمّن استعادة مقدساتنا، واستعادة اراضينا، والحفاظ على حقوق شعبنا المشرد، فكيف يمكن أن نقبل هذه الحلول أو نرضخ لها؟».

* * *

ما يدفعني الى توثيق كلمتي، هو علامة الإستفهام التي استغلق فهمها - مثلما استغلق حلها - عليّ.. وعلى كثيرين غيري، ممن صارت المواقف التي أعقبت رحيل الملك فيصل، مثار تساؤلات كثيرة، لم تؤد الى الدهشة، بل الى ما يشبه الخيبة - أو - الخيبة بكل مرارتها، التي سكنت الحلوق والأفواه والأفئدة، بسبب الأقوال التي يطلقها بعض الحكام العرب، فلا يترجم منها شيء إلى فعل، بل تتناقض كل التناقض مع ما يقومون به من أفعال.

كيف؟...

قلت إن الأمل بالملك «خالد» في القيام بعمل يترجم «أمنية» أخيه الراحل فيصل، كان يحدو الجميع. لكن فترة ولايته القصيرة ووفاته، وبالتالي، تولي ولي عهده «فهد بن عبد العزيز» الملك، واستلامه دفة الحكم، غيرت كثيراً من الأوضاع، بل نقلت «القضية» من حيز التفعيل الى حيز التعطيل... أو، ربما «التغفيل» عنها، رغم أن «فهد بن عبد

العزيز» منذ أن كان «أميراً» يتولى منصب «ولي العهد» الى أن تولى الحكم، وحتى يومنا هذا، وهو يطلق النداء بعد النداء داعياً الى الجهاد لتحرير القدس. وقد مر على ذلك زمن طويل، ولم يقم، أو يظهر «عمل» يترجم تلك النداءات عى مدى عشرين عاماً، أي من عام رحيل الملك فيصل سنة ١٩٧٥، الى عامنا هذا ١٩٩٥، الذي ما يزال فيه «الفهد» ملكاًعلى عرش المملكة العربيّة السعودية.أي عقبة كأداء كانت تعيق عن الفعل؟..

ولتوثيق فترة من تلك المرحلة، لا بد لنا من العودة الى «ملفات الأرشيف» لنتعرف على الحقائق.

ولكن، ـ قبل العودة الى الملفات ـ لا بد من إثبات حقيقة، لا أظن أنها تغيب عن أذهان متتبعي سياسة المملكة العربية السعودية في علاقتها مع الدول الشقيقة. فمن مبادىء السياسة السعودية ـ عربياً ـ أن تبادر للتوسط في كل نزاع ينشأ بين قطرين شقيقين، وتضييق فجوة الخلاف، أو الإختلاف بينهما، بكل الأساليب الممكنة. وهذا المبدأ في السياسة السعودية، قائم منذ عهد الملك المؤسس عبد العزيز، مايزال ساريا حتى عهد الملك الحالي «فهد» الملقب بـ «خادم الحرمين الشريفين».ولم تسع حكومات المملكة المتعاقبة الى أي خصومة مع أي نظام من أنظمة الحكم المتغيرة في الأقطار العربية... كما لم تمارس في وساطتها أي ضغط أو انحياز الى جهة ضد أخرى... إذ أن «الهم» الأول للملوك السعودية، هو توفير الرخاء لشعبها، والعيش بسلام، وتآخ مع جميع الأقطار الشقيقة. ومن هذا المبدأ؛ فان السعودية لا ترغب في استعداء أحد من الأشقاء، حتى لا يتعرض نظام الحكم فيها الى أي اهتزاز، قد تأتي رياحه من الجوار! وبالتالي، حتى تظل الحياة فوق نجودها هادئة مستقرة، وحتى يبقى شعبها ناعما بحياة ترفل بالرخاء والرفاهية والإطمئنان أيضاً على امتداد الكثبان الرملية، وحقول الآبار البترولية.

أما على صعيد القضية الفلسطينية، فقد دأبت المملكة ـ عبر جميع ملوكها ـ على تأييد الحق الفلسطيني، وعلى دعم «القضية» بالمال... والدعوات المتكررة الى الجهاد. و«الجهاد» هو القتال دفاعا عن العقيدة الدينية في اللغة العربية، ولكن أحداً من الملوك السعوديين، لم يطبقه عملياً، إذ كان ملوك «السعودية» يدعون اليه، ويتركون التنفيذ يتولاه الأشقاء، الذين كانوا بدورهم، يكتفون من السعودية بالدعم المالي والمعنوي. ولا أحب الخوض في تفاصيل الأسباب التي جعلت السعودية، لا تشارك مشاركة عسكرية فعالة في الحروب التي خاضتها أمام إسرائيل دول عربية ثلاث، هي مصر وسورية والأردن، فضلاً عن رجال المقاومة الفلسطينية الذين ينتمون إلى نحو أربعين تنظيماً ومنظمة. ومنذ مطلع الثمانينات، بدأت تظهر فصائل مقاومة لبنانية، اشتد عزمها وزاد ضغطها على إسرائيل، بعد الإجتياح الإسرائيلي الذي أدى الى احتلال الجنوب اللبناني منذ عام ١٩٨٢؛ فضلاً عن أطفال الحجارة الذين استطاعوا أن يقضّوا المضاجع في إسرائيل.

ويتجسد دور السعودية في دعم القضية الفلسطينية من خلال دورها السياسي على المستوى الدولي، وبالدعم المالي وحسب، وهو دعم لا ينكره إلا جاحد. لكن ترسانة السلاح السعودية، لم تسهم بأي قدر من «الجهاد» لأسباب لا يعرفها إلا أهل القرار السعودي.

يتبلور الدعم السياسي من خلال المواقف في المحافل الدولية، والرسائل الدبلوماسية، والمشاريع التي تطرحها من أجل الوصول الى حل عادل للقضية.

ويتجلى الدور السعودي ـ سياسياً ـ بشأن القضية الفلسطينية، من خلال الرسائل المتبادلة بين مؤسس الدولة السعودية الملك عبد العزيز،

وبين الرئيسين الأميركيين «روزفلت وترومان».

وفي إحدى رسائله الى الرئيس الأميركي «روزفلت» يقول الملك عبد العزيز:

«... فخامة الرئيس، لقد اطلعنا على ما نشر عن موقف حكومة الولايات المتحدة الأميركيةالخاص بمناصرة اليهود في فلسطين، ونظراً لثقتنا في محبتكم للحق والعدل(...) ونظراً للصلات الودية القائمة بين مملكتنا وحكومة الولايات المتحدة، نود أن نلفت نظركم(...) الى قضية العرب في فلسطين، وحقوقهم المشروعة فيها(...) إن عرب فلسطين ومن ورائهم سائر العرب، بل وسائر العالم الإسلامي، يطالبون بحقوقهم ويدافعون عن بلادهم من الدخلاء(..) ومن المستحيل إقرار السلام في فلسطين ما لم ينل العرب حقوقهم، ويتأكدوا من أن بلادهم لن تعطى الى شعب غريب(...) يا فخامة الرئيس، باسم العدل والحرية ونصرة الشعوب الضعيفة التي اشتهر بها الشعب الأميركي النبيل(؟!؟) أن تتكرموا بالنظر في قضية عرب فلسطين».

وقد مضى على هذه الرسالة نحو ثمانية وخمسين عاماً. ولم تستجب «واشنطن» لنداء الملك عبد العزيز، ولم تعمل على إيجاد حل، تلبية لأمنية الملك السعودي، رغم «الصداقة» التي تربطه بالرئيس الأميركي، مثلما لم يحقق كيسنجر أمنية الملك فيصل.

وقبل قيام «إسرائيل» بعامين، بعث الملك عبد العزيز برسالة الى الرئيس الأميركي «ترومان» جاء فيها:

«.. ورغبة مني في المحافظة على الصداقة التي تربط بين بلدينا(...) وهي الصداقة التي قامت بين الرئيس الراحل روزفلت وبيني(...) ولقد كتبت للرئيس الراحل.. ولفخامتكم(...) عن الموقف في فلسطين(...) وأن اليهود ليسو، الا معتدين بغاة ظلمة(...) وأوضحت لفخامتكم الظلم الواقع على العرب نتيجة مساعدة العدوان الصهيوني(...) وإني لواثق أن فخامتكم(...) لا يمكن أن يناصر الحق والعدل والمساواة ويقاتل من اجلها في سائر أنحاء

العالم ويمنعها عن العرب في بلادهم فلسطين التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم منذ العصور القديمة»... وتقبلوا تحياتي -

عبد العزيز.

لقد حرصت على نقل الفقرات بالنص الحرفي، دون التعرض لما جاء فيها من أخطاء.
ويمكن الرجوع الى النصوص الكاملة لجميع الرسائل، بالعودة الى كتاب «توحيد المملكة العربية السعودية» تأليف محمد المانع.

وبذلك يتضح الدور الذي لعبته السعودية سياسياً وديبلوماسياً؛ في عهد الملك عبد العزيز، وهو دور لا يعدو طرح الأمنيات الشبيهة بأمنية الملك فيصل، التي باح بها أمام كيسنجر من أجل الصلاة في القدس،، ولم «يحققها» له... مثلما لم يحقق من قبله «روزفلت وترومان»» أمنية الملك عبد العزيز، مثلما لن يحقق أي رئيس أميركي، أمنية أي ملك سعودي، رغم الصداقة الوطيدة التي تربط بين «واشنطن والرياض».. وكفى الله المؤمنين القتال..

السؤال.. ألم يحن الوقت لإعادة النظر في هذه الصداقة غير المتكافئة؟

4

يتعاقب الرؤساء على البيت الأبيض...

ويتعاقب الملوك على «قصور» الحكم في الرياض...

وتظل القضية الفلسطينية تراوح مكانها... بل تزداد تعقيداً بفضل «أدوار» الولايات المتحدة الأميركية؛ التي «تناصر الحق والعدل والمساواة في سائر أنحاء العالم» حسب تعبير الملك عبد العزيز. ولا أعرف موقعاً في العالم؛ ناصرت فيه «واشنطن» شعباً ضعيفاً ليسترد حقوقه المشروعة، باستثناء «الكويت» التي تعرضت للإجتياح من صدام حسين، وباستثناء «السعودية» التي «باتت» مهددة بعد ذلك الإجتياح، فأرسلت أميركا أساطيلها البحرية والجوية، وجيوشها البرية، لنصرة مصالحها البترولية.. فطاب لها البقاء هناك، وما تزال مكانها محمودة مستريحة.

* * *

لقد تعاقب على حكم شبه الجزيرة العربية، التي حملت اسم «المملكة العربية السعودية» ـ بعد توحيدها ـ على مدى مائتين وخمسين عاماً ـ على وجه التقريب ـ عشرون حاكماً من أسرة آل سعود، كل منهم يحمل لقب «الإمام» بمن فيهم «فهد بن عبد العزيز» الملك الحالي، الذي استحسن لقب «خادم الحرمين» فاشتهر به، أكثر من شهرته إماماً، أو ملكاً.

ولم يتجاوز دور «السعودية» في عهد كل منهم بشأن القضية الفلسطينية،، عن تقديم «المال» ـ بحدود المعقول ـ وإعلان «الأمنيات» وإطلاق النداءات.. وطرح المشاريع، إذ «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها». وعندما كان «خادم

الحرمين الشريفين» فهد بن عبد العزيز ما يزال ولياً للعهد، فقد وضع مشروعاً لحل قضية فلسطين، بعد مشاورات مع منظمة التحرير، ومع سورية والدول العربية المعنية بالقضية، والمعروفة باسم «دول الطوق»، وعرف المشروع باسم «مشروع الأمير فهد» وقد عرض على مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في مدينة «فاس» أوائل شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٢، وتبناه المؤتمر. لكنه بقي مشروعاً ـ أي حبراً على ورق ـ اعتبر ـ آنذاك ـ الأساس الوحيد المقبول لحل القضية الفلسطينية. وكان «الأمير» فهد قد أطلق أول نداء ـ قبل انعقاد المؤتمر ـ يدعو فيه الى «الجهاد» أي «القتال دفاعاً عن الدين والمقدسات». فتبنت «لجنة القدس» النداء، ودعت الدول الإسلامية الى الجهاد لتحرير القدس، وأعلن ياسر عرفات عن فتح باب التطوع، بعد أن شكر باسم منظمة التحرير الفلسطينية، المملكة العربية السعودية.

فماذا حدث بعدئذ؟...

هل تقدم أحد متطوعاً من الدول الإسلامية، وأولها المملكة العربية السعودية؟.. وإذا كان قد تقدم «المتطوعون»... فلماذا لم يتم تحرير القدس، بعد النداء الأول الذي وجهه «الفهد» قبل خمسة عشر عاماً عندما كان ولياً للعهد؟. وقبل نحو سنتين من عقد مؤتمر القمة في «فاس». حينذاك، صدرت الصحف العربية مهللة مزغردة فرحاً بالخطوة التي وصفتها صحيفة «الشرق الأوسط» التي تصدر من لندن عن «الشركة السعودية للأبحاث والتسويق» على لسان وزير الإعلام السعودي الدكتور محمد عبده يماني، في عدد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر آب ـ أغسطس عام ١٩٨٠ تحت عنوان بارز على الصفحة الأولى «نداء الأمير فهد موقف صريح وحازم... يؤكد التزام السعودية بمسؤولياتها الدينية والسياسية» وجاء في نص التصريح «القوي والحازم» ما يلي:

«حذر الدكتور محمد عبده يماني وزير الإعلام السعودي امس من خطورة الموقف في

الشرق الأوسط نتيجة للتعنت الإسرائيلي وأكد أن نداء الأمير فهد إبن عبد العزيز ولي العهد ونائب رئيس الوزراء في المملكة العربية السعودية لإعادة ترتيب البيت العربي وإعلان الجهاد المقدس لتحرير القدس والأراضي العربية المحتلة هو موقف صريح وحازم، يؤكد التزام المملكة الكامل بمسؤولياتها الدينية والسياسية والإجتماعية».

وهذا ـ تصريح ـ يحيي الآمال في النفوس ـ بلا شك وقد أكد فيه الدكتور يماني على:

«ان دعوة الأمير فهد الأخيرة قد جاءت تعبيرا على نفاد صبر الأمتين العربية والإسلامية وعن كل آمال وتطلعات الأمتين في انقاذ القدس الشريف وتحريره من الإحتلال الإسرائيلي وإعادته الى صورته العربية الإسلامية كما كان وكما سيكون بمشيئة الله تعالى».

إذن، فان «النداء» لا يحتمل «التأويل» ولا يمكن أن يرقى إليه أدنى شك، ذلك «أن الأمير فهد ـ وعلى لسان وزير إعلامه الدكتور عبده يماني ـ قد أوضح من خلال دعوته مجدداً؛ سياسة المملكة الثابتة بالنسبة لقضية الشعب الفلسطيني العادلة مؤكدا ان الموقف الراسخ الذي تتخذه عن قناعة وايمان مطلقين ليس قابلا للتغيير او التبديل تحت اي ظرف من الظروف منبها الى خطورة الظروف المأساوية التي يعيشها الشعب العربي الفلسطيني الصامد من نزوح واضطهاد وتشرد وضياع واحتلال بغيض وهي ظروف لم يواجهها شعب غيره، مجتمعة عليه بمثل هذه الضراوة والشراسة. ولعل احداث الأرض العربية المحتلة الأخيرة خير شاهد على ممارسات الإحتلال الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني الصامد وقياداته الشجاعة... وحتى النازحين منهم في المخيمات لم يسلموا من اضطهاد العدو وغاراته الغادرة في جنوب لبنان».

وتأكد للناس «البسطاء» أمثالي، أن ساعة المعركة آتية لا ريب فيها..

وأن الشعب الفلسطيني سيبدأ زحفه ـ اعتبارا من فجر غد ـ الى وطنه، فقد أكد الدكتور يماني، بأن: «المملكة قد آلت على نفسها في كل هذه المنطلقات وأمام الظروف غير الإنسانية التي يواجهها الشعب الفلسطيني الشقيق ان تتصدى في إطار تحملها لمسؤولياتها للمساهمة بكل جهد في العمل العربي السياسي والعسكري وكذلك في الحملة الدبلوماسية التي تخوضها الأمة العربية والإسلامية في اتجاه استخلاص الحق العربي من براثن الصهيونية العالمية».

ودمعت عيناي، وأنا أقرأ «التصريح» وامتلأ قلبي فرحاً، فقد صدّقتُ ـ والله العظيم ـ صدّقتُ كل كلمة، مثلما صدّقها كل عربي في الوطن والمهجر. وأبديت استعدادي للقيام بأي عمل يمكنني القيام به من أجل «القضية» مثلما، لم أتردد عندما نشبت الحرب الأولى، وأنا في الحادية عشرة من العمر، من الإندفاع الى مكتب «التطوع» في حلب.. ولكنهم لم يقبلوني متطوعاً، لأن «البندقية كانت أطول من قامتي».

لقد صدّقتُ «التصريح» وامتلأ قلبي فرحاً. وتعبيراً عن هذه المشاعر، أرسلت برقية الى «الفهد» أحيي موقفه الشجاع، ونداءه الحازم، فقد ملأ الإستبشار بالتحرير قلبي!..

وكيف لا أفرح ـ ولا يفرح معي كل عربي ساذج ـ وكيف لا أبرق الى صاحب «النداء» الذي سيُتِمّ تحرير الأرض المحتلة، وتحرير القدس، وعودة اللاجئين الى الوطن الأم؟.. هل يعقل أن لا يصدق «النداء»، وقد أكد الدكتور يماني في تصريحه، حزم الأمير فهد، حين تابع أمام رجال الإعلام والصحافة العربية والأجنبية في لندن قائلا «إنه يبدو أن العدو الإسرائيلي قد أساء فهم الموقف العربي والإسلامي.. بل والدولي باستثناء قطاع منه وما زال يحلو له ان يختار مكانه في غير جانب الحق والعدل.. وربما لم يتصور بعد مدى العواقب الوخيمة التي يمكن أن يقود اليها المنطقة والعالم كله من دمار

وخراب وحروب وسيكون هو ولا شك بعضاً كبيراً من أتونها... لقد تمادى في غروره وغطرسته بصورة لم تشهدها الأسرة الدولية من قبل. ولكنه الغرور الذي يودي بصاحبه الى حتفه.. وليس أدل على ذلك من قراره بشأن القدس.. ذلك القرار الذي هز مشاعر الملايين من المسلمين في كل انحاء العالم... لقد ألغى القرار عواطف الجميع وارادتهم وجاء بمثابة الصفعة على وجه المجتمع الدولي الذي أصبح مطالبا اكثر من أي وقت مضى بالحفاظ على كرامته وهيبته. ولقد دفعت هذه القرصنة الاسرة الدولية كلها الى تجربة قاسية هي اقرب ما تكون الى الإمتحان العسير نظرا لأنها اوقفتها في مواجهة مع النفس وفي مفترق طرق وبات لزاما عليها ان تختار بين الحق والباطل.. او بين الخير كله والشر كله..

واوضح الدكتور يماني ان عملية الإختيار في حد ذاتها ليست بالمشقة التي يدور لها كل هذا الأخذ والردّ والإجتماع والإنفضاض.. فكما يقول نبينا صلى الله عليه وسلم... الحلال بيّن والحرام بيّن.. فكذلك الحق والباطل والخير والشر. ولكن الآفة فيمن في قلوبهم مرض.. والا فبأي معيار جائر وبأي منظار معتم يتحير المرء في اختيار الحق والعدل والخير...

كما أوضح الوزير، ان المقارنة بين الجانبين لا تستقيم بأي ميزان لأنهما نقيضان كالليل والنهار.. فإسرائيل تجر المنطقة والعالم الى هاوية الحرب والدمار، وعلى الطرف الآخر يقف العرب والمسلمون دعاة سلام كريم وخير عميم.

وإسرائيل تعتدي وتغتصب الأرض والديار وتقيم لها وطناً من العدم وعلى الطرف الآخر يقف العرب هدفاً للظلم والعدوان وهم بلا ارض ولا وطن ولا ديار.. اليهود يمرحون ويرتعون في المدن الفلسطينية الجريحة وابناؤها الفلسطينيون يعيشون ضائعين في المخيمات خارج حدود وطنهم. إسرائيل تنتهك مقدسات المسلمين والمسيحيين بغير رادع من دين أو خلق.

وأشار الوزير يماني الى الأصداء التي أحدثتها هذه الدعوة على الصعيد العربي والإسلامي والدولي.. والى الإستجابة الفورية التي ابداها المسلمون في كل بقاع الأرض لنداء الواجب المقدس الذي اطلقه الأمير فهد لتحرير مسرى الرسول عليه الصلاة والسلام.

واكد في ختام تصريحه ان على الأسرة الدولية والأطراف الدولية المعنية بالقضية، ان تدرك ما ورد في حديث الأمير فهد وانعكاساته في العالمين العربي والإسلامي وان تعي خطورة الموقف الذي أصبح قابلا لمزيد من التصاعد والتسخين بصورة ستكون لها ولا شك عواقبها الوخيمة على السلام والأمن الدوليين.

وعلى مدى خمسة عشر عاماً، لم يتحقق مضمون الدعوة، ولم يشهد عواقبها الوخيمة، غير العرب والمسلمين.

* * *

هل ثمة كلمة واحدة، تدعو الى ذرة من الشك في «تصريح» احتل ربع الصفحة الأولى، واكثر من ثلث الصفحة الثانية من صحيفة «الشرق الأوسط»، وهي الصحيفة المعبرة عن رأي السعودية، والناطقة باسم الحكم، باعتبار انها مملوكة لأحد رجالات الأسرة الحاكمة، هو الأمير سلمان بن عبد العزيز، أمير الرياض، وشقيق الملك، لذا، فقد اخترت نصوص الفقرات من «التصريح» المنشور بكامله فيها، منها، ولم ألجأ إلى أي صحيفة عربية أخرى، خوفاً من أن لا تكون «ملتزمة» بالنص الحرفي.. أما صحيفة «الشرق الأوسط» فلا يمكن لها ان «تتورط» في تبديل أي كلمة، حتى لا يُعَرِّض ناشروها ورئيس تحريرها الى أي مساءلة، خاصة وأن رئيس تحريرها آنذاك، الأستاذ «جهاد الخازن» مشهود له بـ «طول باعه» في مهنة الصحافة، ولا يقبل بنشر «كلمة»

واحدة لا يكون واثقاً من صحتها، فضلاً عن انتمائه وشقيقه «بسام» الى الأسرة السعودية التي احتضنتنتهما، ووثقت بهما ثقة مطلقة، لدرجة تسليمهما مقادير «الشركة السعودية للأبحاث والتسويق» وهي شركة تجارية كبرى، تتاجر بجميع السلع والأصناف، فضلا عن «الصحافة»؛ التي اكتشف «الناشران» في «بلاطها» مناجم الذهب والألماس... وأشياء أخرى.. تدر أرباحاً سريعة وطائلة.

وحتى لا يطول بنا الشرح، تجدر العودة الى النقطة الأساس، فـ «القضية» بعد إطلاق نداء «الفهد» باتت قاب قوسين أو أدنى من الحل، إذ صدرت «الشرق الأوسط». صبيحة اليوم التالي بعنوان على الصفحة الأولى يقول:

«الأمير فهد يؤكد:

«الجهاد المقدس هو الحل الأمثل والأصح لإستعادة حقوقنا».

إذن، فالقضية «أبقاش بدها» حسب تعبيرات الزعيم اللبناني الراحل ـ اغتيالاً ـ كمال جنبلاط. يعني، أن القضية، لم تعد تحتمل أي نقاش... ولم يبق غير «الجهاد المقدس» في خوض معركة عسكرية حاسمة!..

ولا أجد مبرراً لإقتباس شيء من حديث الأمير فهد؛ الذي أكد فيه، أنه لم يبق هناك بديل عن «الجهاد المقدس» فهو حديث أطول من سابقه، ويكفي للتدليل على موقفه الواضح والصريح، قوله، بأننا: «نريد أن توضع النقاط على الحروف... ونحن نريد السلام والإستقرار المبني على الحقوق المشروعة»... و«إن الجهاد المقدس ـ والكلام للأمير فهد ـ ان الجهاد المقدس هو الحل الأمثل والأصح لإستعادة الحقوق المشروعة... إذا لم تُجْدِ الطرق الدبلوماسية».. ولقد جرب ملوك السعودية طرق الدبلوماسية منذ نحو ستين عاماً، ووجدوها غير مجدية، لذلك أوضح الأمير فهد الموقف الراهن بقوله: «نحن نريد السلام ولا نريد أن نخلق مشاكل للعالم،ولكن إذا أجبرنا على ذلك فسوف نفعل دفاعاً عن عقيدتنا وحقوقنا المشروعة»... اذن، فليتوقع «العالم»

مشاكل، لا يحب «الفهد» أن يخلقها.. إلا إذا «اضطر» الى «خلقها» دفاعاً عن العقيدة والحقوق المشروعة.

إذن.. فقد أعذر من أنذر!...

لكن إسرائيل، لم تعبأ بشيء.. وظلت تفعل ما تريد... ولم يجد «الأمير فهد» نفسه «مجبراً» على الإقدام، لـ «خلق» أي مشاكل دفاعاً عن «الكرامة» التي ـ على حد تعبيره ـ لا حياة (لنا) بدونها.. ولقد مضى على هذا الكلام «التحذيري الحازم» أحد عشر عاماً، ولم يفقد أحد من العرب والمسلمين، كرامته!

* * *

مات الملك خالد..

وصار الأمير فهد ملكاً...

وتوالت النداءات، ولم ير أحد طحناً!.

وبعد أربع سنوات على إطلاقه «النداء» الأول، يوم كان أميراً، وولياً للعهد.. يعلو صوت «الملك فهد» مخاطباً الأمتين العربية والإسلامية:

«نداء القدس يدوي في أسماعنا.. نحن أمة ترفض الإستسلام.. ولا حياة لنا بدون كرامة». ـ صحيفة «الشرق الأوسط» ـ العدد ـ ٢١٠٥ ـ يوم الأحد ٧ ذو الحجة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤/٩/٢م. ومن يود الإطلاع على نص «النداء» الملكي، فليعد إلى المرجع!!.. أي الى مكاتب جريدة «الشرق الأوسط» والى رئيس تحريرها الحالي عثمان العمير، أو الى جهاد الخازن، الذي «استقال بعدئذ» أو ـ أقيل ـ من رئاسة تحرير «الشرق الأوسط»... ليتولى في تاريخ لاحق، رئاسة تحرير صحيفة «الحياة» اللبنانية ـ سابقاً ـ و«اللندنية» ـ لاحقا، بعدما اشتراها، الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز، وليضيف

الى مؤسسته الإعلامية، مجلة «الوسط» الأسبوعية..

لعل الترف المفرط الذي «ينعم» به العرب بفضل العوائد المالية الأسطورية، التي جلبها الى خزائنهم «النفط الكريم» ـ على غرار الحجر الكريم.. أو المعدن الكريم ـ لعل هذا الترف الذي غرق في لجاجه وعجاجه العرب، بفضل الأموال البترولية، هو الذي دفعهم الى الإسترخاء والترهل، بعد أن درست حضارتهم التي رفعت شأنهم في عصر «بداوتهم» البكر، ووضعتهم في مقدمة الأمم والشعوب، ولما مضت حضارتهم وولت، بسبب استغراقهم في الترف السفيه، صاروا الى ما صاروا اليه، وأمسوا في «مؤخرة» الأمم والشعوب، هذه «المؤخرة» التي كان الملك الراحل «فيصل» يحذر منها قبل أن يموت، ويتطير من اليوم الذي «قد يأتي فيجعل مكانة هذه الأمة في المؤخرة، بعد أن كانت في المقدمة». ولقد أتى «ذلك اليوم» دون أن يستعجله أحد، فهبط العرب الى هذا الدرك في معارج الوجود؛ ورحل «الفيصل» دون أن يحقق أمنيته، وهي أمنية كل مسلم، في أن يصلي في «مسجد عمر» القائم في قلب مدينة القدس؛ مجاوراً كنيسة القيامة، قرب قبة الصخرة!...

لماذا خابت أمنية «الفيصل»، وهي «أمنية» العرب والمسلمين؟
هذا هو السؤال ـ السهل الممتنع ـ الذي ما زلنا بصدد الإجابة عنه.

وقبل العودة الى «مرجعية» جهاد الخازن، نتابع الرحلة في «أبهاء الملفّات لاستخلاص «العِبَر» من نداءات وتحذيرات «الملك فهد» الحازمة، التي بدأ يطلقها وهو «ولي عهدٍ» للملك «خالد»... وتابع إطلاقها، بعدما أصبح ملكاً.. وما يزال على «العهد» معها حتى اليوم، وهو «خادم الحرمين الشريفين»، ولا نستبعد استمراره على تكرار «إطلاقها» دون أن «يخلق» للعالم أي مشكلة، الى أن يحل «السلام» أو يكون على الأرض كلها.. السلام!..

ونكتشف، ونحن نتابع رحلتنا، أن الملك «فهد بن عبد العزيز» وقد مضى على توليه «المُلْك» بضع سنين؛ يصرح وهو في سدة الحكم، بأن «السعودية تجند إمكاناتها

لمساندة الأخوة المسلمين». وقد نُشِرَ التصريح نقلا عن «وكالة الأنباء السعودية»، في معظم أدوات الإعلام العربي في جميع الأقطار العربية، وجميع الصحف والمجلات الصادرة في مَهَاجِرِ العرب، وأبرزته صحيفة «الشرق الأوسط» على صدر صفحتها الأولى من العدد [٢١٢١] الصادر صباح يوم الثلاثاء ١٨ /١٩٨٤/٩، أي قبل نحو أحد عشر عاماً من اليوم واخترنا منه أبرز، وأهم ما جاء فيه، بعد استبعاد السرد المتعلق باستقبال الملك فهد، رؤساء وممثلي الجمعيات والمنظمات الإسلامية في العالم، وضيوف رابطة العالم الإسلامي الذين جاؤوا لأداء فريضة الحج في ذلك العام.

الى ذلك، فان تصريح الملك فهد، يكتسب أهمية استثنائية، لأنه ألقي على مسامع رموز إسلامية مسؤولة مسؤولية تامة عن مقدسات المسلمين، وهذا يعني أن الصدقية في تصريح «الفهد» لا يشوبها ما يمكن أن «يزعزع» الثقة، ذلك أن كلام «الملك» هو كلامٌ مسؤولٌ؛ يجب أن لا يأتيه «الباطل» ولا تعتوره «الشبهات»؛ لأنه، كلام ركز فيه «الفهد» على ضرورة التمسك بالعقيدة الإسلامية وتعاليمها السمحاء، وجاء فيه ـ للتوضيح ـ قوله بالنص: «إن المملكة التي ما فتأت تعمل بكل إمكاناتها على مؤازرة ومساندة الأخوة المسلمين في مختلف البقاع ستواصل مسيرتها في هذا الطريق لجميع الأخوة المسلمين.

[والنص أنقله حرفياً، بأخطائه دون أي تصرف].

وقال: «إننا لا ندخر وسعا في سبيل دعم الأخوة ولا نبخل على أي مسلم في شتى بقاع الأرض بما يمكنه من شد أزره دون شرط أو طلب الا ابتغاء مرضاة الله وأداء الواجب».

واستعاد الملك فهد تاريخ كفاح المغفور له الملك عبد العزيز طيب الله ثراه ذلك الجهاد المخلص الذي قام به ورائده الأول خدمة الإسلام والمسلمين واعلان كلمة الله واتباع

سنة نبيه الكريم.. واختتم حديثه بأن تمنى لزعماء الأمة الإسلامية التوفيق وسداد الخطى في كل ما يعود بالخير على هذه الأمة».

وبعد نحو شهرين ـ أو أكثر قليلاً ـ وفي صحيفة «الشرق الأوسط» أيضاً، وعلى وجه الدقة والتحديد، على الصفحة الأولى من العدد [٢٩١٤] الصادر يوم الجمعة ٣٠/١١/١٩٨٤، قرأ العرب «السذّج» البسطاء الذين «أنا» منهم ومثلهم، في الوطن وفي المهجر، تأكيد الملك فهد:

«عازمون على... دعم الجهاد لإستعادة الحقوق».

وكان هذا «العزم والتأكيد» بعد وعد بإزالة «الخلافات العربية»!! التي لا نعرف من يصطنعها، ولماذا لا تنتهي، حتى تستقيم الأمور، ليتمكن «الفهد» من تنفيذ الوعود؛ التي تحملها «نداءاته» المتكررة،، وتدعو الى «الجهاد» لتحرير القدس؟!.

وبعد أقل من عام وثمانية أشهر، أطلق «الفهد» دعوة مدوية، كانت بمثابة «الصرخة ـ الصاعقة» التي لا تقبل خللاً... ولا زللاً، حين قرأ «العرب» من المحيط الى الخليج، كلام الملك «فهد» منشوراً على خمسة أعمدة، من صدر الصفحة الأولى، من صحيفة «الشرق الأوسط» نفسها، يوم الأربعاء ١٦ /١٩٨٦/٧ تحت عنوان أسود عريض:

«الملك فهد: فلسطين قضية إسلامية وعلى المسلمين تأدية فريضة الجهاد لإستردادها».

وفي سياق «الدعوة ـ الصرخة ـ الصاعقة» التي أطلقها «الفهد» بمناسبة الإحتفال بمرور أربعين عاماً على صدور مجلة «الحج» التي، أطلق عددها الأول في عهد الملك عبد العزيز (مؤسس المملكة) جاء قوله:

«إن مجلة تحمل هذا الإسم العزيز وهذا الشعار العظيم جديرة بالتقدير حرية بأن تكون لها الصدارة بين المجلات الإسلامية.. ولا سيما وأن مولدها كان في عهد مؤسس المملكة العربية السعودية ومرسي دعائمها وباني صرحها الشامخ جلالة

المغفور له ـ الملك عبد العزيز آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ فقد تفتحت عيناهاعلى الدنيا في العهد الميمون لجلالته وكانت تحمل اسم «الحج» وتصدر من بطحاء مكة من رحاب البيت العتيق ومن مهد الرسالة الإسلامية ومنبع النور والهداية».

ثم، تتابعت فقرات الكلمة الملكية، على الصفحة الثانية من صحيفة «الشرق الأوسط» التي تولى رئاسة تحريرها في تلك المرحلة «الحاسمة» التي تمر بها الأمة العربية، الأستاذ «عرفان نظام الدين» خلفاً لصديقه الأستاذ «جهاد الخازن» الذي (اكتفى) بأن يبقى «كاتب زاوية» يومية باتت شهيرة تحت عنوان ثابت «صباح الخير».. لخفة ظلها وظل كاتبها؛ الذي كان يختار كل يوم موضوعاً يعطيه عنواناً، قد يأتي «فكهاً» وقد يكون «جاداً» حسب ما تقتضيه الظروف «الموضوعية» المحيطة بالكاتب، وحسب ما تفرضه الحالة «النفسية» التي يكون عليها جهاد الخازن، في أعقاب يوم عمل مضنٍ أو مريح، يقضيه مع «بعض أصدقائه وإخوته في «السلاح» الصحفي، ويشارك أحد ناشِرَيْ «الشرق الأوسط» السيد هشام علي حافظ، في تصريف شؤونه.

* * *

بعد هذه ـ المداخلة ـ التي تعترض ـ بلا قصد ـ ما بدأناه، في مطلع رحلتنا الموثقة، التي أردنا منها الوقوف على «مواقف» الملك فهد بن عبد العزيز، نعود لنستكمل «الرحلة» بالقاء الضوء على «فقرات» مهمة، وردت في سياق «خطبة» الفهد، وجاء فيها مما نشرته «الشرق الأوسط» على الصحفة الثانية من العدد نفسه الذي نوهنا بتاريخه،أنه:

«من هنا بدأت دعوة الملك عبد العزيز للتضامن الإسلامي، تُبَيِّن للمسلمين أن الإسلام هو القوة التي تقي المسلمين، شر الأعداء ومكرهم وهو الدرع الذي يحفظ المسلمين من

كيد الحاقدين فاذا تحصن المسلم بإسلامه واذا ما استمسك المسلم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها وإذا حافظ المؤمن على عقيدته وشريعته وأحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه وكره ما يكرهه لنفسه أدرك ما يريده العدو وعرف ما يقصده أهل البغي من غزوهم الفكري والعقائدي للمسلمين فيقوم الجميع لذلك بالمرصاد ويكونون أمة قوية كالبنيان متماسكة الأركان».

* * *

وجاء جلالة الملك فيصل - رحمه الله - فرفع لواء التضامن الإسلامي وسار به الى الأمام فاستطاع رفع الحواجز وشق الطريق المسدود بآرائه وأفعاله وأقواله وخطبه وكلماته وتصريحاته وأحاديثه. ونجح في نهوضه بدعوة التضامن الإسلامي في توعية المسلمين وربط أواصر الأخوة الإسلامية بينهم من جديد حتى ظهر جيل جديد في الأقطار الإسلامية يؤمن بمبادئه النابعة عن الإيمان والورع ويدعون بدعوته الخيرة ويرفعون الراية في كل قطر ويوجهون المسلمين الى التضامن.

إن كلمتي التضامن الإسلامي كلمتان غاليتان لهما وقع حبيب على النفوس المسلمة وتطرب لها نفس كل مؤمن لأنهما شعار المسلمين في سائر أقطارهم وشتى بلادهم وهل هناك احلى من الإتحاد والتعاون على البر والتقوى وعلى نشر الخير.

وها هي ذي [أي مجلة الحج] تستقبل العام الأربعين من عمرها المديد - إن شاء الله مصممة على متابعة السير في طريق رفعة الإسلام والمسلمين مبتهلة الى الله سبحانه أن يمدها بعون من عنده وإنا لنسأل الله عز وجل - والكلام للملك فهد - ان يسدد خطاها ويكون عونا لها على أداء رسالتها النبيلة في هذا العصر الذي اختلطت فيه

المفاهيم وكثرت فيه العقائد الباطلة والمبادىء الفاسدة وفي هذا الزمان الذي انتشر فيه المفسدون من جنود إبليس ممن تنكبوا سبيل الهدى والرشاد وسلكوا طريق الضلال والكفر والزندقة والإنحلال الخلقي وراحوا ينفثون سمومهم في الناس.

ولم أفهم كيف يتنكب جنود إبليس سبيل الهدى والرشاد، وفي الوقت نفسه يسلكون طريق الضلال والكفر والزندقة.

قد يكون في النشر خطأ. وربما كان خطأ مطبعياً ارتكبته الصحيفة دون قصد وبحسن نية.

ونعود لمتابعة حديث الملك فهد:

ولم يسلم المجتمع الإسلامي من مكرهم ودعواتهم الخبيثة التي يحاربون بها الإسلام بمبادىء ابتدعوها ليضلوا بها شباب المسلمين مثل القومية والديموقراطية والحرية وهي كلمات حلوة في ظاهرها لكنها تحمل في طياتها اخبث معاني الزيغ والضلال ونشر الفساد ومحاربة الفضيلة ونحن هنا بحمد الله لا نلتفت اليها ولا نقيم لها وزناً لأننا اخترنا الإسلام دينا وارتضيناه منهجاً لحياتنا ولا نحيد عنه بإذن الله ونعتقد أنه هو الدين الحق».

ثم قال «الفهد» مغتنما مناسبة لقائه رؤساء وممثلي الجمعيات والمنظمات الإسلامية، و«رموز» العالم الإسلامي الذين تستضيفهم رابطة العالم الإسلامي؛ قال ـ أي الملك فهد ـ مغتنماً مناسبة مرور أربعين عاماً على صدور مجلة «التضامن الإسلامي» باعتبارها واحداً من روافد صحافتنا الإسلامية، فإنه يجدر بنا ان نحدد عدة منطلقات اساسية للسير في إطارها، والعمل على تحقيق أهدافها.

فما هي المنطلقات التي يريد أن تسير «الصحافة الإسلامية» على هديها، لتتحقق «الأهداف» المرجوة؟.. يقول الملك فهد، إن من واجب هذا «النوع» من الصحافة، أن

«تقف سداً منيعاً أمام التيارات المختلفة».

و.....

«ان تؤدي الصحافة الإسلامية دورها كاملا في إبراز معاني التضامن والوحدة والفرقة وتكوين رأي عام إسلامي يدرك خصائص أمته التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ويعي حقيقة تضامنها ووحدتها ويتجاوب معها وجداناً وعقلاً وسلوكاً في كل جوانب الحياة لأنه لا سبيل لهذه الأمة لاستعادة مجدها ومكانتها العزيزة القوية القيادية بين الأمم وانتصارها على أعداء الله الا بالله ثم بتضامنها ووحدتها وتمسكها الكامل بعقيدتها ومنهج شريعتها وجهادها في سبيل ذلك... و:

«ان تقوم الصحافة الإسلامية بتوجيه المسلمين وهدايتهم الى سبيل ربهم ومنهج دينهم ودنياهم وتطهير مجتمعاتهم من عوامل التناحر والخلاف والفرقة وتقوية عناصر التآخي والتعاطف والتراحم والتعاون فيما بينهم مهما تباعدت أوطانهم.

«.. العناية بالذين يدخلون في الإسلام والعمل على زيادة معرفتهم بدينهم الجديد ومساعدتهم في التكيف مع حياتهم الإسلامية تكيفا يزيدهم إيماناً بدينهم وألفة ومودة بين اخوانهم المسلمين...

و«أن تبذل الصحافة الإسلامية الجهد وأن تثابر على العمل في خدمة القضية الفلسطينية وانها قضية إسلامية وحث المسلمين على تأدية فريضة الجهاد بكل قدراتهم لإسترداد فلسطين المسلمة والمسجد الأقصى المبارك والقبلة الأولى من ايدي الصهاينة المعتدين الغاصبين ورفع الظلم عن الشعب الفلسطيني المسلم المشرد والمضطهد والمعذب.

وعليهم أن يكونوا صفا واحدا ضد اليهود ومن وراءهم وأن يجمع ابناء فلسطين كلمتهم ويوحدوا صفوفهم تحت راية الإسلام وأن تصرخ في وجه الحاكمين في افغانستان بأن المسلمين فيها لا يرضون بحكم الإسلام بديلاً، وأن المجاهدين فيها

يقدمون أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله ونبذ كل نظام يخالف دينهم ويجب على المسلمين في أقطار الأرض ان يساندوهم بالأنفس والأموال وأن يؤيدوهم في جهادهم. الخ... الخ...

***

وبعد...

بعد كل هذا الشرح والتفصيل، والإلحاح، هل استجيبت مطالب الملك فهد؟... وهل تحققت الأهداف.. وهل بدأت «مسيرة الجهاد» لتحرير القدس.. والأرض الفلسطينية.. وكل المقدسات؟.. وهل وصل الشعب الفلسطيني الى نيل مطالبه وحقوقه المشروعة؟ وهل عم العدل، والرخاء، أرجاء العالم الإسلامي، مثلما عم وانتشر في عهد الخليفة الأموي «عمر بن عبد العزيز» الملقب بالخليفة الراشد الخامس.. وبالمناسبة.. لا أعتقد أن ثمة «صلة» قربى بين ذلك الخليفة «عمر بن عبد العزيز» وبين أبناء مؤسس المملكة العربية السعودية الراحل «الملك عبد العزيز» اذ أن «القضية» لا تعدو أن تكون مجرد تشابه في الأسماء، لكنني، عندما أتيحت لي فرصة اللقاء بالأمير «عبد الله بن عبد العزيز» ولي عهد المملكة العربية السعودية، وخليفة «الفهد» خلال زيارته الى لندن عام ١٩٨٩، وأتيحت لي في تلك المناسبة، فرصة للحوار معه، وكان معي كريماً ورَحِبَ الصدر حين قلت: «سمو الأمير.. إن العرب لا يعنيهم من يحكم شبه الجزيرة العربية، إن كان فيصل بن عبد العزيز، أو خالد بن عبد العزيز، أو فهد بن عبد العزيز، أو أي إبن آخر من أبناء عبد العزيز.. إن ما يعني العرب ويهمهم، أن يمضي «ابن عبد العزيز» في الحكم، على نهج «عمر بن عبدالعزيز» الخليفة

الخامس الراشد، وأن يعمل على استرداد العزة والكرامة للأمة العربية، وأن ينشر العدل والرخاء، والمساواة في جميع أقطار العرب والمسلمين».

وقد نشرتُ مقالاً حول زيارة الأمير عبد الله بن عبد العزيز، ضمّنته الحوار الذي دار بيني وبينه، في صحيفة «التصريح» التي كنت أصدرها في لندن حتى عام ١٩٨٩ . وللصدق والأمانة، فإنه لم يكن حوارا بالمعنى الصحيح، بقدر ما كان «حديثا» من طرف واحد، إذ اكتفى ـ الأمير عبد الله بن عبد العزيز ـ بأن رد علي قائلاً: «إبشر بالخير، وقل انشا الله».. وما زلت حتى اليوم «استبشر» بالخير وأقول بما قاله الأمير.

ولقد أبرزت في مقال آخر، نشرتُهُ على الصفحة الأولى من صحيفة «التصريح» العدد الثامن عشر، الصادر يوم الأربعاء الأول من فبراير ـ شباط ١٩٨٩، أهم المطالب التي «تصورت» حينها، وما أزال أؤمن بضرورة تحقيقها، وأبرزها «إعادة النظر في الصداقة بين السعودية والولايات المتحدة الأمريكية» هذه الصداقة التي لم تؤد منذ عهد الملك عبد العزيز، حتى الآن، الى تحقيق أي «أمنية» من أمنيات ملوك المملكة العربية السعودية، التي يُعوّلون على «واشنطن» أمر تحقيقها، وهي بالتالي «أمنيات» عربية. فكتبت داعياً الى إعادة النظر بتلك «الصداقة» الأزلية بين «واشنطن» و«الرياض» والقائمة ـ في رأيي ـ على سياسة الإحتواء المزدوج، التي تمارسها «واشنطن» منذ عهد «عبد العزيز» الى عهد «فهد بن عبد العزيز».. وجاء في بداية ذلك المقال، وقد نشرته بتوقيعي الصريح ـ فأنا لا ألجأ الى الإختباء تحت أسماء مستعارة ـ مثلما يفعل بعض «الكتّاب» الذين «يتفادون» إحراج أنفسهم، أمام قرائهم، أو مع «أهل الحكم» من أمراء أو رؤساء، أو ملوك.. جاء في بداية ذلك المقال:

«بعد عودة عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد السعودي من دمشق، التي زارها في أعقاب انتهاء زيارة الرئيس السوري حافظ الأسد للرياض، وقد تم تبادل الزيارتين في

نهاية عام ١٩٨٨ وبداية العام الجديد، ظلت وجهات النظر في الدوائر السياسية العربية تتباين حول طبيعة العلاقات الثنائية بين الولايات المتحدة، وبين نظام الأسرة السعودية، في التوجه نحو تحقيق فكرة الوحدة العربية».

ثم تلاحقت الفقرات التي «تُذكِّر» ببداية وقوع مأساة فلسطين ـ لعل الذكرى تنفع المؤمنين ـ فقلت:

«ولعل اختلاف الآراء وتباينها، عند صانعي القرارات السياسية والإقتصادية والعسكرية في دوائر الحكم العربية، هوالذي يفضي الى التنابذ بين نظام حكم عربي قائم في الشمال الأفريقي وبين نظام حكم عربي قائم في المشرق العربي. ولعله السبب الجوهري ايضاً، في توتير العلاقات الثنائية بين بلدين عربيين او بين اكثر من بلدين، وفي زيادة حدة التنازع بين أنظمة الحكم العربية على من يحق له «التزعم» في قيادة «شعوب» دول العرب التي بدأ تمزقها الفعلي قبل توقيع معاهدة «سايكس ـ بيكو» وظل مستمراً في حدة متزايدة بعد وقوع العرب فريسة الإسرائيليين منذ قرار تقسيم فلسطين الى دولتين واحدة لليهود وواحدة للفلسطينيين.

وليس ضرورياً التذكير بما أدى اليه الرفض العربي منذ صدور قرارالتقسيم على أنه من المفيد القول بأن الحروب التي شنتها إسرائيل على العرب ـ مجتمعين أو متفرقين ـ أدت الى خسارة العرب كامل الأرض الفلسطينية، وضفة الأردن الغربية، والجولان السورية، وسيناء المصرية، فضلا عن تكبدهم أفدح الخسائر في الأرواح وفي المعدات الحربية، الى جانب ما تعرض له اقتصادهم من انهيارات.

ورغم ذلك كله، لم يتخل السعوديون عن معاهدة الصداقة التي تربطهم بالحكام المتعاقبين على «البيت الأبيض» الأميركي منذ عهد فرانكلين روزفلت الذي استضاف ـ في لقاء تاريخي ـ مؤسس النظام الملكي السعودي عبدالعزيز بن عبد الرحمن ـ

رحمه الله وغفر له ـ كذلك لم يحدث لهذه الصداقة أن تعرضت لـ «خلل ما».. لكن التباين في وجهات النظر العربية حول هذه «الصداقة» الأميركية ـ السعودية، بقي قائما.. ومستمرا، الى أن قام الأسد بزيارة الرياض... وقام عبد الله بن عبد العزيز بزيارة دمشق، ذلك أن السياسة الأميركية تسللت الى منطقة الشرق الأوسط، وبات لها تأثيرها على دولها العربية وغير العربية، قبل قيام دولة إسرائيل، أي منذ لقاء (عبد العزيز ـ روزفلت) التاريخي الذي أثمر معاهدة الصداقة التي فتحت الأبواب أمام السياسة الأميركية لتدخل وتمكث، قبل قيام دولة إسرائيل. وتستمر الى ما بعد تبادل الزيارتين اللتين تمتا بعد صدور القرار الفلسطيني باعلان قيام «جمهورية فلسطين العربية» وهو القرار الذي كان تتويجاً لنضال حقيقي بدأ فجر التاسع من كانون الأول ـ ديسمبر ـ في العام الماضي، اذ فجره «حجر» بيد طفل فلسطيني. واستمر النضال عاما كاملا ليحقق الإنتصار الذي تجسد بإعلان قيام الدولة الفلسطينية في اعقاب الدورة التاسعة عشرة التي عقدها المجلس الوطني الفلسطيني على أرض دولة المليون ونصف المليون شهيد. روت دماؤهم تراب الجزائر، وباعلان الفلسطينيين المتمثلين بمنظمة التحرير الفلسطينية القرار المتضمن قبولهم بقرار التقسيم (١٨١) الذي ظل مرفوضاً اربعين عاما، كذلك القبول بالقرارين (٢٤٢) و(٣٣٨) بعد مرور عشرين عاما على حرب حزيران وقد استولت إسرائيل في اعقابها على ما ذكرناه آنفا، وبعد مرور ستة عشر عاما على حرب (تشرين ـ رمضان) وقد كرست إسرائيل في اعقابها وجودها الإحتلالي بدعم غير محدود من واشنطن.. بهذا الإعلان الذي «أذهل» العالم وفي مقدمته الغرب، طويت صفحة نضال «الرفض» الذي استمر اكثر من عقدين. لتفتح صفحة «نضال الحجر» الذي دخل عامه الثاني.. ولتبدأ مع هذه الصفحة، الكلمات الأولى في الفصل الأول من تاريخ الصداقة السعودية ـ الأميركية الذي فرضت زيارة حافظ الأسد للرياض، وزيارة عبد الله بن عبد العزيز لدمشق، إعادة

كتابته برؤية جديدة، على ضوء ما افرزه قرار اعلان قيام الدولة الفلسطينية الذي صنعه «نضال الحجر» في عام واحد، بعدما عجز عن اتخاذه «نضال الرفض» على مدى عقود طويلة ممضة.

وإنطلاقاً من مقولة تشرشل «ليس هناك صداقة دائمة ولا عداوة دائمة، بل مصالح مشتركة»، يصح القول، إن الصداقة السعودية ـ الأميركية ليست سوى ورقة «توت» تستر عورة المصالح الإقتصادية بين واشنطن والرياض. وان بعض النافذين من أبناء الأسرة السعودية يعملون ـ بجهد ـ من اجل حماية هذه المصالح، ويحرصون على مظهر علاقة الصداقة وعلى توطيدها .. وقد يختلف السعوديون ـ كأسرة حاكمة ـ حول مفهوم «الصداقة» التي يجب ان تستمر بينهم وبين المتعاقبين على البيت الأبيض ـ ظهر ذلك في أكثر من موقف بعد اغتيال «فيصل» عام ١٩٧٥ ـ في اعقاب قرار قطع الإمدادات النفطية السعودية عن دول الغرب ابان نشوب حرب تشرين ١٩٧٣ لأنه ـ ومن كان معه ـ اعتبروا «النفط العربي» سلاحاً سياسياً وعسكرياً فعالاً.. وهذا ما نبه ـ بالفعل ـ واشنطن الى مدى تأثير قوة القرار السعودي في عهد فيصل، الذي برزت تطلعاته الوحدوية بعد غياب عبد الناصر. فأخذت الولايات المتحدة تعمل على تغذية «المد السلفي» بتحويل اتجاهات رياح السياسة السعودية للإبقاء على نفوذها، ودفعها باتجاه يعاكس المد العروبي الوحدوي المتمثل بسياسة «فيصل». لكن فريقاً آخر في الأسرة السعودية يرى أنه لا بد من إستمرارية صداقة «الذئب الأميركي» حتى لو تسببت في هلاك بعض «غنم» العرب.

في الجانب الآخر، يقف ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز متصدياً لكل ما يمكن أن يعتبر ـ داخل الأسرة السعودية ـ متناقضاً مع التوجه العروبي الوحدوي، لذلك فهو لا يلعب دوره في

الحكم من منطلق الإنسجام مع سياسة «التصادق مع الذئب» بل من منطلق ضرورة «رفع الفأس» وإبقائه في اليد لقطع رأس الذئب في الوقت المناسب. أي في الوقت الذي يتحفز «الذئب الأميركي» للإنقضاض على «غنم» العرب».

ولا أخفي ـ سذاجتي ـ إذ ظننت ـ وبعض الظن إثم ـ أنني قد أديت بما كتبت «قسطي» في قول ما أراه واجباً قوله، وأن الحق، يفرض عليّ أن أقول رأيي، وأعلن موقفي مما أراه وأعتقد بأنه «عدل وحق».. وأن مقالتي... و«كلماتي» قد بلغت أسماع من يجب أن تبلغ أسماعهم، وتصل إليهم، صادقة، نقية... ساذجة!.. اذ، جاء الأمير سلطان بن عبد العزيز ـ وهو النائب الثاني ـ في عهد الملك «فهد» في زيارة الى لندن، بعد ستة أشهر، من زيارة «ولي العهد والنائب الأول» الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وأعلن خلال الزيارة التي كان هدفهاعقد صفقة لشراء الأسلحة، أنه: «لا حل في الشرق الأوسط بدون الفلسطينيين، وأن «ما تسعى اليه المملكة من تقوية دفاعها، ليس للإعتداء على أحد، بل للدفاع عن المقدسات الإسلامية».

وهذا كلام ينسجم تمام الإنسجام، مع ما يطلقه الملك فهد من نداءات تدعو الى «الجهاد المقدس». ولقد نشرت في صحيفة «التصريح» أجوبة الأمير سلطان التي رد بها على أسئلة الصحفيين، حول نتائج المحادثات التي أجراها مع المسؤولين البريطانيين.. وجاء في أقواله وإجاباته بنصها المنشور في العدد العشرين، الصادر يوم الإثنين ٢٤ تموز ـ يوليو عام ١٩٨٩ من صحيفة «التصريح» ما يلي:

■ **في العلاقات السعودية ـ البريطانية:** العلاقة والصداقة بين المملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة هما علاقة وصداقة طيبتان. وهذه ليست المرة الأولى التي نشتري أو نتعامل فيها مع حكومة وشعب المملكة المتحدة، بل ان هناك علاقات قديمة وحالية ومستقبلية على مختلف الأصعدة.

■ **في إطار تأثير الصفقة على العلاقات الأميركية ـ السعودية:** من سياسة المملكة تنويع مصادر السلاح واستيعاب تقانته (تقنيته) ايا كان مصدره، ولدينا منظومات اسلحة من معظم دول العالم الحر المتقدم، وفي هذا المجال فالعلاقة والصداقة بين السعودية والولايات المتحدة وسائر دول العالم لا يمكن لأي صفقة أن تؤثر عليها.

وقد سبق أن إشترينا منظومات أسلحة من الولايات المتحدة، ولم تتأثر علاقتنا وصداقتنا مع باقي الدول الصديقة، بل اننا نضع مصلحة المملكة واحتياجاتها فوق كل اعتبار».

ولست في حاجة الى إيراد المزيد من التفاصيل، في هذه ـ المداخلة ـ التي تعترض سياق توثيق تعهدات الملك فهد. وأرى، من المستحسن قبل العودة الى دعوته للصحافة الإسلامية، تحديد المنطلقات الأساسية التي يجب أن تسير ضمن إطارها، أن أقف ـ في مداخلة قصيرة ـ على ما كتبه «جهاد الخازن» في زاويته اليومية، في عدد «الشرق الأوسط» نفسه الذي نشرت فيه دعوة الملك فهد الحازمة، فجاء ما كتبه «الخازن» على الصفحة الأخيرة، لا يتناسب مع التوجهات الملكية.. ولا ينسجم ـ أدبا وخلقاً ـ مع الدعوة الملكية الجادة والحازمة، والقائمة على أسس «الأخلاق الحميدة» التي تحتم على كل مسلم وعربي، أن يتسلح بها في خطابه.. ولكن ـ على ما يبدو ـ أن جهاد الخازن، الذي لم يعد مسؤولا عما ينشر في «الشرق الأوسط» لم يعبأ بما قد تجر على خليفته في رئاسة التحرير عرفان نظام الدين، كتابته «الساخرة» المبنيّة على «الإستهتار وانعدام الذوق والإحساس بالمسؤولية».. اذ جاء في «زاويته» المنشورة على الصفحة الأولى ـ الأخيرة المقابلة للصفحة الأولى التي توجتها الصحيفة بـ «صرخة» الملك فهد التي تقول: **«فلسطين قضية إسلامية وعلى المسلمين تأدية فريضة الجهاد لإستردادها» جاء ما يقابلها في زاوية جهاد الخازن بالنص:**

«يحدث احيانا ان اكتب مقالا اعتقد أنه سيحل قضايا الشرق الأوسط لا قضيته، او انه على الأقل سينسف المفاهيم الخاطئة للقضية نسفا نهائياً، واجلس استعدادا لإستقبال المهنئين والمريدين، فلا يأتي أو يتصل بي أحد. ثم أكتب شيئا عن الخادمات او اهاذر السيدات في موضوع العلاقات الزوجية فينفتح علي باب لا أعرف كيف أغلقه. ويتابع جهاد الخازن:

والكاتب الصحافي الذي يطل كل يوم على قرائه قد لا يكون في شهرة راقصة لوابية، الا انه يشتهر بما يكفي ان يوقفه بعض الناس في الطريق، وأن يعملوا فيه ألسنتهم امامه دون تحفظ.

«قالت لي سيدة أخيرا انها قرأت كتاب «صباح الخير» وسألتني لماذا لا أجمع مقالاتي السياسية في كتاب. وقلت لها ان المقالات السياسية حساسة، وربما كان من الأفضل جمعها بعد موت الكاتب، وردت قائلة دون تفكير: إن شاء الله نقرأ مقالاتك السياسية في كتاب قريباً جداً.

وارجح أن السيدة لم تقصد ان تدعو لي بالموت، لذلك اظل افضل من زميل انتقد قارىء ما يكتب بشكل قاس امامه. وقرر الزميل ان يعامل مهاجمه بما يستحق فقال له انه لا يفهم ما يكتب لأنه يكتب للجيل القادم، ورد القارىء بسرعة: يبدو انك ستظل «ترغي» حتى يصل هذا الجيل».

* * *

ولقد خيل لي، أنني كنت «المعني» بالمقطع الأخير، مما كتبه الخازن بقلمه «الظريف» و«خفة ظله» لأنني - على ما يبدو - أكتب «ما لا يفهم»!! يعني، أنفخ في «قربة مثقوبة»، ولن تسمع كلماتي (من ليس بهم صمم).. إذ أن ما أكتبه، ينطبق عليه قول شاعر العرب الأكبر، الذي مات «غيلة» وغدراً، لأنه كان يتجرأ ويقول «ما لا يقال»... أو ما لا

يُراد له أن يقال:

«لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي»

وما قاله «المتنبي» في عصره... يجب أن لا يقال في عصر «جهاد الخازن»، و«عثمان العمير» لأنه لم يعد عصر «صدق ومروءة وشهامة» بل عصر «الراقصات اللولبيات» اللواتي يحلو لجهاد الخازن الحديث عنهن، في اليوم نفسه؛ الذي يدعو الملك فهد الى «الجهاد المقدس» على صدر الصحيفة نفسها!!، ويبدو أن هذا العصر، الذي نعيش، لم يبق فيه مكان لحامل قلم، أو صاحب رأي حر، يجرؤ على قول كلمة حق، دون أن يخشى من سد أبواب الرزق في وجهه، وتطويقه ومحاصرته، مثلما فَعَلَتْ «دولتا» الكويت وقطر، بعد صدور كتابي «أنا كويتي» الذي اتبعته بكتابي عن «قطر بنت ال ثاني» فأمرتا - بسدّ - أبواب المؤسسات الصحفية في وجهي، وأصدرتا قراراً بعدم السماح لمؤلف الكتابين «المدعو» فاروق منجونة، بالعمل، أو بالكتابة في أي مطبوعة عربية تصدر في المهجر، للكويت وقطر - ومن ثم - لدول مجلس التعاون الخليجي «دالة» عليها، أو نفوذ أو سلطان.. وهذا يعني أن الصحيفة أو المجلة التي قد - تعترض - أو - تكسر - القرار... فان الدعم المالي سينقطع عنها، وتمنع من التوزيع في تلك البلاد.. وتلغى «الإشتراكات» فيها.. وبذلك تمّت مقاطعتي من جميع المؤسسات الصحفية في لندن وباريس، وفي بعض الدول العربية.

حدث هذا قبل خمسة عشر عاماً، وما يزال القرار ساري المفعول، ويلتزم بتنفيذه جميع رؤساء الصحف والمجلات العربية في لندن، ومعظمهم من الزملاء الذين أكنُّ لهم المحبة، والتقدير، وبعضهم، كان يوماً ما في عداد الأصدقاء ثم غيَّره الزمن والمنصب. وكنت أحسب بعد هجرتي الى بريطانيا، وبداية استقراري في لندن، أن الحرية في إبداء الرأي والنقد والتعليق على الأحداث، مضمونة ومصانة لكل فرد، لأنها حق مكتسب من حقوق الإنسان؛ في «بريطانيا العظمى»... ولقد صَدَّقَتْ حساباتي خلال

فترة عملي مع القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية. إذ كنت كغيري من العرب، نتمتع بكامل الحرية، حتى بدأ «زحف» الصحافة العربية الى لندن، وصدرت الصحف والمجلات وجميعها، كما ادعى ناشروها ورؤساء تحريرها، أرادوا إصدار مطبوعاتهم من لندن، كي يستفيدوا من «الحرية» التي يتيحها النظام الديمقراطي في بريطانيا، ويكتبوا بشجاعة، دون أن يصادر «الرقيب العربي» آراءهم.. وإذ بنا نكتشف أن بعض تلك المطبوعات تحولت الى «أبواق» للأنظمة التي هربوا من «جورها» والبعض الآخر «استزلم» لبعض الأنظمة التي «تدفع» والبعض الثالث، جعل من «مطبوعته» وسيلة للإبتزاز العلني... ولم يبق أمام أي حامل قلم، لا يرتبط بنظام، موقع، أو مكان يعمل فيه بحريّة..

ويبدو أنني لم أفهم «الدرس» ولم استوعبه، كما فهمه واستوعبه، الكاتب الصحفي «رياض نجيب الريس»، وعبر عنه في مقدمة كتابه «قبل أن تبهت الألوان» بقوله «... إن مهنتي، مهنة الصحافة العربية، وقد مارستها محترفاً ثلث قرن حتى الآن، قد وصلت الى مستوى من السقوط ربما لم تعرفه في كل تاريخها، وان تراجعها في مثالياتها وقواعدها وأسلوبها وممارستها، قد فاق تراجعها في حرياتها وكراماتها.. واستباحة الأنظمة والناس لها».. ورغم أن رياض نجيب الريس، واحد من حملة القلم الشجعان، المشهود لهم بالثبات على الموقف، لم يستقل من الصحافة العربية، وظل يملك الشجاعة نفسها في أن يعبر عن رأيه بملء الحرية التي يمتلكها، كلما أتيحت له فرصة للتعبير عن رأيه، إلا أنه ـ عملياً ـ تحول إلى «ناشر» كتب؛ لم تسلم بعض الكتب التي صدرت عن شركته من المنع، والمصادرة.. لكنه «حافظ» على وجوده الصحفي، بترؤسه تحرير مجلة «الناقد» الثقافية

الشـهـرية، الممنوعـة مـن التـوزيع والتـداول في احـدى وعـشـرين دولة عربية، من مجموعة الدول المنضوية تحت لواء «جامعة الدول العربية».

لكن ظـروف رياض الريس وعـلاقـاته، تخـتلف عن ظروفـي وعـلاقـاتي، اختلافاً جذرياً!!

فماذا يفعل صحافي وكاتب، سُدَّتْ جميع أبواب المؤسسات الصحفية في وجهه، لا يفهم في الحسابات التي يجريها الحكام وأهل القرار للبقاء في سدة الحكم، ولا يعرف كيف يمسك العصا من منتصفها؛ حتى لا يختل توازنها فتقع، وقد تنكسر إذا كانت العصا من «زجاج».. ولا يعرف كيف ينتقل من «موقع» الى «موقع» معارض؛ مثلما يفعل بعض «الأساتذة» من الكتاب و«المُنظِّرين» في السياسة، والإقتصاد، والثقافة، والفنون، فلا يضيع من عمرهم يوم واحد بلا عمل... ولا.. انتاج؟

كيف يقدر حامل قلم - مثلي - أن يأخذ في الإعتبار «التوازنات الدولية» وسـيـاسـة «الإحـتـواء المزدوج» التي تُدرس مـادتهـا في الجـامـعـات الأميركية؟..

ماذا يفعل واحد مثلي، لم يتعلم في تلك الجامعات الأميركية، «فن» إمساك العصا من وسطها، ولم يمارس «فن» القفز فوق حواجز المبادىء ليخرج من «موقع» الى «موقع» معارض. ولا يعرف من «فنون» التجارة، أو تهريب المخدرات، أو عقد صفقات السلاح، إلا بقدر ما يعرف «غوار الطوشة» من «فن» الرقص على حبال الهواء عارياً. أو بقدر مـا يعـرف «نجـاح الموجي» أو «يونس شلبي» من «فن» صناعـة «ورق البـردي» من فضلات البترول، أو القمامة.

وأخيراً، ماذا يفعل من كان مثلي، لم ينتم الى حزب سياسي، ولم ينضو تحت لواء منظمة ثورية، أو إرهابية، ولم ينضم الى نقابة... أو هيئة رسمية... أو حركة.. أو جماعة، ولم يتقن إلا القراءة والكتابة... ولم يشغله سوى حب الوطن والناس، رغم

البعد عن الوطن والناس؟... ماذا يفعل «بالمبادىء» والمثل العليا» التي آمن بها، وظل يعمل من أجل إحيائها والمحافظة عليها في هذا العصر، الذي انهارت فيه القيم، والمثاليات، والقواعد والأصول، ولم يعرف كيف يصير وحشاً كاسراً، يلبس مسوح الرهبان، ويضع على رأسه «عِمَّة» الوعّاظ والأئمة؟.. ماذا يفعل مثلي، وكنت أظن أن مبادئي ومثلي العليا، وما أؤمن به من حق وحرية للإنسان، ستقيم حولي سياجاً؛ يمنع عني من الآخرين الحقد والضغينة، والكراهية، وحصناً، يدرأ عني غوائل هذا الزمن؟

كنت ـ وما زلت ـ رجلاً، يعرف حدود طموحاته التي تنتهي عند «قلم وأوراق» على مكتب، يستطيع أن ينجز عمله عليه. وكنت أعرف ـ مثلما يعرف رياض نجيب الرياس «أن مثالية طموحاتي تصل الى حد السّذاجة، ولكنني ظننت أن تجارب الحياة قد صقلتني الى درجة معقولة، أعرف من خلالها أن أتدارك ارتكاب حماقة ما».. لكن الواقع، أن ما حدث لم يكن ينطبق على حساب الظن والتوقع. إذ أن حرصي على مبادئي، وتمسكي، بما ظننته ـ مواقف مثالية، منذ مطلع الشباب، حتى وأنا أخطو نحو «الستين» من العمر، ما وصل الى تحقيقه الزميل و«توأم» الطموحات رياض نجيب الريس، الذي أغبطه وأسعد لنجاحاته في تحقيق أحلامه وطموحاته، التي لم أحقق شيئاً منها.. فلم يبق لي، إلا أن أستسلم ـ كما استسلم رياض الريس ـ في مرحلة من مراحل العمر، واكتفى بـ «أن يحافظ على ما تبقى من مهنة هي كل حياته». وكذلك، لم يبق لي إلا الثبات على ما آمنت به من قيم ومثل ومبادىء، وأن أواصل الكتابة، بحدود الطاقة والمقدرة التي أملكها، وأنا على عتبة الستين. أي، أقترب من بوابة «سن الرشد».. وهو «السن» الذي أتمنى أن أبدأ من أول درجات سلمه، لتحقيق ما تبقى من طموحات؛ إذا قدر الله وشاء وفعل.

يبدو أنني كررت - المداخلة - وسرحت قليلاً، أو كثيراً، عن صلب الموضوع الذي بدأت به هذا الفصل. كما يبدو أنني أسهبت أكثر مما يتطلبه «الموقف». لكنني أدرك، أنني لم أبلغ حد الشطط في هذا الإسهاب، رغم أنني وقفت فيه من نفسي، موقف من يريد أن يقول «رحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده» ليصل الى موقف من قال: «رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي». إذ بإهداء العيوب، يُقوِّم الإعوجاج، وتستقيم الأمور.

ولنعد الى ما بدأت به...

فقد كان من ثمار دعوة الملك فهد بن عبد العزيز إلى الجهاد المقدس، وحضه على أن تقوم الصحافة الإسلامية بدورها في التوجيه والهداية، والمثابرة على العمل في خدمة القضية الفلسطينية، كان من ثمار تلك الدعوة، أن صدرت صحيفة «المسلمون» وهي إحدى مطبوعات «الشركة السعودية للأبحاث والتسويق»، يتصدرها عنوان عريض يقول «الجهاد لإسترداد المسجد الأقصى فريضة» - العدد السادس والسبعون - السبت - ١٩ تموز - يوليو ١٩٨٦ .

وآخر «نداء» وجهه الملك فهد إلى المسلمين بمناسبة عيد الفطر السعيد، قوله:

«نداء الله في مآذن القدس لن يَخفُتْ».

وفي متون نص النداء المنشور في «الشرق الأوسط» عدد يوم الخميس - ١٩٩٠/٤/٢٦، جاء قول خادم الحرمين الشريفين:

إننا نستقبل هذا العيد ولا تزال نفوسنا مليئة بالألم والأسى على ما يعيشه اخوان لنا في العقيدة واللغة والدين من مأساة طال أمدها سواء على صعيد القضية الفلسطينية أو على صعيد القضية اللبنانية».

وقال انه «من نداء الله أكبر انطلق جهاد شعب فلسطين حتى الإنتفاضة التي تعيشها اليوم الأراضي الفلسطينية المحتلة، وسيبقى منطلقاً حتى النصر إن شاء الله».

ويتضح من مضمون «النداء» أن الأمة كانت في «هم» القضية الفلسطينية، التي عوضاً عن أن يكون حلّها قد تم وتحقق، فقد أضيف إليها ـ أي الأمة ـ «هم» آخر، إسمه «القضية اللبنانية».. وتوالت النداءات، ولم يعقبها «عمل» يبشر، إلا بازدياد «الهموم» العربية، وتعقيد قضاياها التي بدأت بقضية تقسيم فلسطين، ثم باحتلال كامل الأراضي الفلسطينية.. ثم بعدوان ١٩٦٧ الذي استكملت إسرائيل خطتها بعده باحتلال كامل الضفة الغربية بما فيها القدس، واحتلال سيناء.. واحتلال مرتفعات الجولان.. وتوالت المصائب على الأمة العربية، وتضاعفت همومها، باحتلال الجنوب اللبناني، حدث ذلك كله والصحافة العربية ـ في المهجر ـ تواصل مهمتها في «التنظير» وامتداح المناقبية، التي ازدادت توهجاً وألقاً بعد حرب الخليج الثانية، التي وضع فيها الرئيس العراقي صدام حسين، الأمة العربية في موقف شائك جداً لا تحسد عليه من أحد، وأوقعها في «حيص بيص» كما تقول العرب.

ويبرز «جهاد الخازن» من موقعه الجديد كرئيس لتحرير صحيفة «الحياة» وككاتب، لا يعرف قلمه حدوداً يقف عندها، ومثقف لم يدركه قول «علي بن أبي طالب» كرم الله وجهه، في حكمته البالغة «رحم الله إمرءاً أهدى إلي عيوبي» ليكتب في زاويته «عيون وآذان» يوم الثلاثاء ١٤ ـ شباط ـ فبراير ١٩٩٥ ما يلي:

«بعد أربعين سنة أو نحوها في موقع الحكم لا يزال الملك فهد بن عبد العزيز يفاجىء الصديق والعدو بقراراته ومواقفه، ولا حاجة بي أن أعود بالقارىء الى الخمسينات، أو أي عقد أصبح تاريخاً، وإنما أكتفي بالتسعينات وقد انتصف عقدها، فمن حرب تحرير الكويت، الى القرارات الإقتصادية، الى قوله «من مد يده على هذه البلاد بشبر واحد نمد يدنا كيلومتراً».

«اما وعد خادم الحرمين الشريفين او وعيده بأن «الشبر الواحد

بكيلومتر»، فهو موقف مسبق، او اجهاض لوضع محتمل، حتى لا يأكل الفاجر مال التاجر، كما يقول المثل. ولا أزيد».

وعن «ثمار دعوة الجهاد» التي كررها في نداءاته المتتابعة، الملك فهد بن عبد العزيز، كتب «عرفان نظام الدين» يقول:

«الذين يشككون بجدوى دعوة الجهاد في سبيل تحرير القدس والأراضي العربية المحتلة إنما يساهمون عن قصد.. أو غير قصد في المؤامرة الصهيونية الهادفة الى إدخال اليأس الى قلوب العرب والمسلمين وإشعارهم بالإحباط والخيبة المستمرة وإطفاء شعلة الأمل بحلول يوم النصر القريب».

فالنداء الأول الذي أطلقه الأمير فهد بن عبد العزيز، ودعا فيه الى الجهاد المقدس لتحرير القدس، هو نفسه «النداء» الثاني والثالث، والخامس والعاشر... الى آخر نداء وجهه «خادم الحرمين» بعد أن أصبح ملكاً... يحتوي مضموناً واحداً، وتوجهاً واحداً، لكنه يتكرر بصيغ مختلفة، وفي مناسبات عديدة.. حتى غدا برنامجاً سياسياً يلتقي مع سياسة الإحتواء المزدوج، التي تعتمدها الولايات المتحدة الأميركية، ويدور في فلكها.. وهي سياسة «الأسفنجة» التي تمتص، ولا تفرز ـ بعد أن تجف ـ شيئاً مما امتصته.

وفي رأي بعض المعلقين والمنظرين العرب؛ الذين درجوا على «توعية» السذج والبسطاء؛ الذين «تهزهم» خطابات الحماسة، في رأيهم، أن النداءات المتكررة، تتحول مع الزمن الى «برنامج عمل» والى «استراتيجية» لا يمكن تحقيقها إلا على مراحل زمنية ـ قد تقصر أو تطول ـ وينبغي معها الصبر.

وكل نداء، أو خطاب يوجهه السياسي إلى الأمة والشعب، هو برنامج، يتطلب مجهوداً، واستعدادات، وحسابات على جميع المستويات و«المقاييس» حتى يتم تحقيق الأهداف التي حددها النداء.. الخطاب.. البرنامج.

فمثلا نرى، أن سياسة المملكة العربية السعودية، تؤكد عبر «الخطاب» السياسي، أن السلام لا يمكن أن يتحقق في الشرق الأوسط، إذا لم يتم الإنسحاب من الأراضي العربية التي تحتلها إسرائيل، وأن الإستقرار لن يتوفر، إلا اذا استرد الشعب الفلسطيني حقوقه المشروعة المنصوص عليها في قرارات هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، ونالت تأييد وموافقة جميع الهيئات والمنظمات الدولية.

إلى ذلك، فان ما طالب به الملك فهد في ندائه الأول، عندما كان أميراً ـ ولياً للعهد، أصبح، حسب تحليل سياسي طرحه أحد المعلقين الصحفيين «بمثابة قانون متفق عليه، والتزام بقرار، سبق أن وافقت عليه جميع الدول العربية في القمة العربية التي انعقدت في الرباط العام ١٩٧٤ . والتشديد على هذا الإلتزام، مرة تلو المرة، وخاصة هذه المرة امام عدد وفير من رؤساء الدول الإسلامية في أفريقيا وآسيا، يعني تلقائياً توسيع هذا الإلتزام من رقعة الإقتناعات العربية الى رقعة الإقتناعات الإسلامية». وهذا كلام مشروع لا غبار عليه. لكن القوانين كما هو معروف، تكتسب درجتها القطعية في مدى زمني محدد. وهنا يبرز السؤال المحير:

فاذا كان الخطاب السياسي، اكتسب قوة القانون، فلماذا لم تتحدد له «فترة زمنية» ليكتسب الدرجة القطعية، ويوضع موضع التنفيذ؟.. فالقدس التي مضى على الإستيلاء على نصفها بقرار التقسيم، لم يُتمكن من تحريرها في حرب ١٩٤٨ . ونصف القدس الآخر الذي استولت عليه إسرائيل بالقوة ـ وليس بقرار ـ بعد حرب حزيران ـ يونيو، مضى عليه تحت الإحتلال، سبعة وعشرون عاماً، ولم يُتمكن من إسترجاعه بعد حرب تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٧٣ .. ورغم نداءات الدعوة الى الجهاد لتحرير القدس، دأبت إسرائيل على إقامة المستوطنات حول القدس، وأعلنت ضمها، واعتبارها عاصمة أبدية للدولة العبرية.. ولم يتمكن الخطاب السياسي من تحريرها، رغم مرور أكثر من إحدى

عشرة سنة على الدعوة الى الجهاد لتحرير القدس، ورغم اعتبار هذا «الجهاد» فريضة لا يجوز، بل لا يمكن إهمال أدائها، وأن الأمة تكون بلا كرامة، اذا لم تتحرر القدس وجميع المقدسات. وبات معروفاً من الجميع «القاصي والداني - من صانعي القرار، الى رموز الدين، وإلى كل فرد من أبناء الأمتين العربية والإسلامية، ومنذ سنوات طوال، أن الموقف السعودي المعلن في «الخطاب السياسي» يتلخص في أن لا جدوى من المناداة بتحرير القدس، وباستقلال أماكن العبادة ووضعها تحت مظلة نظام دولي، أو تحت أي نظام أو مسمى آخر، في الوقت الذي تعمل الصهيونية، على إبادة مواطني هذه الأماكن من مسلمين ومسيحيين، وتشريدهم منها، لتمكين إسرائيل من السيطرة عليها. فضلاً عن أن الخطاب السياسي الموجه، - حسب النداءات المتكررة - التي أطلقها «فهد بن عبد العزيز» منذ أن كان أميراً، الى أن تولى الحكم ملكاً، يعتبر: «إن صيانة حياة وحقوق وكرامة الإنسان تسير جنبا الى جنب مع صيانة هذه المقدسات والحفاظ عليها وذلك أمر يدعو المسلمين والمسيحيين الى التعاون والعمل الجاد من اجل تحرير الأماكن المقدسة ورفض المؤامرات الصهيونية في شتى صورها وأشكالها والتي تظهر صورتها الخبيثة اذا علمنا ان عشرات الألوف من سكان منطقة القدس من المسيحيين وحدهم قد اضطروا تحت ضغط سلطات الإحتلال الإسرائيلي الى ترك ديارهم».

هو ذا، اذن، برنامج سياسي واضح يقوم على رفض تدويل القدس او أماكن العبادة وعلى القرار بضرورة اعادتها الى الأيدي العربية؛ وعلى القول الصريح الواضح، بأن تهجير الإسرائيليين للمسيحيين العرب، هو ضمن المخطط الصهيوني الذي لا يقبل به المسلمون بأعلى مستويات مسؤوليتهم. ان لهذه التعابير دلالات بعيدة المدى وقوة حضارية كانت ولا تزال من أسس إيمان المسلمين قاطبة ودنقا أخوياً إنسانياً يسترجع صحوته الأصيلة.

هو ذا، برنامج هو بمثابة القانون، مضى على صدوره سنوات وسنوات، لكنه ما يزال ضمن إطار «سياسة الإحتواء المزدوج» ولم يكتسب صدقية القوانين والقرارات، ولا قوتها.. لأنه بقي خطاباً سياسياً للإحتواء، وللإمتصاص، ولنزع فتيل الإنفجار، الذي سوف يتسبب بإثارة «المشاكل للعالم».. وهذا ليس من أهداف السياسة السعودية، كما ورد في أكثر من نداء وخطاب.

وعلى الرغم من أن ما أعلنه «فهد بن عبد العزيز» أميراً، وملكاً، كان واضحاً وصريحاً، ولم يكن يتلفع بغطاء المواربة، في أسلوب الطرح، بل كان مباشراً في الإشارة، الى أن الدعم الأميركي لإسرائيل، دعماً مادياً وعسكرياً بعد الدعم السياسي، هو الذي يسبب «خلق المشاكل» في المنطقة... إلا أن ذلك كله، لم يؤد الى دفع أميركا لتغيير، او تعديل منهجها القائم على سياسة الإحتواء المزدوج.

إلى ذلك، فان واشنطن مدعوة الى إعادة تقييم تصرفاتها حيال العرب والمسلمين، إذ لم يعد أحد يصدق دعواها، بأنها تعمل للحفاظ على الأمن والإستقرار، وعلى السعي من أجل تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط، وفي غيرها من مناطق العالم المتوترة.

* * *

كان ممكناً أن تكتسب «النداءات» قوة القوانين، لو أنها دُعِّمت بقرارات سياسية، وضعت موضع التنفيذ، كالقرار الذي اتخذ في عهد الملك فيصل، أثناء «حرب رمضان» وقضى بقطع النفط عن دول الغرب ـ ولو لفترة محدودة ـ لتأكيد جدية الخطاب وحزمه. لكن شيئاً من هذا لم يحدث، وهذا أحد الأسباب، بل السبب الأول، في عدم التعجيل بالبحث عن حل، يمهد الطريق الى سلام يقوم على العدل وإحقاق الحقوق، على أسس القرارات الدولية التي التزم بها العرب، ولم تلتزم بها إسرائيل مرة واحدة. والشواهد كثيرة ومعروفة، ولا مبرر لتكرارها.

وما دعا إسرائيل الى الثبات على المواقف المتشددة، في جميع المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية، والتمادي في فرض إرادتها على المنطقة، هو الدعم الكامل الذي تلقاه من الولايات المتحدة الأميركية والغرب، وهو دعم لا حدود له، هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى، الخلافات العربية المتواصلة، ما أدى الى ضعف عام، جعل الأمة العربية في حالة من الوهن، أفضى إلى نوع من الضياع، والتخبط في اتخاذ المواقف، استمر أكثر من خمسة واربعين عاماً، مما أفقدها القدرة على التأثير في السياسة الدولية، وهذا ما قاد - بالتالي - الى إبطال العمل على تنفيذ القرارات الدولية التي لم تعبأ إسرائيل بها، ووجد العرب أنفسهم، مدفوعين الى القبول بها .. وتنفيذها . وهذا كله معروف، ولم يعد سراً خافياً على أحد.

لكن، من يقرأ التاريخ قراءة واعية متأنية، يصل إلى قناعة واحدة، تلخصها حكمة عربية، صيغت صياغة شعرية تقول:

« ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع»

وهذا يؤكد حتمية عدم رجوع التاريخ الى الوراء، يعني أن الحصان الذي يكبو ولا تميته الكبوة، يتعلم الدرس، وينهض من كبوته، ويغدو أقوى. والعرب، حصان أصيل، سوف ينهض من وهدة كبوته التي طال أمدها . فاضعفته، لكنها لم تقتله.. بل إن بوادر النهوض بدأت تلوح في أفق العرب.. ومن ملامحها، الصياغة الجديدة للموقف العربي الجديد، الذي يشترك في صنعه رئيسان شقيقان، تربط بينهما قواسم مشتركة على مختلف الأصعدة. **وهذان الرئيسان اللذان يصوغان معاً مستقبل الوطن العربي، سياسياً، واقتصادياً، وأمنياً، يلقيان التأييد والمساندة من منبعهما الصافي الأصيل المتمثلين بشعبيهما اللذين بدءا يتنسمان**

هواء «الحرية» وينعمان بديموقراطية، كانت الى وقت قريب، مفقودة من الحياة السياسية.. الى جانب ما يلقاه الرئيسان من تأييد ومساندة شعبيهما في خطواتهما التي باتت ثابتة وقوية على طريق الحرية والديمقراطية، فانهما يلقيان الدعم من أشقاء لهما.

فقد سادت الثقة بين هؤلاء الزعماء «الأشقاء» بعد حرب الخليج الثانية، التي أدت الى إجتياح الكويت، ثم تحريرها من الغزو العراقي المتمثل بجيش صدام حسين، وجنوده الأشاوس. وكان الأمل معقوداً عليه، للقيام بغير هذا الدور الذي هدد به مستقبل المنطقة كلها، وزعزع الأمن في الوطن العربي.

هذان الرئيسان اللذان يشتركان معاً في صنع المستقبل المشرق للوطن العربي، هما ـ «محمد حسني مبارك» رئيس جمهورية مصر العربية، و«حافظ الأسد» رئيس الجمهورية العربية السورية.. فقد بدأت براعم الحرية والديمقراطية، تتفتح في البستان الدمشقي، وفي أرض الكنانة، لتنشر عبيرها على الوطن العربي، وتعم أرجاءه الفسيحة المترامية.

ولهذا حديث يطول...

5

ها أنت ما تزال وحيداً...

تقبع خلف مكتبك في «المعتكف» المعزول؛ تقرأ، وتتأمل، وتحاول أن توازن بين ما يقال وما لا يُعمل، فلا تصل إلا الى «وهم» يوقعك في «بئر» الحيرة... والقلق.. والإكتئاب، وحافة اليأس.

ها أنت أيها الحائر...

تبقى وحيداً مع حيرتك، في أمر من يدعون إلى الجهاد، ولا يجاهدون.. وحيرتك، في أمر من خاضوا الحروب، وعجزوا عن استرداد الحقوق، وعن تحرير الأراضي المحتلة.. وحيرتك؛ في أمر من أوصلوا «الوطن» الى حالة التشظي، والتشرذم، والتخلف، الذي آل إليه حاله، بعد نصف قرن من الحركات الإنقلابية.. والثورات والحركات؛ التي شرّدت من شرّدت، وقمعت من قمعت... وسجنت من سجنت... وقتلت.. وصفت... وهجرت من هجرت بعد تشريد الشعب الفلسطيني وتشتيته في كل بقاع الدنيا.

* * *

ها أنت يا صديقي الحائر..

تبقى وحيداً بعد أن هُجِّرت ـ مع من هُجِّر، فاتخذت من «لندن» وطناً بديلاً..

تبقى وحيداً؛ تتأمل في أمر «إسرائيل» التي قامت قبل أقل من نصف قرن؛ بقرار أصدرته القوى العظمى، ونفذته عبر «منظمة الأمم المتحدة» ليكتسب الصفة الشرعية..

وعلى مدار الزمن، استطاعت أن «تصمد» وتبقى وتستمر، دولة قوية راسخة، شأنها، شأن دولة كبرى أو عظمى... تفعل ما تشاء.. وذراعها قادرة على أن تطال من تشاء، ولو كره العرب، والمسلمون، وشعوب العالم قاطبة.

ما السر في ما يجري حولك؟..

لماذا تخلف «العرب» وعادوا الى الوراء أكثر من خمسمائة عام؟.. ولماذا بقيت «إسرائيل» وتقدمت خمسمائة عام، في أقل من نصف قرن، حتى تجاوزت في تقدمها، دولاً كثيرة، غنية، وكبيرة.. وضاهت بما حققته من تقدم، أعتى وأفتى الدول المتقدمة؟

ما هذه الأحجية التي استعصى حلها على «العرب» الضاربين في تاريخ الحضارة؟ والغنى؟..

ما هذه المعادلة العجيبة الغريبة؟!

ولماذا لم تجد صيحة «الشاعر القروي» بالشباب العربي:

«ثب يا شباب العرب ثب، . مشت الشعوب وأنت نائم»؟

لا شك أن في الأمر «سراً» ولا ريب!..

فما هو السر في هذه «المعادلة» المحفوفة بكل المفارقات العجيبة، والمتناقضات الغريبة؟..

* * *

أيها الحائر...

كف عن الإستغراق في بئر «الحيرة» وامض، لتبحث عن مفتاح «السر» الذي استغلق عليك فهمه؛ بعد أن طال وجود «العَصابة» على عينيك.. وظلت أذناك مسدودتين،

تصدُّان عن سماع مختلف نغمات السلّم الموسيقي، بعد أن علموك، وعوّدوك على الإصغاء الى نغم مقام واحد، هو مقام الصمت.. والحزن.

كنتَ أيها الحائر؛ لا تجرؤ وأنت في قلب «القضية الفلسطينية» على الجهر بادانة أحدٍ تعتبره مسؤولاً، أو مشاركاً في المسؤولية عن ضياع فلسطين، وعن احتلال أجزاء من أراضي وطنك الكبير، الفسيح، الممتد...

كنت أيها الحائر، لا تملك الحق في أن تقول كفى، لمن تسبب في وقوع الكارثة، التي أصابت أمثالك من العرب البسطاء السذّج. كنت لا تستطيع أن تقول.. لا!.. لأنك كنت مكمم الفم، مقطوع اللسان، وعلى عينيك عصَابة سوداء.

لكنك ـ الآن ـ أيها الحائر، يمكنك أن ترفع عقيرتك، وتطالب بحقك في أن يُسمَعَ صوتك، وتقول بملء حريتك، كفى.. لم تبقِ الإنكسارات لنا عزماً، ولم تترك الهزائم لنا أملاً... فأنت تتنسم ذرائر الحرية والديمقراطية وقد عبقت في أرض الكنانة مثلما أخذت تهب على بستان دمشق . أطالبكم بتحقيق إنتصار واحد ـ حرباً أو سلماً ـ يعيد إلي حقي في وطني.. أطالبكم بأن تردوا الي عزتي، وكرامتي، وحريتي. فأنا أريد أن أبقى في وطني، دون أن أخاف عاقبة «لا» المحبوسة في حنجرتي.. ولقد آن الأوان لأقولها.

ما الجدوى في أن أعلن رأيي وأقول «لا... وأنا بعيد عن حضرة الوطن الحبيب... لقد آن الأوان لأقولها، وأنا في حضن الوطن، **وليس وراء قضبان الزنزانة.**

ما جدوى أن أكون في «المهجر» حراً وشجاعاً؟

وما أصعب أن أكون في «الوطن» خائفاً وجباناً؟..

«إني لا أزعم أني بطل»

«بل إن خوفي طافح حتى الحواف»

«لم يعد فيّ مكان يسع الخوف المضاف،

«صار حتى الخوف.. من خوفي يخاف!».

عم صباحاً يا أحمد مطر ومساء..

فلقد بات معروفاً وواضحاً «أن إسرائيل لم تنتصر بجيشها الذي لا يقهر، ولا بآلتها العسكرية المنيعة، ولا بتقنيتها المتقدمة، ولا حتى بتعصبها الديني. لقد انتصرت بفعل عامل واحد لم يعرفه العرب في العقود الثلاثة الأخيرة المتعاقبة، منذ جلاء القوات الأجنبية عن بلادهم، واعلان استقلالهم.. الحرية. الحرية التي هي ممارسة ديموقراطية حياتية يومية، المواطن العادي هو صاحب القرار فيها، يرفع الحاكم الذي يعينه على النصر، ويحفظ له خبزه مع الكرامة. ويُسقط الحاكم الذي يقوده الى الهزيمة، ويسلبه خبزه وكرامته. هذا هو السحر الإسرائيلي الذي استعصى فهمه على العرب».

هل عرفت «السر» يا صاحبي؟..

هو ذا «السر» يفضي به مواطنك رياض الريس، في كتابه «قبل أن تبهت الألوان». وقد تحققت طموحاته بدار نشر عظيمة، لا يُسمح لك بإصدار كتبك عنها. فأنت تفهم الحرية، على غير الوجه الذي يفهمه - على ما يبدو - صاحبك رياض الريس، الذي يتحدث عن الحرية، ولا يبيح الجلوس على مائدة الحوار!.

ويبقى عليك - أيها الحائر أن تعلن مع «الملوثين قهراً وحرماناً»، إذ لم يعد هناك مكان لانكسار الجباه، اننا ننتظر الرياح الآتية من بعيد لعلها تحمل في غبارها بعض نسائم ما حرمنا منه دهوراً، وإلا فلن يبقى أمامنا إلا أن نكرر ما سبق أن طلبه الشاعر محمد الماغوط، في قصيدته «كل العيون نحو الأفق» أن نطلب من الله أن يبيد هذه الأمة!» لا قدّر الله.. لا قدّر الله.. لا قدّر الله.

ولكنك لن تطلب من الله - أيها الحائر - ما طلبه مواطنك محمد الماغوط.. إذ أنك رغم مكابدتك في حرمانك من العيش فوق أرض

الوطن، لم تفقد الثقة في الأمة التي تنتمي إليها بدمك، ومشاعرك، وثقافتك، وتاريخك.. رغم ما يزيد على ثلث قرن، أمضيته في ترحال متواصل، حتى استقر بك المقام في هذا «المهجر» الذي وفّر لك رغيف الخبز، والمأوى، والدواء، والعلم والدراسة لأبنائك، دون أن يتعرض لحريتك، أو ينتقص من كرامتك؛ أو يعصب عينيك، أو يقطع لسانك.

إنك لن تطلب ـ أيها الحائر من الله «أن يبيد هذه الأمة» التي لا يمكن أن تنفصم عروة انتمائك إليها، رغم أن ـ البعض ـ من أبنائها، حرمك من حق الحياة والعيش بحرية وكرامة، فعوضك «مهجرك» في بريطانيا عنها خيراً!!..دون ترامٍ على الأعتاب، ودون أن تتطامن بجبهتك الى مستوى التراب.. لكن ذلك كله، لم يجد فتيلاً، إذ:

«لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها»

أما وقد بدأت رياح الحرية، تهب بعد قمة «الإسكندرية الثلاثية» بين زعماء العرب الثلاثة «حافظ الأسد ـ فهد بن عبد العزيز ـ حسني مبارك»، فابشر بطول سلامة.. إذ أحيت تلك «القمة» لك الأمل الذي كاد أن يتلاشى، ولولاها ـ ربما ـ ما كنت تردّدتَ في الوقوف الى جانب مواطنك محمد الماغوط!.

* * *

لقد بتر الإسرائيليون ساقَيْ بسام الشكعة، لكنهم لم يتمكنوا من إستئصال انتمائه الى وطنه..

ولقد سحق جنود «جيش الدفاع الإسرائيلي»؛ عظام الشباب الفلسطيني، وعظام سواعد أطفال الإنتفاضة، حتى لا يتمكنوا من إلقاء حجر في «بحيرة» نعيم الإستقرار،

وتعكير صفو الحياة للإسرائيليين.. ولكنهم لم يتمكنوا من منع أولئك الشباب والأطفال، من التشبث بأرضهم، بالمرافق، والأسنان.

يبدو أن العقلية الإسرائيلية، لم تستوعب معنى الإنتماء الى الوطن. لذا، فان إسرائيل، منذ بدأت المفاوضات لإحلال السلام، وعمدت الى «إستفراد» الأطراف العربية، ظلت تسوّف.. وتماطل.. وتراوغ.. وتناور، علّها تصل الى مآربها، فتحتفظ بما استولت عليه، وتضمن «السلام» الذي تسعى الى فرضه بالقوة.

وكل ما تحقق لإسرائيل حتى اليوم، لم يأت لها بما تريده من أمن وأمان.. ولم يحقق لها عشر مقدار من الإستقرار، وما يجري بعد «غزة - أريحا» درس آخر، آن لإسرائيل أن تستفيد منه.

ولكي تدخل في روع العالم، أنها مظلومة، ومهضومة الحقوق، ومهددة من جيرانها.. أخذت تغني للسلام، وتدعو - عبر آلة إعلامها المنتشرة في أرجاء العالم - الى السلام. وتوجه الدعوات الرسمية إلى المثقفين، والفنانين، والأكاديميين العرب، ليروا، بأم أعينهم «سعيها المشكور» من أجل السلام، وليسمعوا، وليحاوروا مواطني «إسرائيل» ومسؤولي الحكم فيها، ليتأكدوا بأنفسهم، أن كل يهودي يعيش في «إسرائيل» يحب السلام، ويريد أن يعيش مع جيرانه عيشاً هنيئاً... مريئاً... صافيا، لا يعكره «حجر» ولا تهدده «رصاصة» أو «شحنة متفجرة» تقتل الأبرياء من اليهود.. فيتهدد - بعدئذ - السلام، وتعود «نغمة» الحرب.. يا للعجب!..

وإسرائيل التي تعلن رغبتها في إحلال السلام، تهدد - في الوقت نفسه - بالحرب.. وترفض التوقيع على اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية.. وتتجاهل، أن هذه «المعادلة» مغلوطة، وخاطئة، ومحفوفة بالمخاطر.. وأنها لم تعد «أحجية» يستعصي على العرب حلها.

لقد تابعت خطوات «إسرائيل» على طريق المفاوضات - عن بعد -

وخامرني الشك في صدقية ما تحقق عن طريق المفاوضات، التي أفضت الى إتفاقية «غزة - أريحا» ثم تلتها اتفاقية سلام بينها وبين الأردن.

ولبثت أتتبع تطور الأحداث، كأي مواطن عربي، يعيش بعيداً عن الوطن، ويتلهف لمعرفة ما سيبلغه من مفاوضات السلام.

ولقد غشيني شعور بالخيبة مما «أنجزته» منظمة التحرير الفلسطينية، برئاسة ياسر عرفات، بعيد التوقيع على اتفاقية «أوسلو».. وتردد في سمعي - للآونة - صوت الملك فهد بن عبد العزيز، وهو يعلن الجهاد المقدس لتحرير القدس.. ولاسترجاع الأراضي.. ولتطبيق مبدأ حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني.

كان الصوت الذي انطلق بقوة وحزم؛ قبل أكثر من عشر سنوات على «الوصول» الى اتفاق «أوسلو» قد ملأني إحساساً بالزهو، والفخر.. ولما تردد صداه في سمعي بعد اتفاق «أوسلو» هيمن علي الإحباط، والإكتئاب.

أتكون هذه هي ثمار الدعوة الى الجهاد؟...

واستذكرت، مع رجع صدى صوت الملك فهد بن عبد العزيز، كلمات قالها الكاتب السعودي «عبد الله الجفري» تبعث الأمل، وتحيي الرجاء، علَّ الأمة العربية تعي قدرها، وتبصر غدها. ورجعت الى «الملفات» التي أحتفظ بها، نقبت، وبحثت، حتى وجدت بين الأوراق، قصاصة لمقال كان «الجفري» كتبه، وفند فيه معنى الدعوة الى الجهاد. ورأيت أن أدرج ما قاله، واستخلص أسباب الوصول الى اتفاق «أوسلو».

ومن مقال «عبد الله الجفري» الذي دعا فيه الى منح فرصة للمخلصين من أبنائها، كي يتمكنوا من كتابة التاريخ الجديد للأرض والكرامة. وليضيئوا هذا الوجه المنتصر المعتز لإنسان هذه الأرض، بعد أن أثقلته الهموم، وأرهقته أهوال الشقاق والتصدع، قوله:

«إن دعوة فهد بن عبد العزيز للجهاد.. تتطلب - في البدء - اسقاط كل

الخلافات، وكل الإنقسامات والتنابذ بين الأشقاء، والتطلع الى ما يحيق بهم من مخططات تستهدف تركيع العرب كلهم، وتفتيت قوة المسلمين!

ويا أيها العرب: لقد مزقتنا الأنانية وبدّدنا حب الزعامة، وقتلتنا الفرقة فضاعت منا اراضينا، وصرنا نبكي على مقدساتنا - مسلمين ومسيحيين - ولن نستعيد اي شبر من الأرض، ولن نصلي في الأقصى... وبعض الزعماء يرى أنه صلاح الدين وحده. فاذا هو بعد «الزعامة» يتحول الى أبي رغال، أو الى أسخر يوطي جديد!

إن دعوة فهد بن عبدالعزيز للجهاد ليست موقفاً سياسياً جديداً، فالملكة العربية السعودية اكدت وما زالت ان هذه المنطقة لن تنعم بالسلام إلا بعودة الاراضي العربية وبحق تقرير مصير الشعب الفلسطيني، وأن استعادة الأرض والمقدسات لا تتم الا بالتضامن ووحدة الصف والكلمة. ولكن الجديد الدافع لإعلان الأمير فهد للجهاد: ان السفاح بيغن أخذ يستثمر كامب ديفيد لخططه التوسعية والإستيطانية، وأن دور مصر الرائد دائما ينطمس الان في المكابرة والتعنت والإحتواء اليهودي، وأن الخطورة تكمن في ابتلاع القدس تماماً وفرض الأمر الواقع... مثلما حدث في عام ٤٨، ثم في عام ٦٨. وإذن فنحن نرتقب التجاوب العربي والإسلامي الفعال لدعوة الجهاد المقدس».

ووجدت أن في «إشارات» الكلمة، رأياً صادقاً، يضيء إضاءة ساطعة، ليوضح ما لم يعرف كيف يوضحه «الآخرون» من الكتاب الذين لا يعرفون إلا «النفخ في الأبواق»، وليس مهما بعدئذ، إن كان صوتهم يصدر نغمات ناشزة، لا يستسيغها السمع، ولا يقبلها العقل والمنطق.

إن «دعوة فهد بن عبد العزيز للجهاد ليست موقفاً سياسياً جديداً(...) ولكن الجديد في الدعوة الى الجهاد، هو موقف «بيغن» الذي يعمل على استثمار اتفاقية «كامب ديفيد» المعقودة مع مصر، لتنفيذ مخططات

إسرائيل التوسعية».. لكن دور مصر الرائد، في ترسيخ «السلام» لن يبهت لونه، ولن يتقلص أمام «المكابرة والتعنت والإحتواء اليهودي». هذا يوضح، أن الخطاب السياسي السعودي يأتي منسجماً مع الدور المصري الرائد، في منع استكمال عملية «بلع» القدس، مثلما فعلت إسرائيل بعد حربي ٤٨ و٦٧ ـ . ولهذا، فإن الدعوة الى الجهاد، تحتاج الى استجابة عربية إسلامية، لكي تتم ترجمتها الى فعل.

لا بأس...

فليكن الأمر كذلك، ولكن، هل نعتبر اتفاق «أوسلو» الذي تم التوقيع عليه في ١٣/٩/١٩٩٣ ـ هو، أول ثمار الدعوة الى الجهاد؟.. أم، أول محطة لقطار السلام يتوقف فيها، ثم يتابع سيره، حتى ينتهي الأمر «فوق الخطين المتوازيين» اللذين يسير عليهما القطار، ليبلغ المحطة لأخيرة، دون أن يلتقي «الخطان المتوازيان» عند «مقص»، فيظل متابعاً سيره الى ما لا نهاية.. ويبقى الباب مفتوحاً لشتى الإحتمالات؟..

* * *

لقد تلقيت دعوة للقيام بزيارة إلى «فلسطين المحتلة» التي أصبح إسمها «إسرائيل» مع من تلقى من المثقفين، للإحتفال بالذكرى الأولى لإتفاق «غزة ـ أريحا» والتعرف عن كثب على ما بلغته مسيرة السلام بين إسرائيل والعرب، ولاستطلاع الواقع، والتعرف على حقيقة ما يجري في الأراضي المحتلة، ولمعرفة ما يدور في ذهن رجل الشارع اليهودي، وما يقلق باله ويشغله.

وبعد تفكير؛ واستشارات تبادلتها مع عدد من زملائي وأصدقائي من المثقفين، وبعد الإسترشاد بآراء بعض من أعرف من الديبلوماسيين.. قبلت الدعوة، وعزمت على

القيام بها.

لن أخوض في تفاصيل الزيارة وما تلاها من ردود أفعال، قبل الوقوف على بعض الملامح والنقاط، التي أدت الى اتفاقية «غزة - أريحا»... وقبل عرض التوجهات والقناعات التي حفزتني إلى قبول الدعوة، وأبرزها خطاب الرئيس السوري حافظ الأسد الذي ألقاه بمناسبة انعقاد مجلس الشعب الجديد في آب - أغسطس ١٩٩٣

فأنا - قبل كل شيء - لست سياسياً، ولم أقم بأي نشاط؛ أو دور سياسي، يعكس موقفي،أو تطلعاتي، سوى أنني - اعتبر نفسي - مواطناً عربياً وحدوياً، لا تحكمه «إيديولوجية» ولا يتقيد بـ «كادر» من الكوادر الحزبية، ولا يتلقى توجيهات أو تعليمات من حركة ما، أياً كان موقعها، أو من تنظيم يميني، أو يساري، أو عقيدي ديني.

طموحاتي تبدأ في أن أبقى شاعراً وروائياً يدعو الى إقامة «جمهورية العدل والحرية»، وتنتهي عند رؤية الوطن العربي حراً مستقلاً موحداً... وأن يعيش الإنسان العربي في وطنه، دون خوف من أن لا يعود إلى بيته في المساء، إذا غادره صباحاً لشأن من شؤون الحياة اليومية.

لست «ناصرياً».. ولكنني أؤمن بأن عبد الناصر، كان زعيماً مخلصاً في أهدافه الوطنية، وفي سعيه الى توحيد الوطن العربي، وتحرير المواطن العربي، من جميع أشكال الحاجة الى الطعام، والدواء، والتعليم، هذه «الأشكال» التي تؤدي الى «الخوف» المزمن، إذا لم تنتفِ من حياة الإنسان العربي في شتى أرجاء الوطن الكبير.

لست «ناصرياً» وأقولها للمرة الثانية..

لكنني أؤمن بما قاله «عبد الناصر» من أن الشعب العربي، يعتقد في السلام كمبدأ، ويؤمن به، كضرورة حيوية ولا يتوانى عن العمل من

أجله مع جميع الذين يشاركونه الإعتقاد نفسه. ذلك أن ما جاء في «الميثاق» الذي قدمه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، الى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، في ٢١ أيار ـ مايو ١٩٦٢، يتضمن قوله:

«إن شعبنا يمد يده لجميع الشعوب والأمم العاملة من أجل السلام العالمي والرخاء الإنساني».. وهذا ما يسعى الى تحقيقه الزعماء العرب، عملاً، وفعلاً.. لا قولاً يثير الضجيج والغبار «الإعلامي» كما تفعل إسرائيل، منذ أن بدأ قطار السلام تحركه.

لم يستثن «الميثاق» أحداً... وهذا يعني أن من حق الشعب اليهودي أن يعيش في وسط جيرانه بسلام... ولكن ليس من حقه أن يستولي على حقوق الغير بالقوة... ثم يطلب السلام.. أو يفرضه ـ أيضاً ـ بالقوة نفسها، التي استعملها للإستيلاء على حقوق الآخرين.

من منطلق ذلك كله، ومن إعتبارات انسانية، نوّهت عنها في الفصول السابقة، قبلت الدعوة لحضور «مؤتمر السلام» الذي نظمته «حركة السلام العالمي». وذهبت، ورأيت حقائق لم أكن أعرفها من قبل.. وبعد عودتي، تلقيت تهديدات تفاوتت، ما بين «مقاطعتي».. وعزلي.. وبلغت حدتها أعلى درجات «ضيق الأفق» بالتحريض على «إغتيالي» وتصفيتي.. وكأن من «حرّض» على ذلك، لم يكتف بما سجله تاريخ العرب على نفسه من وصمات، بإقدام أصحاب العقول المتحجرة، وعبدة «الأصنام والأوثان» على «اغتيال» رموز الدين، والسياسة، والفكر التنويري. ولا حاجة بي الى التذكير باغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين «عمر، وعثمان، وعلي» رضي الله عنهم وأرضاهم.

وليس ثمة حاجة بنا جميعاً لإستعراض أسماء زعماء عرب، وقادة رفعوا شأن أمتهم،ثم قضوا، غيلة وغدراً.

ولا أرى ضرورة، لتعداد أسماء أدباء ومثقفين وفنانين عرب، ذهبوا ضحية عمليات القتل والإغتيال، لذنب لم يقترفوه، سوى أنهم عبروا عن معتقداتهم وطرحوا آراءهم

بحرية.. وهذا مبدأ تقره جميع الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية. أما القتل و«الإغتيال» فلا أعرف ديناً يقره أو يدعو اليه.. ولا قانوناً يجيزه.

وبعد، أيها الحائر المعزول والمنعزل..

غادر هذا «المعتكف» وامض في طريقك، فقد آن أوان فتح النوافذ، وآن أوان إقامة «العرس» للحرية التي تبدو أمام عينيك، عروسا... تضيء آفاق العمر الآتي.. يليق بها الفرح.

تهيأ أيها الحائر، وابدأ الرحلة...

وأعرض عن «الأصنام» الثقافية، والسياسية، وأغمض عينيك عنهم، حتى تستطيع أن ترى بوضوح أكثر، وسُدَّ أذنيك، عن سماع الأصوات «النشاز».. فلكل صاحب صوت منهم، غاية دونها غاية «البوم» ومأرب،دونه مآرب الغربان.

إمض أيها الحائر، ولا تعبأ؛ فلست كـ «حاطب ليل» في صحراء، يخشى لدغة الأفعى، أو لسعة العقرب. وابقَ، كنهر الشاعر «ابن حمديس» الأندلسي:

«جريحٌ بأطراف الحصى كلّما جرى
عليها، شكا أو جاءَهُ بخريره»

إمض أيها الحائر؛ ولا تصانع... فلَست ممن يركبون مركب المداهنة والرياء. لأنك كنت، وما تزال في «خير الغنى» وستبقى بإذن الله - في مأمن من «شرَّ الفقر» ولن تخضع. فأنت ماتزال في العشرين قلباً وروحاً... حتى لو بلغت الستين حولاً.

الكتاب الثالث

الزيـــارة... وما تــلاها ؟!

1

إنك لن تستطيع معرفة نفسك جيداً، من خلال الوقوف أمام المرآة... مهما تكرر وقوفك أمامها.

بل إنك ستزداد جهلاً بنفسك، كلما؛ أطَلْتَ الوقوف أمام المرايا!.. وكلما ازداد استغراقك في جهلك لنفسك، تضاعف فشلك في تحقيق ما تصبو إليه من طموحات في الحياة.

والعرب ـ كأفراد ـ ينفقون ساعات طويلة من يومهم؛ وهم يحملقون، أو يتأملون وجوههم أمام المرايا. وقد أدمنوا هذه العادة زمناً طويلاً. وظلوا على إنشغالهم، أو ـ إدمانهم ـ حتى بعد أن طردوا من الأندلس عام ١٤٩٢، فكان خروجهم من ذلك «الفردوس» بداية الإنهيار.

وقصص التاريخ العربي، حبلى بالمآسي العربية التي امتلأت بها حياتهم بسبب انشغالهم بالنظر إلى وجوههم وعيونهم «السود» في المرايا.

لكن إدمان العرب على «البحلقة» في المرايا، تحول منذ نحو خمسين عاماً إلى ما يشبه العلّة، أو المرض، إذ، شغلتهم الحملقة في وقوفهم أمام المرايا، عن ما يجري حولهم. وهذا ما تركهم يراوحون في مكانهم، وبالأحرى يترددون ويتراجعون بعد قيام دولة «إسرائيل» التي استفادت من إنشغال العرب بما هم فيه. وأخذت تحث خطواتها نحو المستقبل.

والسؤال:

ـ لماذا تلهى «العربي» بالنظر في المرآة، فسبب له هذا «الإنشغال» فشلاً ذريعاً في مختلف المجالات والشؤون، خاصة المجالين الإقتصادي والسياسي، وانعكس فشله

هذا، تردياً ثقافياً وفنياً، وأصاب مجتمعاته التفسخ والتفكك، ولم يبق أمامه سوى الإنهيار؛ إلا إذا إستطاع أن يحطم المرايا، فيتحرر من النرجسية التي أفضت بـ «نرسيس» إلى لوثة الجنون!؟.

أعتقد أنني أجبت عن شق من السؤال، في القسم الأول من هذا الكتاب؛ وفي بعض فصول القسم الثاني. ولقد آن أوان الإجابة عن الشق الثاني.

لقد بدأت ملامح الفشل العربي تتضح، لكل مراقب متتبع، ولكل قارىء، لما حفلت به كتب التاريخ. على أن صورة هذا الفشل الذريع والمريع في آن معاً، اكتملت خطوطها ونقاطها، وتحددت أبعادها، ضمن إطار المرحلة الممتدة إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى؛ وإلى ما بعد الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٧٣ .

ولن استطرد في طرح تفاصيل أكثر؛ تضاف إلى ما أوردته في القسمين الأولين من هذا الكتاب. لكن العودة إلى كتاب «Michael Field» الكاتب الصحفي البريطاني وأحد كبار المحررين في صحيفة «Financial Times» الذي صدر بعنوان «Inside The Arab Wold» والإستعانة بما ألقاه من ضوء، الدكتور محمد الرميحي بعد تلخيصه، فقد يفيد في الإجابة عن السؤال المطروح:

ـ لماذا فشل العرب، وأين فشلوا؟

وهو السؤال الذي طرحه مؤلف الكتاب، في القسم الأول منه، فهو يعتبر أن الفشل العربي السياسي والإقتصادي قد امتد لأكثر من خمسة عقود بعد الحرب العالمية الثانية. وهناك شعور بين العرب ـ من وجهة نظره ـ بالخيبة وعدم الثقة بالنفس، وهو يقدم من التجربة الجزائرية مثالاً لهذا الشعور بالخيبة، وهي خيبة عبّر عنها الرئيس الراحل هواري بومدين ـ قبل المشكلات الأخيرة ـ قائلاً: «لقد عملنا من أجل الإستقلال، ولكن حلاوته سرقت من شفاهنا». ويرى الكاتب أن الخيبة والفشل ظاهرة

عامة في الدول العربية ومن مظاهرها الديون المتزايدة لمعظم هذه الدول لمؤسسات مالية أو دول خارجية، الأمر الذي يقود في النهاية إلى معادلة طرفها الأول، أن الدولة التي لا تستطيع ان تضمن إيجاد عمل لمواطنيها أو تقديم الخدمات التي عودتهم عليها في السنين الماضية، لا بد أن تقدم مقابلاً لذلك.. «الطرف الثاني من المعادلة» أن تقدم تنازلات سياسية. إلا أن المعضلة أن هذه التنازلات السياسية قد تقود ـ في نظر الكاتب ـ إلى فوضى إن هي قدمت بسرعة ودون تخطيط تدريجي، حيث ينقل عن أحد الثقات قوله «إن الديمقراطية العربية كالدواء يمكن أن تقتل إذا أخذت بجرعات كبيرة»!

ويلاحظ الكاتب أن تعطيل خطوات الديموقراطية الشاملة هو ما سماه التحدي الأصولي.. فبعض الإسلاميين ـ كما يقول ـ رجال دين مثاليون لا شك في ذلك، إلا أن معظمهم يستخدمون الشعار الديني للوصول إلى السلطة، ويؤيدهم الكثير؛ لا لأسباب خاصة بهم ولكن لأن هؤلاء لهم موقف من الآخرين أو السلطة القائمة.

ويواصل الكاتب عرضه للأسباب التي هيأت الأجواء، وأدت إلى إستمرار الفشل العربي، فيورد في فصل من الكتاب أحاديث عن ملابسات الثورة العربية (١٩١٦) ـ ثورة الشريف حسين ـ ويرى أن، اكتشاف جمال باشا ـ السفاح ـ نية الشريف حسين بالإنفصال عن الإمبراطورية العثمانية، كانت، أحد أسباب الفشل العربي اللاحق، لأن العرب لم يفهموا ما حدث فيما بين عامي ١٩١٤ و١٩٢٢ وهي أعوام الحرب العالمية الأولى وما بعدها، فهذه الفترة هي مصدر ظهور معظم الخرافات السياسية.. والتصور القائل، إن خلف كل حدث توجد مؤامرة أو ما يعرف بالتفسير التآمري للتاريخ. مع أنها في نظر الكاتب مصالح للدول الكبرى تغيرت وتبدلت حتى بمرور سنوات الحرب وسنوات المفاوضات التي تلتها. لذلك فإن اتفاقية سايكس ـ بيكو (شباط ـ فبراير ١٩١٦) ووعد بلفور للصهيونية (تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٧) ومراسلات الشريف حسين مع مكماهون، كلها كانت ضرورات الحرب والسعي وراء

النصر.

ومن الطريف أن الكاتب يفسر الحديث عن الإستقلال في مراسلات الشريف حسين ومكماهون بأنه يعني الإستقلال عن تركيا، ولا يعني أن العرب ـ تلقائياً ـ سوف يحكمون أنفسهم!! ويبرر هذا القول بأن الغرب كان على يقين منذ عقود ـ قبل الحرب العالمية الأولى ـ من سقوط الإمبراطورية العثمانية، وكان يشار إليها دائما «بالرجل المريض»، وفي حال سقوطها فإن الدول الأوروبية سوف تتسلم مسؤولية الإشراف على الأراضي التي كانت تابعة لها. لقد كان الساسة الغربيون وقتها ينظرون إلى العرب في إطار الأفكار التي استقوها من الكتاب المقدس أكثر من فهمهم للعرب كحقيقة وواقع.

سنوات الإستقلال الأولى أوجدت حكومات ليبرالية كانت حريصة على القطاع الخاص والمبادرة الفردية، وحرية التجارة وحرية الإنتقال، وحرية القول، وامتد العصر الليبرالي منذ الإستقلال حتى نهاية الأربعينات بدرجات مختلفة، إلا أن هزيمة سنة ١٩٤٨ وظهور دولة إسرائيل أحدثا العديد من ردود الفعل العربية، وكان سببها المباشر أن الجيوش العربية فسرت تلك الهزيمة بتخاذل الحكومات العربية التي أدخلت إلى الحروب جيوشاً لم تكن مستعدة ولا مجهزة، وتزامنت الإنقلابات العسكرية بتحول العالم إلى حرب باردة، ومن أجل تعبئة الجميع ـ كما رأى المسؤولون الجدد ـ صار التحول التدريجي إلى الإشتراكية العربية، وهي محاولة لإيجاد صيغة ما؛ تناسب الثقافة العربية ولا تندمج مع الممارسات الماركسية، فقط الدولة الوحيدة التي أعلنت ماركسيتها هي دولة اليمن الجنوبي، أما بقية التجارب العربية فقد كانت تعبيراً عن الجو العام الذي أخذ يسود العالم الثالث، وكان الهدف هو البحث عن توليفة سياسية اقتصادية لتسريع التحديث، إلا أن هذا التسريع ومحاولة تعبئة موارد المجتمع لملاقاة التحدي الذي فرضته إسرائيل سرعان ما وصل إلى مرحلة مخيبة للآمال من جديد، وهي هزيمة ١٩٦٧، التي تعد بمثابة الكارثة الثالثة للعرب بعد هزيمة ١٩٤٨ق قبلها،

واحتلال العراق للكويت سنة ١٩٩٠ بعدها.

* * *

لعل في ما اقتبسناه من كتاب «مايكل فيلد» الذي صدر أواخر العام ١٩٩٤ بعنوان «داخل العالم العربي» يعرّي الحقائق التي لو نظرنا إليها بعين الفاحص المدقق، لما وجدناها تختلف في جوانبها، عما يعرفه جيداً كل عربي، تعمّق في قراءة تاريخ بلاده، وفي مقدمتهم، الساسة، والقادة؛ الذين شاركوا - بشكل أو بآخر - في صنع هذه الصورة، التي صارت للعالم العربي في مرآة الغرب والشرق على حد سواء، وفي عيونه. فهل آن الأوان للكف عن الإنشغال في الوقوف أمام المرايا، بالإنشغال في النظر إلى المستقبل، ووضع الإستراتيجية المناسبة، والثبات عليها، للبدء - عملاً لا قولاً - في صنع المستقبل؟.

أعتقد أن الأوان قد آن فعلاً.

ولقد بدأت ملامح الإستراتيجية الجديدة، تأخذ مسارها مع بداية عهد الرئيس المصري محمد حسني مبارك، الذي جاء إلى الحكم عام ١٩٨١ في أعقاب إغتيال الرئيس أنور السادات، رافعاً راية «الديموقراطية»، مبشراً بإطلاق الحريات العامة، التي ظهرت أولى ثمارها، بإطلاق جميع الذين كانوا معتقلين قبل أن يتولى الحكم، ودعوتهم للعمل الوطني - سياسياً، وحزبياً، وثقافياً كلاً في حقل إهتمامه.

ولئن ألفى الرئيس مبارك نفسه مكبلاً بالتركة الثقيلة، التي ورثها عن الرئيس الراحل «السادات»، (وقد شرحت ذلك مفصلاً في القسم الأول) مركزاً على الإحباطات التي مر بها المصريون، واسترعت اهتمام الرئيس مبارك، مما دفعه إلى التعجيل بالعمل على محو سلبيات ما سبقه من عهود حكم، والسرعة في تبديد هذه المشاعر معتمداً أسلوب الراديكاليين الواقعيين، فكانت أولى خطواته، أن رد للشعب المصري حريته السياسية، وحقه في القول والتعبير عن رأيه دون رفع شعارات بلا معنى. كذلك حرره

من التبعية والارتهان.. وأخذ الفرد المصري يتنفس هواء نقياً ويعيش مناخاً ديموقراطياً صحيحاً، ذلك أن حسني مبارك، كان مدركاً - بطبيعته المصرية الأصيلة الطيبة - ان الإنسان المصري مفطور على الحرية، وعندما تظلله مظلة الديموقراطية فانه يصبح قادراً على تفتيت الصخور، ويثبت وجوده ويتمكن من الإنتصار إذ «من السذاجة أن يكون هناك تفكير بأن المواجهة المصرية - الإسرائيلية قد انتهت لمجرد ان السادات توصل إلى كامب ديفيد»، كما يقول الفريق الشاذلي.

وعندما يصف الرئيس السوري حافظ الأسد الرئيس حسني مبارك - وهو رفيق سلاح وصديق للرئيس الأسد - بأنه «رجل مخلص لوطنه»، فهذا يقودنا إلى القول، بأن راديكالية الرئيس مبارك بواقعيتها ورصانتها، ومرونتها أيضاً، سوف تقود شعب مصر إلى التحرر من الأغلال والقيود السياسية والإقتصادية، وبالتالي، ستحرره من التبعية التي ارتهن لها في عهود سابقة؛ لأنه - أي مبارك - أراد أن يضع مصر على الطريق الصحيح، لتكون في موقعها الطبيعي، تؤدي دورها من منطلق قومي يربطها بعروبتها.

وإذا كان الرئيس حسني مبارك قد نجح في إرساء قواعد الديموقراطية في الفترة الأولى من رئاسته، فإنه، أكد نجاحه في الفترة الثانية، برأب الصدوع في جسد الأمة العربية، إلى جانب ما حققه من نجاح داخلي سياسياً وإقتصادياً.

ويؤكد مصداقية هذه الرؤية، ما قاله الأستاذ أحمد حمروش - وهو أحد الرموز البارزة في ثورة ١٩٥٢ - مخاطباً الرئيس مبارك، في ما يمكن وصفه برسالة مفتوحة نشرت في إحدى الصحف «أعرف مقدار حرصك على الإستقلال الوطني والتضامن العربي، ويعرف الجميع ما قمت به من مبادرات لإعادة العلاقات مع مصر إلى أصولها، وما

أسهمت به دفاعاً عن قضايانا المصيرية في فلسطين والخليج».

ويقودنا حديثنا عن مصر، وما أداه الرئيس مبارك من منطلقاته الوطنية الصافية، إلى الحديث عن سورية، وما أداه الرئيس حافظ الأسد للشعب السوري، بعد تحقيق هدف الإستقرار السياسي، الذي أخرج سورية من حقبة الإنقلابات المتعاقبة التي بدأت عام ١٩٤٩، ولم تتوقف، إلى أن حل يوم السادس عشر من تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٧٠، يوم قام «حافظ الأسد» بحركته التصحيحية، فقاد بها الوطن الذي أرهقته الإنقلابات، وانهكت قواه، حتى كاد يتمزق، ويتحول إلى «أشلاء» تحت مسميات «دويلات».. وحمله الشعب السوري إلى سدة الرئاسة، والأمل يحدوه بأن يتحقق له «انتصار» يعيد اليه «وعيه» وقدرته على مواصلة العطاء والبناء تحت قيادة رئيس من طراز آخر، لم تعرفه سورية من قبل.

وقد تحقق للشعب السوري هذا «الإنتصار» الذي كان حلماً، فتجسد، بقيادة رئيسه حافظ الأسد، صباح السادس من تشرين الأول - اكتوبر ١٩٧٣ .. وصحيح أن سورية لم تسترجع أرض جولانها المحتل في تلك الحرب.. لكنها حاربت، وانتصرت، واستردت عزمها، وكرامتها، وقدرتها على مواصلة العطاء والبناء، مثلما حاربت مصر وانتصرت بعبور القناة.

وتحولت سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد، من دولة عسكرية بلا مستقبل مدني، إلى دولة مدنية ذات وزن عسكري، وانتقلت، حسب ما وصفه الكاتب الصحفي اللبناني الأستاذ سمير عطا الله «من دولة واقعة في مهب الأهواء والنزاعات والطموحات الداخلية وسهولة المؤامرة الخارجية، إلى دولة محصنة ضد الجدل الداخلي وسرعة العطب والمؤامرة الخارجية». ولماتمت صياغة، أو إعادة صياغة «الوجه» السوري، على أسس حركة حافظ الأسد التصحيحية، وبروز الحضور السوري في السياسة

العطب والمؤامرة الخارجية». ولماتمت صياغة، أو إعادة صياغة «الوجه» السوري، على أسس حركة حافظ الأسد التصحيحية، وبروز الحضور السوري في السياسة العربية والسياسة الدولية، منذ تولى الرئيس حافظ الأسد مهام الحكم، مثلما برز وجه مصر عربياً ودولياً، بتولي الرئيس حسني مبارك، بدأت مرحلة جديدة، قامت على التلاقي والتزاور وتبادل الحوار، للخروج من عنق زجاجة الحروب، إلى مرحلة العمل على تحقيق السلام.

والذين ـ يتخيلون ـ أن السياسة السورية من أجل تحقيق السلام، هي وليدة مؤتمر «مدريد» يقعون في خطأ ـ قد ـ لا يكون مقصوداً، ذلك أن خيار السلام، كان خياراً سورياً، مثلما كان خياراً مصرياً، وقد تم الإلتزام بهذا «الخيار الإستراتيجي» حسب قول الرئيس حافظ الأسد نفسه، في خطاب ألقاه في «مجلس البرلمان» الجديد، بعد انتخابات آب ـ أغسطس ١٩٩٤ .

وكان قد سبق ذلك الخطاب «تنسيق تام» بين دمشق والقاهرة، وتبادل الرئيسان (مبارك ـ الأسد) زيارات ولقاءات بلورت الصورة الجديدة للعلاقة بين مصر وسورية، كل ذلك، أدى إلى طرح «خيار السلام» الذي أكدت سورية تمسكها به في لقاء قمة، انعقد في «جنيف» بين «الأسد وبوش». ومنذ ذلك، لم تنثن سورية عن مواصلة الجهود لتحقيق السلام، دون أن تهمل من واجب الإعداد لمختلف الإحتمالات، التي قد تعترض مسيرة السلام، أو، قد تنسفها. بمعنى، أن سورية رغم توجهها نحو السلام، كانت، وما زالت تحسب حسابات «حرب» قد تفرض عليها، لكنها لا تسعى إليها. وقد تأكد ذلك بعد لقاء القمة الثانية بين الرئيس الأسد والرئيس الأميركي كلينتون في جنيف أيضاً.

والحرب، قد تكون إحتمالاً ممكناً، يمكن وقوعها، ولكن السلام، هو الهدف، وبدون سورية يصعب تحقيقه.. بل قد يكون مستحيلاً أن يحل السلام في المنطقة بدون

من هذه المعطيات، وسواها، اتخذتُ قرار قبول الدعوة للمشاركة في «مؤتمر» المثقفين، الذي تم عقده في القدس بمناسبة الذكرى الأولى لإتفاق «غزة ـ أريحا». ومن تلك القناعات، تحاورت مع السيد «عيزرا وايزمن» رئيس دولة «إسرائيل» وألقيت كلمتي أمام السيد «شمعون بيريز» وزير خارجيتها.. ومن قاعدة الإرتكاز على المبدأ القومي، طرحت خطابي، وعبّرتُ عن مشاعري للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات.

* * *

لقد تعلمت من معطيات التجارب التي مر بها الإنسان العربي في وطنه، وفي منفاه، وفي مهجره، وعشت تلك التجارب بكل قسوتها، ومرارتها، وانكساراتها وهزائمها، أن الحرية، هي الدواء العجيب الذي يُمكّن الفرد من تحقيق النجاح تلو النجاح، وبدون الحرية، فلن يصيب ذلك الفرد إلا الفشل المتلاحق.. وبالتالي، فإن الأمم لا تستطيع ان تتبوأ مكانة ما، إلا بالحرية.. وبدون الحرية، تضمحل الأمم، وتذعن، وتنهار. ولا يمكن لنظام من الأنظمة، يقوم على القمع ومصادرة العقل، أن يقود شعباً إلى انتصار مهما كان ضئيلاً، ذلك أن العنف لا يقود إلا إلى الإحباط والشقاء، والتفتت.

ولقد بدأتْ مسيرة الحرية، وصارت خطواتها أكثر ثباتاً في الحياة المصرية ـ السورية، بعدما تولى الرئيس حسني مبارك قيادة مصر، وتولى الرئيس حافظ الأسد، قيادة سورية. وسوف تتسع المسيرة، لتزهر الحرية، وينتشر شذاها على امتداد رقعة الوطن العربي الكبير.

وبقي على «إسرائيل» أن تتذكر موقف ياسر عرفات عام ١٩٧٤، عندما أعلن من على منبر هيئة الأمم المتحدة، بأنه يحمل غصن الزيتون بيد، ويحمل البندقية باليد الأخرى.

وعليها ـ بعد أن تتذكر ـ أن تختار!!.

وعليها ـ أيضاً ـ أن تعرف؛ بأن السلام، خيار عربي يجب أن لا توضع في طريقه العقبات، لأن ـ إسرائيل ـ بذلك، تستعيض عن السلام.. بالخيار الآخر... وبأحد الخيارين ـ أولاً وآخراً ـ لن يصح إلا الصحيح..

ولعل من المستحسن تذكير حكومات إسرائيل بكتاب «David Hirst» الذي صدر عام ١٩٧٧، أي بعد أربع سنوات من حرب «رمضان» وتحدث فيه عن جذور العنف في الشرق الأوسط، وما يمكن أن يؤدي اليه «العنف». وقد كان صدور ذلك الكتاب بعنوان «The Gun And The Olive Branch» إشارة واضحة لإسرائيل كي تتخلى عن أسلوب التعامل بالعصا الغليظة مع الفلسطينيين، الذين سيواصلون حمل السلاح بيد وغصن الزيتون باليد الأخرى، ومعهم العرب، إلى أن يتحقق السلام، بعد ـ أقول بعد ـ استرجاع جميع حقوقهم الشرعية. ذلك أن «التلويح» بالحرب التي توعّد بها «إسحق رابين» حين لم يرق له الموقف «السوري ـ المصري» بعد مؤتمر الإسكندرية، وسبب له وزير الخارجيةالمصري السيد عمرو موسى بتصريح جاء فيه «إن عملية السلام تواجه مصاعب جمة... إنها تمر بمرحلة ستؤدي إلى واحدة من نتيجتين، إما المضي بها قدماً، وإما الإنهيار التام» مما يسبب شيئا من الأرق.

إذن فإن التلويح بالحرب، هذا التلويح ـ العلني أو المبطن ـ يجعل العرب يعرفون جيداً، أن إسرائيل، إذا لم تذعن للمطالب التي يتحقق السلام على أساسها، فإن المضي إلى الحرب؛ لن يهلكهم، بل سيهلك من يدعو إليها، أو يعمل على إشعال شرارتها. ولئن كانت «إسرائيل» تستمر في مراوغاتها، معتمدة على ترسانتها النووية ومتكئة على الكتف الأميركية، فانها تعرف، أن العرب لديهم ما يعتمدون عليه، ويعرفون على أي كتف يتكئون. وزعمها الخوف على أمنها، بحجة ما تقوم به فصائل عز الدين القسام ـ من حماس ـ أو من مقاتلي «حزب الله» أو أي حركة من الحركات الإسلامية، إنما هو

زعم، يهدف إلى «اللكلكة» حسب التعبير المصري، وتخريب الجهود المبذولة لإحلال السلام العادل.

صحيح أن في التراث العربي حِكَماً ومأثورات كثيرة، ما أقل من يعمل بها، لكن الصحيح أيضاً، أن العرب، أقلعوا عن مباشرة ما ليس لهم به علم أو دراية، وأن العرب يعرفون أن «لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة» أيضاً. وليس تنطحاً أن «المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين»، ولأن «الحرب خدعة» فان «الخدع» السينمائية الأميركية لم تعد تنطلي على أحد، لأن المقاتل الذي تنطلي عليه الخدعة، فانه يعلم أن أمر الحرب ينقضي بها. ومن العرب برز «زهير بن أبي سلمى» وهو القائل:

«ومن لمْ يذدْ عن حوضه بسلاحه يُهدَّم، ومن لا يظلِّم الناسَ، يُظلَّم»

* * *

وما دامت أنسام الحرية تواصل هبوبها، تحت السماء العربية، فإن «إسرائيل» لن ترجو إلا السلام، لأنها لن تتمكن من أن تصطنع ضعفاً عربياً، كانت حسب تعبير المفكر خالد محمد خالد إلى وقت مضى «تخلقه وتصنعه» مما أمكنها الإنفراد بكل طرف عربي على حدة.

ولقد رأينا بعد حرب ١٩٧٣ ما الذي حققته «إسرائيل». وعرفنا ردود الفعل فيها، واستشهدنا بما جاء على لسان المقاتلين الإسرائيليين في كتاب «المحدال»... وقد عبروا عن رغبتهم في أن تكون تلك الحرب آخر الحروب... فماذا كانت أمنية المقاتل العربي السوري، أو المصري، أو الأردني، أو الفلسطيني؟...

2

الصورة، كما أراها بعد العودة من الزيارة، تنبىء بأنه، حتى لو سقطت حكومة رابين قبل أن يتحقق السلام العادل، فإن الحكومة اللاحقة التي سيشكلها «نتنياهو» ستتولى عنها المهمة، وتسرع في إنجاز السلام على أسس المطالب العربية المشروعة. هذا باختصار، وببعض التفاصيل، فإن المعروف أن الإنسان، يشترك مع الكثير من المخلوقات في بعض الغرائز، ولكنه ـ أي هذا الإنسان ـ يتميز عن مخلوقات الله بقدرة عقلية فائقة، تجعله في سلوكه، أسمى من كافة المخلوقات. فإذا كان التعقل والحكمة في معالجة الجهالة والسفاهة عند البعض، تُعتبر، أو تُعدّ في نظر البعض الآخر، مؤشراً على الضعف، ففي هذه النظرة منتهى الإجحاف، حتى لا أقول الحمق. ولكي تكون الصورة أكثر وضوحاً، أدعو السيد رابين، إلى الإسراع في إجراء الإستفتاء بين جميع «أفراد» شعبه، وبين سكان المستوطنات في الأراضي المحتلة بوجه خاص، ليعرف إلى أي حد يريدون السلام على أساس «الأرض مقابل السلام». أما لماذا أرى الصورة على هذا النحو بعد العودة من الزيارة، فتعرفي على «رغبات» بعض الأفراد من شرائح المجتمع الإسرائيلي من ناحية، ولمعرفتي بما يتمناه «الفرد» العربي من الناحية الأخرى.

إن إسحق رابين ـ والمفروض ـ أنه يمثل «الحمائم» في حزب العمل الإسرائيلي، يدعو في بياناته إلى «السلام» ويلوّحُ في الوقت نفسه بالحرب.

بينما نجد بنيامين نتنياهو، وهو ـ المفروض ـ يمثل جناح «الصقور» في تكتل «الليكود»، يعلن ـ بمناسبة وبغير مناسبة ـ رفض مبدأ السلام مقابل الأرض، ويهيء نفسه لإنتزاع السلطة من حكومة رابين، موحياً بذلك للناخب الإسرائيلي، أنه لن يقبل بإنهاء الإحتلال للمناطق المحتلة، وفي مقدمتها الجولان السورية، ولن يوقف عملية إقامة المستعمرات وبناء المستوطنات على تلك الأراضي، ولا حول مدينة القدس، بل يعلن رفضه العودة عن قرار ضم القدس، واتخاذها، أو جعلها عاصمة موحدة لـ «دولة» إسرائيل. بل إنه يتمادى في استقطاب المعارضة الإسرائيلية، وفي مقدمتها «المتدينون» اليهود بمختلف تكتلاتهم، بدعوى خطابه السياسي القائل بأن «الحكم الذاتي الفلسطيني في غزة وأريحا قد فشل فشلاً ذريعاً، وأن اتفاق أوسلو، ليس إلا حبراً على ورق».. ويمثل هذا الخطاب الشديد التطرف، يوحي بأنه سيعمل ـ إذا ما تولى الحكم ـ على تقويض مفاوضات السلام.. بل «سيسعى» إلى نسفها من أساسها!. ولا تُخفى أبعاد اللعبة السياسية على «رابين»، كذلك لا تُخفى على الناخب الإسرائيلي.

وفي الخطاب «لعبة» سياسية ملغزة، وساذجة، وبنيامين نتنياهو نفسه يعلم؛ بأنه يعتمد سلاحاً ليس عملياً، يدفع به الناخب في إسرائيل إلى الإذعان، أو الإقتناع بتوجهات هذا الخطاب، لأنه يحمل في تلافيفه، دعوة غير مباشرة إلى الحرب.. وهو، أي الناخب الإسرائيلي، لم يسأم الحرب والقتال وحسب، بل بات متعطشاً إلى «السلام» ليضمن الإستقرار في حياته، بل ليحافظ على وجوده، وبقائه. وعندما نقف على تصريح لوزير الخارجية الأميركي «وارين كريستوفر» تضمّن قوله: «إن الوقت الذي قضيته في مفاوضات الشرق الأوسط، أطول بكثير من الوقت الذي قضيته في أي عمل آخر قمت به في حياتي»، ندرك كم بدّدتْ إسرائيل من الفرص الذهبية، بل والنادرة؛ بسبب دعوتها إلى السلام، التي تقوم على المناورات والمراوغة. بل إن «اليهودي» المشهود

له ببراعته بالمناورات والمراوغات في شتى تعاملاته، هو نفسه «اليهودي» الذي سئم هذا الأسلوب، الذي يضعه في زاوية ضيقة، وفي موقف؛ يحرجه أمام أقرب حلفائه إليه، فبات متلهفاً إلى أسلوب مغاير، سويّ، تتبعه حكومة من حكوماته، لتبلغ به نقطة الحفاظ على وجوده، ويستقيم معه المسار، ليستتب السلام الحقيقي، إذ لم يعد من المقبول أبداً أن «يمد اليك يداً... ويد لا تزال تشد الزناد» كما في قصيدة للشاعرة ثريا العريض، فكيف يمكن مصافحة تلك اليد، وأنت ترى أصابع اليد الأخرى متأهبة لإطلاق النار عليك؟..

* * *

وإنني - الآن - وبعدما اتضحت الرؤية في أفق العمل من أجل السلام، الذي نسمع له رنيناً - من الجانب الإسرائيلي، يشبه رنين النقود المزيفة، لأن السلام المعروض من جانبها، يخالف جميع المبادىء والمثل والشرائع، وحتى القرارات الدولية، هو سلام، حسب وصف المفكر والداعية المتنّور الشيخ محمد الغزالي، لا يُصلِحُ ذات البين، ولا يرد المظالم... بل إنه غطاء للأطماع وخداع للضعفاء وحسب! وفي قضية فلسطين أريد التذكير بالرؤى الدينية التي يؤمن بها اليهود ويصرون على تنفيذها مرحلة مرحلة حتى يصلوا إلى ما وعدوا به في العهد القديم، لقد وعدوا بإقامة دولتهم، وبناء هيكلهم في عاصمتها «القدس» ومن هذا الهيكل - رمز تفوقهم الجنسي والديني - يحكمون العالم.

ولذلك قال «بن غوريون» لا إسرائيل بدون القدس ولا قدس بدون الهيكل! وإنني أسأل العرب والمسلمين هل هم مستعدون لترك المسجد الأقصى يُهدّم ويُبنى الهيكل على أنقاضه؟ هل هم مستعدون لترك القدس يتخذها اليهود عاصمة لهم؟ ويفرضون فيها سلطانهم المطلق على غيرهم؟

على يهود الأرض أجمعين - اذا خافوا بطش الظالمين بهم - أن يقدموا إلى العالم العربي والإسلامي - ونحن نستقبلهم بتعاليم الإسلام «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وبديهي أن تكون الدولة للكثرة المسلمة، فإن يهود العالم لا يزيدون على خمسة عشر مليوناً!! هل العرب يعرضون على عدوهم صلح استسلام وانسحاب من الأرض المقدسة؟ إن ذلك لا يفكر فيه أحد؟ هل يوقع اليهود معاهدة صلح يعلنون فيها أن لا صلة لهم بالقدس وأنهم لا يفكرون في محو المسجد الأقصى وبناء الهيكل؟ إنهم لا يفعلون ذلك! هل هم بطرد الإسلام من مسجده العتيد وإهالة التراب على وجودنا الديني والتاريخي يعرضون صلحاً معقولاً نلقاه بهذه الآية «وإن جنحوا للسلم فاجنح لهم وتوكل على الله»؟ إننا نكره التلاعب بالألفاظ وفصل المفاهيم عن عناوينها ونسيان ما يبيت للأمة الإسلامية المنكوبة من مصير كالح، نحن نعلم أن الإسلام يبيح لولي الأمر أن يزن الملابسات والأحوال ثم يسالم أو يحارب، وحكام المسلمين الآن يجب أن يربطوا المسلمين بدينهم، ويحيوا الشرائع المعطلة ويحاربوا الشهوات الطاغية،لا أدري هل قومي يجهلون أو يتجاهلون؟ أم أحاطت بهم أهواؤهم كما تحيط اللجة بالغريق، لقد قيل لهم بعد هزيمة أُحد «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» فليفهموا هذا المنطق والا فيسبقون عمالاً عند اليهود.

* * *

من الجانب الآخر، يجمع المعلقون والمحللون السياسيون المتتبعون لمسار قطار السلام، أن إسرائيل تتعامل مع العملية السلمية من منطلقات خاصة بها، وليس من منطلقات الأسس والمبادىء التي قامت عليها العملية، وعلى أساسها أعطيت الإشارة

لقطار السلام بالتحرك. فالتصريحات التي تتردد على ألسنة المسؤولين الإسرائيليين، تأتي متناقضة، ومحيرة،وليست محكمة ولا دقيقة، وهي تعبر - إن كانت توحي بأي تعبير؛ عن الرغبة في الشيء، والإمتناع عن فعله. بينما نجد على الجانب الآخر، تصريحات الأطراف العربية، تصريحات ثابتة، تعبر عن مدى ما تتسلح به، من ثقة بالنفس، ومن شعور بالمسؤولية نحو شعبهم وبلادهم، فضلاً عن إحترامهم لكل كلمة يقولونها وترد على ألسنتهم في الخطاب السياسي، فلا تتبدل، وتبقى ثابتة في ما يعلنونه خلال المؤتمرات الصحفية، التي يردون فيها على أسئلة محددة بدقة، دون مواربة، أو إشارة - قد - توحي بما يغاير توجههم المبدئي.

وعلى لائحة الإستشهاد بصدقية المواقف العربية ، إشارات تؤكد صحة ما نذهب اليه. ويكفينا إلتقاط إشارة واحدة لتعفينا من الإستزادة بطرح الإشارات، وهذه الإشارة تتردد منذ بدأت المفاوضات بين إسرائيل وسورية، بل منذ لقاء القمة بين الرئيس السوري حافظ الأسد، والأميركي بيل كلينتون في جنيف. وقد تردد - في ما بعد - **أن الرئيس كلينتون، التقى وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل، أكد، وهو يُحمّله رسالة إلى الرئيس السوري، أنه - أي كلينتون - يعتبر «الرئيس الأسد رجلاً ينفذ كلمته، ومفاوضاً جدياً» وأنه «يرغب في علاقات أميركية - سورية متقدمة» حتى يتم «تثبيت الأمن والإستقرار في المنطقة» في إطار تلك المعلومات.**

ولئن كنت أذهب مذهب المتفائل، في أن السلام سوف يتحقق عاجلاً في عهد حكومة رابين، أو آجلاً في عهد حكومة نتنياهو، إلا أنني أعتقد بأن إسرائيل ستظل متمسكة بسياساتها التوسعية الإستيطانية، التي تقوم على القوة والعدوان، لفرض ما تريد، ولتأخذ ما تشاء دون أي مقابل. ولن يثنيها عن ذلك، ويجعلها تذعن للحق، إلا عودتها إلى التاريخ - تاريخ القضية برمتها - وقراءته قراءة معمقة، لتدرك بأن زمن القفز فوق

الحقائق قد انتهى. وان اعتبار السلام الشامل من وجهة نظر الحكومة الإسرائيلية، هو مجرد «تطبيع» تعمل له وإعتراف بوجودها، وتبادل سفراء، وعقد صفقات إقتصادية ومشاركة بوفود إلى مؤتمرات علمية، أو ثقافية، أو ما شابه، ليس سوى «ضغث على إبّالة» وليست أكثر من حلم سرابي يستحيل بلوغه.

ولا أحب إستعمال مفردات، تَرِدُ على ألسنة بعض من يحلو لهم «التنظير» باللجوء إلى التعقيد في الطرح، والتقعر في صياغة العبارات واختيار الألفاظ. ولا أظن بأنني أجانب الصواب بالقول، إن الثبات على المواقف، والحذر في التفاوض، يظلان مطلوبين، أمام من يعتقدون في دوائر السلطة الإسرائيلية، أنهم ما زالوا قادرين على تسديد الأهداف، وتثبيت «كراتهم» في الجانب العربي من ملعب المفاوضات، باتكائهم على الحلفاء، أو بالتلويح بما تخزنه من سلاح ذري، نووي، أو أسلحة الدمار الشامل في ترسانتها. فذلك لن يجدي فتيلاً، أو، لم يعد يجدي مع عرب «الحرية والديموقراطية» الذين لن يمنعهم من أن يقولوا «علي وعلى أعدائي» إذا ما نفد وعاء الصبر.

* * *

ولا ضرر من العودة إلى ما بدأت به هذا الفصل، عن الصورة التي بدت واضحة أمامي، خلال الزيارة وما تلاها.

فاذا كنت قد استخلصت الأماني والرغبات التي تنغل في صدور الإسرائيليين، بأنهم يأملون في أن ينعموا بالسلام، بعد الإعتراف بالوجود، فلا بأس من عرض الوجه الآخر من الصورة، التي يرسم ملامحها «المقاتل» العربي، من خلال الرسائل التي كنت تلقيتها، بعد وقف القتال على الجبهة السورية، التي كان لي فيها أخّوان غير

شقيقين اشتركا في حرب ١٩٧٣، فكتب أحدهما إليّ رسالة تحمل شوقه للعودة إلى ساحة القتال من أجل التحرير، إلى جانب رسالتين، إحداهما من زوجة شقيقي، تصف لي فيها حالة أخي بعد إصابته، والثانية من صديق إلى صديق مشترك، تصور مشاعر المواطن العربي السوري أثناء القتال، وبعده. وكنت ألمحت في فصل سابق إلى هذه الرسائل، ووعدت بإدراج نصوصها في حال وجدتها بين أوراقي.

* * *

ولقد نشرت الرسائل الثلاث - آنئذ - في مجلة «النهضة» الكويتية التي كنت عام ١٩٧٣ أعمل فيها سكرتيرا للتحرير.

في الرسالة الأولى التي تلقيتها من أخي «سمير منجونة» الذي اشترك في معركة تحرير جبل الشيخ، واغتنم فرصة «إستراحة المحارب» فكتب إليّ من موقعه المطل على ربى الجولان وسفوحه ومنحدراته الممتدة حتى شواطىء بحيرة «طبريا»، وجاء في متن الرسالة:

«أخي الغالي فاروق.. اكتب اليك بعد غياب طويل، أرفع يدي عن الزناد خلال فترة «إستراحة المحارب» وأمسك القلم لأكتب اليك بعدما اشتركت مع طلائع جيشنا العربي السوري في معركة الشرف، وحققنا الإنتصارات الرائعة، رفاقي الأبطال، وأنا، في هذه الجولة، بلورنا شجاعة الجندي العربي.. وجسّدناها عندما تخطينا أسطورة التفوق الإسرائيلي ومحوناها. لقد أثبتنا للعالم أجمع بأننا جنود أقوياء بإيماننا.. جنود أشداء لا نهاب الموت في سبيل أرضنا وأوطاننا.. جنود صامدون، وسنبقى صامدين حتى يتم النصر بإذن الله تعالى.

أخي فاروق... لقد أذهلنا عدونا بصمودنا الرائع، وشللنا قدراته بالشجاعة التي تملأ صدر كل مقاتل عربي، وعلمناه بأن العرب سيواصلون القتال حتى التحرير مهما طال

زمن القتال.. ولسوف نعاود القتال بعنف وشراسة مهما استطالت مدة استراحة المحاربين.

في بداية المعركة يا أخي فاروق، تفرجنا على عدونا وهو يقع في عجز اخفاء الخسائر التي ألحقناها به، وفي المعركة المقبلة لن نجعله يتذكر خسائره لأننا سنفقده ذاكرته..

وبعد، أرجو أن تكتب لي فانا بشوق لا يوصف إلى كلماتك، واسلم للمشتاق...

«سمير منجونة»

أما الرسالة الثانية، فكانت جواباً على رسالة بعثتُ بها أستفسر عن حالة أخي «منير منجونة» الصحية، بعد أن كنت تلقيت نبأ تعرضه لإصابة قاتلة. فساورني القلق عليه، ظناً مني أن الإصابة كانت مميتة. وجاء في تلك الرسالة التي تلقيتها من زوجة أخي الشقيق مروان منجونة، قولها:

«أخي فاروق. كانت ظنونك في محلها.. فقد مرت علينا أيام حرجة ومقلقة، فلم نشعر ببهجة رمضان، أو فرحة العيد، كنا نجلس على مائدة الإفطار، لا ناكل الا النزر اليسير بعد صيام يوم طويل، لأن فكرنا مشغول عند أخويك سمير ومنير، زد على ذلك انقطاع الكهرباء مستمر بسبب تعطل مؤسسة كهرباء حمص، هكذا عشنا أيام رمضان، والعيد، وفي اليوم الثالث من أيام العيد، اتصلت بدمشق للإستفسار عن منير فعلمت أنه مصاب في بطنه بشظية قنبلة، لكنها مرت مروراً ولم تخترق البطن والأمعاء، كما أصيب بشظية أخرى في ساقه، وقد زاره الأقارب وأعلمونا بأنه الآن في صحة جيدة ويطالب بالعودة إلى ميدان القتال. وقد كتمت نبأ إصابة منير عن الوالدة وعنك وعن الجميع حتى غادر المستشفى سليماً معافى. والآن، بعد أن زارنا منير ورأيناه بعيوننا وهو يمضي أيام النقاهة في نزهات قصيرة، آثرت أن أخبرك حتى

يطمئن قلبك. وأسلم للمشتاقة أختك».

وتبقى الرسالة الثالثة، وقد تلقاها الصديق الدكتور مأمون المهايني، وكان مديراً لمستشفى العظام في الكويت، من صديق مشترك لنا، هو الأستاذ يحيى الكيلاني، أطلعني عليها، فاستأذنته بنشرها، في العدد نفسه من مجلة «النهضة»، وفي زاوية تحمل عنوان «لكل لناس»، كنت أكتبها أسبوعياً، فأذن لي بذلك، واخترت من الرسالة مقاطع تقول:

«أخي الحبيب مأمون، ليس من عادتك أن تتأخر عني، وأرجو أن يكون السبب تكوّم أكداس البريد بسبب إقفال المطارات... الساعة الآن بعد الواحدة والنصف من صباح الأربعاء صوت مذيع القاهرة يصك أذني من غير أن يأخذ انتباهي. سكتت أصوات المدافع التي انتظرنا قصفها طويلاً، سكتت، وبدأت مدافع الفكر والقلب تضرب بعنف.. بقسوة.. بضراوة قد تصل إلى حد الوحشية، ورغم ذلك تبقى في القلب، وتقتل القلب. أول مرة في حياتي، اقتنع بأن معركتنا مع إسرائيل، معركة دولية كاملة، وأنه لا يسمح لنا بالتغلب على اسرائيل لا من الشرق ولا من الغرب، وأن إزالة إسرائيل رهن بتغير المعادلات الدولية، وهذا لن يكون الا بعد حرب عالمية، ولن يكون ونحن العرب على ما نحن عليه، رغم أننا في هذه المعركة قد حققنا الكثير مما كان على ساستنا أن يحققوه من سنين. «ان تصل متأخرا، خير لك من ألا تصل أبداً» هكذا يقول مثل غربي. ثق بأن الشعب كان مستعدا أن يحارب سنين حتى ولو نزلت سقوف بيوته على رؤوسه. نسفت مصفاة البترول ولم تجد من يخزن وقوداً، بل لم نشعر بأزمة وقود. الخبز متوفر اكثر منه في أيام السلم، بعض اباء الشهداء رفضوا ان يتقبلوا التعازي بعضهم طلب من الناس، ان يهنئوه، لأن الله شرّفه باختيار ابنه لهذا الشرف العظيم، أما جنازة الشهيد الذي شيعه أهله بالزغاريد فقد كانت شيئا أشد من أن تحتمله عيناك بلا بكاء.. كانت شيئا يذكر بأمجاد الخنساء، وبطولة خولة، شعبنا لم يكف عن

التضحيات لم يبخل بها، روحه في «بدر» وفي «اليرموك» وفي «القادسية» وفي «حطين» وفي «عين جالوت» هي هي لم تتغير، ولكن ما ننبه إذا كانت الموازين الدولية لم تسمح له بالقتال، ولكن لا بد أن يأتي يوم تتغير فيه هذه الموازين وينال شعبنا العظيم ثأره العظيم، ومع ذلك أقول انتصرنا، لم يكن نصرا كما نحب، ولكننا انتصرنا. اما الذين يقولون بأنهم كسروا أسطورة التفوق الإسرائيلي فأقول لهم، إن هذه الأسطورة لم تعد تعيش إلا في أوهامهم، أنا مواطن عادي لم أشعر في يوم من الأيام بأن الجندي الإسرائيلي لم يقهر، لم أشعر بأكثر من أنه ذئب مفترس تحميه اخطاؤنا، وقوى الظلم العالمية من أن ينال ضربة التأديب من عصا راع شجاع.

أخي الحبيب مأمون، هل يضايقك أن أختارك من بين الناس لأهمس إليك بنجواي؟ أحسست في هدأة الليل بحاجة إلى الكتابة، فكنت أنت المختار، وسلام الله عليك وعلى أحبابك، أخوك.

«يحيى الكيلاني»

* * *

وفي «أدبيات» المقاتل العربي المصري والأردني والفلسطيني، وعلى جميع الجبهات، ما يتوازى في القيمة مع «أدبيات» المقاتل والمواطن العربي السوري - مما يجعل المرء يجد فيها دلالات، تغاير تمام المغايرة، الدلالات التي استشففناها من «أدبيات» الجندي والمواطن الإسرائيلي، التي أوردتُ نماذج عنها في القسم الثاني.

وهذه الدلالات، تقودنا إلى فهم معنى التفرد في الموقف السوري من المفاوضات

الجارية، وصموده أمام ما تحاوله إسرائيل؛ وهي مدركة، بأنها بحاجة إلى السلام مع سورية، أكثر من حاجة سورية إليه عاجلاً.

ويؤكد ذلك، ما ورد في كلمة للسيد عبد الحليم خدام القاها في احتفال خاص، أقيم لمناسبة ثورة الثامن من آذار - مارس وجاء فيها:

«إن السلام لا يمكن فرضه بالقوة» من إعادة قراءة هذه العبارة، يمكن فهم أبعاد الإستراتيجية السورية بشأن عملية السلام، التي أوضحها من قبل الرئيس السوري حافظ الأسد.

كذلك فإن التصريحات التي يدلي بها السيد فاروق الشرع وزير الخارجية السوري، توضح - بما لا يقبل الشك أو الجدل - أن سورية ترفض رفضاً لا يقبل المساومة عليه، أي طرح يتضمن شروطاً أو حلولاً جزئية من قبل إسرائيل للإنسحاب من الجولان وتشدد على أنه من أجل تحقيق السلام العادل وفقا لصيغة مدريد لا بد من انسحاب إسرائيلي كامل من الجولان أولا.. وذلك قبل المطالبة بالتطبيع او إقامة اي علاقات سياسية او دبلوماسية؛ لأن الحديث عن مثل هذه الأمور قبل الإنسحاب من الجولان او إعلان التزام إسرائيل بالإنسحاب بما يتماشى مع قرارات الشرعية الدولية يعتبر سابقاً لأوانه.

وفي حوار مع السيد فاروق الشرع، أجراه الأستاذ عبد الرحمن الراشد، رئيس تحرير مجلة «المجلة» ونشر في العدد - ٧٩٠ - تاريخ - ١٩٩٥/٤/٢، ورد قول وزير خارجية سورية، معبراً عن الموقف السوري من عملية السلام، بكل الوضوح والبساطة، إذ قال لمحاوره، طارحاً «الرأي السوري» الرسمي، الذي يعكس آمال وطموحات الشعب العربي في سورية، بمختلف فئاته، وشرائحه، وعلى جميع المستويات:

«نحن نرغب في السلام، وقد أعلنا عن خطوطه منذ اليوم الأول، أي منذ مؤتمر مدريد التاريخي الذي ضيعته إسرائيل. وعرضنا السلام الكامل من جانبنا مقابل الإنسحاب

الكامل من جانب إسرائيل لكن تل أبيب تعتقد أنها تستطيع المراهنة على سلامها مقابل تنازلات شكلية.

واستراتيجية سورية تقوم على منطق مفاده ان اسرائيل اكثر حاجة إلى السلام من العرب، دون أن يعني ذلك تناسي كون العرب في حاجة كذلك إلى السلام.

وسلاح سورية الذي عرفت به دائما، هو انها لا يمكن أن يتم اغراقها بجزرة تافهة من اجل ان تسير في اي مشروع، فهي عودت الجميع على «عناد» سياسي نادر في المنطقة، واثبتته في لبنان ومع اسرائيل، وحققت من خلاله معظم مطالبها.

وفي جوانب أخرى من الحوار، عبر أسئلة وأجوبة، تناولت «قمة الأسكندرية» ودور دول الخليج، والهدف الأخير المتوخى تحقيقه، دار الحديث على النحو التالي نصه:

سألت الشرع: لماذا الإهتمام بوجود العلم الأميركي على طاولة التفاوض؟ ألا تعتقدون أن الحضور الأميركي يدعم الموقف الإسرائيلي ضدكم؟

قال: لا، أبداً. فإسرائيل ترغب في الإنفراد بدول المنطقة وتحاول الغاء الدور الدولي، بما فيه الأميركي. ونحن نعتقد بضرورة الحضور الأميركي على اعتبار أن واشنطن تدعي السلام، وكونها شاهدة على المفاوضات. وفي نظر الوزير السوري ان اسرائيل ترغب في ابعاد كل القوى الخارجية لتكون القوة الوحيدة في المنطقة.

سألت الوزير عن قمة الأسكندرية التي اثبتت قدرة السوريين على التحكم بخيوط حركة التفاوض والسلام من الجانب العربي قال ان القمة اثبتت سلامة الموقف السوري وعززت قيمة الصوت العربي.

سألته ما اذا كان على دول الخليج أن تقف إلى جانب سورية رغم الضغوط المكثفة عليها، وعمليات الإبتزاز الإعلامية والسياسية ضدها من قبل قوى خارجية؟

قال: لقد وقفنا معهم في الأيام الصعبة في حرب الخليج ونثق أنهم سيقفون إلى

جانبنا في محنتنا. ونحن أيضا ندرك أن موقفنا هو موقف الناس وعلى الجميع أن يؤيد منطق السلام العادل للجميع.

وعلى المرء الا يعتقد أن الخلاف بسيط بين الجانبين السوري والإسرائيلي. فالترتيبات الأمنية لها تعريفات متناقضة، والإنسحاب الكامل من هضبة الجولان المحتلة له صيغة في دمشق، وصيغ عدة في إسرائيل، لكن الثابت ان اليوم الذي توقع فيه سورية على سلام مع إسرائيل هو البداية الحقيقية للسلام الشامل. واسرائيل تضيّع الوقت ضد مصلحتها وتنمي الحركات المعارضة للسلام، وهي حركات غير منضبطة، قد تنمو إلى درجة لا يمكن معها لأحد أن يوقع على شيء. فالخيار أمامها واحد: أن تصل مع السوريين إلى صيغة نهائية، مرضية وتحفظ لسورية حقوقها ولإسرائيل أمنها.

* * *

فهل تبقى ثمة أسباب، أو مبررات لدى الجانب الإسرائيلي، تجعله يطيل أمد المفاوضات، مرة بحجة إجراء استفتاء ومرة بحجة «الأمن».. وجميع الحجج التي تسوقها إسرائيل، لا تستهدف إلا تعطيل مسيرة قطار السلام، لغاية «في نفس يعقوب» لم تعد خافية على أحد، ولا على أخوة يوسف!.

إن «السلام» ليس لعبة «كرة قدم» يلعبها فريقان في «الكنيست الإسرائيلي».. بل إنه أمل يراود شعوب المنطقة كلها.. بل، هو مهوى أفئدة جميع الشعوب. فهل ثمة خيار آخر يكون بديلاً عن السلام؟.. إن علة «الخوف» المزعوم من إسرائيل باتت عقدة مصطنعة من أشد العقد الإسرائيلية تشابكاً وتعقيداً. وكل إطالة ـ بسببها ـ في أمد المفاوضات يضر بمصالح العرب قاطبة.

وإذا كانت إسرائيل تتوخى إستفزاز المشاعر العربية، بالعزف على وتر «عقدتها»

الوهمية لإطالة أمد المفاوضات، فان «الكيل» العربي سيطفح. ورغم كل ما يبديه العرب من جلد، ومثابرة، وصبر، ومجاهدة، إلا أن «الكأس» سيفيض بما فيه، إن لم يكن قد امتلأ وفاض فعلاً، لكن المحاولات لعدم سفحه ما تزال جارية؛ إمعاناً منهم - أي من الجانب العربي - في إعطاء أكبر الفرص للسلام، لكي يأخذ موقعاً جديراً به، عوضاً عن بدائل وخيارات غير محسوبة، ولا مأمونة. لن تضر السلام في شيء، لكنها ستفتك بكل شيء، إذا فلت السهم من كنانته وانطلق.

3

يرى البروفسور إدوار سعيد في كتابه «غزة ـ أريحا ـ سلام أميركي «التكافؤ بين إسرائيل والفلسطينيين معدوم، وأن الإتفاق بحد ذاته ـ يعني اتفاق غزة ـ أريحا ـ جعل منظمة التحرير الفلسطينية تتحول من حركة تحرر وطني، إلى ما يشبه «حكومة بلدية صغيرة».. وفي الفصل الثاني من كتابه، يعتبر أن الإتفاق، ما هو إلا أداة الإستسلام الفلسطيني. ويؤكد، أن جوهر الخطة الإسرائيلية للسيطرة على الأراضي العربية، يستهدف الهيمنة على الأراضي الواقعة ضمن حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ . ويستهدف أيضا، منع الفلسطينيين الذين يعيشون في الأرض المحتلة، من ممارسة حكم ذاتي، وذلك بالإحتفاظ بالقدس «موحدة» وقابلة للتوسع، لتكون مركزاً لشبكة تمتد حتى الضفة الغربية وقطاع غزة.

ويثني بإعجاب على الدور السوري في المفاوضات، ثم يعرب عن أمله في أن لا تصبح الجولان على غرار ما صار لغزة واريحا.

ويستنتج من السياسة الأميركية في ظل قيادة كلينتون، أنها تعاني من اضطرابات شديدة. ويختتم كتابه بالقول، ان حكام العرب في وضع لا يحسدون عليه، فقد اشتروا، من خلال توددهم لإسرائيل والولايات المتحدة، مهلة زمنية طويلة، في الوقت الذي سيجدون أنفسهم ـ قريباً جداً ـ مضطرين لمواجهة المشاكل الإجتماعية والمعنوية الحادة، التي أجّلوا التعامل معها، وتجاهلوا وجودها لزمن طويل.

ويعتبر الكاتب الأستاذ محمد حسنين هيكل ـ وهو الذي كتب مقدمة الكتاب ـ

أن إدوار سعيد، قد تجرأ ودخل منطقة سياسية محظورة. وهو - أي هيكل - يساند الكاتب في آرائه، ويؤكد أن السلام الفلسطيني - الإسرائيلي، يمر في مرحلة حرجة، فهو لا يحرز تقدماً، بل يتأخر لصالح إسرائيل. ويرى ان الحوار مع اليهود غير مجدٍ، بينما مساعد وزير الخارجية المصري للشؤون العربية السفير «بدر همام»، يرى أن الكاتب يبالغ ويغالي في آرائه، لأن السلام لا يثمّن، وأن حياة الشعوب مقابل بعض التضحيات، ليست تنازلات او استسلاماً، بل هي عامل لإنقاذ الشعوب بالسلام.

والدكتور «ادوار سعيد» أستاذ - على ما أذكر - الأدب المقارن في إحدى الجامعات الأميركية.. ولقد تتبعت - لفترة كتاباته الصحفية في إحدى المجلات العربية التي تصدر من لندن. وأجد أنه لا يعدو في كتاباته حدود «التنظير» الأكاديمي، فضلاً عن أن أسلوب الطرح لديه، لا يقنع كثيرين بآرائه، وأنا واحد ممن لم يقتنعوا بأكثر طروحاته التنظيرية.

وإذا كان لكل امرىء الحق في طرح آرائه، فليس من الحق التسليم أو القبول بتلك الآراء، أياً كان صاحبها. ولا أظن أن الرجل قد تجرأ ودخل منطقة محظورة على حد تعبير هيكل؛ إذ لم يعد في السياسة العربية منطقة خطرة يحظر الدخول اليها، بعد الإنفتاح على الحرية والديموقراطية، وإباحة التعددية في الرأي، وإطلاق العقول للتفكير والإستنتاج والمشاركة في العمل الوطني.

وأرى ان المخاطر التي ينبغي أن يحسب لها الحساب، كامنة في طريقة التفاوض بين سورية وإسرائيل من جهة، وبين إسرائيل ولبنان من جهة ثانية. وعلى الرغم من حدوث تقدم ضئيل على المسارين في الساحة السورية اللبنانية... لكن، لا توجد بوادر تشير إلى إحتمال توقيع اتفاق سلام بين ليلة وضحاها، ذلك أن سورية أوضحت مواقفها، وأعلنت أن مستقبل المفاوضات ونجاحها مرهون بعقبة الجولان التي ما تزال إسرائيل تماطل في شأنها.. كذلك، فإن إسرائيل ما تزال تتعنت في موقفها وتشبثها «بالحزام

الأمني» وما تزال تحتل الجنوب اللبناني متحدية بذلك قرارات مجلس الأمن الدولي.

وإذا كان المعلّق في الإذاعة البريطانية "B.B.C" السيد إيان بلاك، يحاول ان يذر قليلا من الرماد في بعض العيون العربية، من خلال قوله «إن إسرائيل لاتحاول أن تبدي مواقف عدائية صريحة مباشرة ضد الدول العربية»، ويلوح بأن «هناك قلقاً يساور الأوساط العربية من قدرة إسرائيل النووية، ورفضها التوقيع على معاهدة منع الأسلحة» فانه بذلك يتجاهل إصرار الأطراف العربية في رفض ما تمليه إسرائيل عليها، باعتبار ذلك يشكل تهديداً صريحاً ومباشراً ليس للعرب، بل للسلام العالمي.

وعندما سيجد العرب أن دوران «اسطوانة» السلام مستمر على الطريقة الإسرائيلية، وأن الإلتفاف عليهم من وراء «الأكمة» الأميركية مستمر، فلن يكون أمامهم ما يمنعهم من أن يقولوا مثلما قال «عبد الله بن عمر» الذي اعتاد ان يسير في الطرقات، فيسلم على الناس ويردوا عليه السلام، وعندما سلم على جماعة، قالوا له «إن هؤلاء يهود» فرد بقوله «إذن ردّوا عليّ سلامي»... ومغزى ذلك، أنه يعرف بأن اليهود لا يرعون حرمة، ولا يحفظون عهداً، فلا يجوز لهم أو عليهم إلقاء السلام.

ولقد حان الوقت للخروج من بئر الحيرة؛ الذي أمضى العرب فيه نحو نصف قرن، فلم يتحقق خلاله إنجاز، ولم يفرض مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة على إسرائيل، تنفيذ أي قرار تم اتخاذه، في مناسبات لا حصر لها، وفي ظروف عديدة، أبرزها احتلال الضفة الغربية، والجولان، واجتياح بيروت، واحتلال الجنوب اللبناني، وحريق المسجد الأقصى... و.. وآءات لا تنتهي سلسلتها. ولقد حان الوقت للدول العربية لكي تعمل على تنفيذ استراتيجية، تبلغ بها الأهداف المشروعة؛ وهي أهداف لا يختلف عليها أحد مع أحد، وتتفق مع تطلعات الرأي العام العربي، مثلما تنسجم مع الرأي العام العالمي في إحقاق الحق من أجل الوصول بقطار السلام إلى محطته الأخيرة.

إن الوقت الذي تتسارع ساعاته، بات عدواً لهذا السلام المرجو، وسيكون

صعباً على المتفاوضين، الخروج من مأزق التناور الذي ما يزال هو المرتكز الأساس في الأسلوب الإسرائيلي، ولا يفضي إلى اي نتيجة عملية. فهناك من يهدد بالحرب، وهناك من طالب بضبط النفس، وهذا التهديد، وتلك المطالب، هي في حقيقتها عنصر يجرٌّ إلى نقطة يصح وصفها بنقطة الخطر.. عندئذ لن يكون هناك مخرج الا باللجوء إلى الخيار الآخر، الذي لن يفيد بعده مكسب لهذا، او تنازل من ذاك.

لقد كشف الأسلوب الإسرائيلي، في التفاوض مع الأطراف العربية؛ خطته المعتمدة دائماً للإستفراد، مثلما كشفت أعمال العدوان التي قام بها الإسرائيليون على العرب، عبر حروب ومواجهات واجتياحات ومذابح، عن وجه بشع، لا تخفي الطلاءات والألوان، مهما بُذِل لإخفائها؛ البشاعة التي لا يمكن إزالتها، الا بتغيير الوجه. ولم يعد كافياً تحليل السلوك لصاحب الوجه البشع، بقدر الحاجة إلى معالجة الأمر، بما يسمى «آخر الدواء». وهذا يتطلب إعداد الأدوات اللازمة، إعداداً تتوفر له الكفاءات والقناعات حتى إذا لم يعد ثمة مناص من الإلتقاء عند «نقطة الخطر» يكون صاحب الحق قادراً على الإنتصار لحقه.

في بعض الأحيان، تستطيع العملة المزيفة، دحر العملة الصحيحة. أو الوقوف في وجهها، حتى يتم اكتشافها.. لكن الإكتشاف وحده لا يكفي لصمود العملة الصحيحة في أسواق التداول دائماً؛ إذا لم تستأصل جذور التزييف. وسجلّ إسرائيل في تزييف الحقائق لا يشرّفها، وبالتالي لا يمنحها عصمة أبدية لتفرض - على العالم - وجودها، متجاوزة الحدود التي أعطيت لها بقرار التقسيم،.. وهي، لا تني تعمل على تحقيق مطامع توسعية، تنفيذاً لمخططات معروفة، لم يعد ثمة مجال للشك فيها. ومخططات إسرائيل لا تقوم على تحقيق الأحلام بالأماني والتمنيات، التي كان العرب يتوسلون بها، لإسترداد حقوقهم، لأنهم لم يكونوا يعتمدون استراتيجية موحدة، وتكتيكاً يتطور مع تطور المتغيرات الإقليمية والدولية للتنفيذ؛ فضلاً عن تخلفهم في مجالات العلم

والتكنولوجيا، وهي مجالات أدركتها إسرائيل، ولا يصح أن يُغفل أحد هذه الحقيقة.

لقد نشأ الطفل العربي على أن إسرائيل دولة مزعومة، فترسبت في عقله هذه المقولة.. ولما كبر هذا الطفل، وجد أن هذه الدولة «المزعومة»، تصدر صناعاتها العسكرية إلى كثير من دول العالم، وتصنع الطائرات وتزود بها سلاح الجو الأميركي(!!) بينما هو ما يزال عاجزاً عن إصلاح «ماسورة مياه» انفجرت بسبب التآكل والصدأ، فبات الأمر يتطلب استبدالها قبل أن تنفجر مع انتهاء عمرها الإفتراضي.. فوقع ذلك الطفل في حيرة من الأمر، بينما نشأ الطفل اليهودي على أن إسرائيل وجدت لتبقى، وأن بقاءها؛ رهن بتقدمها العلمي الذي لا يتحقق الا بتفوق «الطفل».. وأعطي الطفل «اليهودي» فرص التفوق فازداد ثقة بقياداته وزعاماته. وتعلم أن «الوطن القومي اليهودي يشمل ضفتي الأردن، وأن أية موافقة على التقسيم لا تعتبر مشروعة، أو ملزمة للشعب اليهودي، ومن واجب هذا الجيل أن يعيد الأجزاء المقتطعة من الوطن، واستعادتها إلى حياض السيادة اليهودية». هذه هي القاعدة التي وضعها في «أدبياته» حزب «حيروت»، فنشأ الطفل اليهودي على قناعة بأنها إحدى المسلمات. وفي أدبيات «حزب المابام» أن «حزب المابام يعمل من أجل ضم جميع أراضي فلسطين إلى إسرائيل»، و«أن حدود إسرائيل هي من الفرات إلى النيل» حسب ما جاء في خطاب ألقاه «يهودا امنون» بالنيابة عن الحكومة الإسرائيلية، فضلاً عن ما قاله بن غوريون من أن «دولة إسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض إسرائيل» ويعني أن الأجزاء الأخرى، سيجري العمل على «إستردادها». وهذه الأدبيات، تحولت عند الطفل اليهودي إلى قناعات. والحقيقة أن هذه القناعات اهتزت بسبب الحروب التي شارك فيها ذلك الطفل، الذي كبر وصار زوجاً وأباً. والسؤال، لماذا أرادت الصهيونية ترسيخ هذه القناعات في أذهان الجيل الذي ولد بعد قيام الدولة؟ فقويت بالإستمرارية بفعل العمل التطبيقي، الذي شارك فيه الطفل اليهودي وهو على مقاعد الدراسة، ثم اخذت تهتز قناعاته ـ هذا

إذا صح التقدير ـ بمواجهة الواقع من خلال الحروب التي أفقدته جزءاً من شعور الإستقرار في «وطن» غير مستقر، بسبب الحروب التي لم تنته. وإن كانت تتوقف بين فترة وأخرى، قد تقصر أو تمتد.. لكنها فترات لا توفر الإحساس بالإستقرار واستمرارية الوجود. وقد يكون وارداً ومحتملاً في العقلية التي تخطط مستقبل الأجيال اليهودية، الإستمرار في تدعيم فكرة التوسع لكيان الدولة، لكي تتم تهيئة الأجيال على قبول أمر، سيقع، يجعل القبول بـ «الدولة» المعترف بها، أمراً واقعاً، وبالتالي، حتى لا يُفكر أحد في محاسبة صانعي القرار الذين خرجوا عن «الأدبيات» من أجل المحافظة على «كيان» الدولة، ضمن حدود يضمنها لهم «سلام» دائم، ويقوم على أساس إعادة الأراضي المحتلة إلى أصحابها الشرعيين، بعد استعصاء تحقيق السلام مع الإحتفاظ بالأرض المغتصبة، لأن مزاعمهم في ما عبرت عنه «الأدبيات» لا تتفق مع المتغيرات على ساحة السياسة الدولية، إلى ذلك فإن الأفعال التي تجري ـ حالياً ـ من أجل الوصول إلى السلام، تتفق مع المصلحة الوطنية، إذ تحقق بقاء «كيان الدولة»، وتضمن وجودها، بعد أن أصبح الإصرار عليها ضرباً من العبث.

صحيح أن الدوافع العقائدية للتوسع الصهيوني، تنبع من صميم العقيدة الصهيونية. لكن حقائق الحاضر، لا يمكن أن تلغي من أذهان منظري الفكر اليهودي، ومهندسي سياسة إسرائيل، ضرورة الإستجابة لحقائق تاريخية ثابتة، تؤكد حقيقة أن إسرائيل تتوسع بالقوة وليس بحق مشروع أقرته لها المنظمات الدولية، لذلك، فإنه يتوجب عليها إعادة النظر بمخططاتها، بحيث تتوفر للشعب اليهودي القناعات بما يسمى «دولة إسرائيل» والكف عن أعمال التوسع بالحروب، حتى لا يتعرض وجودها إلى خطر.

إن الإستطراد في الخطاب التنظيري، محفوف بالإحتمالات العديدة، لكن الصورة لواقع الأمر تأخذ أبعاداً أخرى، لا تتوافق معطياتها مع ما قالته وجاءت به جميع «الأدبيات» الإسرائيلية. فأول المعطيات التي جاءت بها الظروف الجديدة، تركز على أن «إسرائيل» وجدت لتبقى، ولكي يتحقق لها هذا المطلب، لا بد من أن تتخلى عن أفكارها التوسعية، والمعطى الآخر، على إسرائيل، لكي تضمن اعتراف جيرانها بها، أن تعيد جميع ما احتلته من أراضيهم مقابل أن تعيش بينهم في سلام. وحتى يتحقق لها السلام الحقيقي، ينبغي عليها تضييق الفجوات بينها وبين جيرانها، بالكف عن اطالة أمد التفاوض. وحان الوقت لكي تواجه إسرائيل هذه الحقائق، وتواجه شعبها بها، كي يتقبل «السلام» القائم على العدل، فيرتاح من مخاطر الحروب التي لم يعد راغباً في خوض غمارها، كما استشففت من خلال تجربة الزيارة التي كانت فرصة لإكتشاف تلك الحقائق الموضوعية، التي تشغل بال رجل الشارع في إسرائيل.

أما مسألة التطبيع، وإزالة الحواجز النفسية القائمة، فإن العمل الصادق كفيل بها بعد أن تخلص النوايا، وهي ما تزال غير سليمة من الشوائب.

وإذا كانت عملية السلام، أو الخطوة الفعلية لمفاوضات السلام بدأت عام ١٩٩١، بنوايا عربية سليمة، فإن إسرائيل كانت ماضية في التخطيط عسكرياً وتجسسياً إلى جانب «موافقتها» على البدء بمفاوضات مدريد. وقد تمكنت من إنجاز مشروع قمر تجسسي مهمته نقل المعلومات التي تحتاجها إسرائيل عن «جيرانها» العرب، الذين «تخافهم»، وتطالب بضمانات أمنية منهم، وتعهدات بعدم الإعتداء عليها!! وهذا مؤشر على نوعية النوايا الإسرائيلية.

ولهذا «القمر» الإسرائيلي التجسسي، مهمة محددة ومحسوبة، تنحصر في رصد المعلومات ـ على اختلاف أنواعها ـ وجمعها وتحليلها، عن ثلاث دول، هي سورية،

والعراق، وجمهورية إيران الإسلامية... ولا يمنع ذلك من تكليف «القمر» بمهمات مماثلة تشمل جمهورية مصر العربية، ودول الخليج - إذا دعت الحاجة إلى ذلك - ولا بد أن تدعو.. ذلك أن النوايا الإسرائيلية، تختلف عن النوايا العربية... والفعل العربي، لا يجد مناصاً من الإتجاه إلى غير السلام. بينما الفعل الإسرائيلي، أمامه أكثر من مناص.. بل لديه «مناصات» متعددة للتوجه إلى السلام، وإلى الفضاء، وإلى مجالات لا تخطر على بال الجن! منذ عهد «سليمان الحكيم»... ولا أقول هذا من قبيل السخرية، أو من قبيل المزاح، بل إنه قول، فيه كل الجد.

وخلال زيارتي التي استغرقت نحو عشرة أيام، عرفت عن إسرائيل، اكثر مما عرفته عنها على مدى أربعين عاماً أو تزيد. ورأيت في إسرائيل، ما لم أره في أي قطر من الأقطار العربية التي عملت فيها، أو قمت بزيارات إليها.

4

الحديث عن السلام يطول ويتشعب!...

وكلمة «السلام» لها وقع حسن، وجرسها جميل، ونطق حروفها عذب، يشعر المرء وهي على لسانه، بطلاوتها وحلاوتها. و«السلام» قبل هذا وذاك، إسم من أسماء الله الحسنى، ترديده، يُدخل على النفس شعوراً بالأمان، ويملأ الوجدان إحساساً بالراحة والطمأنينة. وتطبيق «السلام» تطبيقاً عملياً، له أسس، ومطالب، وأولويات... وحتى تتم ترجمة كلمة «السلام» إلى فعل وعمل، ينبغي الثبات على تلك الأسس، وتحقيق تلك المطالب، والأخذ بالأولويات حسب تدرجها من حيث الأهمية.

ومن أهم الأولويات لتحقيق «السلام» لفرد من الأفراد، أو لأمة من الأمم، عدم الحاجة إلى «الخبز» إذ أن الحاجة إلى الخبز، تقود إلى الغضب، والتمرد، والثورة؛ فيختل النظام، وتعم الفوضى، فلن يبقى للسلام مكان في «النفس» ولا في الحياة.

و«السلام» هو توأم الحرية وصنوها.. والمرء، حين يفتقد الحرية، لا يمكنه التصالح مع ذاته، وتستمر «الحرب» بينه وبين سالبي حريته حتى يستردها، عندئذ، يتصالح مع نفسه، ويعيش في «سلام» كذلك الأمم والشعوب.

والشعب الذي يحكمه طاغية، يفتقد السلام. والأمة المقموعة، لا يعرف السلام إليها سبيلاً، والدولة التي لا يتساوى أفرادها أمام القانون، لا يستقيم أمر السلام لها. والأمة التي تنقسم إلى فئتين، فئة «السادة» التي تسيطر على مقاليد الحياة، وفئة

«العبيد» التي تنقاد صاغرة لرغبات السادة؛ لأنها لا تملك حق الإعتراض، لا يمكن لمثل هذه الأمة، أن تعيش في سلام تام وشامل، ذلك أن «السادة» يكونون دائماً في حالة حذر من وثبة «العبيد».. بينما يكون «العبيد» في حالة توتر وتحفز؛ وبين الحالة الأولى والحالة الثانية. يُفتَقَد السلام. ولنا في «عمر بن الخطاب» ثاني الخلفاء الراشدين، مثل يضرب في إقامة العدل، وتوطيد الحرية، وترسيخ العدالة والمساواة، الأمر الذي جعل «السلام» في عهده ينتشر بين القبائل؛ ويعم ليشمل كافة الأقطار التي خفقت تحت سماواتها راية حكمه، حتى قيل فيه «حكمتَ فعدلتَ، وأمِنْتَ فنمت يا عمر». وكان «عمر» رضي الله عنه، يأبى على نفسه الإعوجاج، قبل أن يأباه على سواه من سواد الأمة، وهو القائل: «يا قوم، من رأى منكم إعوجاجاً في الخليفة فليقوّمه». وكانت حرية الرأي والتعبير في عصره عامة وشاملة، ولم تكن وقفاً على فرد دون فرد، ولا حقاً لسيد دون مسود.

لذا، فهو لما طالب «القوم» بتقويم «إعوجاج» الخليفة، قام واحد من القوم، ورد عليه دون أن يخشى عاقبة، وقال بصوت عال: «والله يا عمر، لو أننا رأينا فيك إعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا». ولم يرسل «عمر» عسسه ليلقوا القبض على ذلك الرجل، بل حمد الله، وأثنى على الرجل قائلا: «الحمد لله.. الحمد لله، أن في أمة محمد من يُقوّم إعوجاج الخليفة». وهذا يقودنا إلى التأكيد، بأن الأمة التي يغيب «العدل» عنها، ويفتقد أفرادها «الحرية» فلا يستطيع فرد منها التعبير عن رأيه، لا يحل فيها سلام.

خلاصة الخلاصة: إن «السلام» لكي يتوفر، ينبغي أن تتوفر له الحرية، والعدل، والمساواة. والأمة التي تنشده، يجب أن يحق الحق فيها، وتنتفي حاجة أفرادها إلى «الخبز».

وشعب مقموع، مصادر الحرية، يكابد ويجاهد للحصول على خبز يومه، لا يعيش في سلام، ولا يملك القدرة على صنع السلام لنفسه، فما بالك، والحال القائم في أقطار

العرب، يفتقر إلى جميع الأولويات، ويراد لها أن توقع على إتفاقيات سلام مع إسرائيل؟..

إن السلام بين العرب وإسرائيل، لن يتحقق، ولن يكون له وجود، إن لم تتحقق أولوياته في أقطار العرب جميعها، وتتساوى مع الأولويات الإسرائيلية. وإذا كان العرب مستعدين للتوقيع على اتفاقية سلام مع إسرائيل، على أساس انسحابها من جميع الأراضي المحتلة، ورد جميع الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني؛ وهذا مطلب عادل وحق مشروع، وإذا كانت إسرائيل، ما تزال تماطل وتناور، لأنها تملك قُدرات، تستطيع بها مواصلة مناوراتها؛ حتى تصل إلى «شكل» السلام الذي تريده، وتسعى إلى «فرضه» فهذا يعني، أن الفجوة القائمة بين العرب وإسرائيل، بسبب عدم وجود توازن في ميزان القوى، والكفاءات، والأولويات، سيقلل من فرص إقامة السلام... وربما «تمنع» السلام، من أن يعم وينتشر بين الشعوب، حتى لو تمكنت الأنظمة من الوصول إلى توقيع الإتفاقيات... وستظل الإتفاقيات حبراً على ورق، ولن تكتسب الشرعية من الشعوب، ما لم تتساوى الموازين في الكفاءات والأولويات.

وبعيداً عن الفلسفات التنظيرية، واقتراباً من الصورة على أرض الواقع، نرى أن إسرائيل قد وفرت للشعب اليهودي، جميع ما يحتاجه ليقرر بنفسه «نوع» السلام، الذي يريده ويرضيه، بينما نعرف، أن العربي لا يملك بين يديه ما يجعله يتساوى مع الإسرائيلي، ليقرر بنفسه ما يريد. فضلاً عن افتقاده أهم الأولويات التي تجعله مؤهلاً لخوض معركة السلام، بنفس القدرات المتوفرة للإسرائيلي.

وما دامت كفّتا الميزان غير متعادلتين ولا متساويتين بين العرب وإسرائيل، فكيف يمكن أن يقوم سلام بين فريقين لا تتعادل كفتاهما؟... إن الأمر يبدو شديد التعقيد.

إسرائيل تملك ترسانة من الأسلحة النووية، وتملك قمراً تجسسياً أطلقته إلى الفضاء؛ يستطيع أن يلتقط ما تحتاجه إسرائيل من معلومات عن الاقطار العربية وغير العربية، وقد بدأ هذا «القمر» مهمته عملياً منذ مطلع نيسان ـ ابريل ١٩٩٥ .

تلك الترسانة النووية، وهذا القمر التجسسي يثيران الشكوك العربية حول نوايا إسرائيل السلمية، ويثيران جدلاً حول جدية إسرائيل في الإلتزام بعملية السلام. وهل يكفي أن ينتقد العرب ما تفعله إسرائيل على صعيد التسلح والفضاء، ولا يعقدون العزم على البدء بعمل ما؛ يجعلهم يتساوون بإسرائيل، ويتوازون معها بقدراتها؟.

عندما أطلقت إسرائيل قمرها «أفق ٣» أعلنت عن حاجتها إليه، ليزودها بالمعلومات الإستخباراتية عن دول المنطقة، لأن حليفتها الأولى، الولايات المتحدة لا تزودها ـ في بعض الظروف ـ بما تحتاج إليه من المعلومات، بل تحجبها ـ أحياناً ـ عنها. لذا فإنها تؤكد حاجتها إلى هذا النوع من أقمار التجسس، وليس ثمة من يقدر على منعها لتواصل تقدمها التكنولوجي، الذي هو من أبرز أولوياتها، لتعزيز أمنها، حتى لو تم الوصول إلى اتفاقيات سلام بينها وبين جيرانها.

والسؤال الذي يطرح نفسه بحدّة، ما موقف العرب، وما الذي يَقْدِرون على عمله، أكثر من التشكيك بنوايا إسرائيل حول السلام؟.. وأكثر من الإحتجاج والشكوى؟... أليست الدول العربية معنية بمستقبل أمن شعوبها، مثلما أن إسرائيل معنية بأمن شعبها؟

لقد دأبت إسرائيل منذ قيامها عام ١٩٤٨على تحصين وجودها، و«حق» شعبها بالبقاء، بالعلم والتكنولوجيا.. ودأب العرب على الإحتجاج والشكوى، ولم يحققوا أي انجاز يحصنهم من المخاطر المحيقة بهم، أو يحمي شعوبهم من غائلة الحاجة إلى رغيف الخبز، وهذا أضعف الإيمان.

ولقد قمت بزيارات إلى دول عربية، يحسدها العالم كله على غناها الفاحش، وفي مقدمة هذه الدول، المملكة العربية السعودية، والكويت، وقطر، وشاهدت متسوّلين ومشرّدين يجوبون الشوارع، ويفتشون عن لقمة يسدون بها رمقهم، فلا يجدونها إلا في أكياس القمامة، أو في براميل الزبالة والنفايات المبثوثة أمام البيوت والمساجد والشوارع التجارية. فكيف يتحقق سلام لفرد لا يجد قوت يومه، في وطن تمتلىء خزائن حكامه بمال يكفي لصنع ألف قنبلة ذرية، ولإطلاق مائة قمر صناعي للأغراض العلمية، أو التجسسية، ولكنها أموال لا تكفي غائلة الجوع!!

أوليس الحاكم الذي لا يكفي شعبه غائلة الجوع والمال يتكدس في خزائنه، هو الحاكم نفسه، الذي يدعو إلى الجهاد المقدس، وتحرير الأراضي والمقدسات؟ أوليس هو الحاكم نفسه الذي يصدق فيه قولُ الحق: **«تَبَّت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب»**، ولا يملك شعبه حق الإعتراض، ولا يستطيع وهو لا يجد في بيته قوتاً لعياله، أن يخرج شاهراً سيفه؟... ومن أين سيجد السيف ليقاتل به، وهو لا يجد كسرة الخبز؟!

لقد تناقلت وكالات الأنباء احتجاج دولة قطر على إطلاق إسرائيل قمرها التجسسي، وقرأتُ في الصحف نقلاً عن وكالة الأنباء القطرية، أن قطر تعتبر إطلاق القمر الإسرائيلي «أخطر من الأسلحة النووية التي تقتنيها»، وقالت الوكالة نقلاً عن مسؤولين قطريين «إن ردود الفعل العربية المنددة، لا ترقى إلى مستوى تلك الخطورة عدا القليل من المواقف والتعليقات السياسية الإسلامية والعربية». **ولا أعلم لماذا لا يندد المسؤولون القطريون بما يقوم به بعضهم، من هضم لحقوق من كُتِبَ عليه أن يعمل في بلادهم، فيبخسوه حقه، ولم يدفعوا له مستحقاته، فغادر بلادهم... وهاجر إلى بريطانيا منذ عام ١٩٧٦، ولم يتمكن من استخلاص حقوقه المالية منهم، رغم تدخل «الطيب صالح» الروائي والأديب السوداني الذي كان يعمل مديراً في وزارة الأعلام**

القطرية، ورغم توسط السفير القطري في لندن السيد «شريدة جبران الكعبي» لدى الشيخ عبد العزيز بن خليفة آل ثاني، الذي كان وزيراً للمالية والبترول، وأبى أن يدفع لهذا المواطن العربي ما يستحقه من الرواتب!!.. [راجع كتابي - قطر بنت آل ثاني - للمزيد من التفاصيل].. إن قطر التي تتبجح بانتقاد الدول العربية «للمواقف العربية وردود فعلها، التي لا ترقى إلى مستوى الخطورة من إطلاق إسرائيل قمراً تجسسياً يعتبر أخطر من إقتناء الأسلحة النووية» هي آخر «دولة» في منظومة الدول العربية، التي يجوز لها الإنتقاد، ما دام «شيخ» من شيوخها، ينفق من خزانة وزارته الملايين على لياليه، ويمنع عن فرد قدّم عملاً، حقه في الحصول على مستحقاته...

أوليس هذا «الشيخ» القطري مرتداً عن تعاليم الأديان السماوية، وخارجاً عن تطبيق حديث الرسول العظيم القائل: «أعطوا الأجير أجره، قبل أن يجف عرقه».. ولقد جف العرق، ونشف الدم، ولم يُعط «الأجير» العربي أجره عن عمله الذي أداه للأمير «الشيخ» القطري!

ثم..

تأتي «قطر» وغيرها من دول الخليج، لإلقاء المحاضرات في الإنتقاد والإحتجاج، والتنديد بالدول العربية الساعية إلى السلام، دون أن تستثمر جزءاً من مليارات النفط القطري، في مشاريع تساعد على توطيد وضع الفلسطينيين في أرضهم المحررة، حتى لا نقول في إنعاش الوضع الإقتصادي في كل من مصر، وسورية، والأردن، الدول العربية الفقيرة، التي دفعت دماء أبنائها، ودمرت بناها الإقتصادية في تسليح جيوشها لتتمكن من الصمود في حروب، لم تفضِ الا إلى مزيد من الإحتلال لأراضيها. حتى وجدت نفسها مضطرة لدخول معركة السلام، رغم عدم توفر أولوياته..

فهل فكر حكام دولة قطر، ومثلهم الحكام الآخرون في دول الخليج في الإجابة عن سؤال شمعون بيريز، وزير خارجية إسرائيل حين قال:

«إن جميع اليهود في العالم ساهموا في بناء الإقتصاد الإسرائيلي بعد قيامها.. فهل يساهم العرب الأغنياء في مساعدة الفلسطينيين»؟...

* * *

إن مصر التي قدمت من قوت شعبها لبناء قواتها المسلحة، وقدمت عشرات الألوف من الضحايا، تستحق من المترفين العرب، غير ما يتبجحون به، وغير التنديد والنقد. ورغم كل شيء تبقى مصر صامدة تحتضن حتى الذين يعاملونها بعقوق.

لقد نالت دول عربية من أذى بعض الأشقاء، ونال مواطنون عرب من أذى بعض الحكام، ما يجعلهم يعرضون عن بعضهم بعضاً، بل ما يدفعهم إلى طلب السلام ويلحون في طلبه من العدو، بعدما افتقدوه في أوطانهم، بسبب ما لحق بهم من ظلم وأذى. وهذا «لبنان» مثل يضرب، فكم لحق به من الأذى، بسبب حرب أشعل فتيلها أرعن، فأشعل قابلية الآخرين للدخول في الاقتتال الأخوي، فأدّى الأمر إلى احتلال جنوبه.

وفي التراث العربي، وأدبياته، أن حاكماً ظالماً سأل مواطناً من أبناء «رعيته» أو شعبه: «ماذا تحمد لي من أعمالي؟» فأجابه المواطن: «أحمد لك قيلولتك، لأن أذاك لا ينالنا، وأنت مستغرق فيها». فهل ندعو لمثل هذا الحاكم من الحكام العرب، بأن يغيب في «قيلولة» لا يصحو منها إلى أن يتحقق السلام.. أو لا يصحو منها أبداً، حتى لا يعود أذاه ينال أحداً من شعبه؟.. أم ندعو لجميع الحكام العرب بالخروج من التجارب الفاشلة، ليقفوا وقفة واحدة، لأنهم بها يتمكنون من فرض أنفسهم كجهة متماسكة واحدة، تقابل الجهة الإسرائيلية في معادلة السلام، التي ما تزال تستعصي على الحل، لأن البعض يوكل أمره إلى واشنطن!...

الحديث عن السلام يطول ويتشعب!...

ولو أنك، أيها الساعي اليه، استطردت، فلن تنتهي، ولن تجد ما تفعله غير الحديث عنه، دون أن تقوم بعمل تساهم به في صنعه، ولو بقدر قليل.. والقليل في قدره ووقته، خير من الكثير في غير وقته وغير موضعه. وإن كشف الحقائق، وتعرية الزيف، ووضع الأصبع على الجرح الذي يصيب بعض العرب من بعض إخوانهم وأصدقائهم قبل عدوهم، هو أول واجب يمكنك تأديته. و:

«على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم»

فأين أهل العزم من العرب المقتدرين، يرفعون غائلة الجوع عن العرب الصامدين، ويزيلون الأذى؟

لقد بات من المخيف في المرحلة الراهنة التي بلغتها عملية السلام على المسار «السوري ـ اللبناني»؛ أن تجعل الولايات المتحدة الأمركية أصدقاءها من عرب الخليج، ورقة تستخدمها في لعبتها غير العادلة، للضغط ـ في هذه المرحلة ـ لإضعاف الموقف السوري، فالدلائل تشير، وتدل، على أن «واشنطن» في تعاملها مع لعبة السلام ـ كراع لها ـ تميل إلى استخدام تلك الورقة الخليجية، لترجيح كفة الميزان في مصلحة إسرائيل، بل إنها تضع تلك الورقة في يد إسرائيل، كي يستوعب الجميع مضمون رسالتها التي يُفهم من سطورها، أن إستمرار العلاقة معها، أو فتح الباب على مصراعيه أمام العرب الآخرين الراغبين في «خطب» الود الأميركي، أن يعبروا إلى البيت الأبيض من تحت قنطرة البوابة الإسرائيلية. ولكن يبدو، أن أميركا، وهي في علاقتها الإستراتيجية مع إسرائيل، تمر في حالة من حالات «الكوما»، تجعلها مثل «عاشق» سادر في غيبوبة العشق، ويصاب في وعيه بما يشبه التشتت، أو الزيغ، وتغدو قدرته على الرؤية محدودة، وتصاب ذاكرته ببعض العطب، ما يجعله ينسى

مصالحه مع الآخرين، أو يُعرّض هذه المصالح للإصابة بأضرار، جرّاء استغراقه في «الكوما» الرومانسية التي وجد نفسه فيها - من حيث يدري أو لا يدري - بعد استحكام حالة «العشق» به، فطوقته، وقصّرت مدى رؤيته، أو حجبت عنه رؤية أي شيء إلا وجه الحبيب.

من هنا نجد أن أميركا، قد عجزت عن استيعاب مدى جدية سورية في دفع عملية السلام إلى الأمام، وأنها قدمت الفرصة تلو الفرصة، مؤكدة حرصها على بلوغ الهدف المتوخى، الذي أبدت من أجل بلوغه مرونة فائقة، وصبراً أين منه صبر «أيوب» حيال العراقيل، التي تقيمها إسرائيل في وجه الراعي الأميركي، الذي لمس تعاون سورية معه، وهو تعاون من شأنه أن يخرج بعملية السلام من نفق المأزق الذي «تحشر» إسرائيل في ظلمته ذلك الراعي الأميركي؛ للتنصل من المبدأ الأساسي الذي قامت عليه المفاوضات منذ بدايتها، وهو «الأرض مقابل السلام»، والإنحراف عن مرجعية مؤتمر مدريد الذي دعمته أميركا بمبادرتها المستندة على قرارات مجلس الأمن.

وعدد المرات التي أكدت فيها سورية عدم قبولها بأقل من إعادة جميع الأراضي المحتلة، إلى أصحابها الشرعيين، يكاد «الكومبيوتر» الأميركي يعجز عن إحصائها، وأن أي تقدم حقيقي للإقتراب من نقطة النهاية في «ماراثون» السلام، يقتضي من أميركا الضغط على إسرائيل، وإلزامها بتنفيذ جميع القرارات القاضية بانسحابها الكامل من الجولان ومن جنوب لبنان، عندئذ، لا تبقى أمام الراعي الأميركي؛ أي عقبة لدعوة جميع الأطراف المعنية إلى مائدة المفاوضات، للتوقيع على اتفاقية سلام تضمن حقوق الجميع، وبذلك تضمن أميركا مصالحها في المنطقة، وهي مصالح لا يستطيع تجاهلها، أو غض الطرف عنها، الجالس على سدة الحكم في البيت الأبيض.

وبغير ذلك، ستظل سورية مقتنعة بعدم جدوى الرعاية الأميركية في مباحثات تصطدم بتعنّت إسرائيلي يستحيل معه إيجاد أرضية ثابتة ومشتركة، تقف عليها المتطلبات

الموضوعية للسلام. ولهذا، تقف مصر بما لها من ثقل سياسي، موقفاً مشرفاً في مساندة سورية.

انطلاقاً من هذه القناعات، قبلتُ الدعوة، وقمت بزيارة «الأرض» التي تحمل إسم «فلسطين» منذ قرون بعيدة، ثم صار اسمها «إسرائيل» منذ أقل من نصف قرن، وما يزال الأخذ والرد بشأن استواء أمرها دائراً.. والصراع من أجل إحلال السلام في منطقة الشرق الأوسط مستمراً؛ بل يتضاعف لدرجة يبدو أن تكاليفه ستكون باهظة، أكثر مما كان متوقعاً لها.

* * *

فهل أخطأت في تقييم الموقف حين قبلتُ الدعوة؟..

وهل أسأت اختيار التوقيت؛ للقيام بالزيارة إلى الأرض التي هي امتداد لوطني الأم؟..

وهل كنت محقاً في ظني، بأنني إنما أقوم - بخطوة لإكتشاف حقائق كانت غائبة، أم أن الصواب جانبني في ما ذهبت اليه من ظن بُني على حسن النية، فوضعت نفسي على طريق الجحيم المفروش بالنوايا الحسنة، من حيث لا أدري؟!..

إنني حائر في الوصول إلى أجوبة محددة عن تساؤلاتي!!.

لكنني حاولت الإجتهاد في «قضية» ارتبطتُ بها، منذ الطفولة، وأن من حقي أن أجتهد في البحث عن حل لها، لأن مستقبلي ومستقبل جيل الأبناء والأحفاد؛ مرهون بهذه القضية، ومرتبط بحلها حلاً عادلاً... ونهائياً.

وما أتمناه على كل من لم يُتِحْ لي فرصة لإيضاح وجهة نظري، وعلى كل من

منعني من التعبير عن رأيي من المثقفين ومن العاملين في حقل الإعلام، بالقدر الذي منحوا أنفسهم الحق في أن يَصُدُّوا عني، ويغلقوا دوني أبواب الحوار ديموقراطياً، أن يفتحوا نافذة تتيح فرصة للتواصل عبر حوار - قد - يفضي إلى المحافظة على خيوط المودّة، عوضاً عن إصدار أحكام جائرة، وظالمة، قد يعقبها ندم لا ينفع ولا يجدي.

ولا أظنني متجاوزاً حقي في مطلبي، خاصة وأن من أتوجه به إليهم، هم ممن أظن أنهم يؤمنون بالديموقراطية التي تبيح تعددية الآراء، بل تضمن الحق لكل من يطالب بتصارع الآراء تحت مظلة الحرية التي «يناضلون» لترسيخ جذورها بالقول، ويحجمون عن ترجمة الأقوال فعلاً وعملاً وتطبيقاً.

ومع التسليم بأن لكل مثقف وإعلامي الحق في أن يمارس أسلوبه الخاص النابع من توجهاته وقناعاته، الا أن هذا التسليم - مع الإقتناع به - لا يجيز لأي مثقف أو إعلامي، مصادرة رأي آخر، حتى لو أجمعت الأغلبية على عدم قبوله أو الإقتناع به.

في كل الأحوال، فان العدل يقتضي من الحاكم الحيدة، والموضوعية، والإنفتاح بعقله، وأذنيه، وعينيه، وبجميع حواسه، لتلقّي وجهة نظر الواقف أمامه متهماً، أم أن «المتهم مدان حتى تثبت إدانته» هي القاعدة الثابتة في معظم بلدان العالم الثالث، وأن يكون «المتهم بريء حتى تثبت إدانته» هي قاعدة لا يعمل بها إلا في الدول المتقدمة والمتحضرة، ويتساوى أمام قوانينها جميع الناس بلا تفرقة ولكن غير معترف بها عند بعض من يتولّون مناصب الحكم في معظم دول العالم الثالث؟..

فاذا كانت القاعدة في أن «المتهم مدان حتى تثبت ادانته» ولو كان بريئاً، عندئذ، لا أملك سوى ترديد بيت الشاعر القائل:

«يا أعدل الناس إلا في معاملتي   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم»

وحاكم كهذا؛ يستوي عنده «الماء والخشب» ليس جديراً بأن يوجه اليه الخطاب.

* * *

وأول من أتوجه إليهم بدعوتي، هم أولئك المثقفين في مصر، الذين ينعمون بقدر من الحرية، لم ينعموا بمثله قبل عهد الرئيس محمد حسني مبارك، ولقد لمست هذه الحقيقة من تجاربي الشخصية، خلال زياراتي المتكررة إلى مصر، وخلال الفترات التي أقمت ومكثت وانغمست في الأنشطة الثقافية التي تتميز بها مصر عن سواها من عواصم العرب، على مدى السنوات الممتدة من ١٩٨٤ إلى ١٩٩٥، **من المثقفين المصريين الذين حمى لهم عهد الرئيس مبارك أقلامهم، وصان لهم حريتهم، وضمن لهم حق التفكير بصوت مسموع، يجدر بهم جميعاً الإلتفاف حول هذا العهد المبارك. وإني إذ أتوجه إليهم بخطابي، فذلك لأني صدمت - ببعض - هؤلاء المثقفين الذين تزلوج عندهم المواقف، فتتناقض أقوالهم مع أفعالهم، وأسوق هذا الكلام إلى بعض رموز الثقافة في مصر الذين جحدوا نعمة الحرية التي أغدِقتْ عليهم في عهد مبارك.**

5

بعدما انتبذتُ مكاني القصي، بعيداً عن الوطن العربي، واستقر مقامي في «لندن» مهاجراً. تقطعت الأسباب بيني وبين الوطن. وعلى مدى تسع سنوات من ١٩٧٥ ـ إلى عام ١٩٨٤، لم أقم بزيارة إلى أيّ قطر من الأقطار العربية؛ حتى إذا بلغني نعي والدتي التي كانت تقيم مع إخوان لي في القاهرة، لم أجد بدّاً من السفر. ولم يعد البعد عن «الوطن العربي» يحتمل أكثر مما احتملت.

كان ذلك أواخر العام ١٩٨٣، ومع مطلع شهر آذار ـ مارس من العام التالي ـ وكنت رئيساً لتحرير مجلة «الملايين» الصادرة من لندن ـ توجهت إلى القاهرة، في زيارة خاصة، وكانت مصر، هي الدولة العربية الوحيدة التي تسمح بتوزيع مجلة «الملايين» في مدنها. وقد رأيتها معروضة في أكشاك الصحف والمكتبات مع صحف عربية وأجنبية تصدر في مختلف أنحاء العالم. وراق لي أن أغتنم فرصة زيارتي الخاصة، وأطلب من مدير «المكتب الصحفي» الأستاذ أحمد رشدي الذي تولى إدارة المركز الصحفي خلفاً للأستاذ أحمد الأبراشي، أن يحدد لي مواعيد لإجراء لقاءات مع بعض المسؤولين. وتولت السيدة راوية المناسترلي ترتيب المواعيد، وكان في مقدمتها لقاءان، الأول مع السيد صفوت الشريف، وزير الإعلام، والثاني مع السيد عبد الحميد رضوان، وزير الثقافة حينذاك. وكان المفروض أن يتحدد لي موعد مع الرئيس حسني مبارك، لولا ازدحام لائحة مواعيده، ولولا قصر مدة زيارتي، التي لم تسمح لي بالإنتظار حتى يحين تحديد موعد لي.

في الحوار الذي أجريته مع السيد صفوت الشريف، ونُشر بكامله في مجلة «الملايين» واحتل أربع صفحات من العدد الثامن ـ السنة الثانية ـ إبريل ـ نيسان من عام ١٩٨٤، وعلى غلافه عنوانان رئيسيان، الأول [عهد مبارك... يدخل الإمتحان الصعب]. والثاني، على لسان وزير الإعلام صفوت الشريف [كسرنا سيف الرقابة.. بسيف الديموقراطية]؛ وكان كلامه رداً على سؤال صريح وجهته إلى الوزير، ونصه:

ـ هل تعتقد بضرورة وجود قانون للرقابة على الصحف المحلية؟.. وهل لأصحاب الآراء المعارضة حق في أن يعبروا عن آرائهم؟..

وكان جواب السيد صفوت الشريف بالنص الحرفي:

ـ هناك متغيرات في مصر شملت الصحافة التي أوضح الدستور حقها، وأبرز هذه الحقوق التركيز على حرية الصحافة... وهذا الحق، رفع الرقابة عن الصحافة تماماً بموجب القانون.

والسؤال ـ للسيد صفوت الشريف ـ ما مبرر الرقابة على الصحف إذا كانت الدولة تعمل على تطبيق مبدأ الديموقراطية؟.. إن الديموقراطية على صعيد التطبيق العملي، تعطي الحق لأصحاب الرأي الآخر في أن يقولوا رأيهم.

ويستطرد السيد صفوت الشريف في إجابته عن سؤالي، قائلاً:

ـ لقد كسرنا سيف الرقابة وألغى القانون وجوده، فقد سادت رقابة الضمير.. وأعتقد أن القوة المؤثرة، هي في مطالبة القطاع العريض من البشر، بالعمل في هذا التوجه الديموقراطي.

* * *

كان الحوار طويلاً، استغرق وقتاً اقتطعته بأسئلتي الصريحة، وملأته بأجوبة السيد صفوت الشريف، الذي لم يبد اعتراضاً على أي سؤال.

وما دعاني إلى اختيار مقاطع من كلام الوزير، هو ما تكشف لي ـ بعدئذ ـ من صدقية،

في إقران القول بالعمل على المستوى الرسمي. إذ كنت، وعلى مدى السنوات التالية التي تكررت عبرها زياراتي إلى القاهرة، أقرأ في صحفها القومية، والحزبية المعارضة، آراء في السياسة المصرية [عربيًا - ودولياً] ما لا يُقرأ حتى في المطبوعات والدوريات التي تعتبر في صف خصوم مصر، وتصدر في بعض العواصم العربية والأوروبية، ويجري توزيعها في مصر، وتُعرَض جنباً إلى جنب مع صحف مصر القومية. وهذا الواقع الذي لمسته بنفسي، يؤكد بأن جمهورية مصر العربية، تكاد تكون الدولة العربية الوحيدة، التي يبيح نظامها الديموقراطي السليم، مساحة من الحرية لتعددية الآراء والنقد، لدرجة تتجاوز حدود الموضوعية، ولا أقول قولي من قبيل «المجاملة».. إذ لا تربطني بمصر أي مصالح مادية، أو معنوية، أو إستثمارية... ولا يربطني بمن التقيت بهم على مدى السنوات الماضية، من المسؤولين، سوى الإحترام المتبادل.

وما حفزني إلى تأكيد حقيقة وصدقية «الديموقراطية» في عهد الرئيس «مبارك»، هو ما عشته من تجارب شخصية خلال فترات مكوثي في مصر، كنت أكتب، وأعلن عن آرائي في مناسبات ولقاءات تجمعني برجال سياسة، وبأهل ثقافة وإعلام، تتضمن انتقادات صريحة واضحة، كنت أقولها، وأعلنها على مسامع الملأ، في الأمسيات والندوات التي أُدعى اليها، دون أن أواجه بعدها بأي مساءلة، أو محاسبة، أو «استدعاء» من جهة أمنيّة.. تُوجه إلي لوماً، أو تطلب مني إلتزام حدٍ معين في ما أبديه من آراء، أو تطلب مني «مغادرة» مصر، أو عدم العودة اليها إلاّ مرة واحدة - قد - تأتي مناسبة للحديث عنها.

هذا - وسواه كثير - ما يجعلني أقول، وأؤكد أن «الديموقراطية» في مصر، لا يماثلها، ولا يوازيها، ولا يشابهها نظام حكم في أي بلد عربي آخر، أتيح لي أن أزوره - فيما بعد - أو أمكث بين أهله بعض الوقت.

والمؤسف، أن اتساع مساحة الديموقراطية في نظام الحكم الذي يقوده الرئيس مبارك، يسيء إليها - أي إلى الديموقراطية - عدد من المثقفين المصريين الذين ينعمون بالعيش تحت مظلتها.. بل إن هؤلاء المثقفين، يستغلون هذا المناخ الديموقراطي الصحي والسليم، ويوظفونه لغايات ذاتية فردية.. بل إن بعض «الحركات» أو بعض «التنظيمات».. أو بعض الفئات والأفراد الذين ينتمون إلى «نقابات أو إتحادات أو أحزاب سياسية» يقومون بافتعال حوادث - غير مبررة - لا تسيء إلى النظام، بقدر ما تسيء اليهم أنفسهم كأفراد، أو كأشخاص، لأن ممارستهم في مختلف شؤون الحياة العامة، تتعارض وتتناقض مع ما يعلنونه من مواقف وآراء. ولي في ذلك تجارب عديدة مع عدد من المثقفين، كانت لهم معي شخصياً مواقف تتناقض تماماً مع ما يعلنون عنه في كتابتهم، أو ما يلتزمونه في كلامهم «التنظيري المؤدلج»، ويرفضون تطبيقه على مستوى الأعمال. ومن هؤلاء مثلاً، من يعتبرون «رموزاً» ثقافية، كانت لهم عندي مكانة مرموقة، مثلما لهم عند قرائهم الذين لا يعرفونهم معرفة شخصية... لكن التجربة والتطبيق، الذاتيين، جعلت هذه «الرموز» تنهار، كما تنهار التماثيل الملحية، أو، كما تتقوض القلاع الرملية التي يبنيها الأطفال على شواطىء البحر.

وقبل الدخول - عَبْرَ هذا الفصل - إلى معطيات «الزيارة» ووقائع «ما تلاها» بعد عودتي إلى القاهرة؛ يطيب لي أن أذكّر، بأن المصالحة التاريخية التي تحققت بين السلطة والمثقفين في عهد الرئيس محمد حسني مبارك، ستظل «وشماً» ثابتاً في وجدان كل مثقف عربي، يؤمن بأن الديموقراطية، هي المدخل إلى الحرية بأشكالها كافة.. وستبقى هذه المصالحة التاريخية بين السلطة والمثقفين، علامة بارزة، وقمراً متألقاً، ينبغي على جميع المثقفين أن لا يعملوا على إطفاء نوره. وأنا إذ أتفق مع المفكر والكاتب الأستاذ «لطفي الخولي» في المطالبة بأن تتحقق في عهد الرئيس مبارك -

وتحديداً - في الفترة الثالثة من رئاسته التي تمتد حتى عام ١٩٩٩، جميع ما يُطمَحُ إليه من إصلاح سياسي، وإقتصادي، وإجتماعي، وتكنولوجي.. وثقافي؛ أؤكد، بأن الإصلاح لا يتم بلمسة من عصا سحرية، ولكن، يتحقق، عندما يبدأ كل فرد - في حقله - بإصلاح نفسه أولاً. ذلك أن الإصلاح «العام» يبدأ بالإصلاح «الخاص» والحديث الشريف [إبدأ بنفسك ثم بأخيك] فيه دعوة صريحة وصادقة إلى إصلاح «الذات» قبل المطالبة بالإصلاح من الآخرين، أو المطالبة بإصلاحهم.

ومن تجربتي الذاتية، خلال الفترات الطويلة التي أقضيها في مصر، كل عام - فأحتك بمختلف الشرائح المجتمعية، وأتعامل مع «فئات» من المجتمع المصري، في مقدمتها فئة المثقفين والعاملين في وسائل الإعلام، تبين لي - وأقولها بصراحة تامة - أن الفرد المصري - في عمله - لا يرتفع إلى مستوى طموحات الدولة في تحقيق التقدم والرقي لمصر. وأن شعار «كلنا نحب مصر» الذي نسمعه من أفواه الناس، ويتردد في «الأغاني» المعروضة يومياً على شاشات التلفزيون، أو المذاعة عبر جميع محطات الإذاعات المصرية، لا أجد له ترجمة دقيقة على صعيد العمل. فماذا يفيد مصر عندما يتغزل مصري، أو مصرية بها في أغنية تقول «يا حبيبتي يا مصر..» ونرى هذا «المصري» أو «المصرية» لا يقوم بواجبه - في حقل عمله واختصاصه - نحو مصر «حبيبته» على الوجه المأمول والمطلوب.. بل والمفروض أن يقوم به؟...

وماذا يجدي مصر عندما يغني صوت لها «مصر هيّ أمي..» فيترجم بعض المصريين من المثقفين، أو العمال، أو «الصنائعية» معنى الأغنية إلى إهمال لهذه «الأم» بأعمال تتنافى مع أبسط مظاهر الحب، كأن يرمي النفايات والقمامة في شوارعها.. وشوارع كل بلد هي «وجه» البلد. فكيف يرضى هذا المواطن أو ذاك، أن يقذف وجه بلده.. الذي هو «أمه» بالقاذورات؟.. ولقد طرحت هذا السؤال مرة، في ندوة ثقافية ينظمها أسبوعياً الأخ والصديق المستشار جمال عبد الحليم - رئيس محكمة الجنايات العليا

وأمن الدولة السابق - فرد عليّ أحد الحاضرين وهو شخصية معروفة في الأوساط الثقافية: «إنت مالك.. بلدنا واحنا أحرار فيها»!!..

عقدت الدهشة لساني عندما «صفعني» ذلك المثقف بإجابته!. وتساءلت بيني وبين نفسي، هل تبيح الحرية لمواطن ان يكون سلبياً نحو وطنه إلى القدر الذي يسمح لنفسه أن يقذف القمامة على وجه وطنه... أمه، ويتبجح بأنه «حر»؟!.. وثمة سلوكيات أشد مضاضة، وأكثر سلبية يمارسها البعض باسم الحرية، لا أجيز لقلمي الخوض فيها.

ومثلما أن الديموقراطية «كل» لا يتجزأ، فإن الإصلاح لا يتجزأ، بل ينبغي ان تكون مسيرة الإصلاح الذي تقوم بها أجهزة الدولة، متوازية مع دور كل مواطن يريد من الدولة الإصلاح، فلا يقوم هو بعمل معاكس. وبالتعاون والإنضباط بين أجهزة الدولة والأفراد، تتم الإنجازات، ويتحقق التغيير. وإذا كان شعار «التغيير» الذي رفعته الحكومة المصرية في عهد الرئيس مبارك قد «هز الناس وأعطى لهم الأمل في زوال المعاناة» حسب رأي الأستاذ «نجيب محفوظ» فإن على كل فرد يأمل في الفترة الثالثة «من حكم مبارك أن تحصل مصر على ديموقراطيتها الكاملة ويصبح الشعب مصدر السلطات» - حسب رأي محفوظ أيضاً - أن يلعب دوراً إيجابياً مسانداً لأجهزة الدولة، يعكس به صدق حبه لمصر وهي الوطن الذي هو «الأم» في المقام من القلب.

ما قادني إلى هذه - المداخلة - التي اعترضت الحديث عن معطيات «الزيارة» التي قمت بها إلى «فلسطين المحتلة» وقد أصبح اسمها في أطلس العالم «إسرائيل» منذ عام ١٩٤٨، أنني لم ألتق بمشرد، أو متسول أو «معوّق» من الذين أصيبوا بعاهات بسبب الحرب، ولم أجد شارعاً رئيسياً، أو خلفياً، تتكدس على أرصفته أكوام النفايات والقمامات، أو «تسرح» الكلاب الضالة في طرقات المدن، أو القرى و«الكيبوتزات» التي تجولت فيها.

وحديث «المفارقات» حديث يطول..

فلنبدأ الرحلة من يومها الأول؛ بعد بأن فرغت من استعراض ما سبق القيام بها من وقائع وأحداث، كانت سبباً آخر في اتخاذ قرار القيام بها. وأبرز تلك الوقائع والأحداث، إعلان إتفاق «غزة - أريحا» العتيدة.

ولنبدأ الرحلة بعد الحديث عن قصيدتي «يوسف يتجسد فيكم» التي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة.

6

على مدخل مطار القاهرة، تستقبلك الآية الكريمة «إدخلوا مصر إن شاء الله آمنين» مثلما تستقبل الوافدين إلى«المحروسة» زوّاراً، وسيّاحاً، ومستثمرين ومثقفين، لا يجدون في سواها من الأقطار العربية ما يجدونه في مصر على مدار فصول السنة.. وأبرز ما تستقبل به القاهرة زوارها وضيوفها، الدفء في التعامل، والحرية التي توفر للجميع، فرص الجلوس معاً، والتحاور في شتى الشؤون. فضلاً عن الشعور بالأمان.

وفي الندوات الفكرية والأمسيات الثقافية التي تنظمها الهيئة العامة للكتاب، وتثور فيها الحوارات، وتتصارع الأفكار، خير مثل على اتساع مساحة الحرية التي يبيحها النظام الديموقراطي في عهد الرئيس مبارك منذ بدايته. ولئن يتسبب بعض عناصر الغوغاء ـ أحياناً ـ في إفساد متعة النقاش، ببعض التشويش مما يسيء إلى معنى الحرية.. الا أن الأمر لا يعدو أكثر من إفتعال زوابع «فنجانية» تثير ضجيجاً قد يعكر صفو الحوار الهادىء الذي يدور ضمن الإطار الحضاري، لكنه ضجيج لا يُخلّ بالأمن، أو يعبث بالأمان.

وبُعيد وصولي إلى القاهرة، أواخر الصيف من عام ١٩٩٣، قمت بزيارة إلى الدكتور سمير سرحان، وسلمته نص قصيدة «يوسف يتجسد فيكم» فأخذت سبيلها إلى النشر، وقد استدعى إشرافي على طباعتها حتى صدرت عن «الهيئة المصرية العامة للكتاب» بعد أقل من شهرين من بدء العمل الذي حرصت على مرافقة مراحله يوماً بعد يوم؛ المكوث بالقاهرة، والمواظبة على الذهاب إلى مبنى «هيئة الكتاب» يومياً، حتى ظن البعض من أسرة موظفي الهيئة، أنني غدوت عضواً في أسرتهم.. أي أنني صرت

موظفاً من موظفي هيئة الكتاب... ويا ليت ذلك كان ممكناً تحقيقه وبلوغه لكي ارتاح من متاعب البحث عن عمل، ما زلت أشقى في البحث عنه ولا أجده، بسبب «الأمر» [الكويتي ـ القطري ـ الخليجي] الذي قضى بإغلاق أبواب المؤسسات الإعلامية في وجهي، وما يزال «قضاؤه» سارياً منذ خمسة عشر عاماً حتى اليوم.

وقصيدة «يوسف يتجسد فيكم» تطرح قضية الظلم والقهر في الوطن العربي؛ والحالة النفسية الإكتئابية التي عانى الفرد في بعض أقطار الوطن الكبير، وما يزال يعاني منها،؛ حتى دفعته المعاناة من الظلم والقهر، إلى الهجرة ظناً من «يوسف» الذي يجسد معاناة المثقف العربي، أن خلاصه سيكون في هجرته عن الوطن؛ وأن الحزن الذي يتلبس «يوسف» إنما مبعثه **«التشاؤم واليأس ومحاولة الهروب من حالة التمزق المستشرية في نسيج الوطن وخلاياه» حسب التعبير الذي أوردته «سمر إبراهيم محمد» في دراسة تحليلية كتبتها عن القصيدة وتناولت في صفحاتها، المراحل الثلاث في رحلة «يوسف» الثلاثية الأبعاد؛ ماضياً، وحاضراً ومستقبلاً.**

ولئن إضطررت للحديث عن «قصيدة يوسف» وقد انعقدت في القاهرة ندوات عديدة لمناقشتها، فلأنها أثارت تساؤلات في الوسط الثقافي فضلاً عن «الزوبعة» التي «افتعلتها» جهات رسمية في الكويت، بسبب صدورها عن هيئة الكتاب، التي يترأس مجلس إدارتها أديب مرموق، وكاتب مسرحي بارز، هو الدكتور سمير سرحان؛ مدعية ـ أي تلك الجهة الكويتية ـ أن القصيدة، تدعو إلى «الصلح» وإقامة سلام مع إسرائيل، من خلال مقطع يصف فيه الشاعر، ما بلغه «العرب» من تفتت، وذل، ومهانات. فصار يتحتم عليهم أن يعقدوا «الصلح» مع «أبناء العم». وكان هذا الرأي ظلماً مضافاً، لم أحسب حسابه، وأنا أكتب القصيدة!

جاء في أحد المقاطع:

«ربّي...
«أبناءُ العَمّ استولى العجزُ عليهمْ
«فكّكهُمْ؛
«فركبهم ذلُّ هزائمهمْ؛
«وشَغَلَهُمْ أمرُ تناحرهم.
«تحسَبهمْ جمعاً، وحشاهم شتّى معلولةْ!..
«وغدا عاليهم سافلهم...
«لا يبدو منهم غير طيوف مهزولةْ!..
«وإرادتهم باتَتْ مشلولةْ».
*** * ***
«ربّي...
«أسألك الغوثَ؛ فقد جارَ الأهلُ..
«واستمرأ أبناء العم الشكوى
«ربّي...
«هل تُجدي لسواك النّجوى؟..
«ربّي... سلّمتُ الأمر إليكْ.»

* * *

أوليس في الوصف تصويراً صادقاً لما يعانيه المواطن العربي في أقطاره الغنية والشاسعة؟..

ولا أدري أين الإيحاء بالدعوة إلى الصلح مع إسرائيل؟!!..

الحفاوة التي قوبلت بها قصيدة «يوسف يتجسد فيكم» من الأوساط الثقافية، استدعت بقائي لشهور في القاهرة، فقد كانت الندوات لمناقشة القصيدة، تقام وتعقد، فضلاً عن

الأمسيات الشعرية التي دعيت لإحيائها، في «الاسكندرية» و«طنطا» و«المنيا» وغيرها، من مدن جمهورية مصر العربية. ولعل أبرز الندوات والأمسيات التي دعيت إليها نظمتها «جمعية الأدباء» واشترك فيها أساتذة جامعيون، ونقاد وشعراء، منهم الأستاذ الدكتور محمد فتيح، والأستاذ الشاعر محمد فريد أبو سعدة، إلى جانب منظم الندوة وعريفها، الأستاذ الشاعر الدكتور يسري العزب. كذلك، الندوة التي دعت إليها «أتلييه القاهرة» للأدباء والفنانين التشكيليين، واشترك فيها كل من الأستاذ الدكتور، مدحت الجيار، والأستاذ الشاعر محمد سلطان لُطيِّف، والشاعر الدكتور يسري العزب أيضاً. وحضرها عدد من أبرز الشعراء والأدباء والنقاد في مصر، والعاملين في صحافتها. ثم أعقب ذلك دعوة تلقيتها من «قصر الثقافة» في مدينة «المنيا» قلب صعيد مصر، لإحياء أمسية شعرية، وحضور مناقشة للقصيدة، اشترك فيها عدد من النقاد الأكاديميين، تفرد فيها الأستاذ الدكتور جمال التلاوي بتحليل مضمون القصيدة. كما تناول الناقد الأستاذ عصام السنوسي عبر دراسته المكثفة «ملامح الغربة في أدب فاروق منجونة». وأعقبت المناقشة، دعوتي لإلقاء مقاطع من القصيدة.

جميع الندوات والأمسيات، لم يُشِرْ أحد فيها إلى نقطة «الدعوة إلى صلح» مع إسرائيل، ـ علماً بأنني أؤيد السلام ـ وهي النقطة التي افتعلتها جهات كويتية ولم يكن لها ما يبررها، إلا إذا أخذنا في الإعتبار «القرار» الكويتي القاضي بمقاطعتي، وعدم إفساح أي مجال أمامي في وسائل الإعلام العربية؛ للعمل أو للمشاركة بالكتابة فيها. واللافت، أن المشرفين على صفحات الأدب في الصحافة المصرية، التزم بعضهم «التعتيم» على القصيدة، وعلى جميع الأمسيات والندوات التي أحييتها أو شاركت فيها لسبب ما أزال أجهله، **باستثناء الشاعر أحمد الشهاوي الذي يشرف على صفحات الثقافة في مجلة «نصف الدنيا» فقد كتب تحت عنوان:**

«أعمال شعرية وندوات للشاعر السوري فاروق منجونة» مقالاً جاء فيه: «في إطار برنامجه الثقافي، دعا قصر الثقافة في ـ المنيا ـ الروائي والشاعر العربي السوري «فاروق منجونة» لإحياء أمسية شعرية أعد لها وقدمها الدكتور جمال التلاوي، حضر الأمسية جمهور كبير من مثقفي المنيا. وقد ألقى فاروق منجونة منتخبات من قصائده.

وتناولت الندوة الإبداع الروائي والشعري في أدب فاروق منجونة استهلها عصام السنوسي بدراسة نقدية مكثفة عن ملامح الغربة في أدب فاروق منجونة، ثم القى الدكتور جمال التلاوي مدرس النقد الأدبي في كلية آداب جامعة المنيا قسم اللغة الإنجليزية دراسة مستفيضة عن اثر الإغتراب في أدب فاروق منجونة، رواية وشعراً ونقداً وسيرة. وكان التخصيص في الدراسة يتركز على روايته الشعرية «يوسف يتجسد فيكم» وهي أول عمل إبداعي في الشعر الدرامي يصدر في مصر عن «الهيئة المصرية العامة للكتاب».

«وكان فاروق منجونة قد شارك في معرض القاهرة الدولي للكتاب لعام ١٩٩٣ بالقاء أجزاء من قصيدته الطويلة تلك؛ ورشحها الدكتور سمير سرحان لتنشرها الهيئة.

ولفاروق منجونة المقيم في لندن منذ أواسط السبعينات إسهامات ثقافية متنوعة. وقد صدرت له روايتان، ومجموعة قصصية واحدة وكتاب واحد في النقد الأدبي فضلاً عن ثلاثة كتب في السيرة الذاتية وثلاثة أعمال شعرية هي على التوالي «حبيبتي وشم في المدى» و«حبيبتي من كوكب آخر» وأخيراً «يوسف يتجسد فيكم» الذي اعتبره عدد من الشعراء والنقاد الولادة الحقيقية لفاروق منجونة شاعراً». **وفي ما قاله أحمد الشهاوي، إنصاف لي وللقصيدة.**

لكن الآخرين، التزموا الصمت والتعتيم التام، ما خلا بعض الأخبار الصغيرة، نشرت ـ

على مضض ربما، أو على إستحياء ـ في صحيفتين يوميتين أو ثلاث، الأمر الذي أشار اليه الدكتور يسري العزب في مقال نشره في صحيفة «الأحرار» متسائلاً عن أسباب هذا «التعتيم» المتعمد؛ الذي **يقترفه المشرفون على زوايا الأدب في الصحافة المصرية، ضد أديب عربي سوري، يعتبر «مصر» موئل الأدباء العرب وملاذهم، والحضن الذي يمنحهم الدفء والرعاية.**

ما جعلني ألخص ما كُتِبَ حول ما رافق صدور قصيدة «يوسف يتجسد فيكم»، هو أنها على ما تضمنته من إسقاطات تطرح وتُصوِّر معاناة جيلي والجيل السابق من أبناء الأمة العربية في البحث عن «الوطن ـ الحلم» على امتداد مساحة الضياع، والتيه، والقهر، والظلم في المجتمع العربي المعاصر، ورمى هذا كله، بأجيال عربية في بئر الإغتراب، والتشرد... والتيه عن الوطن، ورغم هذه «الآلام» التي سار وما يزال يسير على دربها «يوسف» المتجسد في كل فرد من أبناء جيلي وأبناء الجيل اللاحق، لكنها ـ أي القصيدة ـ أُعتبِرتْ دعوة صريحة من «البعض» إلى عقد «صلح» بين العرب والإسرائيليين.

ولئن كنت من مؤيدي «السلام» الذي يجب أن يقوم على أسس العدل؛ في الإقرار بالحقوق المشروعة للجميع، للتعايش معاً، إلاّ أنني لم أكن، ولن أكون من مؤيدي «التنازلات» التي تعطي الحق لإسرائيل في الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط، لأنها الأقوى بين دولها عسكرياً. وموقفي هذا، حفزني لقبول الدعوة، مستهدفاً من القيام بالزيارة، أن أستكشف مدى صدقية الإسرائيليين في دعاواهم التي يعلنونها من أجل السلام الذي ظلت ملامحه غير واضحة... وظلت صورته التي تقدمها إسرائيل، مهزوزة، وضبابية، وحائرة في الذهن.

جميع الأفكار التي دارت في ذهني، بعد أن تلقيت الدعوة للمشاركة في «مؤتمر

السلام» كانت تتمحور حول ذلك. وهذا يلغي تماماً فكرة الإذعان للمطلب الإسرائيلي في شأن «التطبيع» الثقافي معها، ذلك أن البلد الذي أنتمي بجذوري إليه، لم يوقع إتفاق سلام مع إسرائيل، فكيف يصح العمل على «تشجيع» التطبيع الثقافي معها، قبل الوصول إلى «سلام» شامل، قائم على أسس «استراتيجية» واضحة، كرّست «سورية» هدفها في السلام المزمع إقامته على تلك الأسس المحدّدة، والمبيّنة في خطابها السياسي؟..

وفي مجال الإستشارات التي عمدت اليها، بعد أن تلقيت الدعوة، حوار دار بيني وبين ديبلوماسي عربي في القاهرة، قال لي وكان قد فرغ من قراءة قصيدتي:

«لقد قسوت كثيراً في قصيدتك (يوسف يتجسد فيكم) على نفسك وعلى جيلك وعلى وطنك.. فلا تعرّض نفسك لقسوة أشد.. وأنا أعتقد أنك لن تكتشف جديداً في الموقف الإسرائيلي... في كل الأحوال، أنت حرّ في اتخاذ الخطوة التي تجدها مناسبة...».

ولقد خامرني شعور، عبّرت عنه في قصيدة «يوسف» إذ قلت في المقطع الرابع عشر منها:

«يوسف... لا تفزع؛
«إخلع عن روحكَ خوفك.. فلقد أُعْطيتَ الإذنَ بأن
تدخل... فاركعْ».
«ربِّي أدخلني مُدْخَلَ صدق».. وأذَنْ لي بعبور الباب إلى
دار المأوى.».
«فأنا منذ قُرونٍ وقرونٍ؛
«أنهض.. أو أعثر.. أو أكبوا...
«أسجدُ لإله يعرفني...
«ويعرف أن شرائع أهل القوة تحكمني

«تقتلع جذوري من أرض الوطن... وتُهجّرنُي...
«وتبيح لشذاذ الآفاق؛ وقد جاؤوا من كل الأصقاع
«سفكَ دمي...
«أو، تشريدي في كل بقاعْ».
«فأفرٌ إلى الله... وليس لديّ من الزّادِ؛ إلا التقوى.».

أما الشعور الذي خامرني، فقد كان منصباً حول التأكيد، بأن الحرية؛ هي التي تقود إلى المعرفة، وحتى لا أظل متردداً في موقفي، «الحائر» كحال «أسامة بن المنقذ» في موقفه «الحائر» من «المنازل والديار» الذي عبر عنه في إختياره لشاعر عربي البيتين التاليين:

«وقفت كأنــي من وراء زجاجـــة إلى الدار منْ فَرْطِ الصّبابة أنـظر»
«فعيناي طوراً تغرقان من البكا فأعشى، وطَوْراً يَحسِران فأبْصِرُ»

فقد اتخذت القرار بتلبية الدعوة، للوقوف على الحقيقة، وقد تسلّحتُ بإيماني في حقي بممارسة حريتي؛ التي أكدها الرئيس السوري حافظ الأسد، حقاً مشروعاً لكل مواطن؛ في كلمته التي أوردّتُ نصها في فصل من فصول القسم الأول، وجاء فيها:

«... أؤكد مجدداً على الحرية كقيمة كبرى في الحياة، وعلى أهمية أن نتابع العمل لتعزيز مناخ الحرية في بلادنا. فالإنسان الحر، هو القادر على العطاء.».

وقوله أيضاً:

«إن أحداً في بلادنا، لن يُسأل بسبب معتقده أو رأيه.. ما دام يمارس معتقده، ويُعبر عن رأيه في حدود الدستور والقانون.».

وكذلك قوله:

«إننا نبني مرحلة أريد لكل مواطن فيها دوراً، وأحمّل كل مواطن فيها مسؤولية. فالوطن بحاجة إلى جميع أبنائه... فيه فرص للجميع.. وعمل مسؤول للجميع».

ولأنني بعيد عن وطني منذ أكثر من ثلث قرن، فقد تنامى شوقي للعودة اليه، علّني آخذ فيه فرصتي في عهد «الأسد» الذي أكد أن «الوطن بحاجة إلى جميع أبنائه»... ولأن قول الرئيس الأسد، في أن أحدا لن «يُسأل، بسبب معتقده أو رأيه» خلق في وجداني قناعة بصواب الخطوة التي عزمت عليها... فقد خطوتها بملء الحرية التي أؤمن بها وبحقي في ممارستها.

* * *

القاهرة التي تمور على مدار الفصول بمهرجانات الثقافة والفنون، تمور أيضاً بمختلف الأيديولوجيات والتيارات السياسية، وتشهد المؤتمرات الحزبية على كل الأصعدة، وفي جميع الإتجاهات... والتوجهات... فتتفاعل وتنفعل، وتتأثر وتؤثر.. لكنها تظل قادرة على هضم كل شيء.. وتظل صامدة... وتظل واقفة بشموخ في وجه جميع التيارات والرياح والعواصف؛ مهما زمجرت وعتت... وتظل، مثل مآذن مساجدها وجوامعها، ومثل أبراج نواقيس المعابد والكنائس، سامقة، مشرئبة... وتظل قادرة على الإستيعاب.. والعطاء.

القاهرة...

مساء يوم من أيام آب ـ أغسطس ١٩٩٤ .

في مطلع ذلك المساء، كنت في شقتي «البحرية» في حي الدقي أستمتع بهواء عليل؛ يبدد الحر اللاهب، وأنا مستلق على أريكة، أنصتُ إلى خطاب يلقيه الرئيس حافظ الأسد، وتنقله إذاعة دمشق، رَنّ جرس التلفون، فتوقعت دعوة إلى العشاء من أحد

الأصدقاء، تخرجني من وحدتي التي كانت طيورها تحلق فوق رأسي، وأنا أحاول منعها من أن تعشش فيه... بالإصغاء إلى الراديو الصغير؛ الذي يبلغني من خلاله صوت الرئيس السوري مكرراً ومؤكداً أن «السلام هو إستراتيجية سورية وعلى الآخرين أن يستوعبوا هذه الحقيقة ويستجيبوا لمعطياتها». تناولت سماعة التلفون، وأنا أمنّي نفسي بدعوة للعشاء تخرجني من وحدتي وعزلتي. لكن توقعي خاب وتبدد، حين بلغ سمعي صوت يقول:

«مساء الخير... أنا جودت عودة، وقد جئت من القدس لأوجه إليك الدعوة للمشاركة في مؤتمر للسلام بمناسبة مرور سنة على إتفاق غزة - أريحا و...

وفيما كان مهاتفي مسترسلاً في كلامه؛ كانت علامات الإستفهام والتعجب تتراقص وتتراكم في دماغي، فتملأ رأسي بتساؤلات تتراوح بين الإستغراب، والإستنكار، والدهشة. فأنا لست مواطناً مصرياً، - وليتني كنت - ولا أقيم إقامة دائمة في مصر كمواطن عربي عنوانه ثابت في القاهرة، حتى أتبلغ دعوة، يحملها إليّ من «القدس» إلى القاهرة «مواطن فلسطيني» ليس بيني وبينه معرفة سابقة. وكان لا بد لي من طرح بعض الأسئلة، ومنها الإستفسار عن «الجهة» التي زودته برقم تلفوني وعنواني في القاهرة. وجاءني الجواب:

«لقد جاء الترشيح من الشاعرين سميح القاسم ونزيه خير».

ولئن كانت الصداقة قائمة بين «نزيه خير، وسميح القاسم» من جهة، وبيني من جهة ثانية، ولئن كانت لقاءاتنا تكررت خلال أمسيات معرض القاهرة الدولي للكتاب الشعرية... واشتركت في إحداها مع سميح القاسم، ولئن وجه إليّ كلاهما دعوات لزيارتهما في «الناصرة» حيث يقيم «القاسم» ويرأس تحرير صحيفة «كل العرب» الأسبوعية، وفي «دالية الكرمل» حيث إقامة الصديق الشاعر نزيه خير، وحملت دعوتهما طابعاً شخصياً، ووعدت بتلبيتها إذا تم الوصول إلى «سلام شامل».، لئن كان

قد حدث ذلك في لقاءاتنا، إلا أن الدعوة الجديدة، تكتسب صفة رسمية، لم أكن أتوقع أن يرشحاني للقيام بها دون أن يطرحا فكرتها عليّ، قبل أن تتخذ الخطوة لتوجيهها إلي رسمياً.

ولما استفسرت من السيد «جودت عودة» عن طبيعة الدعوة، وعن التفاصيل حول تنظيم «مؤتمر السلام» وإعداد لوائح بأسماء المرشحين لتوجيه الدعوة إليهم، أجابني قائلا:

«عندما نلتقي، وأرجو أن يتم اللقاء سريعاً، سأشرح لك كل شيء بالتفصيل... وإن شئت، سأكون في إنتظارك في فندق.... أو تكون لك الحرية في إختيار مكان اللقاء، وتحديد الوقت المناسب لك.».

ووجدتني أدعوه للقائي في مقر سكناي... واتفقنا على ان يكون الموعد مساء اليوم التالي.

في الموعد المضروب، وصل السيد جودت عودة، يرافقه شاب له ملامح أوروبية، حسبته صديقاً له، لكنه قدمه إلي بصفة ممثل، أو مندوب وزارة الخارجية الإسرائيلية؛ وقد صحبه ليوجه إلي الدعوة رسمياً.

لم يكن الشاب ذو الملامح الأوروبية القريبة من ملامح البولنديين يتكلم اللغة العربية، ولا يتقن الإنكليزية، فأخذ جودت عودة يترجم حوارنا معاً إلى اللغة العبرية مبتدئاً الحوار بقوله:

«أولاً، أحب أن أبلغك تحيات صديقيك الشاعرين نزيه خير.. وسميح القاسم.. وهما قد اختارا أن توجه الدعوة إليك؛ بصفتك أديباً من سورية. بعد أن بدأت مفاوضات السلام تأخذ منحى جدّياً بين سورية وإسرائيل، لمعرفتهما بأنك من مؤيدي السلام».

ورددت قائلاً:

«شكرا لتحية الصديقين، وأرجو حين عودتك إلى البلاد، إبلاغهما برغبتني في التحدث إليهما».

- «سأبلغهما ذلك وآمل أن يتمكنا من الإتصال بك».

ثم قلت للسيد جودت:

إنني لا أمثل هيئة رسمية في سورية، كذلك لا أمثل المثقفين السوريين ولا أي هيئة أو إتحاد للأدباء في سورية.

وعلق السيد عودة بقوله:

«إن الدعوة موجهة إليك بصفتك الشخصية».

«إذن، أنا أقبل الدعوة من حيث المبدأ على أن أسافر بجواز سفري البريطاني بدون تأشيرة دخول من السفارة الإسرائيلية ، ومن سلطات المطار حين المغادرة».

وبعد أن تحاور السيد جودت باللغة العبرية مع من جاء معه بصفته مندوباً للخارجية الإسرائيلية، التفت إلي قائلا:

- «ليس هناك ما يمنع ذلك، وسنجري غداً الإتصال لاتخاذ الإجراء».

قلت:

- «لدي نقطة أخرى أحب توضيحها».

«تفضل».

- «أريد معرفة ما إذا كان في البرنامج ترتيبات للحوار مع مسؤولين».

وكان الجواب واضحاً:

«سيكون في البرنامج لقاء مع «شمعون بيريز» وزير الخارجية، ولقاء مع رئيس الدولة، يعقبه حفل منوع يلقي فيه المدعوون من المثقفين العرب كلماتهم... ثم زيارة إلى غزة، وستجري الإتصالات لترتيب لقاء مع الرئيس ياسر عرفات، وزيارة مماثلة إلى أريحا، وقد يتم إعداد ترتيبات أخرى لزيارات وجولات، خارج إطار البرنامج الرسمي المحدد».

- «ما مدى الحرية المتاحة للتعبير عن الرأي أمام المسؤولين الإسرائيليين؟».

وتلقيت جوابا محدداً:

«لكل مدعو الحرية التامة في أن يقول ما يريد، وأن يعرض وجهة نظره في كل ما يراه ويعتقده حول «السلام» أو حول «القضية» من جميع جوانبها دون قيود تمنعه من طرح رؤيته.

- يبقى أن أعرف من سيكون مدعواً لهذا المؤتمر من المثقفين العرب».

- «لقد تم توجيه الدعوات إلى مثقفين من مصر، والسودان، والمغرب، وتونس. وتلقينا إجابات بقبول الدعوة من البعض، وننتظر إجابات من لم تصل منهم ردود بعد».

وبعد أن ذكر أسماء بعض المدعويين، سألني:

«إذا كنت ترشح لنا أسماء آخرين، فإنه يسعدني أن أقوم بتوجيه الدعوات إليهم».

ووعدته بإستطلاع آراء بعض معارفي وأصدقائي من المثقفين في مصر.

* * *

إنتهت الزيارة، وقد حددنا موعداً آخر للقاء.

خلال الأيام التالية، اتصلتُ بعدد من أصدقائي من الشعراء والأدباء في القاهرة، واستمزجت آراءهم طارحاً عليهم فكرة توجيه الدعوة إليهم للمشاركة في المؤتمر.. مثلما استشرت عدداً آخر في فكرة الزيارة. ولقد ذكرت في فصل سابق، ما تلقيته من آراء. أما المثقفون، فقد جاءت ردود بعضهم بالموافقة على قبول الدعوة، وكانت ردود البعض الآخر، رافضة الدخول في حوار حول الموضوع جملة وتفصيلاً. بينما كان جواب فئة ثالثة، بأن الوقت غير مناسب. والقيام بالزيارة سابق لأوانه، رغم أن مفاوضات السلام آخذة في التقدم سياسياً مع الأطراف العربية المعنية بالقضية. ولا أحب ذكر الأسماء حتى أجنب الجميع ما قد يتعرضون له، مما تعرض له الكاتب

المسرحي علي سالم من هجوم وقذف، من جهات صحفية ينتمي بعضها إلى أحزاب ترفع شعارات وطنية مطاطة، ولا تعمل على تحقيقها!!

أخذت أقلّب الفكرة بيني وبين نفسي.

كان ما يزال أمامي ثلاثة أيام أو أربعة، لأحزم الأمر، واتخذ قراراً بقبول الدعوة، أو بالإعتذار.

ووجدتني حائراً، يستغرقني التفكير والمجاهدة في الوصول إلى قرار موضوعي لا أندم على إتخاذه. وفجأة وجدت نفسي أنفجر ضاحكاً فقد قفزت إلى ذهني وأنا مستغرق في التفكير بحثاً عن منفذ يخرجني من حيرتي، **حكاية سمعتها من الصديق الأديب الكبير الأستاذ «ياسر هواري» رواها في أمسية ضمّتنا من أماسي «الرياض» خلال أيام مهرجان «الجنادرية»، ولم أعد أذكر المناسبة التي دعته إلى روايتها. تقول الحكاية، ان سيدة مضت لزيارة طبيبها، إذ راودها «شك» في أنها حامل، وقالت له: «أظن يا دكتور بأني حامل قليلاً». فنظر إليها الطبيب للحظة؛ ثم رد عليها: «لا يمكن يا سيدتي أن تكوني «حامل» قليلاً أو كثيراً.. هناك أحد أمرين، إما أنك حامل، أو لا تكوني حاملاً».**

وبعد أن تخافتت قهقهتي، وتلاشى ضحكي، أدركت لمَ قفزتْ هذه الحكاية إلى ذهني، فأنا كعربي؛ رافق مراحل القضية الفلسطينية منذ قرار تقسيمها عام ١٩٤٧، إلى اليوم الذي أطلقت فيه إسرائيل قمرها الإصطناعي «أفق ٣» بهدف «مسح» الأرض العربية من الفضاء، والتقاط المعلومات، ونحن لا نسمع إلا بيانات تستنكر ما تقوم به إسرائيل، واحتجاجات تندد، وتحذر، وتنذر... وترتفع الأصوات والدعوات لوضع حد لما تقوم به... ثم تنتهي موجات الإحتجاج، ورسائل التنديد إلى ملفاتها في هيئة الأمم المتحدة، وفي أدراج مجلس الأمن.. وتمضي الأيام، فيتبدد صدى ذلك كله ويتلاشى من

قاعات وكواليس المنظمات، والهيئات وجميع المحافل الدولية، ولا يمضي زمن قصير يتراوح بين أسبوع، أو شهر على الأكثر، حتى نسمع عبر الإذاعات العربية، ونقرأ في الصحف والمجلات العربية التي تعجز جميع الآلات الحاسبة عن إحصاء عددها، بأن إسرائيل قامت بإعتداء آخر على الفلسطينيين، أو إخترقت خطوط وقف النار في الأراضي العربية المحتلة، أو شنت هجوماً على قواعد الفدائيين [الإرهابيين] في جنوب لبنان، أو قامت بحصار مدينة بيروت، ولا أحد يحرك ساكناً من «تطوان إلى بغدان» عبوراً إلى العواصم العربية الأخرى من رؤوس جبال الأوراس إلى رؤوس جبال مسقط وعمان.. مروراً بسهول الشام وباديتها، وانتهاء بواحات النفط الخضراء في الربع الخالي أو المليان، إلى أم القيوين وعجمان!.

عبر نحو خمسين عاماً هي عمر القضية الفلسطينية، وإسرائيل لا تكف عن إعتداءاتها المتكررة كل يوم.. كل أسبوع.. كل شهر، وعلى مدار فصول السنة. وتبني المفاعلات النووية، وتصنع القنابل الذرية، وتطلق الأقمار التجسسية، والعرب في شغل شاغل عن ذلك كله، في إعداد وتنفيذ الإنقلابات العسكرية، وفي التخطيط لإغتيال أحد المسؤولين من الوزراء، أو القادة، أو الزعماء، أو إحدى الشخصيات الوطنية، الدينية، الفنية، الثقافية، أو ينشغلون في طبخ مؤامرة، بعد وجبة بامية، أو محشي، أو ملوخية!!...

خمسون عاماً والعرب يرزحون تحت شبح إسرائيل والرعب منها، وكوابيس المؤامرات الداخلية والخارجية والدولية التي تحاك ضدهم.

خمسون عاماً... يكرّون ويفرّون، «والحرب كرّ وفرّ» وشغلهم الشاغل عن إسرائيل، توجيه أقذع الشتائم إلى بعضهم بعضاً، أفراداً وجماعات ويطلقون نعوت العمالة والخيانة على بعضهم بعضاً... ويأكلون لحوم بعضهم بعضاً.. فصدق فيهم قول الشاعر:

«قومي هُمُو قتلوا أميم أخي فـإذا رميتُ يُصيبني سهمي»

أو ما قاله في قصيدته «إخوة يوسف» الشاعر لؤي حقي:

«عَرَبٌ تَهِرّ كلاب نَخْـوتِهِمْ في خطوتي... ويُغلّني العهد»

«صيدٌ، غطاريفٌ، ذوو رَهَجٍ وعلى دمي أسيافُـهم... رِفْـدُ»

خمسون عاماً...

وحال العرب نفس الحال، وبالهم نفس البال.. ولا تغيير أو تبديل في نغمة الموّال!...

خمسون عاماً... والعرب يقرأون ويتابعون ما تنجزه إسرائيل، وما تحققه من تطور وتقدم في حقول الزراعة، وفي ميادين الصناعة والتصنيع الحربي، وفي مجالات الذرة والفضاء.. وهي الدولة الفقيرة الموارد، تعتمد في إقامة اقتصادها على ما يغدقه يهود العالم من تبرعات لا ينضب معينها، وعلى معونات ومساعدات تنهمر عليها من حليفاتها، فتبلغ ما بلغته من تفوق قبل أن تبلغ الخمسين.

خمسون عاماً، ومال العرب، وثرواتهم الطبيعية تجري أنهاراً، وتصب في خزائن إسرائيل عبر حلفائها.. ويتساءلون مع شاعرهم عمر أبو ريشة:

«أمتي، هل لك بين الأمم منـبرٌ للسـيف أو للقلـم»

«ألإسرائيل تعلو رايـة في حمى المهد وظل الحرم»

خمسون عاماً...

«وأنا في التيه الملعون...

«أركب صهوة جرحي المتفصد عرقاً أو ذلاً.. لا أدري!..

«يغشاني كابوس حزيران الملتاث،

«أبحث عن دربي..

«عن نقطة ماء أتوضأ منها،

«أغسل عرق الهرب، وذُلّ الخيبة

«فوق الأرض الممتدة ما بين القمر ووجه الشمس»

خمسون عاماً ... انطبعت في الذاكرة صورة اليهودي البشعة؛ كما رسمتها في الأذهان على مدى السنوات الخمسين، ريشة المعلمين، والمدرسين، والمنظرين، فصرنا نخاف ونرتعب بمجرد ذكر اليهودي، ونغمض عيوننا عن رؤية «سحنته» بقبعته السوداء الكالحة، ولحيته الكثة بلا تهذيب ولا تشذيب، وأنفه المعقوف مثل خنجر يماني، أو بحريني، أو عماني... فيزداد رعبنا من صورته البشعة، ويتضاعف خوفنا.. وتصيبنا الرجفة، ويعرونا الإرتعاد، مثلما يعرو الأرانب البيض، والعصافير الزرق، خمسون عاماً، ولا نعرف كيف نواجه هذا اليهودي «البعبع»، ولا كيف نتجنّب شرّه، ونتفادى خطره.

تلك كانت «حدود» فهمنا ومعرفتنا لحقيقة اليهودي، كما صوروها لنا... غول.. بعبع.. عنقاء... نسمع عنها ولا نراها.. ولا نعرف كيف نكتشفها.

ولما كبرنا... اكتشفنا اننا لا نعرف شيئاً عن حقيقة هذا اليهودي يمكننا أن نعتدّ به، فنتعلم كيف نتصرف معه. واكتشفنا أيضاً أن **«استعدادنا لفهم حقائق المجتمع الإسرائيلي ضئيل لدرجة تجعل من فرص معرفة العدو، فرصاً غير ممارسة على الأرجح» حسب نظرة الدكتور عزيز العظمة في كتاب «العرب والبرابرة ـ المسلمون والحضارات الأخرى»..** لأننا شغلنا، أو أنهم شغلونا بالتعلم والإقتناع، بأن «العرب أولو نجدة ووفاء وبلاء.. وخطابة وبيان» حسب ما نُسبَ إلى «ابن المقفع» من قول، أورد «أبو حيان التوحيدي» ما يماثله أو يشابهه في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» من مختارات الكيلاني.. **لكن عبد الله القصيمي يؤكد، أن العرب ليسو سوى ظاهرة صوتية، وأنهم وضعوا «كبرياء التاريخ في مأزق»** لأنهم تنكروا له، وخالفوا ـ بأفعالهم ـ ما سجله لهم من بطولات، وأمجاد، وبلاء... فابتلوا ببعضهم، حتى باتوا في «مؤخرة الأمم والشعوب»، حسب تعبير الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز، بعد أن كانوا «مفخرة للأمم وفي مقدمة

الشعوب التي صنعت أعظم الحضارات» حسب ما قالته كتب التاريخ عنهم. ولئن كان في رأي «آنتوني ناتنغ» مؤلف كتاب «العرب»، أن الناس يصنعون التاريخ اكثر مما يصنع التاريخ الناس؛ فإن من الإنصاف القول، بأن العصر الذي كان الناس فيه يصنعون التاريخ، لم يمتد بالعرب إلى هذا العصر الإسرائيلي، الذي بات الناس فيه لا يصنعون التاريخ، بل يكتبونه حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وأمزجتهم.. ومصالحهم الفردية. ولا نملك حيال ذلك الا الإعتذار من ذلك السياسي البريطاني «انتوني ناتنغ» الذي اشتهر عنه صدقه وصلابته، في الوقوف بجانب الحق، والحرية، الأمر الذي كلّفه منصبه كوزير دولة للشؤون الخارجية في وزارة انتوني إيدن بعد الإعتداء الثلاثي عام ١٩٥٦ على مصر.

ويبدو أن الشاعر نزار قباني، هو الوحيد من بين الشعراء والمثقفين العرب، الذين أدركوا الفارق بين من يصنعون التاريخ وبين من يدخلون التاريخ عنوة عن شعوبهم. فشغل نفسه على مدى خمسين عاماً بكتابة شعر الغزل، وتساءل «متى يعلنون وفاة العرب» بعد كل ما أصابه من الإحباط، والإكتئاب، بسبب النوازل التي نزلت بالعرب، وهدّت كواهلهم.

وبالعودة إلى رواية ياسر هواري عن المرأة التي خامرها الشك بأنها «حامل قليلا» فأكد لها الطبيب أن «الحبل» لا يمكن أن يكون قليلاً أو كثيراً، فإما هي «حبلى» أو غير «حبلى»!... بهذه العودة التي تتشابه «كثيراً أو قليلاً» مع حيرة تركيا خلال الحرب العالمية الثانية في أن تبقى على الحياد، أو أن تدخل الحرب مع الروس والحلفاء ضد الألمان، أو مع ألمانيا النازية ودول المحور، ضد روسيا والحلفاء... وظلت حائرة في أمرها لا تعرف كيف تتخذ موقفاً ثابتاً وواضحاً، تركها بعد الحرب، تتأرجح بين الشرق والغرب، حتى انتهى بها الأمر إلى ما هي عليه الآن من وضع معروف لا يجهله

أحـد. على العكس مـن إسـرائيل التي عـرفت كيف تخطـو في الإتجاه الصـحيح! وعلى عكس العرب الذين لم يعرفـوا حتى إلى وقت قـصيـر، سبق البدء بمفاوضـات السـلام، ما إذا كانوا في حـالة «حـمل» قليل أو كثيـر... أو أنهم فـي حـالة مـخـاض، أو أنهم مـا يزالون مـحـافظين على عذريتهم.

* * *

لبثت أياماً وأنا حائرا...

هل أقبل الدعوة وأقوم بالزيارة؟..

أم أعتذر عن قبولها وأعتكف في البيت؟...

أم أنحـاز إلى الفريـق الثـالث القـائل بأن الوقت غير مـناسب، والقيام بالزيارة قبل انتهاء المفـاوضـات وعدم وضـوح الرؤية من النتائج، يعتبر سابقاً لأوانه؟...

يعني، يجب تحـديد الموقف على ضـوء المصلحـة الخـاصـة، يعني إلتزام الصـمت قولاً وعملاً، حـتى يتبين الخـيط الأبيض من الخيط الأسـود من الفـجـر، عندئذ، أصـوم، أو أفطر. يعنـي أن لا يكون لي مـوقف واضـح مما يـجـري منذ خـمـسين عـامـاً، ولا رأي في مـجـريات الأحـداث والمتـغيـرات التي يتـعـرض لهـا الوطن والأمـة. يعني أن أخـتبئ وأتوارى خلف إصـبـعـي. فـلا أكـتـرث... ولا أخـرج مـن حـفـرة الجـهـل بحـقـائق الأشيـاء، وأظل عدواً لما أجهل.. وأمشي وراء حملة الشعارات.

لبثت أيامـاً أقلّب الأمر على جميع الوجوه، واستعرض الأمثلة والحكايات والمرويات، أريد الوصـول إلى قناعة واحدة، أذهب، أو لا أذهب؟.. أكون أو لا أكون؟.. أخـرج من مجتمع «أرض النفـاق» التي رفض الأديب الراحل يوسف السباعي العيش بين أهلها.

فكلفه رفضه حياته؛ إذ، قضى مغتالاً على أرض «قبرص».. مثلما قضى ناجي العلي مغتالاً على أرض لندن، ولكل منهما رأي يتغاير مع رأي الآخر.

إني أؤمن مع المؤمنين بأن المثقف والأديب، والكاتب الأصيل، يكون صادقاً مع نفسه حين يناضل من أجل بلوغ الحقيقة وهو في سبيل المعرفة قد يدفع حياته ثمناً. ومن أجل كلمة صادقة يعلنها، قد يخسر المال والبنين والأصدقاء دفعة واحدة، ولا يرضى أن يلتحق بقوافل المزمّرين والمطبلين والمنافقين، حتى لو خسر الدنيا.

إن التصادم بين فلسفة الكاتب والمثقف الأصيل وقناعاته، وتصديه لما لا يرضاه في مجتمعه، هو المعيار الذي يفصل بين الزيف والأصالة.

فلقد قرأت عن الروائي والشاعر البريطاني «توماس هاردي» في يوم ما، أنه تمكن من إجبار المجتمع في بريطانيا على مواجهة الحقائق، بقول ما لا يحب المجتمع أن يقال، وكان يعرض في رواياته ما لا يرغب المجتمع رؤيته. وبسبب ذلك تعرض لمضايقات كثيرة، غضب عليه الناس، ورفضته زوجته، وشن عليه النقاد معارك شرسة، وأحرقت أعماله الروائية... وبلغ الأمر بالناشرين أن امتنعوا عن نشر كتبه، التي يُضمّنها رفضه النفاق الإجتماعي، ويكشف الحقائق التي يجبن المجتمع عن مواجهتها... لكنه مكث، وصمد، وبقي على إخلاصه لموقفه. وقد بلغ الثمانين حولاً حين فرغ من كتابة روايته الشعرية «العصور» التي أعتبرت من أهم الملاحم الشعرية في العصر الحديث، وبعد انتشارها بين أفراد مجتمعه، تلقى رسالة وقّعها قراء وكُتّاب ونقاد، يعربون فيها عن عظيم تقديرهم له معترفين بأن في رواياته وأشعاره موقفاً يستند على معرفته العميقة بالنفس البشرية، ونظرة تُعلّمُ الشجاعة، لأنه صوّرَ في إبداعه الشعري والروائي سمو الروح الإنسانية التي تتغذى بالتراث فتزداد قوة تمكنها من التصدي للهزائم.

وأسترجع قبل أن أتمكن من كسر طوق الحيرة؛ ما كتبه «عصام الريس»

بعنوان «تأشيرة إنسحاب من صحراء الخليج العربي» قوله، **بأن الجـرح الذي «عـاناه فـاروق منجـونة، تعـبيـر عن جـراح الآخـرين الذين لا يملكون موهبة التعبير بالكتـابة، فـجاء منجونة ليقدم لنا الفعل ورد الفعل.. ليحدثنا عن الأخلاق العربية النبيلة التي لم يعد لها وجود... ليحدثنا عن غياب الاصالة والفروسية اللتين اشتهر بهما العربي. إنّ في كتابه ـ قطر بنت آل ثاني ـ تجربة مُرة، سجل نصفها، الأقل مرارة. وبقي أن يتجرأ أكثر، ويضع دمه على كفه، ويسجل النصف الأكثر مرارة. يجب أن يكون كتاب فاروق منجونة ـ قطر بنت آل ثاني ـ ومن قبله كتاب «أنا كـويتي» اللذين صـدرا في سلسلة كتبه التي تحمل عنوان «تـأشيرة انسحاب...» كتابَيّ الخطوة الأولى، تعقبها خطوات من المثقفين العرب الذين رحلوا عن تلك الأصـقـاع الرملية، وفـي قلوبهم ألف غـصـة تكاد تؤدي إلى الإختناق»... ولقد أدتْ فعلاً إلى ما هو أكثر من الإختناق.**

أوليس في مقاطعة بني قومك من عرب الخليج، ومحاصرتهم إياك، ومنعك من السعي في الأرض وفي مناكب الحياة، ما هو أشد قسوة ومضاضة من الإختناق؟..

«وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضةً   على المرء من وقع الحسام المهنّد»

فماذا أنت فاعل بنفسك أيها الحائر؟

* * *

أيها الحائر، إنهض، واستوِ...

نهضت واستويت منتصباً على ساقيّ طفلٍ يحبو إلى الستين. مددت يدي إلى رف الكتب. تناولت كتاباً... كتابين.. ثلاثة.. أخذت أقلّب الصفحات وأقرأ.

في روايته «الأرجوحة» قال محمد الماغوط الشاعر السوري: «لكي تكون جراحكَ

واضحة لا لبس فيها ولا إبهام، عليك أن تدفع جزيّة الدّمار». وفي ديوانه «ليكون لكم فيّ سلام» قصيدة للشاعر الفلسطيني شفيق حبيب مطلعها:

«يا مصرُ.. جئتك مثقلاً بهمومي ومُضيِّعَ العنـوان والأسمـاء»

وختامها:

«ظمئٌ أنا للحـق كيـف أنالـه والعُرْبُ ألفُ فمٍ.. وألف رداءِ»

وفي قصيدته «مأساة عبد الصبور» يُعرّي نزيه خير الحقيقة، ويزيل البراقع:

«الناس في بلادي جارحون كالصقور/ غناؤهم كرجفة الشتاء في ذؤابة المطر/ وضحكهم يئز كاللهيب في الحطب/ خطاهم تكاد أن تسوخ في التراب/ ويقتلون... يسرقون/ يشربون يجأشون/ لكنهم بشر/ وطيبون حين يملكون قبضتَيْ نقود/ ومؤمنون بالقدر».. وطيب الله ثرى صلاح عبد الصبور.

أما في مجموعة قصائده «أخذة الأميرة يبوس» التي أهدانيها الشاعر سميح القاسم بعد لقائنا معاً في أمسية شعرية، من أمسيات معرض القاهرة للكتاب، بكلمة تقول:

«الى الحبيب فاروق منجونة، صديقاً طيباً، وزميلاً في الكلمة والوجع».

فقد وقعت على قصيدة «البيان الأخير»، وتوقفت عند مقطع جاء فيه:

«إذن فليخرج القتلى إلى الشوارع/ وليخرج الآباء والأبناء.. للشوارع/ ولتخرج الأقلام والدفاتر البيضاء/ والأصابع/... ولتخرج الأحلام من كابوسها/ ولتخرج الألفاظ من قاموسها/ ولتخرج النكبة والنكسة للشوارع».

وبعدما أعياني التفكير.. هدأت وطويت صفحات الكتب، وغفوت. وكان قراري قد تمت صياغته.

مع ضحى اليوم التالي، تلقيت إتصالاً من السيد جودت عودة يستفسرني عما إذا

كنت وصلت إلى قرار، وعما إذا كنت سأرشح أحداً، فأجبته:

«أما عن نفسي فإنني قبلت الدعوة.. أما عن الزملاء، فلقد تلقيت من ثلاثة، إجابات بالموافقة، وإليك الأسماء وأرقام التلفونات، وما عليك إلا أن تبادر إلى الإتصال بهم [وأمتنع عن ذكر الأسماء حتى لا أتعرّض للمزايدات]. وبعدما أمليت الأسماء وأرقام الهواتف، قال السيد جودت:

«لقد أجريت الإتصالات اللازمة، ولن توضع تأشيرة الدخول والمغادرة على جواز سفرك. وكنت أنتظر موقفك النهائي لأشرع بتنفيذ ترتيبات السفر».

وتحدد بذلك موعد السفر ليلة الحادي عشر من أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٤؛ وكان ما يزال أمامي يومان، أو ثلاثة، وهي مساحة زمنية تكفي لإعداد بعض الأوراق والمراجع، واختيار الكتب التي قد أحتاج إليها خلال أيام الزيارة. كذلك فإن الأيام القليلة المتبقية قبل يوم السفر، تكفي للقاء بعض الأصدقاء من المثقفين، الذين لم تتح لي الفرصة لإطلاعهم على ما عزمت عليه، وكان آخر من ألتقيت، الشاعر الدكتور «محمد أبو دومة» الذي تمنى لي التوفيق، وحمّلني رسالة إلى بعض أصدقائنا المشتركين من الشعراء الفلسطينيين.

7

إحساس غير مألوف يعتريني؛ كلما كنت على أهبة القيام برحلة، وكانت واسطة النقل الطائرة. وحتى هذه اللحظة، لا أعلم ما إذا كان يعتريني من إحساس، هو شعور الخوف من السفر بالطائرة، أم التهيب من المجهول الذي أكون على وشك اكتشافه في المكان الذي أتوجه إليه؟

ودائما ما أكون في حالة قلق وتوتر قبل موعد السفر بيومين أو ثلاثة، ثم يتطور هذا الشعور إلى أرق، فلا أتمكن من النوم إطلاقاً ليلة السفر إذا كان موعد الإقلاع في ساعة مبكّرة، أما إذا كانت ساعة الإقلاع خلال النهار، أو قبيل الغروب، فإن النوم لا يعرف سبيلاً إلى عينيّ؛ لا في الليلة السابقة، ولا خلال ساعات النهار التي تسبق موعد الذهاب إلى المطار.

هكذا دائماً في جميع ما قمت به من رحلات، على متون الطائرات العربية أو العالمية.. وإلى أي جهة من أقطار العالم. ولقد تضاعف هذا الإحساس حتى استولى عليّ، منذ اللحظة التي تسلمت بطاقة السفر، وامتزج القلق بالخوف، مع الأرق الذي أعياني على مدى الأيام التي سبقت موعد التوجه إلى المطار، فضلاً عن الشعور بالرهبة من ذنب أقترفه، أو على وشك أن أقترفه. ذلك التهيب الغريب الذي استولى عليّ منذ قبلت الدعوة للسفر إلى... إسرائيل، التي أُصرُّ على أنها «فلسطين » المحتلة.

كان موعد إقلاع الطائرة التي ستحملنا من مطار القاهرة إلى مطار «بن غوريون» في تل أبيب، قبيل منتصف الليل، وهذا الموعد يتطلب الوصول إلى المطار قبل ثلاث

ساعات على الأقل... لإنجاز الإجراءات الأمنية التي تطبقها «السلطات» المسؤولة عن الأمن في الطائرات الإسرائيلية. هذا ما أُخبرتُ به حين إستلامي بطاقة السفر.

والمرة الأولى في تعاملي مع شركات الطيران، أتعرض لمثل هذه الإجراءات التي لم تواجهني إطلاقاً على مدى أكثر من ثلاثين عاماً قمت خلالها برحلات إلى مختلف أنحاء العالم.

وعلى الرغم من أنني مدعو دعوة رسمية، والمفروض أن المسؤولين عن القيام بإجراءات التفتيش من «العناصر» المسؤولة عن «أمن» الطائرة الإسرائيلية يعرفون كل شيء عن كل مسافر، إلا أن الإستجواب؛ الذي تعرضت له حول محتويات حقيبتي، وعمّن قام بإعدادها، وما إذا كنت واثقاً بأنني قمت بنفسي بهذه المهمة.. وهل قام أحد بفتحها بعدما أغلقتُها بيدي. وهل كلّفني أحد بحمل رسالة، أو شيء ما إلى أحد ما في إسرائيل... وهل أنا واثق من عدم وجود أشياء تعتبر ممنوعة في حقيبتي، كالأسلحة أو أي أداة صلبة يمكن إعتبارها سلاحاً... أو مادة من المواد القابلة للإشتعال؟.. أو..

هذا الإستجواب الدقيق الذي لم أتعرض له - على الإطلاق - من قبل، كاد يخرجني عن طوري، ويدفعني إلى التراجع عن القيام بالزيارة، لولا أن الفتاة الإسرائيلية التي كانت تُجري الإستجواب، إختتمت أسئلتها بالقول: «إننا حريصون على حياة المسافرين على طائراتنا.. وأتمنى لك رحلة سعيدة». فسألتها: «ألهذه الدرجة تفتقدون الشعور بالأمان فلا تثقون بأحد؟». لم تجب عن سؤالي، واكتفت بابتسامة بدت لي باهتة لا معنى لها!..

بعد أكثر من ثلاث ساعات من الإنتظار المضني، دعينا للتوجه إلى الطائرة. كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل بحوالي نصف ساعة.

لم ألمح بين وجوه المسافرين وجهاً مألوفاً، أو وجه أحد أعرفه!.. فهل هذا يعني أنني

الوحيد المدعو؟.. وأين الأصدقاء من الأدباء والشعراء المصريين الذين طلبوا مني أن أرشحهم، وأبدوا موافقتهم على قبول الدعوة - حسب ما أعلمني السيد جودت عودة - بعد إتصاله بهم؟.. أتراهم تراجعوا... وغيّروا مواقفهم؟.. أتراني الوحيد الذي وقع في «الفخ» وتم اصطياده بحبائل الشبكة الإسرائيلية؟!.. أم تراني سقطت في أحبولة «الدعوة» الإسرائيلية إلى العشاء الأخير؟!.

تلك الأسئلة وسواها تزاحمت في ذهني وتواترت، حتى ثَقُلَ تكاثرها وتراكمها، وخيل لي أن رقبتي لم تعد قادرة على احتمال وزن رأسي، إلى أن ابتلعني فم الطائرة، وقادتني المضيفة إلى مقعدي في مقدمة جوف الطائرة؛ فجلست، وحاولت التخفف من وزن رأسي بالاسترخاء.

امتلأت الطائرة واكتظ جوفها. كنت قد احتللت مقعدي الموازي لنافذة الجانب الأيسر، وكان عن يميني مقعدان لا يزالان خاليين. تلفت مستطلعاً الوجوه القريبة مني، فلم أعرف أحداً. لويت عنقي إلى الخلف متفحصاً الوجوه التي بلغها امتداد نظري، فلم أكتشف وجهاً واحداً أعرفه. وقبل دقائق من إغلاق باب الطائرة، لمحت قامة «علي سالم»؛ تتمسك يمناه بكتاب، وعلى كتفه حقيبة جلدية، تتقدمه المضيفة وتقوده ليجلس على واحد من المقعدين المتجاورين عن يميني، زال بعض القلق... وأحسست ببعض الراحة، وأنا أطلق نفساً عميقاً وطويلاً، زال بإطلاقه عن صدري،ضيق جثم فوق ضلوعي.. فقد أنِست برؤية علي سالم.. واستبشرت خيراً. وبعد استقراره في مقعده، وكانت الطائرة قد امتلأت عن آخرها، ولم يبق سوى مقعد ظل خالياً متلاحماً ومتلاصقاً بمقعد علي سالم، أُغلق الباب، وأعلن عن لحظة الإقلاع.

كانت إحدى المضيفات تقف في الصدر من الطائرة؛ على مبعدة مني. سألتها إن كان بإمكاني الإنتقال إلى المقعد الفارغ لمجاورة صديقي، فقالت إن ذلك ممكن، ولكن بعد أن تستوي الطائرة في خط طيرانها.

تعرفت بعلي سالم للمرة الأولى قبل نحو عامين في إحدى ندوات «نجيب محفوظ» الأسبوعية، التي يلتئم فيها عقد محبيه ومريديه، وتدور حول الموائد المصفوفة، والمتلاصقة؛ والتي ينزوي نجيب محفوظ خلف إحداها إلى جانب الجدار من كازينو قصر النيل، حوارات تتناول مختلف شؤون الأدب والثقافة، أو تستعرض شأناً من شؤون الحياة السياسية، أو حدثاً جارياً من الأحداث المحلية أو العربية أو الدولية.

كانت تلك، هي المرة الأولى التي ألتقي فيها علي سالم.. ويقوم بيننا تعارف شخصي، ولم تجمعنا ثانية مناسبة أخرى. لم أكن أعرف عنه الكثير سوى أنه كاتب مسرحي، وأن أشهر أعماله المسرحية «مدرسة المشاغبين» لكنني لم أقرأ أي عمل من أعماله المكتوبة باللغة العامية... وذلك ليس لنقص في العمل نفسه، أو في الكاتب. بل لأنني لا أستسيغ مطالعة أي كتاب مكتوب بالعامية. ولما أهداني كتابه «أيام الضحك والنكد» الصادر عام ١٩٩٢، ترددت في مطالعته، حتى إذا ما قرأت كلمة الناشر على الغلاف، أقبلت على مضمونه، فاكتشفت من خلال «الحكايات» لا أقول المقالات التي صاغها بأسلوب فكه ساخر، ما يثير الضحك بقدر ما يبعث على الألم والحزن والأسى، اكتشفت ـ من خلال ما قرأت ـ أنني أغوص في أعماق مثقف واعٍ عميق الثقافة، واسع الإطلاع، غزير المعرفة بالتراث العربي، الشعبي منه بشكل خاص، فضلاً عن معرفة جيدة بثقافات وآداب الشعوب والأمم الأخرى، وعلى صلة واعية بالآداب العالمية وبالفكر الإنساني عامة.

طبعاً، لست بصدد تقويم علي سالم كاتباً ومفكراً؛ وأنا أتصدى في حديثي لأعتى رحلة أقوم بها في حياتي. كما أنني لست بصدد تعريف قرائه به،، فهم أعرف به مني، وفي مقدمتهم الذين شاهدوا مسرحياته التي تربو على العشرين، بينما لم تتح لي سوى

مشاهدة «مدرسة المشاغبين» على شاشة التلفزيون، لكنني الآن بصدد الإقتراب من شخصية علي سالم، الإنسان، من خلال الإحتكاك المباشر به، على مدى الأيام التي ستجمعنا معاً مناسبة الزيارة.

استوت الطائرة بعد إقلاعها وكنت ما أزال أتلو آيات قصاراً من القرآن الكريم؛ اختتمتها بآية الكرسي، شملني الهدوء، وحلّت في نفسي السكينة، واطمأن قلبي بذكر الله.

ودّعت القاهرة وأنا ألقي عليها ـ عبر النافذة ـ نظراتي الأخيرة؛ والطائرة تمضي في مسارها. بعد دقائق، أقبلت المضيفة تدعوني للإنتقال إلى المقعد المجاور لمقعد علي سالم ـ إن شئت ـ وكنت أترقب ذلك بلهفة.. غادرت مقعدي، واقتربت، ولما تنبّه «علي» لدنوّي منه [وكنت أظن أنه لن يتذكرني] ألفيته يرحب بي ـ بعد أن أستأذنته بالجلوس ـ فازددت بترحيبه ألفة وسكينة وإطمئناناً.

كان علي سالم قد أصدر قبل فترة وجيزة كتابه «رحلة إلى إسرائيل» روى فيه ظروف وملابسات قيامه برحلته في سيارته الخاصة، وقد أتاحت له فُرَصاً للتعرف على الحياة في إسرائيل عبر تنقّله بحرية في مدن عديدة، دون التقيد ببرنامج خاص. وقد أثار كتابه زوبعة بين أوساط المثقفين، ودَفَعَ البعض منهم إلى شن حملة صحفية عليه تندد بخطوته، التي أُعتبِرَتْ «خروجاً» عن الموقف الذي يتخذه المثقفون برفضهم «التطبيع» الثقافي مع إسرائيل. وقد أتيح لعلي سالم مجال الرد على جميع مناوئي ما أقدم عليه، وأفسَحَتْ له الصحافة المصرية ـ بجرائدها ومجلاتها ـ الصفحات، ليرد، ويعلق، وينتقد منتقديه، ويدافع عن وجهة نظره، ويدعم رأيه بحجج وبراهين، أقنعت البعض، ولم يقبل بها البعض الآخر. لكن «الحملة» الهجومية عليه، والردود التي قام علي سالم بنشرها؛ برهنت على سلامة الخط الديموقراطي في نظام الحكم؛ الذي أرسى قواعده الرئيس حسني مبارك.. فضمن لكل صاحب رأي حرية التعبير عن رأيه، مثلما صان حق

أصحاب الرأي الآخر، وضمن لهم الحرية في القول والكتابة، حتى لو تعارضت آراؤهم مع رأي «النظام». فَدَلّت «الحملة» عن رسوخ ظاهرة صحية في نظام مصر الديموقراطي، رغم ما اتسمت به تلك الحملة من عنف القول، وشراسة العدوان، لدرجة أن بعض من شاركوا فيها، وَصَمُوا علي سالم بصفات شنيعة، منها الخيانة، والعمالة، والتبعية، وغير ذلك من الإتهامات التي لا تستند إلى أدلة، ولا تفضي في دلالاتها إلاّ إلى أنها غير موضوعية، ولا تعكس سلوكاً حضارياً يفرضه الخطاب الثقافي؛ ولم تكن متكافئة، ذلك أن **علي سالم التزم اللياقة والتهذيب في ردوده، التي كشفت عن سعة صدر، ومنهج أدبي يتصف ببعد إنساني متحضر.. بينما بدا مهاجموه في خطابهم ميّالين إلى الإستفزاز.. والعدوانية غير المبررة، حتى لو اعتبروه في قيامه برحلته، مارقاً، أو خارجاً عن الصف.**

تداعت هذه الخواطر في ذهني بعد أن إستقر مقامي في جلوسي على مقعدي بجوار علي سالم، وتبادرت في ذاكرتي آراء عدد من المثقفين والمفكرين المصريين في الحرية والديموقراطية، ومنها ما قاله الأستاذ لطفي الخولي، وردده في أكثر من مناسبة، وسجله في بعض مقالاته، من أن لكل مواطن مصري حسب موقعه السياسي والثقافي والإجتماعي أسلوبه في النقد الذي يصنفه، ويحدد قيمته ومستواه. وأن هذا الحق في اختيار الأسلوب، قد يفرز بعض المعاناة التي يمكن أن تجعلنا في حالة «أسميها بحالة التربص التي تفضي إلى التخندق السياسي، للتصادم في ما بينها مصادمات عنيفة. فيعمد فريق إلى قصف فريق آخر بقسوة، دون الأخذ في الإعتبار، أن هذا النوع الثقيل من القصف، قد يؤدي إلى اشعال النار بين المتقاصفين»، وقد تصل ألسنة اللهب إلى شرائح المجتمع كافة، وبالتالي تصيب شرارتها المواطنين والوطن والدولة أيضاً.

وفي الحملة الهجومية على «علي سالم» لم يُفْصَل بين المشاعر

الشخصية وبين المصلحة الوطنية العامة. وقد استرعى اهتمامي قول قرأته في كتاب «مبارك والمثقفون» سجله المفكر الديبلوماسي الدكتور «مصطفى الفقي» يقول ما معناه، بأن بعض ما نعاني منه حين نتصدى لمشكلاتنا السياسية، هو سهولة الإستدراج الذي يقود إلى السقوط في حفرة التنازع بين الفعل ورد الفعل، ما يجعلنا كالفريسة، أُحكم حولها طوق المهاجمين.

ولقد وجدتني أستعيد مضمون ما طرحه الدكتور مصطفى الفقي، واسترجع في ذهني آراء كثيرة، قرأتها في كتب، أو سمعتها في ندوات فكرية، ومنها ما قاله **الدكتور سمير سرحان حول الديموقراطية في عهد «مبارك» الذي لم يعمل أبدا على «قصف الأقلام» ولم يتعرض مفكر أو كاتب للمساءلة أو المحاسبة في ما يبديه من آراء... كذلك لم يتعرض أحد في هذا العهد إلى الإبتلاع أو التغييب، وراء قضبان السجون.**

ولعل هذه الأقوال والأفكار والآراء وغيرها، تقودنا إلى أن الحرية والتعددية التي ترسخت قواعدها في عهد ديموقراطي يقوده رئيس يؤمن إيماناً فطرياً بالحرية والديموقراطية، هي التي أباحت نشوب المعارك على صفحات صحف مصر ومجلاتها بين علي سالم ومعارضيه في القيام برحلته الخاصة إلى إسرائيل، وهي التي جعلته يكرر ذلك؛ في قيامه برحلته هذه التي أشاركه القيام بها، ولا أدري ماذا ستفرزه نتائجها!..

تناولت السيكارة التي قدمها لي علي سالم من علبته، وقبل أن أشعلها سألته:

- هل يصحبك في هذه الرحلة أحد من «الزملاء» المثقفين؟..

أجابني وعلى وجهه ابتسامة تحمل معاني اللامبالاة:

- سمعت أن عدداً تلقى الدعوة، لكنني لم ألتق في المطار بأحد، سوى السيدة حياة أبو النصر... وهي - إن كنت تعرفها - شاعرة وصاحبة صالون أدبي.

- إذن فأنت تتوقع حملة عليك، ستكون أشد ضراوة من الأولى؟..

ضحك وهو ينفث دخان سيكارته:

- وأتوقع لك أيضاً حملة مماثلة.

- ولكنني أمثل نفسي، وموقفي لا يعكس موقف المثقفين المصريين الذين يقفون موقف المعارضة من مسألة السلام، وبذلك؛ أنا في منأى عن الصراع والتصادم مع أحد. ثم إنني أعتقد أن غالبية المثقفين في مصر، يتمتعون بتفكير ليبرالي منفتح ومتنور.

- لكنك محسوب عليهم كمثقف عربي سوري؛ يشارك في الحياة الثقافية المصرية، رغم كونك بريطاني الجنسية... لذا، فأنا أتوقع لك مثل ما أتوقعه لنفسي.

- يعني؟!..

- يعني أن بعض «غربان» الثقافة لن توفرك.. وستسمع كثيراً من النعيب!...

- لكنني لم أكُنْ على عداء مع أحد.. قد أكون اختلفت مع البعض في الرأي والموقف، لكنني لم أعادِ أحداً بسبب رأيه أو معتقده.

- لا يهم... فالعدوان طبع متأصل في الإنسان عموماً. ولا أظنك تجهل بأننا كعرب، نتميز عن غيرنا من الشعوب المتحضرة، بنزعة عدوانية، تبيح للبعض مصادرة حق الآخر بإضفاء نوع من الشرعية، لهذاالنوع من المصادرة، بتقديم مبررات واهية لتغطية عدوانه على ما يخالفه.. ولسوف تكتشف قريباً أسباب تخلفنا، وتقدمهم في إسرائيل علينا.

- لا أكتمك... إنني أحمل ذهناً صافياً، وأفكاراً نقية لم تعكرها عقدة من العقد حسب معرفتي بنفسي. وسأكون مستعداً لمحاورة كل من لديه إستعداد لإقامة حوار حضاري يقوم على النِّدّية والتكافؤ.

- لن يحاورك أحد... هل عرفت في حياتك غُراباً ينعق ويسرق الصابون، ويَدّعي في الوقت نفسه أنه حسن النية؟..

- أظن أنني قرأت ما يشبه ذلك هذا في كتاب ما؟..

- إذن فأنت قرأت كتابي «أيام الضحك والنكد» الذي صدر قبل عامين.

- فعلاً قرأته بعد أن أهديتني نسخة منه، رغم ترددي وإعراضي عنه ظناً مني -

في البدء ـ أنه مسرحية من مسرحياتك المكتوبة باللغة الدارجة.

ـ غريب.. أنا لا أذكر أنني أهديتك الكتاب. فليس من عادتي أن أهدي كتبي.. وأفضّل أن يشتروه.

ـ لقد اشتريت كتابك الذي نشرْته بعد عودتك من رحلتك الأولى إلى إسرائيل، لكنني لم أجد فرصة لقراءته كله، فحملته معي لأستكمل مطالعته في الموقع الذي جرت أحداثه.

وضحكنا...

ولم ينقطع بيننا الحوار إلا لفترات قصيرة استطاع علي خلالها أن يغمض عينيه ويغفو قليلا... بينما لبثت صاحياً تتنازعني مختلف الأفكار، التي لم يهدأ تلاطم موجها في رأسي، ورغم حاجتي الشديدة إلى النوم، وإحساسي بالإرهاق، إلا أنني لم أتمكن من إغلاق عينيّ، حتى شارفت الرحلة على الإنتهاء حين أعلن قائد الطائرة عن إقتراب لحظة الهبوط.

ولئن كنت اختلفت مع علي سالم في رأيه، من أنني لن أُدْعى من أي فئة من المثقفين لحوار مفتوح، ولم أوافق على تعبيره القائل؛ بأن الغراب الذي يسرق منك الصابون، وينعق عليك لا يمكن أن يكون حسن النية... لئن كنت اختلفت معه حول ذلك التشبيه، فذلك لأنني عرفت عدداً كبيراً من مختلف شرائح الوسط الثقافي في مصر، وعلى تفاوت مستوياتهم، وفئاتهم.. وعلى تنوع انتماءاتهم.. وتَكَوّن لديّ انطباع عام، بأنهم من أشد الناس تقبّلاً للرأي الآخر... ومن أكثرهم إستعداداً للنقاش والحوار بعقل متفتح وصدر رحب، وأنهم يقارعون الحجة بالحجة دون توتر أو تشنّج.

فما الذي حدث بعد العودة إلى القاهرة؟

وماذا جرى بيني وبين المثقفين في مصر؟.. للحقيقة؟ إن ما حدث كان مخيباً فعلاً!.

والجواب يستحق صراحة مطلقة... ويجدر بي أن أسجل بالتفصيل حقائق ما جرى في فصل لاحق.

8

مـثلمـا أقلعت بنا الطائرة بسـلام من مطار القـاهرة، هبطت هبـوطاً سلسـاً، وحطت على أرض مطار «بن غوريون» بـ.... سلام...

خفق قلبي بشدة، وارتفع معدل ضرباته وأنا أخطو نحو باب الطائرة الذي فُتح للنزول على سلّمها، ولتستقبلني الأرض التي ما وَطِئَتْها قدماي منذ ثمانية وعشرين عاماً، أي قبل أن تندلع حرب ١٩٦٧ بأيام، إذ كنت في القدس أقوم بآخر زيارة إليها، فأتيحت لي خلالها جولات في بعض قرى ومدن الضفة الغربية،زرت «رام الله» و«البيرة» مثلما عبرت بمحاذاة البحر الميت، ومررت بأريحا، وبعد أيام قضيتها في القدس، عدت إلى العاصمة الأردنية، فمكثت في «عمّان» يومين أو ثلاثة، وبينما أنا في طريق العودة إلى «بيروت» حيث كنت أقيم وأعمل في صحافتها، اندلعت حرب حزيران - يونيو، ومع نهاية الحرب التي استغرقت ستة أيام، تمكنت بعدها إسرائيل من الإستيلاء على سيناء، والضفة الغربية، بجميع مدنها وقراها والنصف الشرقي من القدس، فضلاً عن إحتلال الجولان من رؤوس جبل الشيخ، إلى السفوح الممتدة حول بحيرة طبرية... مع تلك النهاية التعيسة البائسة، تَقَطّعت الأسباب بين «فلسطين» وبيني، لكنها مكثت في الوجدان وما تزال، وبَقَيتْ جرحاً إزداد عمقه، ولم يُصِبْه التئام، رغم ما حملته إلى النفس حرب رمضان ١٩٧٣ من بشائر، ومن آمال، تَحّقق قليل منها بعد تحرير سيناء، ومايزال كثيرها ينتظر الهمم والعزائم لتحرير الأراضي، التي ما تزال تحت الإحتلال الإسرائيلي، بعد تحرير النفوس من «عُقَدِ» القمع والإضطهاد ومصادرة الآراء، وإغلاق

أبواب الرزق في وجوه الكثيرين منّا، ممّن بعدوا عن «الوطن» وتوزعتهم المهاجر والمنافي شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وانتشروا في أقطار الدنيا، بعد إذ ضاقت مساحة الوطن العربي الكبير عن إحتوائهم، واستيعابهم، وتوفير أسباب العيش مع عزة النفس والكرامة، وإتاحة الفرص لهم، ليُنْشِئُوا أبناءهم نشأة وطنية صحيحة، وليخلقوا بهم جيلاً جديداً صحيحاً معافى، وخالياً من العقد التي ترسبت في نفوس جيل الآباء، وليؤدي كل منهم دوره وواجبه نحو الوطن الذي يحتاج إلى جميع أبنائه كي ينهض من كبوته التي طال زمنها.

* * *

كنت أول من غادر الطائرة؛ لقربي من الباب المفضي إلى سلم النزول. وكنت وأنا أتنسم ذرائر الوطن المحتل، وأستقبل هواءه، أشعر بأن ما لم يتحقق بالحروب والقتال، يمكن تحقيقه بالتباحث والتفاوض. كذلك لاح لي، أن السلام - إذا صدقت النوايا وأُخْلِص العمل وتحقق يمكن أن يمحو الضغائن والأحقاد... وبإحلال سلام عادل شامل يقوم على رد الحقوق إلى أصحابها، يمكن إزالة العداء التاريخي، ونزع الرغبة في الثأر من النفوس، بعد تنقيتها من آثاره وأدرانه. رغم أن هذا يستلزم صبراً وجلداً، قد يستغرق زمناً، يقصر أو يطول. لكنه؛ مع الإعتراف بحق الجميع في العيش، لن يستغرق الحقبة التي استغرقتها الحروب، ليقوم تعايش يفضي إلى إستقرار المنطقة، وازدهارها ازدهاراً يحقق الرخاء الحقيقي للجميع. فضحايا الحروب - بين الأطراف المتحاربة - تورث الضغائن، والرغبة في الأخذ بالثأر!...

تداعت هذه الأفكار، وعبرت ذهني؛ وأنا واقف على مبعدة أمتار من الواجهة الزجاجية التي يتوسطها باب يفضي إلى صالة الإستقبال. لمحت - للآونة - رجلا يحمل لافتة تنوّه

كلماتها المكتوبة بالإنكليزية، بأنه «ممثل» اللجنة المنظمة للدعوة إلى المؤتمر. اقتربت منه مقدماً اليه نفسي ومعرّفا بإسمي، وبعد أن رحب بي، سألني عن علي سالم وبقية المدعوين، فأنبأته بأنه ما يزال - على ما يبدو - داخل الطائرة. لبثنا واقفين معاً، نستطلع الوجوه، حتى لمحت وجه علي، فلوّحت بيدي.. وبالتئام الشمل، قادنا «المبعوث» إلى «غرفة» جانبية،، عبرنا إليها من الباب الرئيسي لصالة الإستقبال. كان في تلك الحجرة، سيدة، ما أن رأت وجه علي سالم، حتى خفّتْ للسلام عليه والترحيب به. وقام «علي» بمهمة تقديمي إليها، فلقيت منها ترحيباً تقليدياً، كذلك لقيت السيدة حياة أبو النصر، لأننا وجهان «جديدان» غير معروفين من أحد هنا!..

توزعنا المقاعد. جلستُ صامتاً، فيما الحوار بين السيدة وبين علي سالم [وقد جلسنا متجاورين] يدور حميماً ودافئاً، ذلك أن ثمة رابطة بينهما تمت بعد معرفة قامت سابقاً - عزوتها إلى رحلته الأولى - وبدا لي أن الحوار تسوده روح الصداقة، لدرجة انعدام الكلفة بينهما.

بعد دقائق، دخل علينا شاب في نحو العقد الثالث من عمره، مبادراً بالتحية، ثم مرحّباً بالسيدة حياة وبي بعد أن جرى تقديمنا إليه. عرفت بعدئذ أنه المسؤول عن إعداد المؤتمر والمشرف على تنظيم برنامج الزيارة، وهو الذي سيتولى نقلنا إلى الفندق في مدينة القدس التي تبعد عن المطار في تل أبيب مسافة خمسين كيلومتراً، يستغرق قطعها نحو نصف ساعة بالسيارة.

استغرقت جلستنا نحو ساعة، توافدت علينا خلالها وجوه عديدة.. شرعنا بتناول قطع من الحلويات مع فناجين القهوة والشاي، قُدِّمَتْ لنا بعد لحظات من إستقرارنا على مقاعدنا. ودخل رجل في منتصف العمر يحمل آلة تصوير، أخذ يلتقط الصور بعد جلسة حوار أجراه مع علي سالم، فعرفت أنه من رجال الصحافة الإسرائيليين الذين لديهم علم مسبق بحضورنا، ومعرفة سابقة، برائدنا وقائد مسيرتنا إلى مؤتمر السلام،

ومع انتهاء الحوار، وكانت إجراءات «الإفراج» عن حقائبنا قد انتهت، دعينا إلى السيارة التي ستنقلنا إلى القدس.

لم تحتفظ ذاكرتي بأسماء من تعرفنا إليهم، فقد كان وقع جَرْسها على الأذن غير مألوف، ولا مستساغ بالنسبة لي على الأغلب... لذا، بدا صعباً على ذاكرتي حفظها. إلا أنني بتكرار إسم المنظّم المسؤول عن برنامج المؤتمر، تمكنت من اختزانه، دون أسماء بقية من تعرفت إليهم ـ نساء ورجالاً ـ منذ الوصول إلى القدس، وحتى آخر أيام الزيارة. وظل إسم «أوفر روبنشتاين» هو الإسم الوحيد الذي علق بالذاكرة، ربما لأن أصله مغربي ـ كما سمعت ـ وينادونه هناك باسم «عوفير» أو شيئاً من هذا القبيل.

قبل إنبلاج خيوط الفجر الأولى، توقفت بنا السيارة، أمام مبنى فندق ضخم، صُمم تصميماً فريداً وجميلاً جداً، فدعينا للنزول.. نزلنا وخطونا أولى خطواتنا على أرض مقدسية. عبرنا مدخل الفندق خلف السيد «عوفير روبنشتاين» وزميلته التي رافقتنا من المطار.. واستقر أمرنا في ردهة الفندق، أو ما يُسمّونه «اللوبي» أمام مكتب «الإستقبال». وبعد جلوسنا على المقاعد الجلدية، أُدخِلَتْ حقائبنا.. وخلال فترة ارتشاف أكواب المرطبات والمثلجات وكاسات العصير التي قُدِّمَتْ لنا، تم إنجاز تسجيل أسمائنا وتقديم مفاتيح الغرف مع الترحيب بنا والتمنيات لنابقضاء زيارة ممتعة.

كان التعب قد أخذ من كل واحد منا مأخذه...

لمحتُ خلال المدخل الزجاجي العريض للفندق، تباشير الفجر. إنه أول «فجر» ستشرق شمسه عليّ وأنا في «القدس» بعد غيبة عنها استغرقت ثمانية وعشرين عاماً من العمر. وللآونة، هفتْ نفسي للمسجد الأقصى، ورغبت في أن أصلي هذا «الفجر» وراء إمام مسجد عمر، فأحقق بذلك أمنيتين.. أمنية خاصة، باستهلال أول أيامي

في القدس؛ بالصلاة على الرسول الكريم، والسلام عليه وعلى ملائكة الرحمن الرحيم. وأمنية، تَمَنّى الراحل العظيم الملك فيصل أن تتحقق له قبل أن يموت... لكنه رحل، وترك الأمنية، أمانة في أعناق من خَلَفوه... وفي أعناقنا جميعاً.

ولّما أفضيتُ برغبتي إلى أحد مستقبلينا، ابتسم، ووعد بتلبيتها في «فجر» آخر.. ذلك أننا سنحتاج الآن إلى الراحة والنوم، لأننا سنتناول الإفطار في الثامنة صباحاً على مائدة السيد «شمعون بيريز» الذي سيأتي إلى الفندق للترحيب بنا والتَعَرّف إلينا.

يعني؛ أن أول فقرة مع شروق اليوم الأول في البرنامج، هي لقاء وزير خارجية إسرائيل، الذي سيصحو مبكّراً، ويأتي خصّيصاً للتعرف بنا قبل أن يمضي إلى مكتبه!...

إن وصولي إلى القدس مع الخيوط الأولى للفجر، ومعرفتي بأنني على مبعدة مسافة ما؛ من المسجد الأقصى، أيقظ أمنية الصلاة في محرابه، وانتزع من عيني النعاس. فكّرتُ:

«كيف السبيل إلى تحقيق الأمنية قبل الإستسلام للرقاد على السرير الذي لا بد أن يكون وثيراً ومريحاً..».

وفكرت أيضاً:

«إن الرجل الذي يملك إمكانية تحقيق أمنيته، ويفعل أقل من ذلك؛ هو أقل من رجل!.. فماذا أفعل كي أحقق هذه الأمنية؟...».

* * *

تسلّم كل منا مفتاح غرفته..

وتوجهنا إلى المصعد مع الحقائب...

جررت حقيبتي ذات العجلات ؛ ومشيت في إتجاه غرفتي التي لا تبعد عن المصعد

سوى أمتار معدودات، عبر ردهة حوّلت أضواءها الليل إلى نهار مشرق. فتحت الباب وعبرت. كان الظلام دامساً، وعندما ضغطت على مفتاح المصباح، بدت الحجرة لي واسعة أكثر من المألوف، ورحيبة أكثر من المعتاد في الفنادق التي عرفتها في رحلاتي السابقة... دخلت الحمام.. كل شيء متوفر ومرتب ونظيف... نظيف جداً.خرجت من الحمام واتجهت نحو الستارة المسدلة.. استبشرت خيراً بعد أن فتحتها لأستقبل تنفّس الفجر... أذهلتني المفاجأة حين أرسلتُ النظر عبر النافذة الزجاجية التي تستوي خلف الستارة محتلة عرض الجدار كله، لأرى من خلال ندى الفجر، قبة ذهبية لامستها أول ذؤابات الشروق. فكرت، لا بد أنها قبة المسجد الأقصى؛ التي باع الملك حسين قصراً كان يملكه في الريف الإنكليزي، لينفق ثمنه في إعادة طلائها بماء الذهب؛ قبل أشهر من توقيع الأردن اتفاق السلام مع إسرائيل.

رفعت سماعة التلفون وطلبت موظف الإستعلامات:

ـ كم يبعد المسجد الأقصى عن الفندق؟.. وكيف السبيل اليه؟...

جاءني جواب الرجل عبر الهاتف:

ـ المسافة تبلغ كيلومترين أو نحو ذلك، لكن الوصول إليه صعب التحقيق قبل طلوع النهار.. والمواصد..

وفهمت..

شكرت الرجل وأعدت سماعة الهاتف إلى مكانها.

مرة ثانية، تَرَدَّدَتْ في سمعي تلك الكلمات التي عَبَرتْ ذهني:

«الرجل الذي يفعل أقل من أمنيته، هو أقل من رجل».

وأمنيتي أن أصلي الفجر.. الآن.. وفي المسجد الأقصى، فإذا لم يكن الوصول اليه متيسراً، فلم لا أستقبله وأُصلّي؟!.. أوَلَمْ يستقبل المسلمون في صلواتهم المسجد الأقصى، قبل أن يختار الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم «الكعبة» لتغدوَ «قِبْلَةً

يرضاها» بعد بيت المقدس الذي كان «أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين»؟.. وعقدت العزم على أن أصلي الفجر أمام قبة المسجد الأقصى.. و«سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» ليريه من اياته ويرضيه.

نضوت عني ملابسي؛ وعدت إلى الحمام، فاغتسلت وتوضأت، وارتديت معطف الحمام الأبيض... خيل إلي أنني أتلفّعُ ملابس الإحرام... توجهت نحو «أولى القبلتين» وأقمت الصلاة...

بسم الله الرحمن الرحيم [إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ٥ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ٥ وينصرك الله نصراً عزيزا ٥]... الله أكبر.. وانهملت الدموع من عينيّ وسحّت، وأنا راكع، بعدما تلوت الآيات الأُوَلَ من سورة [الفتح]. وأطلت السجود... حتى إذا ما فرغت من أداء الفريضة، دعوت إلى الله أن يلهمني الصدق في القول والعمل.

أخذ نور شمس الصباح يملأ أرجاء الغرفة. تمددت على السرير دون أن أسدل الستارة. حاولت أن أنام، لكن محاولاتي باءت جميعها بالفشل.

9

يبدو أنني غفوت!..

أيقظني رنين متواصل لجرس التلفون، لم يكف حتى تناولت السماعة وأنا بين النوم واليقظة:

ـ ألو..

ـ صباح الخير سيد منجونة (قالهاالصوت بالإنكليزية، وتابع) يبدو أنك نمت جيداً.. لم يبقَ على موعد اللقاء مع وزير الخارجية سوى دقائق.. جميع الضيوف تجمّعوا في «اللوبي»... أرجو الإسراع بالنزول. نحن جميعنا في انتظارك.. لقد كلفني السيد «برونشتين»؛ بإبلاغك ذلك..

كانت المتحدثة زميلة «عوفير برونشتين»؛ التي لم أستطع الإحتفاظ بإسمها في ذاكرتي أبداً، مثلما لم أستطع التفريق بين «روبنشتاين» و«برونشتين» وأنا أعيد كتابته!..

ألقيت نظرة على ساعة يدي... يا إلهي، إنها الثامنة إلاّ ربعاً.. هل تكفي عشر دقائق لحمامٍ سريع، وللحلاقة، وارتداء الملابس.. وحقيبتي ما تزال محشوّة ومغلقة منذ أمس؟...

قفزت من السرير كالملسوع أرتعش في معطف الحمام الأبيض الذي صليت الفجر وأنا أرتديه.. وغفوت دون أن أخلعه وأستخرج ملابسي من الحقيبة.. كان لا بد من الإستعداد بسرعة، وفي غضون دقائق لا تتجاوز العشر. لكنني لم أتمكن من ذلك، إذ حين غادرت الغرفة، كانت الساعة قد جاوزت الثامنة بحوالي سبع دقائق.. وكان جرس التلفون يصلني رنينه وأنا أغلق الباب. وعند مكتب الإستقبال، كان «عوفير» ينتظرني. توجهنا إلى القاعة وكانت مكتظة، وقادني «عوفير» إلى الداخل حيث كان شمعون بيريز

يقف وسط القاعة يحيط به الضيوف، وكان مصورو الصحافة والتلفزيون ومندوبو الإذاعة يطوقون الجميع ويتغلغلون بينهم... تابع «عوفير» وهو ممسك بيدي حتى بلغنا النقطة التي يقف عندها وزير الخارجية، فقدمني إليه بالإنكليزية:

- معالي الوزير، اسمح لي أن أقدم ضيفنا - المتأخر - الكاتب والشاعر السوري السيد فاروق منجونة.

ابتسم شمعون بيريز وهو يمد يده لمصافحتي؛ ويقول:

- مرحباً بك في «إسرائيل» كنت أتوقع أن تكون أول الداخلين إلى القاعة.. ما الذي أخّرك؟.. لقد أقلقتنا عليك!

لم يكن وزير الخارجية يعلم بأنني لم أصب قسطاً وافياً من النوم... ولم يكن غيره يعلم بأنني لم أغفُ - ربما - سوى دقائق بعد شروق الشمس. مددت يدي مصافحاً وأنا أردد:

- شكراً... ولا داعي للقلق يا معالي الوزير؛ فأنا في «القدس» أشعر بأنني في بلدي وبين إخوان لي.

لا أدري، إن كان ردّي مناسباً لم أخرج به عن «البروتوكول» الديبلوماسي، أو أنني تجاوزت حدود «إتيكيت» التعارف... لكنني قلت ما شعرت بما ينبغي أن أقوله أمام جميع الضيوف، وأمام جميع الإعلاميين الذين أخذوا يتزاحمون حولنا محاولين التقاط الصور.. وتسجيل ما يبلغ أسماعهم من كلمات الحوار القصير؛ الذي دار بين وزير الخارجية وبيني.

بعد برهة وجيزة من مقدمات التعارف، ومجاملات الترحيب، دعينا إلى مائدة الإفطار. جلس شمعون بيريز متوسطاً المائدة المستطيلة، وتوزع الضيوف على مقاعدهم، وتصادف جلوسي إلى الجانب الأيمن المقابل لوزيرالخارجية، وقد جلس إلى جانبه «عوفير برونشتين» مدير «المركز الدولي للسلام» الذي انهمك مع الوزير في الحديث.. ولقد بدا لي أن «عوفير» كان يرد على إستفسارات الوزير حول الضيوف، إذ لمحت يده

ترتفع لتشير إلى بعض الموجودين.

نهض شمعون بيريز، وارتجل كلمة عبر فيها عن سعادته بهذ اللقاء، متمنياً أن تثمر الجهود المبذولة من أجل «التطبيع» في جميع العلاقات بين إسرائيل والعرب الذين وقّعوا اتفاقيات سلام... والذين لا حاجة بهم إلى توقيع مثل هذه الإتفاقيات [وفي ذلك إشارة إلى دول شمال أفريقيا العربية التي لا تعتبر من دول المواجهة، وليس بينها وبين إسرائيل أي مشاكل]. وحتى الذين ما تزال المفاوضات جارية معهم للتوصل إلى سلام شامل. ثم نوّه بأهمية ما تم التوصل إليه في المباحثات الثنائية بين إسرائيل والفلسطينيين ممثلين بمنظمة التحرير الفلسطينية في الثالث عشر من أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٣، أثمرت عن البدء بترتيبات الحكم الذاتي وإجراءات المرحلة الإنتقالية التي ستستمر، حتى يتم الوصول إلى عقد اتفاق دائم بشأن مستقبل الأراضي الفلسطينية المحتلة. بعدئذ أعلن شمعون بيريز عن إقتراب موعد عقد إتفاق سلام مع الأردن، وأبدى تفاؤله في الوصول إلى نقطة للتفاهم مع البلدان الأخرى التي ما تزال المفاوضات مستمرة من أجل تحقيق سلام شامل معها [وفي هذا إشارة إلى سورية ولبنان]. واختتم وزير الخارجية كلمته التي ارتجلها باللغة الإنكليزية، مكرراً الترحيب بجميع الضيوف، وداعياً إياهم إلى التعبير عن آرائهم بشأن قضية السلام، وأن لا يتيحوا الفرصة أمام السياسة، لتفسد هذاالحلم... حلم السلام.

دوت القاعة بالتصفيق، ثم نهض المسرحي المغربي الطيب الصدّيقي، وألقى كلمة باللغة الفرنسية...رد عليه «بيريز» باللغة الفرنسية أيضاً وهو يضحك [لم تترجم الكلمتان] فلم يفهم بعضنا، وأنا لم أفهم طبعاً.

وتوالى المتكلمون...

بعضهم تكلم بالفرنسية [الأخوة القادمون من بلدان المغرب العربي] وبعضهم تكلم بالإنكليزية، والجميع كان يعبر عن تطلعاته إلى سلام شامل ودائم يبعد بلدان المنطقة

عن حومة الحروب والقتال، ومن بينهم علي سالم.

قبل البدء بتناول الإفطار، غادر «عوفير» مكانه بجانب شمعون بيريز واتجه نحوي وقال:

- أليس لديك ما تقول؟... إن وزير الخارجية يحب أن يسمع وجهة نظرك بشأن المفاوضات الجارية بين سورية وإسرائيل.

أبديت إستعدادي للإستجابة، فنهضت عن مقعدي، وتوجهت بخطابي إلى السيد شمعون بيريز مستهلاً قولي باللغة الإنكليزية:

- معالي الوزير، السادة والسيدات الضيوف. أحب أن أشكر أولاً المركز الدولي للسلام على تنظيم هذا المؤتمر أو التجمع؛ ودعوتنا للمشاركة في الحوارات حول قضية السلام، التي تعتبر في هذه المرحلة، من أهم القضايا التي تمسنا جميعاً وتمس مستقبل المنطقة.. وأستأذن معالي الوزير بإلقاء كلمتي باللغة العربية، لأنني أستطيع التعبير بها عن رأيي بوضوح أكثر.. ولأن جميع الضيوف هم من الأخوة العرب، وأعتقد أنهم يفضلون الإستماع إلى كلمتي بلغتنا التي تعتبر أهم رابط بيننا... فأنا وإن كنت مواطناً بريطانياً، إلا أن جذوري عربية سورية... وكذلك ثقافتي ولغتي، فهل يسمح لي معالي الوزير بمتابعة كلامي باللغة العربية؟

ورفع شمعون بيريز يده بإشارة تعني بأنه لا يمانع في قبول طلبي.. تابعت قائلاً:

«لقد قبلت دعوة مركز السلام الدولي بصفتي الشخصية، ويسعدني أن أكون واضحاً في القول، إن معركة السلام لا يمكن أن تستمر، ولا يمكن أن تتحقق أهدافها، إذا لم تتخل إسرائيل عن تعنّتِها في إتخاذ مواقف صلبة لا أعتبرها عادلة.. وقد دلت البوادر منذ بداية المفاوضات على إعتماد المناورات حول الجولان، وجنوب لبنان. لذلك فإن...

وهنا رفع شمعون بيريز يده، وهُرِعَ نحوي «عوفير» طالباً مني أن أتكلم ببطء حتى يستطيع الوزير متابعتي، ثم اقترح التريث قليلاً، ريثما يدعو أحد الفلسطينيين ليقوم بالترجمة إلى اللغة العبرية. ولما حضر المترجم - وكان جالساً بين الضيوف - طلب مني إعادة ما قلته ثانية، والتوقف بين كل جملتين ليتمكن من القيام بالترجمة الحرفية.

إستجبت للطلب، وأعدت ما قلته ببطء، ثم تابعت:

«وإني من خلال متابعتي للقضية الفلسطينية والمفاوضات التي جرت، وما تزال جارية، أرى أن الحكومات المتعاقبة في إسرائيل، تعمد إلى أسلوب المناورات.. وأعتقد أن هذا الأسلوب لن يحقق الأهداف المرجوة.. وإسرائيل التي تَدّعي إصراراً على متابعة المفاوضات لإقامة السلام العادل، لا تتوقف عن إقامة المستوطنات داخل مناطق التجمع العربي الفلسطيني، وفي قرى المناطق المحتلة، وحول مدينة القدس.. وهذا من شأنه، أن يعرقل المساعي للوصول إلى سلام يقوم على أسس قرارات مجلس الأمن، وفي مقدمتها القراران المعروفان (٢٤٢ و٣٣٨). ومعروف يا معالي الوزير؛ أن جميع الحكومات الإسرائيلية تغتنم الفرص، وتعمل على تنظيم هجمات إستيطانية، تزيد الأوضاع تعقيداً، وتزيد من تصعيد العداء، فضلاً عن إقامة الحواجز في وجه المتفاوضين، مما يجعل إستحقاق السلام بعيد المنال، إن لم يكن شبه مستحيل. ومثلما قلت في البداية يا معالي الوزير، فأنا لا أمثل هيئة أو أحداً في خطابي، ولكنني أعبر عن وجهة نظري الشخصية... وأحب أن أختتم كلامي بسؤال: - هل إن إسرائيل جادة فعلاً في مطلب السلام؟.. وهل حكوماتها المتعاقبة، دون تحديد أو تصنيف بين يمين ويسار، مخلصة في المسعى من أجل السلام؟.. شكراً لإصغائكم والسلام عليكم ورحمة الله».

بعد التصفيق.. لم يعلّق شمعون بيريز، ولم يجب عن أي سؤال تعمّدت تضمين كلمتي به. لكن المترجم، وقد عرفت بعدئذ، أنه الأديب الفلسطيني «سلمان ناطور» شدّ على يدي وتمتم قائلا: **«كلمتك جيدة يا أستاذ فاروق.. وهذا ما يجب أن يقال»**. جلست، وسادت لحظات صمت.. ثم امتدت الأيدي إلى أكواب عصير البرتقال، وبدأنا نتناول الإفطار.

* * *

بعد الفروغ من شرب القهوة، نهض وزير الخارجية متهيئاً للمغادرة، وأخذ يصافح الضيوف الذين كانوا قد غادروا مقاعدهم، بينما بقيت جالساً أجيب على أسئلة إحدى مندوبات الإذاعة الإسرائيلية التي استهلت حوارها معي بسؤالي إن كنت أحمل رسالة من الرئيس السوري إلى الوزير بيريز، أو إلى رئيس الوزراء. أجبتها بأنني ذكرت في كلمتي بأنني حضرت بصفتي الشخصية ولا أمثل أي جهة. وسألتني إن كانت كلمتي رسالة غير مباشرة، أو يمكن إعتبارها رسالة (شبه رسمية) موجهة إلى الحكومة الإسرائيلية. وأجبتها بأن كلمتي تعبر عن وجهة نظري الشخصية وهي وجهة نظر تتطابق مع آمال العرب. وأن ما أبديته من آراء، هو - في نظري - إنعكاس غير رسمي لوجهة نظر الكثيرين من المواطنين العرب. وعادت تسألني:

«هل أعتَبرُ كلمتك، رسالة موجهة إلى الإسرائيليين بشكل عام». أجبتها وقد أحسست بالعياء: يمكنك اعتبارها كذلك إن شئت.

كان قد تحلق حولي وأنا أجيب على أسئلة الإذاعية، بعض الصحفيين الذين كانوا يسجلون على أوراقهم ما يلتقطونه من أجوبتي. ولما شكرتني مندوبة الإذاعة ومضت. دنا مني شاب وقدم لي نفسه، طالباً إجراء حوار لصحيفة «يديعوت آحرنوت». اعتذرت منه، لأنني متعب، وأكدت له بأن الحوار حتى يكون معقولاً، فيجب أن آخذ بعض

الراحة لأنني لم أنم منذ مساء أمس. وتكررت الطلبات المماثلة من صحفيين آخرين.. وتكررت إعتذاراتي للسبب نفسه.

شمعون بيريز فرغ من مصافحة الجميع، واقترب من الباب؛ فجذبني سلمان ناطور داعياً إياي لوداع الوزير؛ فتقدمت معه حتى حاذينا الباب حيث كان وزير الخارجية الإسرائيلي يهم بالمغادرة، فتصافحنا دون أن ينبس أحدنا بكلمة. شعرت ـ للآونة ـ بأن مسافة شاسعة تفصل بيننا.

يجدر بي هنا تسجيل بعض الملاحظات، لأنني أعتبرها مهمة، وملفتة. وأبرز هذه الملاحظات هي:

١ ـ لم تتجاوز الكلمات التي أُلقيت، إطار المجاملات، في عبارات تثني على الجهود المبذولة من أجل السلام.

٢ ـ كان السيد شمعون بيريز في كلمته يدور في حلقة العموميات، ولم يعمد إلى توضيح موقف إسرائيل صراحة من قضية السلام.

٣ ـ خلال إلقاء الكلمات، كان وزير الخارجية الإسرائيلي يصغي بانتباه، ولم يتردد في التعقيب ببضع عبارات يتخللها بعض النكات.

٤ ـ بدا مدير المركز الدولي للسلام شديد الحرص على أن يعطي كل ضيف فرصة كافية للتحدث. ولما دعاني للتحدث، سألته إن كان يجوز لي الحديث مباشرة وبملء الحرية، دون اللجوء إلى المداورة؛ لأنني لا أحسن لغة الديبلوماسية، ولا التعبيرات السياسية، فأجابني بملء الثقة: قل ما تراه مناسباً، فأنت في إسرائيل حرٌ في التعبير عن وجهة نظرك.

٥ ـ خامرني شعور وأنا ألقي كلمتي؛ بأنني كَسرتُ حاجز التقاليد الخطابية، وتملكني إحساس بأنني كنت غير موفق في ما أثرته من نقاط، وكان ينبغي أن أكون أكثر تشدداً وتحديداً.

٦ـ رغم أنني توجهت بكلمتي مباشرة إلى شمعون بيريز متوخياً الوضوح التام، ومستهدفاً ،إبلاغ رسالتي دون مواربة، إلا أن وزير الخارجية، رغم إصغائه وحرصه على فهم ما أقول ـ من خلال الترجمة إلى العبرية ـ لبث ينصت بهدوء، ولم ألمح أي انفعال على وجهه... لكنني لاحظت اتساع عينيه الضيقتين عند سماعه أسئلتي، التي لم تستفزه ـ على ما يبدو ـ لأنه لم يجب عليها بعدما اختتمت كلمتي بطرحها .. ولم يدل بأي تعقيب على ما قلت، على العكس مما فعل حيال بعض الكلمات الأخرى.

٧ ـ كان الإعلاميون على درجة عالية من الوعي والحرص على متابعتهم.. مثلما كانوا على قدر من الجرأة والصدق في طرح أسئلتهم... وعلى درجة عالية من الخلق والتهذيب.

٨ ـ وأخيراً، كان التنظيم دقيقاً جداً، وكان «عوفير» يدير ببراعة بالغة العلاقات بين الضيوف والإعلاميين، وكل من حضر من الرسميين.

* * *

بمغادرة وزير الخارجية الذي لم يُحِطْ به أحد من رجال الحرس أو رجال الأمن، وبمتابعة الضيوف له حتى ركب سيارته؛ التي لا يتقدمها راكبو دراجات نارية... انتهى اللقاء مع أول مسؤول في الحكومة الإسرائيلية، وأعلن مدير المركز الدولي للسلام، أن فترة الإستراحة ستمتد حتى موعد الغداء، ثم نتجمع للذهاب في جولة حرّة.

خطوت نحو ردهة الفندق، واحتللت مقعداً أمام مكتب الإستقبال، واقترب سلمان ناطور هادىء الخطوات، وجلس إلى جانبي، ثم بادرني قائلا:

ـ لعلك لاحظت إهتمام الصحافة والإعلام بك.

ـ ولاحظت امتعاض البعض بعد إلقاء كلمتي.

ـ لم يكن إمتعاضاً بقدر ما كان نوعاً من الصدمة لم تكن متوقعة، ما دفع الإعلاميين إلى الإستزادة من الشرح حول مضمون الكلمة، وفي رأيي أنك كنت صريحاً ومحدداً بطرح بعض النقاط التي شرحتْ جانباً من الحقائق التي تزيد في عرقلة سير المفاوضات، خاصة ما يتعلق ببناء المستوطنات.

ـ أعتقد أن أي متتبع للقضية منذ نشأتها، حتى لو كان مراقباً أجنبياً ينظر إليها بمنظار العدل، سوف يرى ما أرى، وسيقول ما قلت. وفي يقيني، أنني لم أجانب الصواب، ولم أصانع أحداً في خطابي. وعلى الإسرائيليين أن يتذكروا حجم ما عانوه خلال الحرب العالمية الثانية... وأن لا ينسوا كيف تعاملت معهم النازية في ألمانيا وفي بولندا وغيرها من الدول التي كانوا ينتشرون فيها قبل نزوحهم إلى فلسطين، فلا يعمدوا إلى التعامل مع الفلسطينيين بمثل ما تعامل معهم «هتلر» وأن لا يسلكوا مع العرب، المسلك الذي مارسه معهم جهاز «الغستابو».. أنت يا سلمان، وجميع الفلسطينيين، لن يهدأ لأحد منكم بال حتى تقوم الدولة الفلسطينية على الأرض الفلسطينية. كذلك العرب جميعهم لن يهدأ بالهم حتى تتحرر جميع الأراضي المحتلة.. فما جدوى المراوغة والمماطلة؟.. إذا كانت إسرائيل تطلب سلاماً كاملاً، وتدعو إلى مؤتمرات كهذا المؤتمر الذي تنظمه وتكرسه لإقناعنا وإقناع غيرنا برغبتها في إحلال السلام، وإقامة «تطبيع» بينها وبين العرب، فهي ـ في رأيي ـ لن تتوصل إلى ذلك؛ إلا بالعودة إلى المبادىء الأساسية التي تم طرحها في مؤتمر مدريد عام ١٩٩١، تلك المبادىء التي أوضحت مواقف الجميع من السلام، وفي المقدمة، سورية التي لن تحيد عن تلك المبادىء أبداً، مهما طال أمد التفاوض.

كان سلمان ناطور يصغي إلي، ويومىء برأسه بين الحين والآخر. ولما كففت وتوقفت

عن الكلام، نظر في وجهي متمعناً ملامحي، وكذلك فعلت مثله. أخرج علبة سكائره وقدم لي واحدة ثم قال:

- تبدو متعباً يا فاروق، وعلى وجهك ملامح الإرهاق.

- إنني لم أنم منذ مساء أمس، ناهيك عن متاعب السفر والإعداد له، حتى إنني بعد الوصول إلى الفندق، لم أصب من الراحة سوى دقائق إستلقيت خلالها بعد شروق الشمس.. وهذا ما جعلني أتأخر قليلاً في النزول إلى القاعة.

شملتنا لحظات صمت، سحقت سيكارتي بأصابع متوترة، ابتدرني سلمان:

- سيكون أمامك يوم حافل.. حاول أن تصعد إلى غرفتك لتأخذ قسطاً من الراحة والنوم، ريثما يحين موعد الغداء، وسأمضي أنا الآن، ثم أعود لأراك قبل موعد الذهاب إلى «بيت رئيس الدولة» هيّا.. لا تبدد الوقت.

كان سلمان ناطور هو الفلسطيني الوحيد الذي ألتقيته منذ وصولي إلى القدس.. وكان ودوداً، ودمثاً، وكريماً... وكنت أرى في ملامحه حزناً غامراً، رغم أنه كان يحاول أن يبدو سعيداً بلقاء المثقفين العرب. ولقد خامرني شعور بأنه يفتقد شيئاً ما، ويحاول أن يجده، أو يستعيض عنه بهذا الحضور العربي. لم أحاول أن أطرح عليه أي سؤال.. تركت للأيام التالية تفسير حدسي.

* * *

ردهة الفندق بدأت تخلو من الزملاء والزميلات المشاركين.. وكان التعارف بيني وبينهم قد تم خلال لقاء الإفطار؛ صرنا نتبادل التحية كلما وقع نظر أحد منا على الآخر، نهضت لأودع سلمان ناطور، ورافقته حتى باب الفندق، ثم قفلت عائداً إلى الردهة. رغم وطأة النعاس عليّ، كنت حائرا في ما يجب عليّ عمله. كنت سادراً في التأمل

والتفكير حين مر أمامي أحمد فوزي وقد تعرفت إليه، وعرفت أنه من مصر؛ ويعمل نائباً للمتحدث الشخصي، أو الناطق الرسمي بإسم الدكتور بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة. وأنه كان سابقاً «مستشاراً» صحفياً للرئيس الراحل أنور السادات، وقد رافقه في رحلته التاريخية إلى القدس. لبثت في مكاني أنظر إليه وهو يخطو مقترباً مني، تعلو وجهه ابتسامة مشرقة؛ فأدركت أنه مقبل نحوي، وما عتمت أن خطوت متجهاً إليه.. تصافحنا، وبعد تبادل التحية وبعض عبارات المجاملة، بادرني أحمد فوزي قائلاً بلهجته المصرية الصافية:

ـ هايل.. بالفعل يا فاروق كنت هايل بكلمتك، والكل يتحدث عن شجاعتك الأدبية.. إيه.. قوللي، إنت كنت بتذاكر طول الليل؟..

ورددت عليه باللهجة المصرية نفسها التي أحب سماعها والتحدث بها.

ـ لا بذاكر ولا حاجة يا صديقي.. هم كلمتين طلعوا معي كده.. بالعافية.

ـ لكن كانوا كلمتين حلوين قوي والله... يا الله وربّنا همتك الليلة. حتكون ليلة فريدة في بيت الرئيس.. أنا عارفو كويس، راجل مرح.. وبيحب الحديث والحوار مع الناس الكويسين.

ـ معليش.. استأذن.. أنا طالع غرفتي أنام يا صديقي.

ـ ضروري عشان ترتاح وتقدر تقول كل اللي في بالك.

وأثناء توجهي إلى المصعد لمحت وجهاً يشبه وجه الطاهر بن جلّون، الكاتب المغربي، وكنت قرأت بعض أعماله الروائية، وآخرها، روايته المترجمة إلى العربية عن اللغة الفرنسية «ليلة القدر»... لكنني لم أكن التقيت به من قبل، إلا أن وجهه كان مألوفاً لي من خلال ما رأيت من صوره التي تُنشر في الصحف... وخشية أن يكون قد شُبِّه لي؛ اكتفيت بتحيته وأنا أدلف داخل المصعد، مُقَدّراً أنني سألتقيه وأتحاور معه في مناسبة أخرى.

فتحت باب غرفتي، وفي عبوري وَطِئتْ قدمي صحيفة إنكليزية؛ يبدو أن إدارة الفندق

سرّبتها من تحت الباب صباحاً بعد مغادرتي. فالتقطتها، وتابعت خطوي إلى السرير؛ وأخذت أقرأ العناوين على الصفحة الأولى... كانت جريدة الـ "The Jerusalem Post" الصادرة صباح اليوم الإثنين ـ ١٢ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٩٤ وعلى صفحتها الأخيرة تقرير كتبته «بالشيفا تسور» تحت عنوان بارز: «كُتّاب وفنانون يجتمعون لتحية السلام» استهلّته بقولها:

«من المتوقع أن يصل كاتب سوري لينضم إلى ٤٠٠ كاتب ومثقف وفنان من البلاد العربية وإسرائيل، ليجتمعوا اليوم في «بيت هناسي» من أجل السلام، بدعوة من الرئيس عيزر وايزمن، ومن بين المتوقع وصولهم في ساعة متأخرة من ليل أمس من البلاد العربية نحو عشرين فناناً ومثقفاً، بينهم إثنان على الأقل من بلدين عربيين ما يزالان لم يوقعا إتفاقيات سلام مع إسرائيل، وهما الرسام السوداني محمد عمر خليل، والكاتب الجزائري نبيل فارس».. وبعد هذا التمهيد، استطردت المحررة قائلة:

«والمتوقع في حال وصول الكاتب السوري، أن يكون له دور بارز وفاعل مع الأدباء الفلسطينيين والإسرائيليين في هذا الحدث».

ولم تحدد كاتبة التقرير إسم الكاتب السوري، مما جعلني أتصور، أن يكون من بين المدعويين أحد الأدباء السوريين غيري ممن يعيشون في الوطن أو في المهجر.. ولم يتبادر إلى ذهني إسم أحد. وتابعت «باتشيفا تسور» تقريرها بالقول:

«إن الضيوف العرب سيمضون أربعة أيام في ضيافة المركز الدولي للسلام في الشرق الأوسط،، بالتعاون مع وزارة الخارجية؛ وفي الوقت نفسه، يتوقع حضور وزير التربية المغربي محمد خضري، (أو خيضر، إذ كُتِبَ إسمه بالإنكليزية على النحو التالي "MOHAMMED KHIDRI"). والكاتب المعروف، الطاهر بن جلون...»، ولم تذكر المحررة أسماء الطيب الصديقي وزوجته الفنانة وعلي سالم وغيرهم من الكثيرين الذين التقيتهم حول مائدة الإفطار، وبينهم أكاديميون وأساتذة في الجامعات التونسية

وغير التونسية.

وطبيعي فإن توقعات المحررة لم تتحقق كلها، إذ ـ على ما يبدو ـ لم تكن تستند إلى لائحة أسماء موثوقة، لكن التركيز على «الكاتب السوري» المتوقع وصوله كان واضحاً ويشكل علامة إستثنائية.

فرغت من قراءة التقرير وأنا أتثاءب.. كنت أغالب النعاس ويغالبني، حتى تمت له الغَلَبَة عليّ، فاستسلمت له دون التمكن من متابعة قراءة الجريدة.. ودون التفكير بموعد الغداء والجولة الحرة التي سمعتهم يتحدثون عنها.

مرة أخرى يوقظني رنين التلفون.

كان المتحدث، الأديب الفلسطيني سلمان ناطور الذي وعدني بالعودة بعد الظهر.. ولما اكتشف من صوتي المتحشرج بأنني أغط في نوم عميق، قال: «تابع نومك فأنت في حاجة إلى النوم أكثر من حاجتك إليّ.. سأراك مساء في بيت الرئيس.

أعدت السماعة، فقد كان النوم؛ بعد أكثر من سبعين ساعة من السهر المتواصل، أهم عندي من أي شأن آخر... ورحت أغط في نومي غطيطاً.

* * *

التلفون... مرة ثالثة!!

بدا لي أنه مكتوب عليّ ـ في هذه الزيارة ـ أن لا أنام ساعتين متواصلتين أو ثلاث.. وكدت أصرخ في أذن من طلبني لولا الصوت الأنثوي، الذي خاطبني بالإنكليزية؛ كان عذباً وهادئاً:

ـ «مستر منجونة... سيتحرك الأوتوبيس بعد لحظات إلى بيت الرئيس.. أسرع أرجوك، إنهم ينتظرون».

أعدت السماعة، وأنا أردد.. «خليهم ينتظروا» سأتابع النوم..ولن أذهب إلى أي مكان.

حاولت معاودة النوم.. وضعت المخدة على رأسي ووجهي دون جدوى... بتُّ أتقلب على السرير، وأشد الغطاء.. لكن آثار النوم أخذت تفرّ هاربة؛ ولم أجد مندوحة من النهوض. كنت تركت الستارة مفتوحة، فبدت لي السماء من خلال النافذة الزجاجية العريضة، رمادية، والظلمة تتسلل عبرها. مددت يدي متناولا ساعتي، وفيما كنت أحاول تبين الوقت، ضرب جرس التلفون. أضأت المصباح ونظرت في الساعة والتلفون يواصل الرنين. كانت تشير إلى الدقيقة العشرين بعد السادسة. رفعت السماعة وسمعت عوفير يخاطبني بصوت مرتفع:

ـ ألا تذكر أن موعدنا مع الرئيس في السادسة تماماً... لقد أوصلنا الجميع إلى «بيت هناسي» [وهو مقر رئيس الدولة وسكنه الرسمي، ولا أدري ما معنى كلمة «هناسي» ولماذا يطلقونها على بيت الرئيس]. الرئيس يسأل عنك شخصياً، وجميع الصحفيين والإعلاميين يترقبون وصولك. سأمهلك ربع ساعة لتكون جاهزاً...

ورددت على عوفير:

ـ لا تكفيني ربع ساعة..

ـ سأكون في انتظارك حتى السابعة تماماً... حاول أن تسرع.. شكراً.

ولم يبق أمامي إلا استبدال ملابسي التي غفوت فيها. فاغتسلت سريعاً، وارتديت ملابسي على عجل قبل أن أتم تجفيف شعري، ووضعت نسخة من قصيدة «يوسف يتجسد فيكم» في مغلف وغادرت الغرفة.

* * *

لم تستغرق الرحلة بالسيارة من الفندق إلى «بيت الرئيس» عبر شوارع القدس الغربية أكثرمن عشر دقائق. ولقد فوجئت مفاجأتين عندما توقفت السيارة التي أقلّتني مع

عوفير أمام البوابة الرئيسية لـ «بيت هناسي » ـ وهو كما علمت المقر الرسمي لرئيس الدولة والمنزل الذي يقيم فيه مع عائلته

المفاجأة الأولى برزت، عندما رأيت حشداً من الإعلاميين يتجمعون بأدوات التصوير والتسجيل أمام المدخل الحديدي ذي المصراعين العريضين المفتوحين، وما أن شاهدوا سيارتنا تقف وينزل عوفير ثم أتبعه بالنزول، حتى هرعوا نحونا متدافعين، وبعض الأصوات ترتفع:

ـ السوري وصل.. السوري وصل.. هو ذا السوري.

قال لي عوفير:

ـ أعطني يدك.. هؤلاء الصحفيون لا يرحمون، سيعملون على تطويقك وإعاقتك عن الدخول... أنا أعرفهم جيداً.

وبالفعل ما إن أفضى بكلماته وهو يقبض على يدي بقوة؛ حتى وجدت نفسي محاصراً من الصحفيين رجالاً ونساء... وبدأت أضواء كاميراتهم تلتمع في عيني، ومايكروفوناتهم تكاد تلامس وجهي.. وأسئلتهم تنهمر رشاً ودراكاً كانهمار المطر:

متى وصلت من دمشق؟...

هل تحمل رسالة إلى الرئيس وايزمن؟..

هل قابلت الرئيس الأسد قبل مغادرتك سورية؟..

ماذا بشأن الجولان.؟...

هل تعتقد أن إسرائيل ستنسحب من الجولان؟...

ما هو موقف سورية الحقيقي من السلام؟...

متى ستكفون عن محاربة إسرائيل عبر جنوب لبنان؟..

هل أنت من حزب البعث، أم من حزب الله؟..

ماذا؟.. ما هو؟.. هل؟.. متى؟.. إلى أين؟..

وعشرات الأسئلة بعضها بالعربي، وبعضها بالإنكليزي، وبعضها الآخر بالفرنسي أيضاً. وأنا أسير بجانب عوفير.. يدي بيده... أبتسم ولا أجيب، وعوفير يشدّني بيدي مخترقاً الحصار الإعلامي وهو يردد:

- بعد لقاء الرئيس.. سيجيبكم عن جميع أسئلتكم.. من فضلكم أفسحوا لنا كي نعبر... الرئيس ينتظر..

واختلطت الأصوات بصوت عوفير؛ حتى تم لنا عبور البوابة التي أفضت بنا عبر ممر قصير نبتت على جانبيه الزهور والعشب الأخضر، وبعض الأشجار؛ إلى قاعة واسعة مضاءة ومكتظة بالبشر؛ وبرز من بين الجموع جودت عودة؛ الذي دنا مني ماداً يده لمصافحتي، وليتابع معنا إختراق القاعة بين الناس حتى بلغنا وسط القاعة، فوجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الرئيس الإسرائيلي، وبدأت الأحداث تتداعى في مخيلتي.

تلك كانت المفاجأة الأولى... إذ لم أكن أتوقع مثل هذا الإستقبال والإهتمام البالغ من الإعلام الإسرائيلي والعالمي، صحافة، وإذاعات، وتلفزيون.

المفاجأة الثانية، أنني لم ألمح عند البوابة الرئيسية وجود حرس عسكري، أو «نقطة» تفتيش، أو أحداً يرتدي الزي الكاكي ويتنكب سلاحاً!.. لم تكن مفاجأة فقط، بل كانت ظاهرة غير منتظرة، أثارت دهشتي واستدعت استغرابي، فقد كنت أحسب مقر وبيت رئيس إسرائيل، كمقر بيت أي رئيس من رؤساء دول العالم الثالث.. أي لا بد من حراسته برتل من العساكر، وبعربة مصفحة؛ أو بمجنزرتين - على الأقل - تربضان عن يمين البوابة وعن يسارها. أم أن إسرائيل ليست من العالم... الثالث. حيث الإنقلابات والإغتيالات، والمؤامرات على مدار فصول السنة؟!..

أيكون اليهود الذين عايشوا أهوال الحرب العالمية الثانية، بتصفية نحو أربعة ملايين منهم في أفران هتلر، وتعرضوا للتعذيب والتصفية على أيدي الـ «غوستابو».. ومرّوا

بأهوال التشريد والهروب من بلد إلى بلد، حتى انتهى بهم الأمر في فلسطين عبر «هجرات» متتابعة موجة بعد موجة، قد تعلموا درساً لم يتلق سواهم من شعوب العالم الثالث مثله، ولما استقر بهم الأمر على أرض فلسطين، لم ينسوا الدرس، بل تلاحموا وتعاضدوا ـ على اختلاف انتماءاتهم السياسية وعلى تعدد جنسياتهم ـ من أجل ترسيخ قواعد «الدولة» التي منحها لهم قرار التقسيم، فآثروا الإلتفاف حول زعمائهم وقادتهم ودعمهم بالعمل الإيجابي ـ حتى لو قام بينهم خُلْفٌ شديد ـ حول أسلوب الحكم.. فلم يُبدّدوا جهودهم وطاقاتهم، بحياكة المؤامرات بعضهم لبعض، أو بالتخطيط للإنقلابات، أو برصد تحركات رؤسائهم ورؤساء حكوماتهم والوزراء، وأعضاء الكنيست، والعمل على الغدر بمن يتعارضون في توجهاتهم معه بتصفيته جسدياً؟..

هل تَعلّم اليهود الأمثولة من دول العالم الثالث، فتفادوا الوقوع في شراكها بالإنصراف إلى الإبتكار، والعمل، والإنتاج، ليتمكنوا من تثبيت أركان «الدولة» كي ينعموا بالإستقرار، والأمن، والرخاء على أرض فلسطين، وقد صارت لهم «الوطن» الوحيد، بعدما كانوا ينتمون إلى أوطان متعددة؟..

هل عقد اليهود عزمهم ـ بعد أن تلقوا الأمثولة ـ على تكسير العظام؛ وذبح كل من يعترضهم؛ في تصميمهم على الثبات فوق أرض «الوطن» واقتلاع كل الفلسطينيين الذين يخلقون لهم «المشاكل»، ويقلقون راحتهم؛ بمطالباتهم المستمرة في العودة إلى أراضيهم وبيوتهم، وإلى بيّاراتهم ومتاجرهم؟.. وهل انصهر اليهود في بوتقة واحدة، فتحولوا إلى «كتلة» صلبة، قوية، تتحدى العالم، وتتصدى لكل «من تسوّل له نفسه» إختراق سياج وطنهم و«تدنيس» حرماتهم ومقدساتهم، فلسطينياً كان أو عربياً مهما بلغ بأسه، وقَوِيَت شكيمته.. فاستباحوا بذلك لأنفسهم، دم «كل من تسوّل له نفسه»؛ أو طرده، وتهجيره!.. وأحلّوا لجيشهم «الذي لا يقهر» احتلال أراضي الدول المجاورة،

وبذلك، احتلوا سيناء، واحتلوا الضفة الغربية، واحتلوا الجولان، واحتلوا جنوب لبنان... واستطال ذراعهم، فدمروا مفاعل «تموز» العراقي، وأحرقوا مصافي البترول في «حمص» وجعلوا مولدات الكهرباء ركاماً، وغزوا «بحر البقر» فجعلوا من أجساد الأطفال الغضة الطريّة، أشلاء من اللحم البشري تتناهشه الوحوش والغربان.. ودخلوا بيروت، واحتلوها لوقت كان كافياً لتصفية عدد من القياديين الفلسطينيين... ومن قبل: نفذوا المذابح الجماعية **وأبرزها مذبحة «دير ياسين» وقد أسفرت عن تصفية سكانها، وتجاوز عدد ضحايا المذبحة أكثر من خمسماية طفل وامرأة ورجل، ومعظمهم من الشيوخ... ثم تتالت المذابح... وفي الشهر الذي تم إعلان نص إتفاق القاهرة بين «فلسطين وإسرائيل» حدثت مذبحة الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل.**

فقد ذهب ياسر عرفات وشمعون بيريز إلى القاهرة يوم العاشر من شباط ـ فبراير من عام ١٩٩٤ للتوقيع على اتفاق (غزة ـ أريحا) الذي تم الإعلان عنه في اليوم التالي وبُدِءَ بتنفيذ بنوده، وبعد أقل من أسبوعين، وقعت مذبحة الحرم الإبراهيمي، حين فتح متطرف يهودي نار رشاشه على المصلين، فقتل نحو سبعين مصلياً كانوا ساجدين، وأصاب أكثر من ثلاثمائة بجروح كان معظمها خطيراً.. وبدأت الإحتجاجات العربية، ثم تتالت أحداث العنف الدموي بين انتقام وانتقام مضاد، وكان مجلس الأمن أصدر قراراً بإدانة إسرائيل عن وقوع المجزرة المروعة، وتضمن القرار الذي صدر تحت رقم (٩٠٤) توصية بالعمل على مصادرة الأسلحة وجمعها من المستوطنين اليهود، وبضرورة تأمين «حماية دولية» للفلسطينيين. وكانت الحكومة الإسرائيلية «ترضيةً» منها لخواطر المحتجين و«تهدئةً» لنفوس الفلسطينيين قد أصدرت قراراً بحظر نشاط حركتي «كاخ وكاهانا» واعتبارهما حركتين إرهابيتين. ـ وربما كانت تلك المرة الأولى ـ

التي تعترف إسرائيل بأن فيها حركات «إرهابية».. قبل ذلك، كان «الإرهاب» صفة الفلسطينيين، ووقفاً عليهم وعلى بعض العرب.

وتوالت الأعمال الإنتقامية وردود الأفعال الإنتقامية المماثلة، ففي السابع من الشهرالتالي (نيسان - إبريل) قام فدائي فلسطيني عضو في «حماس» بقتل ثمانية إسرائيليين، أعقبه بعد أسبوع هجوم مماثل على عدد من الإسرائيليين، لكن الهجوم لم يحقق هدفه، ورغم مشاعر الإسرائيليين الغاضبة، وارتفاع الأصوات مطالبة حكومة رابين بالإسراع في المفاوضات للوصول إلى سلام، إلا أن التلكؤ تضاعف... والمناورات تنوعت.. **وكان العرض الذي تقدمت به حكومة رابين للإنسحاب من الجولان خلال ثماني سنوات، مثيراً للإشمئزاز، وباعثاً على الإستفزاز. وكان رد فعل سورية على العرض الإستفزازي، إعلان رفضها التام... والتهديد بالإنسحاب من المفاوضات.**

وبدأت إسرائيل سلسلة من الإعتداءات على لبنان، لم تملك حيالها جامعة الدول العربية، أكثرمن إدانتها!!.. **وأعقب ذلك تحرك إسرائيلي سياسي وديبلوماسي، في محاولة للضغط على سورية عن طريق دول الخليج العربية، فقامت وفود إسرائيلية بزيارات سرية إلى قطر والكويت. ولم يعلن إلا عن زيارة لوفد إسرائيلي قام بها علنياً إلى سلطنة عمان تمت في منتصف شهر (تموز - يوليو) وكانت قد سبقتها زيارات سرية سريعة لم يعرف عددها** .في الوقت نفسه، كان الإعداد لمجزرة أخرى، إذ تم قتل نحو عشرة فلسطينيين وإصابة مائة بجراح في عملية عسكرية جرت في قطاع غزة، قبل عودة الوفد الإسرائيلي من عُمان يوم السابع عشر من الشهر نفسه. وربما كانت تلك المجزرة، سبباً من الأسباب التي عجلت بالمفاوضات بين الأردن وإسرائيل في وادي عربة. خلال ذلك، وبعد وقت قصير من بدء المفاوضات، تم تفجير المركز اليهودي

في «بيونس آيرس» عاصمة الأرجنتين، وقتل فيه ستة وتسعون يهودياً، وأصيب حوالي ١٥٠ بجراح.

كان حادث بيونس آيرس مؤشراًجديداً،أوحى للحكومة الإسرائيلية باتخاذ إجراءات إحتياطية في الداخل لامتصاص النقمة، وباعتماد تكتيك جديد على صعيد التحرك السياسي، والقيام بمحادثات للخروج من مأزق موقف سورية المتشدد من المفاوضات، بعد رفضها عرض إنسحاب إسرائيل من الجولان على مدى ثمانية أعوام، وكانت الخطوة الأولى، سفر إسحق رابين إلى طابا للتباحث مع الرئيس المصري حسني مبارك. وقيل - خلف كواليس السياسة - ان رابين سعى لدى الرئيس مبارك من أجل حثه على «التوسط» لدى الرئيس السوري حافظ الأسد، لكي «يليّن» موقفه ويبدي شيئاً من المرونة. - وقيل - أن الرئيس مبارك فاجأ رابين برد لم يكن يتوقعه، مفاده، أنه - أي مبارك - لا يرى ما يدعو إلى التأثير على الرئيس السوري، لأنه لا يختلف معه في موقفه. وعاد رابين دون ان يتمكن من إقامة (محور) أو ما يشبه ذلك بين القاهرة وتل ابيب... مثلما فشلت الوفود الإسرائيلية التي قامت بزيارات إلى بعض بلدان الخليج - تحت غطاء - مؤتمرات تمويهية.

وكان لا بد من عملية (التفاف) تستهدف الضغط على منظمة التحرير الفلسطينية... وعبر القنوات الدبلوماسية، توصلت إسرائيل إلى «وعد» قطعه لها ياسر عرفات بتحجيم المقاومة الفلسطينية... واتخذ «أبو عمار» خطوة إجرائية باعتقال أربعين عضواً بارزاً من قادة حماس، كما قدم تعهداً بإتخاذ إجراءات أكثر فاعلية لوقف العمليات «الإرهابية» في أراضي الحكم الذاتي. حدث هذا بين ١٥ و١٨ من شهر آب - أغسطس ١٩٩٤، وإسرائيل التي لا تفقد أملها في اللجوء إلى أحابيل السياسة، في الوقت الذي تقوم بالإعداد لضربات عسكرية إجرائية، وجهت الدعوة إلى وزير خارجية مصر لزيارة تل أبيب.

وقام السيد عمرو موسى بزيارته في نهاية الشهر نفسه، وهي أول زيارة رسمية يقوم بها مسؤول مصري رفيع إلى إسرائيل منذ سريان إتفاقية كامب ديفيد. ولئن لم تثمر الزيارة عن أي تغيير في سياسة التنسيق بين دمشق والقاهرة، إلا أن تل أبيب، عملت على تكرار محاولاتها السياسية في عواصم عربية أخرى، ما أدت إلى إعلان المغرب عن العزم على إقامة علاقات ديبلوماسية (محدودة) مع إسرائيل. جاء هذا الإعلان في مطلع أيلول - سبتمبر، في الوقت الذي كانت الشرطة الفلسطينية تواصل تنفيذ أمر عرفات، وتقوم بإعتقالات في غزة... وفي أعقاب مقتل جندي إسرائيلي في القطاع، اعتقلت الشرطة الفلسطينية واحداً وعشرين (عنصراً) من حركة الجهاد الإسلامي. وفي غضون ذلك، كانت الإستعدادات في المركز الدولي للسلام متعاوناً مع وزارة الخارجية، تجري لإستقبال وفود المثقفين العرب الذين قبلوا الدعوة للمشاركة في احتفالات الذكرى الأولى لإتفاقية «غزة - أريحا» التي تم البدء بتنفيذ بنودها بعد التوقيع في «أوسلو» على اتفاق المبادىء؛ يوم ١٣ أيلول - سبتمبر ١٩٩٣ .

* * *

بدا لي السلام بعيد التحقيق، وأنا واقف وجهاً لوجه أمام رئيس «دولة» إسرائيل والأحداث التي سجلتها في مفكرتي تواصل التداعي في مخيلتي؛ رغم الإبتسامة التي ملأت وجهه، وهو يمدّ يده لتلتقي بيدي في مصافحة طويلة، وهو يردد عبارات ترحيبية، يعبر بها عن سعادته باستقبال أول سوري يأتي إلى القدس «من بلد الرئيس الأسد، الذي يتطلع أن يقوم قريباً بزيارة إسرائيل» حسب التعبير الذي سمعته من بداية حديث السيد عيزر وايزمن.

وحتى أتفادى التعليق، وأتجنب أي إجابة مباشرة ـ قد تُفسَّرُ على غير ما أقصد، استخرجتُ من الملف النسخة التي أحضرتها من كتابي (يوسف يتجسد فيكم) وقدمتها إلى الرئيس الإسرائيلي،الذي ما أن احتواها بيديه حتى مضى يقرأ إسمي وعنوان الكتاب بلغة عربية مشوبة بلكنة عبرية، ثم سلمها لأحد موظفي مكتبه طالباً العمل على ترجمة الكتاب بأسرع ما يمكن... ثم ملتفتاً إلي وهو يردد، والإبتسامة العريضة، ما تزال تملأ وجهه:

ـ متى سيقوم الرئيس الأسد بزيارتنا؟...

ثم أردف مستدركاً:

ـ يمكنك أن تتكلم بالعربي، أنا أفهم لغتكم جيداً وأحب بلادكم ورئيسكم.

كادت الدهشة تُربكني، وتعقد لساني.. لكنني، وأنا أتأمل ملامح وجهه الذي تغمره ابتسامته العريضة، قررت أن أجيب إجابة واضحة باللغة الإنكليزية، حتى لا أدع أي شك يتسرب على عقول الإعلاميين، الذين كانوا قد أقاموا حولنا سياجاً كثيفاً، رافعين كاميراتهم ومايكروفوناتهم فتشكلت منها «غابة» أحاطت بي من كل جانب. قلت:

ـ أنت تعلم ـ يا فخامة الرئيس ـ موقف سورية من عملية السلام، وكان الرئيس حافظ الأسد قبل أكثر من شهر قد أعلن في خطاب رسمي، بأن السلام، هو إستراتيجية سورية وسياستها. فالأوضاع تغيرت، وبدون السلام، لا يمكن تحقيق أي مستقبل لأبنائنا وأحفادنا.. وإنني ـ يا فخامة الرئيس ـ أؤمن بأهمية السلام وبضرورة بذل الجهود من أجل تحقيقه على الأسس الشرعية التي حددتها قرارات هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي.

عندئذ، رفع الرئيس الإسرائيلي يده في وجهي، وقد بدأت إبتسامته تتلاشى تدريجياً، ثم قال باللغة العربية وبصوت يكاد لا يسمعه سواي:

ـ طلبت منك أن تتكلم بالعربي.. تَكَلّمْ بالعربي، أنا أفهم عليك.. وبالمناسبة.. أنت من أي مدينة في سورية؟..

ـ أنا من حلب ـ فخامة الرئيس... ولكنني أقيم حالياً في لندن.

وعادت إبتسامته تلوح قليلاً وهو يقول:

ـ حلب؟... أوه... عظيم.. مدينة عظيمة وأهلها كرام.

ـ شكراً يا فخامة الرئيس.. هل تعرفها؟

ـ طبعا... طبعاً، وأتمنى زيارتها قريباً... حلب مشهورة بمأكولاتها الطيبة.. و... أوتيل بارون... والكبة الحلبية والمحشي والكباب و...

ومضى يعدّد ما يعرف عن حلب من زمن بعيد...

وأخذت الإستنتاجات تزدحم في رأسي وتختلط!...

10

شاب الحديث دفءٌ وألفة..

أخذ الرئيس الإسرائيلي يتباسط في حديثه عن مدينة حلب...

وكان ـ وهو يتحدث بثقة العارف ـ يوزع إبتساماته على الوجوه المحيطة بنا. اغتنمت الفرصة؛ وأخذت أحملق متفحصاً الوجوه علّني أرى علي سالم، أو ألمح وجهاً أعرفه من الضيوف. فلم أرَ إلا الأديب الفلسطيني سلمان ناطور، ينظر إلي بعينيه الوديعتين، وكانتا ـ تلك اللحظة ـ تشعان ببريق الفطنة والذكاء.. وعلى مبعدة خطوات، لمحت وجه الصحفية المغربية «فاطمة الوكيل»، وعلى مسافة منها لا تزيد على مترين أو ثلاثة، رأيت المغني الفرنسي «انريكو ماسياس»، وهو مغربي الأصل، يتبادل حديثاً مع الرسام السوداني الأسمر محمد عمر خليل. أنستُ برؤية وجوه أعرفها، لكنني أملتُ بوجود أصدقائي من الشعراء والأدباء الفلسطينيين، كإدمون شحادة، وشفيق حبيب، ونزيه خير وسميح القاسم ـ ومن أجلهما قبلت الدعوة ـ ونقولا سعد... وغير هؤلاء من مثقفي فلسطين وأدبائها كالروائي، إميل حبيبي والشاعر (والنائب في الكنيست) توفيق زياد اللذين التقيتهما للمرة الأولى في ندوات «معرض القاهرة الدولي للكتاب» وأمسياته الشعرية... وأحسست بجفاف في حلقي حالما تذكرت، أن توفيق زياد كان قد قضى بحادث سيارة قبل أسابيع قليلة، فرحل عن فلسطين، وعن الوطن العربي الذي أحبه حتى الشغاف تاركاً زوجته الفنانة والإنسانة الأصيلة السيدة نائلة تكابد مرارة الإنتظار مع ولي عهده «الأمين» نجلهما الكبير.

فكرت بالإستفسار عن سبب عدم وجود أحد من هؤلاء الأصدقاء، وارجأت ذلك إلى ما بعد انتهاء الحفل.

استردني الرئيس عيزر وايزمن من تأملاتي وتداعيات أفكاري حين قال:

ـ والقدس... كيف وجدتها... هل أعجبتك؟..

الحقيقة أنا أعرف القدس من زمان يا فخامة الرئيس، يعني منذ ثمانية وعشرين عاماً... وكانت آخر زيارة لي إليها، قبل الإستيلاء عليها من قبلكم بعد حرب حزيران. إنها مدينة «السلام» الذي يجب أن يكون.

تنحنح الرئيس الإسرائيلي الذي كان عام ١٩٦٧ ـ إذا أسعفتني الذاكرة ـ قائداً لسلاح الجو الإسرائيلي. وبعد أن تنحنح قليلاً استطرد بالسؤال:

ـ وكيف وجدتها؟..

ـ فخامة الرئيس، لما كان الشاعر السوري نزار قباني...

وقاطعني بقوله:

ـ نزار قباني؟.. أيوه... أعرفه.. أعرفه!..

لم استفسر إن كان التقاه ويعرفه معرفة شخصية، أم أنه سمع باسمه، أو قرأ بعض أشعاره.. بل تابعت أقول متجاوزاً ملاحظته:

ـ لما كان يمشي في شوارع غرناطة، خُيِّل إليه أنه يسير في شوارع دمشق، وبلا شعور، مدّ يده إلى جيبه، وأخرج مفتاح بيته الدمشقي.

وعلق الرئيس عيزر وايزمن:

ـ جميل.. جميل هذا الشعور. وأنت، ماذا تشعر في القدس؟

ـ أشعر بأنني لم أغادر حلب.. فمناخ المدينتين متشابه.. ومبانيها الحجرية متماثلة.. حتى جبل الزيتون في القدس، كأنه جبل الأنصاري في حلب.. المدينتان يا فخامة الرئيس من مدن بلادي، وسكانهما، كالتوائم.. يتشابهون بكل شيء... وأعتقد أن المدينتين تستحقان أن تنعما بالسلام...

إمتد الحديث، وتواصل - حميماً - وتفرع في شؤون ومسارات متنوعة... وكانت تجري مداخلات وأسئلة من الإعلاميين يطرحونها بين حين وآخر، فاغتنم فرصة صمت الرئيس وايزمن، وأرد على ما يمكنني الرد عليه باختصار.

كان الضيوف جميعهم مشغولين بتناول المشروبات والطعام والحديث بين بعضهم البعض، وكنت - أعاني وحدي من العطش الشديد - وتمنيت لو أن أحداً يجلب لي كأس ماء.. كأس ماء فقط.! لم أكن أشعر بالجوع رغم أنني لم أتناول الغداء. وكدت أفصح عن رغبتي، لولا أن الرئيس الإسرائيلي عاد يسألني:

- متى كنت في حلب آخر مَرّة؟

وبعد تردد لم يستغرق طويلاً، أجبته:

- كنت أقوم بزيارة لها أو زيارتين في العام... لكنني لم أعد أتمكن منذ بضع سنوات من السفر إلى سورية ، بسبب إستقراري في لندن، وانشغالي بعملي الذي تضاعف في السنوات الأخيرة.

وجاءني سؤال من أحد الصحفيين:

- إذن فقد جئت إلى القدس من لندن؟..

وأجبت على الفور:

- لا.. ليس من لندن.

- ويبدو أن الإجابة لم ترض صحفياً آخر، فسألني:

- من أين جئت إذن؟

وكان جوابي الفوري:

- من القاهرة.. كنت أحضر فيها مهرجاناً شعرياً، وقد تسلّمت الدعوة هناك لحضور هذا المؤتمر في القدس.

وسأل صحفي آخر:

- ما رأيك في الرئيس مبارك؟

- لم تتح لي فرصة لمقابلته حتى الآن، وهذا مؤسف.

- ولكن ما رأيك بسياسته؟

- أنا أتردد على القاهرة كثيراً بحكم إرتباطاتي الثقافية... ومن تجربتي، أرى أن الرئيس مبارك رجل قيادة من طراز مختلف، فهو رئيس ديموقراطي؟ يعمل على الوصول بنظام الحكم إلى ذروة الديموقراطية وإطلاق الحريات. إنه رجل دولة - في رأيي المتواضع - ورجل دولة من طراز متميز.

وانهمر علي سؤال آخر:

- وكيف تصف علاقة مصر في عهد الرئيس مبارك مع العرب؟

- إن مصر هي الشقيقة الكبرى للدول العربية، والحكومة فيها تُصلح ما أفسدَتْهُ بعض الظروف الطارئة، والعلاقات بين مصر وشقيقاتها تمضي في طريق صحيح وسليم... وهي علاقات مصيرية؛ لا يمكن أن تَضعُفَ مهما اعترضها من مشاغبات خارجية.

وقبل أن أتلقى سؤالاً آخر، واصلت الإجابة بدعابة:

- لماذا تسألني عن مصر ولا توجه أسئلتك إلى الزملاء المصريين.. ومعنا في ضيافة الرئيس وايزمن ثلاثة؟.

وتدخل الرئيس الإسرائيلي قاطعاً - خط الأسئلة - على الآخرين بقوله:

- أتمنى أن يزورنا الرئيس مبارك... وبعد لحظة - ... والرئيس حافظ الأسد أيضاً.

إبتسمت وأنا أجيب:

- لن يحدث هذا - يا فخامة الرئيس - ما دامت الحكومات المتعاقبة في إسرائيل لاتثبت حسن نواياها في مفاوضات السلام، ولا تخطو خطوة جدية لتحقيقه في وقت أقل.

ومال أحد الواقفين خلف الرئيس ـ وأظنه مسؤول في مكتبه ـ وهمس في أذنه بكلمات قليلة؛ لم يتمكن أحد من الواقفين من سماعها، وبعدما عاد واستوى خلفه، كرر الرئيس وايزمن ترحيبه بي ثم قال:

ـ حان الموعد لنبدأ الإحتفال.

مشى الرئيس ومشى مرافقوه، ووقعتُ فريسة بين كاميرات الصحافة والتلفزيون، ومايكروفونات الإذاعيين والإذاعيات. وكان سلمان ناطور، وجودت عودة، وعوفير، ما يزالون معي، فهتفت بصوت مبحوح وحلق جاف «كباية ماء أرجوكم.. راح أدوخ من العطش». ولم يستجب لي أحد، لأن الإعلاميين لم يسمحوا لي بمغادرة القاعة حين حاول أحد الثلاثة أن يقودني إلى «البوفيه المفتوح» لأبلّ ريقي.

إقتربت للآونة سيدة في منتصف عمرها، يتوهج على رأسها شعرها الفضي، وقدمت لي نفسها على أنها من صحيفة الـ «جيروساليم بوست» وطلبت أن أقبل استضافة جريدتها لإجراء حديث طويل. شكرتها واعتذرت بأنني «تعبان وعطشان ونعسان» ولن أستطيع أن أفيدها بأي حديث... لكنها عاودت المحاولة قائلة:

ـ لا أقصد الآن، إنما أدعوك باسم الصحيفة، لتبقى في ضيافتها بعد انتهاء الزيارة الرسمية، لنأخذك في زيارات إستطلاعية نتحدث خلالها.

شكرتها ثانية مع وعد بتلبية الدعوة إذا توفر الوقت لذلك.

واقتحم «موقعنا» شاب أشقر طويل وقال:

ـ هل تذكرني... أنا «إيغال سارنا» من جريدة «يديعوت أحرنوت» وقد وعدتني بقبول ضيافة صحيفتي.. هل نسيت؟.. التقينا صباح اليوم على مائدة وزير الخارجية.

تأملته للحظات، تذكرت وجهه، لكنني لم أتذكر الحوار الذي إدّعاه.. ولم أتردد في أن أقول:

ـ بصراحة.. أنا لا أذكر شيئاً مما تقول.

وتلقى ايفال سارنا إجابتي بضحكة مرحة، ثم قال «لا تذهب، سأعود بعد لحظة ومعي «زجاجة ماء، عوضاً عن كأس». لبثت واقفاً، ولم أعد الآن أذكر من قال لي من الأصدقاء الذين كانوا معي «إن إيفال سارنا هو كبير محرري الجريدة... وأنه من الداعين إلى الإنسحاب من الجولان، ويقف في جميع كتاباته موقفاً متشدداً من معارضي الإنسحاب». عاد «إيفال سارنا» فارغ اليدين، اقترب وهو يضحك ويقول «هل تصدق؟... لم أجد ماء.. ولا أي شيء آخر».

وعلّقت على قوله: «إذن من هنا ستبدأ إسرائيل معركة السطو على المياه العربية».

فيما كان سلمان ناطور - بعد أن غادرنا عوفير وجودت - يخبرني بأن موعد الحفل اقترب، وأن الرئيس وايزمن، ووزير الخارجية بيريز يتهيآن لإتخاذ مقعديهما، وعلينا أن نتوجه إلى الحديقة حيث سيقام الحفل، رأيت فتاة شابة بيدها كأس ماء تقترب من موقعنا من القاعة، وكان ما يزال بعض الضيوف يتنقلون في أرجائها، رحت أرمقها على البعد وهي تدنو حتى وقفت أمامي ومدت إلي يدها بكأس الماء، وبلسان عربي قويم قالت:

- تفضل أستاذ فاروق... أظنك ما تزال ظمآناً.

تناولت الكأس من يدها، أخذت أرتشف الماء رشفات متقطعة، ومتلاحقة، قبل أن أقدم لها شكري الجزيل على مكرمتها، وبرقة عربية أصيلة قالت:

- أنا مينا سعيد عليان، محررة في صحيفة «كل العرب»الأسبوعية، ما رأيك في تحديد لقاء لإجراء حديث؟..

وأمام ذوقها العربي الأصيل لم أملك إلا أن أقول:

- على الرحب والسعة، إنه ليسعدني كل السعادة تلبية رغبتك ورغبة «كل العرب» بعد أن صار «السراب» ماء حقيقياً بفضلك.. ولا تعتبري قولي «غزلاً» غير مباشر، أو نوعاً

من حديث المجاملات... وما رأيك أن نبدأ الحديث بعد انتهاء الحفل مباشرة؟..

ـ معقول.. وعظيم جداً، سأكون في انتظارك.

ـ اتفقنا...

مضينا معاً بصحبة سلمان ناطور الذي كان يستعجلني، لأنه سيتولى تقديم الخطباء والترجمة من العربية إلى العبرية ـ وبالعكس.

مشت «مينا» لتبحث عن مقعد خالٍ، إذ كانت المقاعد قد احتلت، وقادني سلمان إلى مقعدي الذي كان في الصف الثاني أو الثالث، لا يفصلني عن منصة الخطابة؛ والمنصة الجانبية المخصصة لجلوس الرئيس ووزير الخارجية سوى ياردات قليلة.

أقيم الحفل في بيت رئيس الدولة، مساء الإثنين للثاني عشر من أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٤ تحت شعار «صانعو السلام» بدأه عريف الحفل سلمان ناطور، بعدما افتتح بكلمة الرئيس وكلمة وزير الخارجية، بدعوة الخطباء واحداً بعد الآخر إلى منصة الخطابة. أخذ المتكلمون يتعاقبون على منصة الخطابة، وعوضاً عن قيام سلمان بالترجمة، وزعوا علينا سماعات تنقل إلى آذاننا الترجمة فورياً.

أختُتِمتْ الكلمات.. وعاد الخطباء إلى مقاعدهم.. وأعلن عريف الحفل عن بدء فقرات الحفل المنوعة، ولم أُدْعَ إلى المنصة لإلقاء كلمة!.. ملأني إحساس بالضيق.. ولحت بعض المحيطين بي يتلفتون وينظرون إلى وجهي وكأنهم يتساءلون عن سبب عدم دعوتي. أحسست بالضيق، وبالحنق أيضاً. وفكرت؛ ماذا يعني أن يدعى أكثر من عشرة خطباء عرب، ويُدعى آنريكو ماسياس الفرنسي ـ المغربي الأصل، ويتجنبون دعوتي؟.. لا بد أن يكون في الأمر سر ما!.. أيكون السر، في أنني قلت كلاماً في حواري مع الرئيس الإسرائيلي لم يرضِ «الديموقراطية الإسرائيلية».. أتكون الآراء التي أبديتها أمام وزير الخارجية لا «تتناسب» مع سياسة إسرائيل؟.. وهل يظنون،

أنني كمواطن بريطاني من أصول سورية، سيجعلني أحجم عن قول ما أراه حقاً.. أم **أنهم توقعوا بأنني قد أقول كلاماً أعلنه من على منصة الخطابة ليسمعه جميع الحضور من إسرائيليين وعرب وأجانب، بينهم إعلاميون يمثلون وكالات أنباء عالمية، لا يتفق مع توجهات السياسة الإسرائيلية؟!..**

تزاحمت التساؤلات في رأسي، وتراقصت علامات الإستفهام والتعجب أمام عيني.. وازددت ضيقاً وحنقاً. وقررت فوراً مقاطعة الحفل، معلناً عن احتجاجي على هذا المسلك غير الديموقراطي، إذ لم أصل إلى مبرر يمحو خطأ المسلك.

نزعت عن رأسي سماعة الترجمة بيد متوترة، ونهضت لأغادر المكان دون أن أعير العيون التي كانت ترمقني وتحملق بي أدنى اهتمام.

فجأة... أحسست كأن عفريتاً من الجن كان يقف بمحاذاتي، وضع يده وألقى بثقلها على كتفي. رفعت رأسي ونظرت مستطلعاً عمن يكون هذا «الجني» الذي استوى فجأة بجانبي، رأيت «عوفير» يضغط على كتفي مهدئاً، وكأنه عرف بما أنوي عليه.. أو كان أحداً أنبأه بعزمي على مغادرة المكان قبل إنتهاء الحفل، وسمعته يهمس في أذني همساً:

ـ ليس من اللائق أن تغادر قبل انتهاء الحفل..

ـ ولكن...

قاطعني بقوله:

ـ مهما كان السبب.. ستكون مغادرتك مبعث تساؤلات كثيرة..

ـ لا يهم أبداً.. أريد معرفة الأسباب التي...

وقاطعني ثانية:

ـ إهدأ قليلاً.. ستعرف كل شيء بعد الحفل.. وأنا أعدك بذلك.. إبق الآن جالساً،

سأستفسر عن كل شيء وأعود إليك بالأخبار.

كان عوفير - كما ذكرت في فصل سابق - لبقاً في تصرفاته.. وبارعاً في إدارته وتنظيمه. ورغم عدم إقتناعي بأنه سيتمكن من الوصول إلى إجابة صحيحة تميط اللثام عن سر عدم دعوتي إلى منصة الخطابة.. لكنني وجدت أن لا مفر من البقاء، مع العزم على الإفصاح عماشعرت به من ضيق، بسبب **مصادرة حقي في الكلام والتعبير بكل حريتي. لم أعد أعبأ بما يُعرَضُ أمامي من فقرات. ولم يعد يشغلني سوى التفكير بما يجب علي فعله، كردٍ على هذا المسلك الذي اعتبرته غير منصف... وغير لائق، وأنهم صنعوا من «إسرائيل» دولة تسودها الحرية والديموقراطية، حتى باتت «واحة» وارفة في «صحراء» الديكتاتوريات العربية، حسب مزاعمهم دائماً في خطابهم السياسي.**

استمرت فقرات الحفل تتوالى، وأنا لاهٍ عن كل ما يجري حولي. لم أعد أعبأ إلا بضرورة الكشف عن السبب الذي كان وراء ما حدث.. ما الذي جعلهم يستثنون دعوتي إلى منصة الخطابة؟.. واسترجعت - في ذاكرتي - كل ما تضمنته كلمات الآخرين، واستمعت اليها بتركيز شديد، فوجدت أن ما قيل وتردد على ألسنتهم، لا يزيد عن مفردات تمتدح السلام، وعبارات مطاطة فيها من المجاملة لإسرائيل، دون أن تحتوي أي معنى من معاني الإنتقاد للخطوات المراوغة التي تقوم بها في مفاوضاتها مع الأطراف العربية، وخاصة المخالفات التي ترتكبها إسرائيل لاتفاقية إعلان المبادىء مع الفلسطينيين، التي تم توقيعها في «أوسلو» ولم تلتزم بأسسها إسرائيل إلتزاماً حرفياً ودقيقاً. وعلى أهمية حدث أوسلو في تحقيق أولى الخطوات على طريق السلام، لكن التطبيق لم يكن - من قبل إسرائيل - في مستوى الحلم الفلسطيني والعربي. وإذا كانت الإنطلاقة نحو السلام مجازفة من أخطر المجازفات التي أقدم عليها «أبو عمار»

لكنها ـ على أهميتها وخطورتها ـ لم تجسّد الحلم في إقامة الدولة الفلسطينية... إذ مايزال «الفلسطيني» بعيداً عن دياره. وما يزال «الفلسطيني» في الداخل، تحت الحصار الإسرائيلي، يعاني الفاقة في المخيمات حول غزة وعلى أطرافها.. فأي سلام هذا الذي تدّعي إسرائيل أنها صنعته؟.. وعلى أي الحسابات والمعايير قام المثقفون بامتداحه دون توجيه أي ملاحظة في كلماتهم التي ألقوها أمام الرئيس الإسرائيلي، وأمام وزير خارجية إسرائيل، وأمام هذا الحشد الضخم من الحضور الإسرائيلي، وبين المعارض والمؤيد؟.. وبين عدد من الذين ينتمون إلى مختلف الأحزاب!!..

هذا ماتبادر إلى ذهني، ورأيت أن الموقف يتطلب قوله، ويستدعي طرحه وإلقاءه على الملأ كله. لكن «الديموقراطية» الإسرائيلية كانت تقف بالمرصاد، فمنعتْ ـ بشكل أو بآخر ـ وصوله إلى الأسماع. وكنت أتوقع دعوتي للكلام وأكون ـ آخر الخطباء ـ لألقي بجميع الحقائق التي كنت دوّنتها في مفكرتي، وعرضتُ بعضها في الفصل السابق... لكنني استُبْعدتُ ـ لسبب ما ـ لم يأت لي بمفتاح كشفه أحد، رغم أنني تكهنت به، وضَمّنْتُهُ تصريحاتي للصحفيين الذين سألوني بعد انتهاء الحفل...

لقد كنت ـ مثل كثيرين ـ أتصور أن الديموقراطية في إسرائيل، هي ـ فعلاً المثل الصحيح، والقدوة لأنظمة الحكم في بلدان العالم الثالث، لكن الممارسات التي عايشتها خلال الزيارة، كشفت لي عن حقائق لم أكن على معرفة بها.. ولقد أدركت أهمية معطيات الزيارة، مثلما تأكد «ديوجين» عندما كان يحمل مصباحه، ويطوف في الطرقات بحثاً عن الحقيقة في رابعة النهار. لقد سلّمت بكفاءة الإسرائيليين ومقدرتهم على حسن إدارة الآلة الإعلامية، وتوجيهها توجيهاً سليماً ـ غير مباشر ـ لمصلحة سياساتهم على المدى الطويل. وهذا يشمل الإعلام محلياً، وإقليمياً، وعالمياً. مثلما

سلّمتُ بكفاءتهم ومقدرتهم على التنظيم الدقيق، والعمل إنطلاقاً من تخطيط مترو، ليحققوا النجاح في التسديد نحو الهدف. ولئن كان أسلوبهم الهادىء لا يثير الغضب، بل يساعد على امتصاصه، إلا أن من يقترب منهم، تتكشف له أسرار لعبتهم، فيعرف كيف يتفادى الوقوع في شباكهم، ويحذر في تعامله معهم، ذلك أن ما ينطلي على المرء وهو بعيد، يتعرى أمامه وينكشف ستره حين المواجهة. ومن هنا يتحتم إطلاق شعار «إعرف عدوك» والعمل به، لأن «من يعرف لغة سواه، يأمن مكره».. والتجارب العملية، خير أستاذ ومعلم للمرء كي يتجنب الوقوع في الخطأ. واليهود الذين تعلموا الدرس جيداً من أهوال الحرب العالمية الثانية، عرفوا كيف يتفادون الأخطاء، وهم يعملون على بناء مستقبل «دولتهم» التي نجحوا في إقامتها منذ سبعة وأربعين عاماً، وما زالوا يعملون على تثبيت أركان هذه «الدولة» على القاعدة نفسها، وكان شعوري وأنا بينهم خلال أيام الزيارة، كشعور شاعر العرب وفيلسوفهم، حين أنشد في صباه؛ يشكو صروف الدهر وعقوق البشر من حوله بقوله:

«ما مُقامي بأرض نَخْلَةَ إلا كمُقام المسيح بين اليهود»

وأرض «نخلة» التي عناها المتنبي، هي قرية من قرى «بني كلب» قرب «بعلبك» في لبنان، على تخوم سورية.

* * *

انفض الحفل..

وغادر الرئيس والوزير.. وتهيأ الناس للإنصراف.

لم يرجع «عوفير» لكن جودت عودة هرع نحوي، واصطحبني إلى الخارج لنستقل

«الأوتوبيس» الذي سيحملنا ويعود بنا إلى الفندق. أخذت ألوب بين الناس، وأبحث بين وجوههم عن وجه «مينا سعيد عليان» فلم أجد له أثراً.. وعند باب الخروج وجدتها في إنتظاري. قالت لي:

ـ سأتصل بك تلفونياً،، أعطني، رقم غرفتك في الفندق.

أعطيتها رقم الغرفة، وصعدت لأحتل مكاني في «الأوتوبيس» والضيق ما يزال يجثم فوق صدري. وتملكني الإصرار على القيام بكشف أسباب مصادرة حقي المشروع في طرح وجهة نظري على الناس جميعاً.. وقررت أن أقول كل شيء.

بحثت بين الزملاء الذين شغلوا بتبادل الأحاديث، عن الصديق علي سالم. لم ألمح له أثراً في الأوتوبيس، فقدّرت أنه مضى مع أصدقائه، وسألتقيه في الفندق ليلاً، أو ربما صباحاً، فقد رغبت في معرفة وجهة نظره مما حدث ـ علماً بأنه ـ كان من المتحدثين الذين لهم خبرة جيدة في هذا الشأن، إذ، علّمتّه تجاربه السابقة كيف يتعامل مع اليهود بعد أن استوعب أسلوب تفكيرهم. في اليوم التالي، لم أعثر على أثر لعلي سالم، سألت عنه عوفير، فلم أحظ بإجابة مقنعة!!.

11

في ردهة الفندق - وقد غادر الجميع الأوتوبيس - تجمهرنا بين المقاعد الجلدية، البعض ينظر في البعض الآخر، البعض يتحدث إلى البعض الآخر. عوفير يتحرك هنا وهناك. زميلته تجري إتصالات بتلفونها المتنقل. تحولت ردهة الفندق إلى قفير نحل. وقفت أمام «كاونتر» الإستقبال أنتظر دوري لإستلام مفتاح غرفتي،سمعت أحداً يقول: «نتجمع هنا بعد ساعة استراحة ثم نذهب إلى العشاء». أتقدم خطوتين. كان يقف أمامي الطبيب الصديقي وزوجته، أخذا مفتاحهما ومضيا. مهدي قبطي الفنان المغربي يتبادل الحديث مع الأديبة التونسية أشراف عزوز ويتضاحكان. تقترب مني حياة أبو النصر.. تسألني.. هل ستكون هنا بعد ساعة، يقولون إن العشاء خارج الفندق؟ أتقدم خطوة وأرد عليها..«لن أذهب إلى أي مكان.. سأتناول عشائي في الغرفة وأشاهد التلفزيون، وأنام». تقترب موظفة الإستقبال. أعطيها رقم غرفتي فتناولني المفتاح. أضع مفتاح غرفتي في جيبي، وأجلس متهالكاً على المقعد الجلدي. أخرج علبة سكائري، أشعل واحدة وأضع العلبة على الطاولة أمامي. ألمح وجه سلمان ناطور واقفاً مع أحدهم، أُلوّح له بيدي، يومىء لي بأنه رآني.. أدعوه فيستمهلني لحظة ريثما ينهي كلامه مع الواحد الواقف معه. أواصل التدخين، وتواصل أفكاري السفر إلى جميع الأمكنة. أتوقف في حلب، مدينتي التي تشبه القدس. أستعرض وجوه أهلي. لم يبق لي في حلب غير شقيقتي وزوجها وأولادها. والدي مات قبل أسابيع من إعلان إستقلال

سورية وانتهاء الإنتداب الفرنسي... كنت طفلاً في التاسعة أو نحوها، غادرت حلب للمرة الأولى عام ١٩٥٧ إلى الكويت، وعدت إليها بعد إعلان الوحدة بين مصر وسورية وقيام «الجمهورية العربية المتحدة» التي كانت حلماً من أحلام جيلي وتحقق.. وقريباً سيتحقق الحلم «المستحيل» بتحرير فلسطين وإنجاز الوحدة الشاملة بين الأقطار العربية المتحررة!!.. أطير إلى القاهرة حيث توفيت أمي ودفنت فيها قبل سنوات.. وأحلم. أعود إلى حلب وأحلم.. تمر الأسابيع والشهور وأحلم. يأتي عبد الناصر في زيارة إلى «الإقليم الشمالي» ـ سورية سابقاً ـ يطوف في مدن «الإقليم» فيثير عواطف الجماهير. يصل إلى حلب.. يخرج أهل المدينة عن بكرة أبيهم لاستقباله؛ والتعبير عن مشاعرهم «الوحدوية». يقوم بجولة في شوارع المدينة، فلا تتمكن سيارته من اختراق الزحام. في شارع «شكري القوتلي» الذي صنع الوحدة مع عبد الناصر، فمنح لقب «المواطن العربي الأول». في شارع شكري القوتلي الذي عاش الشعب السوري في عهد رئاسته، أزهى عصر ديموقراطي عبر تاريخها... في ذلك الشارع الطويل، تجمهرنا لنحيّي عبد الناصر، ولنحمل سيارته إلى أعلى.. جماهير حلب كلها كانت حاضرة تهتف باسم عبدالناصر، والوحدة العربية الكبرى. الرجال في الشارع، والنساء في الشرفات يزغردن وينثرن الزهور والرياحين و... الملبّس. يقع «الإنفصال».. يتمزق الحلم.. تحترق الأفئدة.تحرق السيكارة إصبعيّ... أطفئها وأستيقظ من حلم اليقظة، وأعود من رحلتي إلى المقعد الجلدي في ردهة الفندق.. وأبدأ رحلة أخرى على طريق السلام المحفوف بالمخاطر.

* * *

سلمان ناطور يجلس إلى جانبي..

- ما الذي حدث يا سلمان؟.. لماذا - وأنت عريف الحفل - لم تدْعُني، لماذا استثنيتني.. لماذا منعتموني من الكلام؟..

- صدّقني.. كنت أحسب أنهم سيطلبون مني استدعاءك لتكون آخر الخطباء.. لا أعرف ماذا جرى.. قيل لي إختصر.. كان المفروض أن أدعوك، لكنهم طلبوا مني اختصار عدد الخطباء.. كان إسمك بين المُختصرين.. لماذا؟..لا أعرف، لكنهم أخبروني أن الوقت متأخر..والبرنامج حافل بالفقرات والرئيس يريد إنهاء الإحتفال هذا ما حدث!..

- هذا عمل مشين، وسلوك لا علاقة له بالديموقراطية المزعومة.. لقد تعمدوا ذلك عمداً.. وأنا لن أسكت.. سأتكلم وأجلو الحقيقة.. سأقول للصحافة كل شيء.. ديموقراطية إسرائيل كذبة كبيرة. إنهم أقوياء، لكنهم يكذبون.. السلام لا يتحقق بالكذب يا صديقي.. السلام لا يقبل الزيف ولا المراوغات.. السلام يا صديقي يتطلب نوايا حسنة وعملاً صادقاً.. وإذا كان اغتصاب الأرض وإحتلالها يتم بالقوة.. فإن القوة لا تصنع سلاماً، ولا تستطيع فرضه.. يجب أن يعلم الجميع أنهم صادروا رأيي بالقوة، مثلما يصادرون الأراضي، ويتبجحون بالسلام.

- معك حق أن تغضب.. إهدأ قليلاً، وتجمّل بضبط الأعصاب والمشاعر.. وسيسير كل شيء على ما يرام.

- هل تعرف ياصديقي.. منذ خمسين عاماً وانكسارات الأمة العربية وهزائمها تتلاحق، لأنها تضبط أعصابها وتتجمل بالصبر، وعندما ينفجر مرجلها... يصيبها أذاه؛ لأنها تدع المرجل يغلي طويلاً.. أنا لن أغضب ولن أثور.. لكنني سأقول رأيي بوضوح وجلاء... وسأعلن موقفي بهدوء.

- يا الله بسيطة.. سنذهب بعد ساعة إلى العشاء، ويمكنك أن تقول ما تريد أمام الجميع.

- لن أذهب إلى دعوة العشاء... ولن أسكت عما جرى..سأقول كل شيء للصحافة..

بالمناسبة، هل صحافة إسرائيل حرّة؟..

يضحك سلمان ناطور، ويحاول برصانته تهدئتي وامتصاص نقمتي، يسألني إن كنت أحب القيام بجولة في القدس، فأقول له، سأقوم بذلك يوماً ما.. أما الآن، سأصعد إلى غرفتي لأتناول عشائي وحدي.. وأنام.. ربما أجري بعض الإتصالات الهاتفية قبل أن أنام. ثم نهضت مستأذناً.

قال لي سلمان وهو يصافحني:

- سأعود إليك بعد العشاء

- سأنتظرك.

- إلى اللقاء.

* * *

أغلقت باب غرفتي، فغمرني شعور بالراحة والإطمئنان. فتحت التلفزيون - للمرة الأولى منذ وصلت إلى القدس - أخذت أعبث بأزراره بحثاً عن قناة أفهم لغتها. قناة الـ (C.N.N) تعرض أخباراً عن أحداث عنف في إحدى الولايات الأميركية، أضغط زراً آخر، فتظهر على الشاشة مغنية تغني بالتركي.. أضغط على الزر الثالث، فأرى مذيعة تبتسم وهي تتكلم بلغة لم أفهمها.. لعلها كانت اللغة العبرية، وبعد ما غاب وجهها المليح، بدأ فيلم أميركي مترجم إلى العبرية، نقلت إلى قناة رابعة، وخامسة. وعلى السادسة او السابعة، رأيت مشهداً من لقائي مع الرئيس الإسرائيلي، رحت أتابع الخبر فلم أفهم شيئاً مما يقول المذيع.. ثم تتابعت نشرة الأخبار بالعبرية.

أقفلت التلفزيون وفتحت الراديو على محطة تذيع موسيقى غربية. رفعت سماعة التلفون وطلبت عشاء إلى الغرفة.. واستلقيت على السرير وأنا ماأزال مرتدياً ملابسي. بعد وصول العشاء، أغلقت الباب وخلعت ملابسي. كان الجو دافئاً ومريحاً. تناولت

طعامي بصمت، ثم استلقيت، وأغمضت عينيّ فقد غلبني النعاس دون أن أغالبه... ونمت. نمت وصوت الموسيقى الهادئة يسري في سمعي وكأنه يتسلل كالمخدر عبر أذنيّ إلى أطرافي وينتشر في أنحاء جسدي.

رأيت «كسرى» في إيوانه معتلياً كرسي عرشه في قصر «الخَوَرْنَق» وقد أمسك بجريدة يقرأ أخبارها بصوت مسموع. ورأيت أشجار نخيل تسمق فوق أرض ممتدة تلامس تخوم الأفق. ورأيت قوافل تسير في صحراء يضيء كثبانها قمر يضحك. ورأيت شُعَبَاً صخرية تشبه النصال. ورأيت خيمة سوداء أمامها موقد نحاسي كبير تتوهج ناره تحت ثلاث دلال قهوة عربية. وسمعت صوتاً يرتل آيات من الذكر الحكيم: «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أُوفِ بِعهدكم وإيايّ فارهبون».. تلاشى الصوت. وسمعت أصواتا سماوية تهللُ وتُسَبِّح. ورأيت وجوها ليست كوجوه البشر.. تسبح في النور. ورأيت شيخاً يتوكأ على عصاه يعرج في أقطار السماوات تحف به حورٌ عين.. وتناهى إلى سمعي صوت مرتل القرآن آتيا من مكان بعيد دون أن أرى له وجهاً. ورأيت السماء تظلم وتكفهر، وقارىء القرآن يتلو: «وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ٥ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٥ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون». ورأيت نجمين يخرّان من أعلى سماء ويهويان فوق جبل الزيتون.

ورأيت «رابين» يتحدث عن السلام. ورأيت «بيريز» يطلق النار من مدفع رشاش على طفل يقف عارياً أمام الخيمة السوداء، بيده حجر. وسمعت صوت «عمر أبو ريشة» يهدر: «أمتي هل لك بين الأمم/ منبر للسيف أو للقلم/ ألإسرائيل تعلو راية/ في حمى المهد وظل الحرم». ورأيت نسوة عاريات يهزجن أمام حائط البراق. ورأيت شاعراً يعتلي صخرة.. يلّوح وينشد: «إخوتي.. يا إخوتي.. يا إخوتي.. لا تلوموا شاعراً في القدس زار حَبيبَهُ بعد عصر الإنهزام/ يقول شعراً عنترياً في إتفاقات السلام». ورأيت وجه إمرأة كأنها السيدة العذراء تحضن طفلها.. وسمعت صوت مؤذن يدعو إلى الصلاة.. وسمعت أجراس الكنائس تقرع.. ثم تقرع.. ثم تقرع.. ثم تقرع.. ثم يسود الصمت.. فأصحو.

* * *

على «الكوميدينو» الملاصق للسرير، وضعت أوراقاً وقلماً وساعة يدي تحت المصباح. وكان الراديو يرسل مقطوعة موسيقية، تبينت أنها «كونشرتو» من «كونشرتات البيانو» لشوبان،أو فاغنر. لم أتمكن من التمييز بينهما. كانت الستارة مرفوعة، فبدت السماء من خلال زجاج النافذة، رمادية. استويت في السرير.. تناولت قلماً وورقة، وأخذت أكتب ما تراءى لي في الحلم، ولما اكتمل مطلع القصيدة، أعدت الورق والقلم، ونزلت عن السرير نشطاً؛ كأنني نمت ألف ساعة. دخلت الحمام.. اغتسلت وتوضأت، وعكفت على تأدية صلاة الفجر. تلوت في الركعة الأولى من سورة البقرة: **«قد نرى تَقَلّبَ وجهك في السماء، فَلَنُوَلّينك قبلة ترضاها، فَوَلّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فَوَلّوا وُجوهَكم شطرهُ، وإنّ الذين أوتوا الكتاب**

ليعلمون أنّه الحق من ربهم، وما الله بغافل عمّا يعملون». وفي الركعة الثانية، قرأت «سورة الشرح».. سلّمتُ، ونهضت متوجهاً نحو النافذة المتصلة بباب زجاجي، فتحته ومشيت خارج الغرفة حتى حاذيت جدار السور الواطىء، وأرسلت النظر أتأمل قبة المسجد الأقصى؛ والشمس ترسل ذؤاباتها وتنهض من خلف تخوم الأفق.

لم يستغرق وقوفي طويلاً حين اكتمل الشروق. عدت إلى الداخل، طلبت طعام الإفطار مع القهوة، وتوجهت نحو الباب حين سمعت حفيف انزلاق الجريدة على السجاد، فالتقطتها وجلست على حافة السرير أتصفحها وأقرأ العناوين الرئيسية على صفحتها الأولى. ولفتني عنوان بارز يتصدر العمود الأول من الجهة اليسرى تحت اسم الجريدة "Th Jerusalem Post” تقول ترجمته:

«رابين يدعو صقور حزب العمل أن يصمتوا بشأن الجولان».

وجاء في التقرير المفصّل أن:

«رئيس الوزراء إسحق رابين أوضح أمام مجموعة جناح الصقور، بأن السلام لن يتحقق لإسرائيل، إذا لم نعمل على إعادة الجولان إلى السوريين. والذين يعتقدون غير ذلك، هم واهمون ويعيشون في وهم وحلم أكبر كذبة».

وتقول المحررة «سارة هونيغ» كاتبة التقرير [أقتبس هنا أهم فقراته، بقدر من التكثيف] إن رابين أكد لجناح الصقور:

«إن الجولان هي الأخيرة في لائحة الأولويات.. وينبغي أن يعلم الجميع بأن القدس الموحّدة هي الأهم، وتأتي في أول اللائحة، وقيمة القدس بالنسبة لنا، توازي عشرة أضعاف قيمة الجولان».

شعرت بأن رئيس الوزراء الإسرائيلي، يريد إستفزازي وأنا أقرأ تلك التقسيمات التي يضعها لأولويات السلام، لكنني تابعت القراءة، فعلمت من التقرير أن رابين عقد اجتماعاً تمهيدياً مع زعيم الصقور (كاهالاني) قبل أن يعقد (الكنيست) جلسة

للتصويت على مسألة الإنسحاب من الجولان، كان الهدف من الإجتماع، ضمان أغلبية الأصوات التي تؤيد الإنسحاب من الجولان. وقد انفضّ الإجتماع التمهيدي عن تقارب كبير مع وجهة نظر إسحق رابين، وهذا يعني - كما جاء في التقرير - بأن الصقور:

«لن يعترضوا على مبدأ الإنسحاب، وسيُصَوِّتون لصالح الموافقة على الإنسحاب الكامل من الجولان، طالما أن رابين يجد في الإنسحاب مصلحة إسرائيل، من أجل الوصول مع سورية إلى اتفاقية سلام».

وتقول «سارة هونيغ» كاتبة التقرير في جريدة «جيروسالم بوست» التي تصدر باللغة الإنكليزية في القدس:

«إن الموضوع تم طرحه على أعضاء الكنيست، فلم يلق معارضة، وقد علق رابين بعد التصويت بقوله: «بات في المستطاع الآن، دفع مسيرة السلام إلى الأمام وبخطوات واثقة حتى نصل مع سورية إلى إتفاق شامل».

ثم أوضح التقرير على لسان إسحاق رابين، بأن:

«هناك الآن بعض التقدم في المباحثات مع سورية، مع العلم بأنه ما تزال ثمة فجوات عميقة علينا أن نعمل على ردمها، وأن نبذل ما في وسعنا لتذليل العقبات».

كذلك ألح رابين على ضرورة العمل من أجل:

«إزالة وإذابة مشاعر التفرقة العنصرية بين العرب واليهود، حتى نفوز بأصوات الناخبين العرب مستقبلاً».

وعلّقت «سارة هونيغ» بقولها: **«ويبدو أن جماعة الصقور، سيكونون متجاوبين مع رابين، وإيجابيين أيضاً»، ذلك أن رابين قد طالب بأن: «يؤلف أعضاء الحزب جبهة واحدة متماسكة، وأن يصوتوا في جانب الإنسحاب من الجولان وذلك لمصلحة إسرائيل».**

وما يدعو إلى الإستغراب في التقرير، أن المحررة عادت تقول في ختام تقريرها، بأن:

«كاهالاني، وعمانويل زيسمان، قررا الإستمرار في معارضة إقتراح رابين، والقتال من أجل البقاء في الجولان، وقد بدا زيسمان في معارضته، أكثر تشدداً من كاهالاني».

رغم قولها في فقرة متقدمة بأن:

«إيلي غولدسميث امتدح رابين لأنه - أي رابين - جعلنا نرى الصورة واضحة وجلية.. وأنه - أي غولدشميت - لن يتردد أبداً بالتصويت إلى جانب الإقتراح» لأن السلام مع سورية لا يمكن ضمانه إلا بالإنسحاب التام من الجولان.

إذن؛ فإن رابين مدرك تماماً بأن موقف سورية لا يقبل أخذاً ولا رداً، وأن الثوابت في السياسة السورية، لا يمكن إختراقها بمجادلات عقيمة، وأن المفاوضات على أسس مؤتمر مدريد حين قبلت سورية دخولها متخذة من قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن قاعدة ثابتة للإنطلاق نحو السلام الشامل والعادل، لم تعد تقبل مناورات ومراوغات تمارسها حكومة رابين، فتعرقل بها المسيرة السلمية، وتطيل أمدها، مرة بحجة الخوف على أمنها، ومرة بدعوى حرصها على إجراء إستفتاء «ديموقراطي» بين سكان المستوطنات، وهذا ما جعل وارين كريستوفر وزير خارجية الولايات المتحدة (الراعي الأول) يصرح بأن عملية السلام في الشرق الأوسط، كلفته من الجهد أضعاف ما كلفه أي عمل آخر قام به في حياته.

وفي غياب الإتحاد السوفييتي بعد تفككه، بدا الحضور الروسي كـ (راعٍ آخر) هلامياً، وكان دور «يلتسين» ووزير خارجية روسيا، دوراً ثانوياً، إن لم نقل بأن واشنطن قد ألغت تأثيره، بعد أن حوّلته إلى مجرد «صورة» كاريكاتيرية مهزوزة، ذلك أن انغماس روسيا في مشاكلها الداخلية التي أفرزتها حالة اقتصادية متدهورة، فضلاً عن

«الحروب» التي وجدت نفسها مجبرة على إضرام نارها؛ في عدد من «الجمهوريات» التي كانت تسبح في فلك الإتحاد السوفييتي الذي اهترأ.. جعلها - عملياً - لا تقوم بدور فعّال.. أو لا تستطيع أن تقوم بأي دور جانبي. هذا الوضع المهمش للحضور الروسي، ترك الساحة خالية تماماً أمام اللاعب الأميركي، يصول فيها ويجول حسب ما يقتضيه «الهوى» الإسرائيلي.. وهو «هوى» أصاب كبد واشنطن إصابة بالغة، فصار دونه أي «هوى» آخر، حتى لو كان «هوى» المملكة العربية السعودية ودول الخليج، الذي يسبب إصابات بالغة للإقتصاد الأميركي إذا ما تحرك وعصف!!. بل - قد - يلغي الوجود الأميركي من منطقة الشرق الأوسط، مثلما جرى، واستطاع أهل «فيتنام» بقاماتهم «الضئيلة» وفقرهم المدقع، أن يفعلوا قبل زمن أقصر من عمر القضية الفلسطينية. ومثل ما فعلت «كوريا» قبل نحو عام، فوقفت موقفها الصلب حيال، التهديدات الأميركية حول ما تقوم به من تطوير لمفاعلاتها النووية... فاهتزت صورة واشنطن في عيون العالم، وبدا للناس أن النفوذ الأميركي، لا يكون له تأثير إلا في دول معدودة ومحددة في إطار منطقة الشرق الأوسط.. ليس من بينها إسرائيل - طبعاً - لأن الهوى «الإسرائيلي» - مثلما ذكرت - دونه «هوى» النفط وأهله.

إلى ذلك، فان رابين الذي يعرف أين تكون مصلحة إسرائيل، يعرف كيف «يتدلل» على كلينتون وعلى كريستوفر!... وعلى «الآخرين» أن يتكيفوا مع هذا الواقع القائل، إن «المجتمع الدولي» يتخلى عنهم.. ويؤكد تخليه عنهم في كل مناسبة.. ولم يعد يبقى لهم إلا الإعتماد على أنفسهم لدعم قضيتهم العادلة.

* * *

عودة إلى الجريدة...

بتقليب صفحات الـ «جيروسالم بوست» برز أمامي على الصفحة الأخيرة من العدد

نفسه، الصادر صباح الثلاثاء ١٣ ـ ٩ ـ ١٩٩٤، وعلى أربعة أعمدة، مقال كتبته «باتشيفا تسور» تتوسطه «صورة كبيرة» على ثلاثة أعمدة، تضمني مع الرئيس الإسرائيلي، وتحتها تعليق يقول: **«الرئيس عيزر فايتسمن والكاتب السوري فاروق منجونة يتناقشان حول تطور قضية السلام يوم أمس خلال إجتماع تم في «بيت هناسي» حضره فنانون ومثقفون إسرائيليون وعرب».**

في المفتتح استهلت الكاتبة مقالها بعبارة «السلام من القلب إلى القلب» التي استهل بها الرئيس الإسرائيلي كلمة ألقاها أمام الضيوف ـ لم أكن قد وصلت إلى الحفل ففاتني الإستماع إلى الكلمة ـ ثم كتبت:

«هكذا بدأ الرئيس الإسرائيلي عيزر فايتسمن حديثه إلى المثقفين والأدباء والفنانين العرب والأجانب الذي اجتمعوا في القدس بمناسبة مرور عام على توقيع إتفاقية السلام. (لم توضح المحررة أي اتفاقية، وإن كان المقصود بها، اتفاقية أوسلو) التي أفضت إلى اتفاق «غزة ـ أريحا». ثم تابعت المحررة:

«وقال الرئيس، آمل أن استضيف الرئيس السوري حافظ الأسد، والرئيس المصري حسني مبارك في مثل هذه المناسبة، العام المقبل».

ويبدو أن ما نشرته الجريدة كان مستخلصاً من الحوار الذي دار بيني وبين الرئيس الإسرائيلي، وسجلته المحررة فكتبت:

وأضاف الرئيس وهو يوجه حديثه باللغة العربية، إلى الكاتب السوري فاروق منجونة الذي يقيم حالياً في إنكلترا: «أعرف أن الرئيس السوري حافظ الأسد فعلا يريد السلام» فأجابه الكاتب السوري فاروق منجونة:

ـ «لقد أكد الرئيس حافظ الأسد في خطابه الذي ألقاه الأسبوع الماضي، أن السلام هو هدف سورية الإستراتيجي الذي تسعى إلى تحقيقه». ثم أضافت الكاتبة ـ وأنا أحاول ترجمة ما كتبته حرفياً ـ فقالت:

«إن زيارة المواطن السوري فاروق منجونة - وإن يكن مغترباً عن وطنه الأم منذ زمن طويل - إلا أنها أثارت كثيرا من الشائعات، فالبعض قال، إنه جاء إلى القدس حاملاً رسالة من الرئيس الأسد، وقد سلمها إلى وزير الخارجية شمعون بيريز خلال مأدبة الإفطار التي دعا إليها الوزير صباح أمس، ولكن لم يؤكد أحد هذه الشائعة». وكنت قد ذكرت ما حدث خلال مأدبة الإفطار بالتفصيل، وللإطلاع عليها تستحسن العودة إلى الفصل السابق لمعرفة الحقيقة.

المقال الذي كتبته «باتشيفا تسور» مقال طويل احتل ربع الصفحة الأخيرة من جريدة «جيروسالم بوست» التي تصدر في القدس باللغة الإنكليزية، وقد أهملت ترجمة الفقرات الوصفية منه. ونشرت الصحف التي تصدر باللغة العبرية مقالات مماثلة، ومن الترجمات التي أعدتها لي الأديبة والشاعرة الفلسطينية «مينا عليّان» لست مبالغات وصفية إلى جانب إستنتاجات وتكهنات عمد المحررون إلى تسجيلها، لكنهم لم يتجاوزوا ذكر الحقائق، ولم (يخترعوا) شيئاً، عمدت إلى (إختراعه) بعض المطبوعات العربية في تعليقاتها التي اطلعت عليها بعد عودتي إلى لندن، ثم القاهرة.

أما الصحف التي تصدر في القدس باللغة العربية، فقد التزمت التزاماً حرفياً بوقائع ما جرى.. وبتسجيل نص كلماتي وحواراتي دون إضافات، ولكنها أبدت وجهات نظرها بتعليقات تعكس آراءها، وهذا حق مشروع لم يكن لي عليه أي مأخذ. ولكي أعطي مثلا على ذلك، أُثبت فقرات مما كتبه «خالد سعد» المحرر في ملحق صحيفة «الأسبوع» التي صدرت يوم الجمعة في ١٦ - ٩- ١٩٩٤ . فقد نشرت على الصفحة «٢٤» خبراً عن عدم حضور محمود درويش وأرفقته بصورتي مع الرئيس الإسرائيلي - وقد يكون ذلك خطأ غير مقصود - وفي ملحق العدد نفسه، تحقيق بقلم خالد سعد - احتل الصفحتين ٤ و٥ أورد الكاتب وصفاً مسهباً لما جرى، ثم ذكر أنه أجرى حواراً معي،

جاء فيه:

بين الكتاب والأدباء والفنانين والصحفيين العرب الذين وصلوا، حاز الكاتب السوري فاروق منجونة على إهتمام كل الحضور، حتى ان رئيس الدولة عيزر فايتسمان تحدث معه لمدة تزيد عن النصف ساعة.

ومن الجدير ذكره أن جميع الأدباء تمت دعوتهم إلى إسرائيل، من قبل المركز الدولي للسلام في الشرق الأوسط، وذلك بمناسبة مرور سنة على توقيع اتفاق اوسلو.

وعلمت «الصنارة» ان الوفد التقى الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في غزة صباحاً (يوم الجمعة) قبل لقائهم فايتسمان.

وفي حديث لـ «الصنارة» مع الكاتب السوري فاروق منجونة حول عملية السلام مع سوريا قال، ان رابين، رئيس الحكومة الإسرائيلية، بدأ يعي أهمية الدور السوري في المنطقة، وأنه الآن بدأ يفعل ما كان يجب أن يقوم به قبل سنين طويلة. وأضاف: «نأمل بكل صدق ان يكون ما نقوم به اليوم من لقاء أدبي، دليلاً قاطعاً للسياسيين في المنطقة حول امكانية التعايش، نأمل أن يخلق هذا اللقاء علاقة وطيدة معنا، وذلك من أجل تبادل الرأي، لأن الفكر والعلم أساس التقدم».

وتحت عنوان «الحق لا يموت» استطرد الكاتب بوصف مشاعر المواطن السوري، وعلق على دور الإعلام في سورية قائلاً بأنه «إعلام واعٍ» مازجاً بين وصفه وبين نص حواري بقوله: **«إن الإنسان السوري، وأنا واثق منه يعي أن الحق لا يموت مهما مضى عليه الزمن».** وبعد أن أورد - في مزجه - بين تعليقه وأقوالي فقرة جاء فيها أن: «القيادة التي ترى مصلحة شعبها في أن تحقق له الرخاء والإستقرار والتعاون مع جيرانها في المنطقة، هي قيادة واعية، لأنها تبحث عن منطلق جديد لبناء الإنسان الجديد، عبر صنع سلام دائم وعادل». بعد هذا التعليق، أورد الكاتب نص الحوار على

النحو التالي:

«الصنارة»: ما هي أهمية هذا اللقاء الأدبي حسب رأيك بالنسبة لعملية السلام؟

منجونة: عندما نؤمن جميعنا بأن السلام الحالي هو عمل وفعل، وليس قولاً، عندئذ يأتي دورنا. كل شيء قابل للتحقيق إذا خلصت النوايا من أجل الأجيال القادمة».

وحول رأيه في الوضع السياسي الحالي قال لـ «الصنارة» أولا أنا لست سياسياً ولا أعمل في حقل السياسة، ولكنني مقتنع كل الإقتناع بأن الخطوات التي يسيرها السياسيون الآن تجيء في سبيل تحقيق السلام العادل والدائم. وهذا ما أكده منذ أيام قلائل الرئيس السوري حافظ الأسد في خطابه بمناسبة إفتتاح مجلس الشعب الجديد، بالفعل وبالحتمية، إن السلام هو هدف كل مواطن سوري.

وتحت عنوان آخر «لماذا يتحول الحب إلى عداء وحرب» أورد كاتب التحقيق «خالد سعد» الحوار التالي:

وحينما التقى فاروق منجونة الكاتب السوري الرئيس فايتسمان قال له «كما تعلم فخامة الرئيس نحن أولاد عم، وقد عشنا تاريخا طويلاً من النزاع، وكما يقول التاريخ في القدم، كان المواطن اليهودي يعيش حياة طبيعية مع العرب، فلماذا نحول هذاالحب القديم إلى عداء وحرب؟».

وحول سبب زيارته لإسرائيل قال منجونة لـ «الصنارة» «جئت إلى هذا البلد للتعرف على الناس. هؤلاء الأدباء الذين يفهمون معنى السلام، الذين يفهمون معنى الحق، وأولئك السياسيون الذين يريدون أن يعيدوا لكل صاحب حق حقه، وهي فرصة لا يمكن لنا أن نحققها كل يوم، هي فرصة نادرة، يجب أن نكسبها، ذلك أن رجال السياسة وفي مقدمتهم الرئيس السوري حافظ الأسد، هو مفتاح السلام في المنطقة الآن. هو المفتاح الذي يحقق السلام، ولأنه يفهم ويعي تاريخ المنطقة وتاريخ القضية ويعي كل

خطوة من خطوات الماضي حتى اليوم، لا يمكن أن يتحقق السلام بدونه. السلام لن يتحقق حتى يأخذ كل مواطن عربي حقه، وليس هذا فقط، وإنما ان يحصل كل إسرائيلي على حقه في العيش هنا، فالمصالح مشتركة، لذلك اعطني حقي وخذ حقك، حيث لا يمكن أن تحتفظ بحقي ويبقى حقك معك.

وحول شعوره خلال اللقاء بالرئيس الإسرائيلي عيزر فايتسمان قال لـ «الصنارة» الحقيقة كنت أشعر كأنني أكلم مواطناً من حلب أو من دمشق، وأنا أسير في شوارع القدس، كنت أكرر الصورة القديمة التي أحسها نزار قباني شاعر سورية المعروف عندما زار الأندلس، حيث أحس عندما كان في غرناطة بأنه يسير في شوارع دمشق، فمدّ يده إلى جيبه ليخرج مفتاح البيت ويفتح البيت، وها أنذا الآن، وأنا في شوارع القدس أشعر أني في مدينة حلب. لا فرق بين القدس وحلب، حلب والقدس مدينتان من مدن بلادي!! يجب أن يسودهما السلام والوئام والمحبة».

ورفض الكاتب السوري الإجابة بشكل مباشر على سؤال «الصنارة» ما اذا كان قد التقى الرئيس حافظ الأسد قبل مجيئه إلى إسرائيل، حيث قال: «أنا التقي الرئيس السوري كل ساعة، وكل ليلة في فكره وعقيدته!!».

وحول ما إذا وافقت الحكومة السورية على سفره إلى إسرائيل قال «في الوقت الذي تلقيت فيه الدعوة لحضور هذا المؤتمر والمشاركة فيه لم اكن في سورية، وإنما كنت مسافراً ومتنقلاً في أنحاء العالم. وكما تعلم أنا شاعر وخلال تجوالي أكتسب خبرات في كل مكان في العالم، وعندما تأتي اللحظة لإتخاذ قراري أتخذه بشكل شخصي».

* * *

لقد أوردت تلك الفقرات بالنص الحرفي، ويقتضيني الإنصاف، أن أنوه بالأمانة

والموضوعية اللتين اعتمدهما «خالد سعد» في كتابة تحقيقه، رغم ما ورد فيه من إسهاب وصفي تضمن عبارات كان يمكن تجاوزها دون أن تخل بسياق الموضوع. ويُلاحظ أن «الحوار» لم يتجاوز ما قلته في حواري مع الرئيس الإسرائيلي، ولا يختلف - من حيث الموضوعية - إلاّ ببعض «المفردات» التي اختارها الكاتب، ليكسب تحقيقه - ربما - خصوصية تميزه عما كُتِبَ في الصحف الأخرى.

خلال جلوسي منتظرا وصول الإفطار، وأنا عاكف على قراءة صحيفة "THE JERUSALEM POST" اتصلت بي «مينا عليّان» تعتذر عن عدم تمكنها من الإتصال مساء أمس، وتطلب إجراء الحوار - الآن - على التلفون، وقد استجبت لرغبتها إختصاراً للوقت. ولأن صحيفة «كل العرب» التي يرأس تحريرها الشاعر سميح القاسم وتصدر إسبوعية في مدينة «الناصرة»، فقد نُشر الحوار في عددها الصادر يوم الجمعة ٢٣ـ ٩ ـ ١٩٩٤، أي بعد أسبوع من الحوار الذي نشره «خالد سعد» في ملحق صحيفة «الأسبوع» وبعد أربعة أيام من قيامي بزيارتي إلى «الجولان» بدعوة من صحيفة «يديعوت احرنوت» التي أصدرت ملحقاً صدر في ١٩ ـ ٩ ـ ١٩٩٤ تضمن ثلاث صفحات مصورة عن الرحلة وتحقيقاً واسعاً كتبه «إيغال سارنا» الذي قام بإعداد ترتيبات الزيارة.

لم تتجاوز «مينا عليّان» في موضوعها، تكرار الوقائع التي حدثت في الحفل الذي أقيم في بيت رئيس الدولة، ونشرتها الصحف الأخرى، لكنها تميزت بالدقة في تسجيل حواري معها، وقدالتزمت بحرفيته، خاصة بما يتعلق في تعليقي على الأسباب التي دعت إلى إستثنائي، وعدم دعوتي إلى إلقاء كلمتي، بعد أو (بين) الذين تعاقبوا على «منصة» الخطابة بحضور رئيس الدولة ووزير الخارجية، ووجود حشد كبير من المدعويين. مثلما تفرّدتْ - في نهاية المقال - بتعليق عبرت فيه عن وجهة نظرها من

المؤتمر، أو وجهة نظر الصحيفة، التي تعكس بالتالي، وجهة نظر رئيس تحريرها الشاعر سميح القاسم.

وأرى من المستحسن إيراد فقرات أساسية، من النص الذي كتبته «مينا سعيد عليّان» لتبدو الصورة أكثر جلاء. فبعد المقدمة التي أوردت فيها أسماء المدعويين ووصفت مجريات الحفل، كتبت تحت عنوان (صانعو السلام المبتور) بالنص الحرفي:

«تولى عرافة الحفل الأستاذ سلمان ناطور، وشمل البرنامج عدة فقرات فنية، شارك فيها أدباء وفنانون عرب ويهود.. ودعي للمنصة الضيوف الذين ذكرت أسماءهم أعلاه، مع إستثناء الروائي والشاعر السوري فاروق منجونة.

وبرزت علامات استفهام كثيرة، تدور حول موضوع عدم دعوة الروائي السوري فاروق منجونة إلى المنصة كغيره، فتوجهت إليه بالسؤال لتفسير ذلك فقال:

لقد قبلت دعوة «المركز الدولي للسلام» لي كأديب وليس كممثل لسوريا.. ودخلت البلاد بجواز سفر بريطاني وليس سوري، وعدم دعوتي للمنصة كالبقية سببه رغبة السلطات بإظهاري كسياسي وليس كأديب، وقد ورد في جريدة «يديعوت احرونوت» و«جروزلم بوست» أنني جئت لأمثل سوريا وهذا غير صحيح، فقد أكدت من خلال اللقاءات معي لجميع الإعلاميين، انني أمثل نفسي فقط وقرار زيارتي للقدس نابع من ذاتي، وقد لبّيت الدعوة كأديب فقط، وأنا كمثقف عربي بريطاني سوري رغبت في أن أخطو خطوة تساهم في دفع عجلة السلام إلى الإمام مع شرح الصورة التي ترسمها سوريا من اجل السلام، وقد أكدت في إجتماعي في صباح اليوم الأول مع بيرين، على ضرورة التخلي عن أسلوب المراوغة والمداورة في دفع عملية السلام إلى الأمام، إذ أن سوريا وبلسان رئيسها الذي يعني دائما ما يقول لا

تتراجع خطوة إلى الوراء في الوقت الذي تتحدث فيه عن السلام.

وسألني السيد فايتسمان اذا كانت سوريا جادة في عملية السلام، فكان ردي: **«أنت رئيس الدولة ولا بد أنك استمعت لخطاب الرئيس حافظ الأسد واستخلصت منه مدى جدية سوريا في صنع السلام على اساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ والإنسحاب الكامل والعاجل من مرتفعات الجولان وجنوب لبنان معاً، وإستكمال التفاوض حول رد جميع الحقوق الفلسطينية، ولذلك فإن المطلوب في هذا الظرف الدقيق ان يتغير التكتيك الإسرائيلي لمصلحة السلام والإستجابة للطرح الإستراتيجي للرئيس حافظ الأسد». فرد فايتسمن بأنه لن يوفر اي جهد في سبيل تحقيق هذا الهدف وأنه يحلم بزيارة حلب - بلد فاروق منجونة كما يحلم ويتمنى... ان يبادر الرئيس الأسد لزيارة إسرائيل.**

«وربما بسبب هذه التصريحات تم إستثنائي، وعدم دعوتي للمنصة لإلقاء كلمتي». بعد ذلك، تتابع مينا عليان مقالها قائلة:

لقد كان البرنامج هزيلاً من حيث مضمونه وكانت التوقعات اكبر من ذلك، وليس فقط سماع كلمات سطحية لا تحمل معنى، فقد تحدث الجميع عن السلام وكأنه سلام شامل كامل، وتناسوا القضايا الواجب طرحها كأدباء وفنانين في لقاءات كهذه، فغياب الوجه الفلسطيني، وعدم السماح له بدخول القدس الا بموجب تصريح يعني الكثير من السلبية في موضوع السلام ورفض السلطات دخول الشاعر محمود درويش إلى بلاده له وقع سيء علينا وقضايا أخرى كثيرة، يجب النظر فيها كي لا يكون السلام مبتور الذراع، لذلك كان الأحرى بالجميع أن يتحدثوا عن سلام جزئي نصف غائب لأنه ما زال هنالك التباس في تفسير معنى مصطلح (سلام).

ويأتي التعليق، معبراً تعبيراً صادقاً عن المشاعر التي تولّدت لدي ولدى عدد آخر من المثقفين الفلسطينيين الذين قاطعوا المؤتمر، رغم أنهم من فلسطينيي الداخل الذين يعيشون في (البلاد) كمواطنين إسرائيليين؛ وبينهم الشاعران نزيه خير وسميح القاسم اللذان كانا رشحاني للمشاركة في مؤتمر السلام، فضلاً عن غياب الأدباء والشعراء، ادمون شحادة، وشفيق حبيب، ونهى زُعرب قعوار، وفرحات بيراني.. وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم. لكن بعض الكتاب والأدباء الفلسطينيين، من المشتغلين في الحقل الصحافي والحقل التعليمي فقد كان حضورهم، واضحاً ومؤثراً.

فلماذا لم يشارك الأدباء والشعراء الفلسطينيون؟...

هذا هوالسؤال الذي شغلني، وطرحته خلال اللقاء الذي حضرته في مكاتب صحيفة «كل العرب» ودعيت اليه بعد انتهاء أيام الزيارة الرسمية.. وتم خلال الزيارة الخاصة التي استضافني الصديق الشاعر نزيه خير على مدى أيامها في منزله، بعد قيامي برحلتي إلى الجولان.

* * *

فاتني أن أذكر لقائي بالأديب الإسرائيلي «أمنون شموش» الذي ولد في سورية، وعاش أول سنوات طفولته في حلب. إذ تم لقاء التعارف بيننا بعد اجتماع الرئيس الإسرائيلي، وكان واسطة هذا التعارف، الكاتب والصحفي «إيغال سارنا» الذي تولى تغطية أحداث المؤتمر وترتيب زيارتي إلى الجولان، مثلما قام بنقل دعوة «امنون شموش» إليّ، للقيام بزيارة خاصة إلى منزله.

وكان «إيغال سارنا» حريصاً على تسجيل الإنطباعات التي يتلمسها من مشاهداته

لمجريات أيام المؤتمر، وكان يقوم بنشر ذلك في صحيفته «يديعوت أحرنوت». ولأن «سارنا» من مؤيدي السلام على أساس إعادة الأراضي المُحتلة، ومن أبرز الصحفيين الذين يحثون إسحق رابين وحكومته على الإسراع بإعادة الجولان إلى سورية، للوصول معها إلى «سلام» تام وشامل.... فقد كان يعكس توجهه من خلال ما يكتبه، وينشره يومياً. وفي فصل لاحق، سأورد جانباً مما دار بيننا، ومما نشره حول الزيارة.

12

تناولت إفطاري، وشربت قهوتي وأنا أتابع تقليب صفحات جريدة «الجيروسالم بوست» وأقرأ كل ما كتب حول الزيارة، وكل ما يتعلق بعملية السلام التي ظلت تسير سيراً حثيثاً حتى بعد عودتي إلى لندن، وشروعي بالإعداد لوضع كتابي هذا، الذي بدأت بكتابة الفصل الأول منه، مع بداية شهر نيسان - إبريل ١٩٩٥، أي بعد عودتي من الزيارة بنحو ستة أشهر صرفتها في تنسيق أوراقي، وفي إعداد المراجع المتعلقة بتاريخ القضية الفلسطينية منذ بدايتها. وقد استغرق ذلك مني بذل مجهود مضاعف، فكنت أعمل يومياً بين خمسة عشر إلى ثماني عشرة ساعة متواصلة.. ورغم تعرضي لمتاعب صحية جمة، لكنني ظللت مواظبا على العمل، دون الإكتراث بأي مضاعفات في تدهور صحتي، إذ كان هدفي أولا جلاء الحقائق التي شوهتها بعض وسائل الإعلام العربية، وآخراً، شرح موقفي من عملية السلام؛ الذي بات استحقاقه مطلوباً بإلحاح، ذلك أن الأحداث تتلاحق متسارعة، فتظهر الفجوات وتتسع على مسار التفاوض بين سورية وإسرائيل، بسبب المماحكات التي تبديها إسرائيل في طريقتها التفاوضية، مستندة إلى تفوقها من حيث القوة العسكرية، والى الدعم الذي تلقاه من الولايات المتحدة، وهو دعم إستراتيجي لا حدود له، يعيق الوصول إلى تحقيق «إتفاق» تشترط سورية لتوقيعه، أن يتم على أسس شرعية القرارات الدولية.. وهي القرارات التي تتلاعب إسرائيل في تفسير نصوصها على هواها، وبما تجده متناسباً مع مصالحها، وليس مع ما تقتضيه مصالح دول المنطقة في إطار النظام العالمي الجديد، الذي تريد

الولايات المتحدة فرضه على الدول المعنية بقضية السلام، مستثنية إسرائيل، التي «يجب» أن لا ينطبق عليها أي نظام، أو قانون، لأنها «محسوبة» على واشنطن، ولذا فإنها تبقى فوق كل نظام وكل قانون، وكل شرعية، يجمع عليها، المجتمع الدولي!!... وليس ذلك شأناً جديداً، أو ظاهرة مستحدثة. فالجميع ـ كباراً وصغاراً ـ يعرفون هذه الحقيقة، وهي تحتم تحتيماً على الجميع ـ كباراً.. ومن بعدهم الصغار ـ الإلتزام بأن يَزِنوا الأمور بميزان واحد، إذا كان «الغرض» من السلام، تأكيد العدالة التي يزعم أصحاب «النظام الدولي الجديد» أنهم ملتزمون بها أمام العالم كله، ماعدا إسرائيل التي تستمر في تنفيذ عمليات الإستيلاء على الاراضي الفلسطينية.

* * *

بعد انتهائي من تناول الإفطار والقراءة، وفيما كنت أستعد لأخذ حمام، رن جرس التلفون، وكان المتحدث سلمان ناطور. قال لي:

ـ أعتذر عن عدم تمكني من العودة اليك مساء أمس فقد كان الوقت متأخراً بعد العشاء.. فهل نلتقي هذا الصباح؟

ـ يسعدني لقاؤك دائماً.

ـ سأكون في الفندق بعد أقل من ساعة، وسأجلب لك معي بعض الصحف، وعدداً من كتبي.

ـ هذا جميل منك يا صديقي.. سأكون في إنتظارك.

كانت الساعة تقترب من التاسعة، وكان لدي متسع كاف من الوقت للإستحمام وارتداء ملابسي، وحوالي العاشرة طلبني سلمان يعلمني عن وجوده في ردهة الفندق.

في غضون دقائق كنت أجلس معه في ردهة الفندق، تلقيت منه بعض الصحف، وكتبه التي جلبها لي معه، فاستأذنته لدقائق وصعدت إلى غرفتي فوضعت الصحف والكتب، وجلبت معي كتابين من كتبي، أهديتهما إليه.. ضمّنا مجلسنا، وكانت الردهة شبه خالية. بادرني سلمان بسؤاله الأول:

ـ لماذا لم تذهب معنا إلى العشاء؟

وكان جوابي واضحاً ومحدداً:

ـ لأنني لا أريد المشاركة بشيء بعدما حدث أمس.

ـ ولكن برنامج الزيارة يتضمن بعض الرحلات والأنشطة يجب أن لا يفوتك حضورها والمشاركة فيها.. خاصة اللقاء مع ياسر عرفات، ويجري الإتفاق على تحديده اليوم؛ وقد تتم الزيارة بعد الظهر [إلا إذا حصلت تطورات غير محسوبة، كسفر ياسر عرفات إلى أوسلو ليلتقي بشمعون بيريز].

صمتتُ لبرهة؛ إذ لم أكن على دراية بما يجري إعداده مسبقاً، وقلت لسلمان:

ـ لم يخبرني أحد من المسؤولين عن تنظيم المؤتمر بذلك... في كل الأحوال، إن لقاء «عرفات» أمر ضروري لا يمكنني التخلف عنه.

ـ سوف يأتي بعد قليل «عوفير» ليعلمنا بالموعد.

- من الآن إلى حين وصوله، هل لك ان تخبرني عن أسباب عدم مشاركة المثقفين والأدباء الفلسطينيين بفعاليات المؤتمر؟

مرّتْ لحظات صمت قبل أن يجيب سلمان وهو يقدم لي سيكارة، ويشعل لنفسه واحدة:

- كان المفروض أن يشاركوا جميعهم... والحقيقة، قد تكون هناك أسباب منعتهم من الحضور.

نظرت في وجهه، وأنا أضحك، ثم قلت؛

ـ هل تعتقد أنك أجبت عن سؤالي؟..

وبدون تردد قال:

ـ صدقاً لا علم لي بأي سبب حقيقي.. يقال إن البعض مسافر خارج البلاد. وأن البعض له موقف سياسي من المفاوضات يتعارض مع موقف الحكومة. أنت تعرف أن البعض من أدباء فلسطين يلتزم بمبادىء حزبية يسارية.. إشتراكية.. شيوعية.. أو غير ذلك.

ـ هل انتماؤهم الحزبي يمنع حضورهم ومشاركتهم؟.

ـ قد يكون ذلك صحيحاً من وجهة نظرهم.

ـ أيكون السبب ـ في تصورك ـ رفض الحكومة مجيء محمود درويش؟ رغم ما يتردد من أن عضو الكنيست هاشم محاميد، طلب السماح لمحمود درويش بزيارة وطنه، وأن اسحق رابين رفض الطلب؟

ـ أنا أعلم بأن دعوة وجهت إلى «محمود» من ديوان رئيس الدولة وهي دعوة مماثلة للدعوات التي أرسلت إلى المثقفين العرب.. وأن اتصالات جرت مع محمود في باريس تحثه على قبول الدعوة، وأن مسؤولاً في مكتب رئيس الدولة، أكد لمحمود درويش الدعوة، وأن حضوره ومشاركته بأعمال المؤتمر، لا اعتراض عليها... ولا أحد يقف مانعاً في وجه قدومه إلى البلاد.

ـ طيب.. لماذا لم يحضر؟..

ـ لا أعرف.

ـ وهذا ما دفع الآخرين إلى الإمتناع عن المشاركة؟

ـ لا أعرف.. وقد يكون ذلك صحيحاً.

* * *

مع اقتراب عقرب الساعة من الحادية عشرة، وكان عدد من الضيوف قد غادروا حجراتهم، وتوزعوا على المقاعد في ردهة الفندق، وصل «عوفير» ومساعدته. فأشار

إليه سلمان، ودعاه إلى مجلسنا.. ولما رآني عوفير، حياني وعاتبني لعدم مشاركتي في عشاء أمس.. ثم استطرد يقول: «لقد أعددنا ترتيبات زيارة غزة وأريحا، وسيكون الرئيس عرفات في استقبالكم بعد ظهر اليوم مع عدد من المسؤولين الفلسطينيين».

أكتفيت بالإيماء دون أن أعلق بكلمة، وتابع عوفير: «سنتحرك من الفندق بعد ساعة، وسنتناول الغداء في استراحة على طريق أريحا». ثم مضى ليعلن ذلك على الجميع، وليتم إبلاغ من لم يكن حاضراً كي يستعدوا.

كل شيء يتم ترتيبه وتنظيمه بدقة...

وفعلاً؛ ما ان شارفت الساعة على الإنقضاء، حتى دعينا للتوجه إلى الأوتوبيس، وخلال أقل من عشر دقائق، كنا نجلس على مقاعدنا... فانطلق بنا عبر شوارع القدس، يتلوى مع انحناءاتها، يهوي في منحدراتها، ويرتفع فوق طريق يخترق سفوحها حتى خرجنا من المدينة إلى الطريق المتجه إلى أريحا، فمررنا على مستوطنات كثيرة، وعبرنا طرقات مسفلتة، لا تعتورها حفرة، ولا يقوم فيها عائق أو حاجز. كل شيء منظم بدقة.. وإشارات المرور تعمل أوتوماتيكياً، والجميع يحترمها ويتقيد بألوانها، دون وجود شرطة مرور تراقب االشوارع والطرقات، كل سائق مركبة، يفرض على نفسه احترام النظام والقانون... ويتقيد بماتحدده العلامات المرورية التي تُسَهّل على الجميع الوصول إلى حيث يريدون بلا مشقة ولا تعقيدات. لم نسمع بوقاً تطلقه مركبة صغيرة، أو شاحنة كبيرة، يخترق صوتها المزعج الآذان.. الهدوء مهيمن، والسكون يلف الشوارع العريضة، والدروب الضيقة، والأزقة التي لا تتسع إلا للسير في إتجاه واحد... **لم نلتق بعربة، أو مركبة تكسر القانون، أو تخالف النظام. كذلك كان للمشاة الأفضلية في عبور الشوارع والطرقات من أمكنة محددة. حتى من يستعملون**

الدرّاجة الهوائية (البسكليت) في مواصلاتهم على شوارع المدينة، خُصّصت لهم الطرق ليعبروا عليها، دون أن يتعرضوا للمخاطر.

كل شيء منظّم بدقة...

وكل «دابة» معمول حسابها لتعبر بأمان واطمئنان...

وكل مكان عبرناه، كانت تتوفر فيه وسائل الإرشاد **والتعليمات المرورية الواضحة..أسماء الشوارع مكتوبة وبارزة؛ بحيث يتمكن من ملاحظتها سائق السيارة، والذي يمشي على قدمين، أو على أربع. وكل منحنى كانت تسبقه علامة تحذيرية؛ حتى لا يهلك أحد هلاكاً مجانياً؛ بسبب إهمال دوائر الحكومة ومؤسسات الدولة، التي لا تهمل شيئاً.** لم نعبر طريقاً، أو زقاقاً، أو شارعاً عريضاً أو ضيقاً تفوح منه روائح مجرى منتن، أو «ترعة» مكشوفة ملأى بجثث القطط أو الكلاب الضالة، ويحوم البعوض والناموس فوق سطحها.. النظافة في كل مكان.. والرعاية لكل الناس. وليس من المبالغة في شيء، القول، إن النظافة تشمل كل بقعة مررنا بها، **وإن الدقة المتناهية في التنظيم، واحترام القوانين المرعية، أفضل بكثير مما هي عليه في لندن، أو روما، أو غيرهما من عواصم الدول الأوروبية**...بل إنها تتقدم على ما يرى الزائر لهذه العواصم؛ في أبرز شوارعها، وميادينها الكبيرة، وساحاتها الواسعة. فمن يمشي ويتجول في شارع «أكسفورد» وهو أشهر شوارع لندن السياحية، يلمس «بعض» الفوضى المرورية، ويشاهد القاذورات والفضلات مرمية على أرصفة الشارع، كذلك من يتنقل في شارع «فيافينيتو» أجمل شوارع روما، تصادفه، مثل ما يصادفه في شوارع لندن. ولا أعدو الحقيقة في القول إن ما وَقَعَتْ عليه عيناي، **وشاهدته في شوارع القدس، وتل أبيب، وحيفا، وإيلات، والمدائن الصغيرة التي مررنا بها، من نظام دقيق، وهدوء ونظافة بالغة، لا يضاهيه إلا ما شاهدته في جنيف السويسرية، وبروكسل البلجيكية، وفرانكفورت الألمانية.. بل**

تتوازى النظافة، ويسود الهدوء، ويُحترمُ النظام في تلك المدن، مع ما هو عليه في المدن الإسرائيلية.

ولا يختلف إثنان، بأن من أبرز ملامح التقدم والمدنية للشعوب، هو ما تبلغه من شأوٍ عالٍ ورفيع في نظافة مدنها، وفي دقة النظام المعمول به.. ولقد حققت إسرائيل ذلك، وبلغت هذا الشأو، بل وسبقت بلداناً أوروبية؛ وتقدمت عليها.. فضلاً عن تقدمها العلمي والتكنولوجي والصناعي في مختلف مجالات الإنتاج.. يصعب جداً التحدث عنها ووصفها، لأن إسرائيل - فعلاً لا قولاً - بَزّتْ في ذلك جميع دول العالم الثالث.. وتساوت في حضارتها العلمية والتكنولوجية، مع دول عديدة من بلدان العالم «الأول» في أوروبا وأميركا.لكن ذلك كله، لا يعطيها حق في إغتصاب حقوق الآخرين.

يبقى بعد ذلك - أن تَلْحق - إسرائيل بحضارة «العرب» تراثياً وإنسانياً، لتتساوى معهم في نظرتها إلى السلام، وتتسلح بالشجاعة للاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وللعرب كافة، وتُقْدم على وضع الحقائق نصب عينيها، فلا تأخذها العزة بالإثم، ظناً منها، أن ما تملكه من سلاح نووي ومن أسلحة تدميرية في ترسانتها العسكرية، كفيل بأن يرغم جيرانها على الخضوع، ويفرض عليهم التوقيع على إتفاقيات سلام، ترفضها الشعوب بمن فيهم شعب إسرائيل... لأنه سيكون «سلام» أنظمة وحكومات، لا يحقق الإستقرار والرخاء والأمن لأحد، وأول خطوة ينبغي على إسرائيل أن تخطوها.. التوقف عن الإستيلاء على الأراضي حتى لا تغلق الباب في وجه السلام، خاصة الأراضي المحيطة بمدينة القدس التي ستغدو عاصمة فلسطين.

جرى «الأوتوبيس» على الطريق الدولية، وقد خلّفنا وراءنا شوارع القدس... ومضى بنا متجهاً إلى منطقة «الحكم الذاتي» التي غدت في أيدي السلطة الفلسطينية، منذ الثالث عشر من أيلول ـ سبتمبر من عام ١٩٩٣ ... أو هكذا المفروض أن يكون قد حدث وتحقق... فما الذي رأيناه وشاهدناه ولمسناه؟..

مثلما صَعُبَ عليّ، وسيظل صعباً التحدث عن التطور الذي بلغته **إسرائيل في النظافة، وفي تطبيق القوانين والأنظمة، وفي حقل التقدم، بل وعلى صعيد التفوق العلمي والتكنولوجي. فإن الحديث عما شاهدته ولمسته من فقر، وتخلف وتردٍ، في جميع المجالات التي كانت عليه مناطق الحكم الذاتي، سيكون أشعد صعوبة، وأكثر إيلاماً... بل أجد من المستحيل عليّ الخوض في وصفه، أو ذكر تفاصيله.يكفي القول ـ مبدئياً ـ إنني انتقلت من زمن القرن العشرين، إلى زمن آخر من القرون المنطوية؛ أو إلى عصر انقضى من العصور الوسطى التي يحفظها التاريخ في صفحات المجلدات.** وهذا القول يشمل كل شيء.. بدءاً بالسلوك الإنساني، وانتهاء بمظاهر الحياة التي تعيشها منطقة الحكم الذاتي،ويعاني من تخلفها الفرد الفلسطيني معاناة لا قِبَلَ لإنسان القرن العشرين بها. ولقد أذهلتني المفارقة، إذ بدا التفاوت شاسعاً جداً بين الحياة في المدن والقرى الإسرائيلية، وبين مدينتيّ غزة وأريحا وقراهما ودساكرهما، علماً بأنها كانت ـ إلى عهد قريب ـ خاضعة للحكم الإسرائيلي، وتحت إشراف السلطة العسكرية، التي ماتزال هيمنتها عليها قائمة رغم أنف إتفاقية «السلام» التي ـ بعد مرور عام عليها ـ لم توفر للسلطة الفلسطينية بقيادة ياسرعرفات، حداً أدنى من الإستقرار، يمكنها من القيام بأي خطوة للخروج من الحالة البائسة التي تعيشها المنطقة ويجعلها تنقذ الفلسطينيين من حالة الإحباط المريعة التي يمرون بها، **أو تعمل على تخفيف قسوة البؤس الذي يكابدونه**

من البطالة والفقر المدقع، الذي يقود إلى الجوع الكافر.. وهذا الجوع يفضي إلى التمرد، والتمرد يتحول إلى ثورة.. أو، إلى القيام بعمليات، يسمونها «إرهابية» وهي ليست من الإرهاب بشيء، ولكنها إفراز طبيعي ومشروع، يقوم به شعب محاصر، ومضطهد، وجائع، ولا يجد حلاً لمشاكله، الا بالسيف يشهره في وجوه مُجَوّعيه، مُطَبّقاً بذلك حكمة أبي ذر الغفاري: «إني لأعجب من إمرىء لا يجد في بيته قوتاً لعياله، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه». إن حاجة الأفواه إلى اللقمة التي يمنعها الفقر، تسبب أكثر من القيام بالعمليات «الإرهابية» إن الفقر يقود إلى ما دون الكفر بقليل، أوَلَيسَ ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام، «علي بن أبي طالب» كرّم الله وجهه ورضي عنه، هو القائل: «كاد الفقر أن يكون كفراً»؟.. ما لمسته خلال الجولة بين أريحا وغزة، هو أن الإنسان الفلسطيني لا يتمتع بأدنى حقوقه الإنسانية وأبسطها، وفي مقدمة هذه الحقوق، الخبز.. والحرية. فلقد كان الفلسطيني جائعاً ومقموعاً تحت نير الحكم العسكري الإسرائيلي، ويبقى جائعاً ومقموعاً، ومُصَادر الحرية، في ظل سلطة الحكم الذاتي بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، التي تطبق نظاماً عسكرياً شمولياً، يتشابه في الكثير من الممارسات، بالأنظمة التوتاليتارية السائدة في بعض دول أميركا الوسطى وأميركا الجنوبية اللاتينية، إن لم نقل بمعظم الأنظمة في العالم الثالث. وفي بعض أنظمة الحكم العربية. والمفترض، بعد توقيع الإتفاقية، التي أكسبت منظمة التحرير، شرعيتها، بعد أن كانت محسوبة في عداد المنظمات «الإرهابية».. المفترض؛ وعلى رأسها «أبو عمار» أن تزيل المظهر العسكري البوليسي، وترتدي الحِلّة المدنية في الشكل والممارسة، وبذلك تجتذب إلى جانبها المواطن الفلسطيني، لينهض الحكم ويُدَعّم، بعد أن يشعر بأنه مواطن «حر» لا تقيد حركته «قوة» قمع ومصادرة.

في تقرير اطلعت عليه في القدس، حول حقوق الإنسان الفلسطيني، استشففت أن جميع ما توصلت إليه المنظمة، بقيادة «أبو عمار» مع حكومة اسحق رابين، لم تحقق أي تقدم لصالح الإنسان الفلسطيني وضمان حقوقه. وهذا التقرير الذي صدر خلال شهر أيلول - سبتمبر من عام ١٩٩٤، عن مركز «بيت سليم» أشار إلى أن جميع المشاكل التي يعاني منها الفلسطينيون، لم تجد لها حلولاً على أي مستوى من مستويات الشؤون الحياتية. بل إن تقسيم المناطق بين «السلطة الفلسطينية» والحكم العسكري، أوجد مشاكل جديدة تراكمت فوق المشكلات التي كانت - أصلاً - موجودة قبل توقيع الإتفاق. ويورد التقرير «ملاحظات» عن تصرفات بعض رجال المخابرات، تنتقص من كرامة الفرد الفلسطيني، فضلاً عن تجويعه وقمعه ومصادرة حريته. ولعل ما أشار اليه التقرير الصادر عن جماعة «بيت سليم» حول الممارسات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، وامتهان كرامتهم، بعد توقيع الإتفاق، لم تختلف عن الممارسات المهينة، بعدما تولت المنظمة شأن الفلسطينيين في ظل إتفاقية «الحكم الذاتي». ويميل التقرير إلى «الإعتقاد» بأن وراء معاملة الفلسطينيين «سياسة عليا» تستهدف إبقاء «الفلسطيني» وهو في ظل حكم المنظمة، يعاني من الضغوط ذاتها، التي كان يكابدها وهو تحت الإحتلال الإسرائيلي المباشر، ولاأحد يظن، أو يشك، بأن هذا يغيب عن ذهن الرئيس ياسر عرفات، وهذا يقتضي منه بذل المزيد من الجهود، للخروج بجميع من يشملهم حكم «المنظمة» من الفلسطينيين من هذا النفق المظلم.

كان ما شاهدناه أقسى وأكثر مرارة مما يمكن أن يوصف بالكلمات. وفي «إستراحة» أريحا، صدمتنا مشاهداتنا.. بل تقزّزت نفوسنا من بعض الممارسات «السلطوية» التي تأباها «ديموقراطية» ياسر عرفات، والسلطة الوطنية. والشواهد كثيرة ومتعددة، لا يحتاج الفلسطينيون إلى تذكيرهم بها، فهم يعايشونها يومياً، ويعانون منها الأمرّين..

ووراء كل هذا التخلف، والقهر، والظلم، وأشياء عديدة يصعب حصرها، واقعة على الفلسطينيين في مناطق الحكم الذاتي، كانت إسرائيل، وما تزال بعد مرور عام على إتفاق أوسلو - حتى تاريخ الزيارة - وأكثر من ثمانية عشر شهراً - حتى تاريخ البدء بوضع هذا الكتاب - هي المسبب، وهي وراء إستمرار المعاناة التي يكابدها الفرد الفلسطيني. **ويبدو أن إسرائيل المحكومة قَدَرِيّاً بأن لا تنعم بالراحة والإستقرار، تريد لغيرها أن لا يستريح، منها، أو معها. والفلسطينيون يجأرون بالشكوى. لكن العالم مصاب بصمم غريب، فلا يسمع عويلاً ولا نحيباً وفي المقدمة، أصحاب الملايين والمليارات من الفلسطينيين الذين صنعوا ثرواتهم الهائلة، واكتفوا من الغنيمة، بالانتشار بين عواصم العالم الأصم، والمكوث بين «الطرشان» حتى لا يبلغ أسماعهم أنين أطفال فلسطينيي مناطق الحكم الذاتي.**

* * *

تابع الأتوبيس سيره بعد مغادرتنا إستراحة اريحا، متوجهاً بنا إلى مقر الرئيس ياسر عرفات في غزة. ومنذ تجاوزنا «الحدود» الإسرائيلية «المشتركة» والمتداخلة مع الأراضي التابعة للحكم الفلسطيني،والأوتوبيس لا يكف عن الترنّح بين الحفر التي لم تكن - قطعاً - نتيجة المتفجرات، أو القنابل التي ألقيت على الطرقات في أيام حرب الـ ٦٧، لمنع وصول الإمدادات إلى الجيش الأردني، أو إلى المقاتلين الفلسطينيين. كنت أجلس على مقعد في أحد الصفوف الخلفية عندما اقتربت مني زميلة «عوفير» التي تحمل دائماً تلفوناً متنقلاً، ولا تكف عن إجراء الإتصالات «الإستطلاعية» أو تستقبل اتصالات الآخرين. وقفت بمحاذاة المقعد الذي أحتله وحيداً، وقالت:

- مستر منجونة، الإذاعة الإسرائيلية تطلب إجراء حوار معك على الهواء مباشرة، تفضل التلفون.

تناولت الجهاز الصغير.. وضعته على أذني، وبدأت أتحاور مع المذيعة التي لم تجد سواي تلاحقه، وحتى أنا في الطريق إلى غزة للقاء ياسر عرفات والأخوة الفلسطينيين. دار الحوار بالإنكليزية لأن المذيعة لا تتقن العربية، وأنا لا أتقن العبرية. استغرق الحوار نحو ربع ساعة، تحدثت خلاله عن مشاعري، ورأيي في عملية السلام، ونظرتي إلى مستقبل المنطقة. ولم أتجاوز في تعليقاتي ما سبق أن قلته في المناسبات السابقة. انتهى الحوار، وأعدت الجهاز التلفوني إلى صاحبته، انهم لا يدعون مناسبة تفرّ من بين أيديهم.. ويستثمرون كل ما يتوفر لديهم من أدوات التكنولوجيا لخدمة مصالحهم.

من الأسئلة التي وجهتها إليّ المذيعة:

هل تتوقع لمحادثات السلام بين إسرائيل وسورية النجاح الذي تحقق مع الفلسطينيين؟

وأجبتها بلا تردد:

- هل تعتبرين ما وصل إليه الفلسطينيون نجاحاً؟... إنه خطوة على الطريق محفوفة بمخاطر كثيرة.. وهذه المخاطر لن تزول إلا اذا استبدلت إسرائيل تكتيكها بتكتيك يزيل المعاناة عن الفلسطينيين. أما بالنسبة إلى سورية، فالأمر مختلف، ذلك أن ما تبذله الولايات المتحدة من جهود، ليس في مستوى الطموح السوري إلى السلام.

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني أن الرئيس السوري ومعه الرأي العام السوري، لديهم القناعة بأن السلام يتطلب العودة إلى مشروعية القرارات الدولية لكي يتحقق. وحكومة إسرائيل تدرك ذلك، لكنها تعرض خيارات، تعرف مسبقاً أنها ستكون مرفوضة من قبل سورية، رئيساً وشعباً. وهذا ما سيصيب

السلام بحالة من الترنح، ومع هذه الحالة تتدنى الآمال بتحقيق السلام. والمفروض في حكومة السيد رابين أن تعمل على ردم الفجوات بإعطاء السلام حقه، لتنتعش الآمال، ولكي يتم تفادي الإنجراف إلى وادي انعدام الثقة بسبب الشكوك المهيمنة على أجواء المفاوضات. إن سورية تعمل بصدق وشجاعة لتحقيق السلام، وهي واثقة بأن الغَلَبَة في النهاية ستكون للحق والعدل. يبقى أن يكون دور الراعي الأميركي أكثر جدية وفاعلية... وبغير ذلك، فإن المسافة ستكون طويلة، وستزداد الشقة إتساعاً وتباعداً .. ولن يتحقق أي شكل من أشكال السلام الذي تتوخاه حكومة السيد رابين لإسرائيل من سورية.

ـ هل أنت متفائل بتوقيع إتفاق سلام بين سورية وإسرائيل في المستقبل القريب المنظور؟

ـ إذا كنت تقصدين بالمستقبل القريب، نهاية عام ١٩٩٤، أو بداية العام المقبل، فهذا أمر مشكوك فيه جداً. أما إذا سلّمتْ إسرائيل بالحقوق المشروعة، وانسحبت من الجولان ومن جنوب لبنان، فإن الأمل بحلول السلام يزداد، وفي تقديري لن يتحقق ذلك قبل عام ١٩٩٦، وربما في نهايته.

* * *

الحافلة تقترب من مشارف أريحا...

ونحن نزداد ترنحاً فوق مقاعدنا. أشعلت سيكارة ورحت أنفث دخانها عبر نافذة الأتوبيس، وأتأمل المرتفعات والسهوب الجرداء، وقد أخذت تنداح مقاطع من قصيدتي «يوسف يتجسد فيكم» في ذهني:

«إنْ عَثرَ حصانٌ في صنعاءْ، أو عَرَجَتْ بَغْلةْ..
«إن جاعَتْ أمَةٌ في الشامِ،
«إن قُصفَتْ في بغداد
«فسيلةُ نَخْلَة،
«أنا المسؤولُ وليسَ سِوايْ»

رحماك «عمر».. من سيتولى عنك «المسؤولية» بعد أكثر من ألف سنة على غيابك؟ من سيطلق العصافير من أقفاصها؟..

«إنّي أعلَمُ أنّ أبا حَفْصٍ،
«لا يَعلَمُ أنّ نظاماً دَوْلياً، يَمْنَعُ ذَلكْ!..
«وأعْلَمُ أنّهُ يَجْهَلُ أنّ قَرارَ قيامِ الوَحْدَة
«يُصْنَعُ في البَيْتِ الأبْيَض.. أليسَ كذلكْ؟»

فهل لنا أن نأمل ببروز زعامة عربية تخلف «إبن الخطاب»، لا تقيم وزناً لما تصدره «واشنطن» من قرارات... وتصوغ «قرار»الوحدة والحرية بالإرادة الذاتية للشعب الذي رفعها إلى سدة الحكم؟

* * *

يُهَدّئ الأوتوبيس من سرعته، ويظل يتباطأ حتى يتوقف أمام «حاجز» يقف رجال «العسكر» المسلحون عند جانبيه. ينزل عوفير إليهم. يتبادل مع أحدهم كلمات قليلة. يعود ثانية ويشير على السائق بمتابعة السير. يتجاوز الأوتوبيس الحاجز بسرعة بطيئة، وأمضي مع تأملاتي وأنا أرمق الأطفال الذين يلعبون أمام البيوت العتيقة المتهالكة، وأسمالهم مهلهلة... ووجوههم عابسة في وجه الزقاق المحاط بالقهر

والإحباط. ما يراه الداخل إلى غزة، لايرى ما يشابهه في القدس أو تل أبيب هناك نظافة، ورخاء، وهدوء.. وهنا الجوع يتجسد في ملامح الوجوه، ونفايات، وأتربة يسفوها الهواء... وملابس عسكرية وكلاشينكوفات!!.. لماذا تغيرت الصورة؟.. لماذا العسكر والنفايات والجوع والقهر هنا؟... ولا يوجد ما يماثلها هناك؟.. لماذا يا ربي؟!...

الحافلة المكيفة الهواء تقترب من مبنى رُفِعَت على واجهته الراية الفلسطينية.. والعسكر يقفون أمام البوابة في حالة تأهب واستعداد لمواجهة أي طارئ. تواصل الحافلة تقدمها ببطء حتى تتوقف تماماً أمام المبنى، فيهرع الجنود بأسلحتهم لتطويقها. لقد وصلنا إلى مقر الرئيس الفلسطيني ودعينا للنزول بهدوء. **«لماذا لم نشاهد ما يماثل هذا المشهد أمام مقر الرئيس الإسرائيلي؟» شرعنا بمغادرة الأوتوبيس، واحداً بعد الآخر، وبدأت إجراءات التفتيش الدقيقة. «لماذا نتعرض لهذا التفتيش الدقيق، ونحن عرب، وعلى أرض عربية.. وعلى موعد معلوم مع الرئيس؟.. ولماذا لم نتعرض لمثل ذلك، ونحن عرب، وعلى أرض إسرائيلية، وعلى موعد معلوم مع الرئيس.. الإسرائيلي؟..»**.. إنها لمفارقة عجيبة، يحار المرء أمامها.

إنتهت المرحلة الأولى من مراحل التفتيش...

وبدأت المرحلة الثانية...

وبالعودة إلى بداية الفصل الأول، من الكتاب الأول، من «ثلاثية الوطن الحائر» تكتمل ملامح الصورة، بعد اللقاء مع الرئيس الفلسطيني الذي استقبلنا وعلى وجهه المتغضن شبح إبتسامة... وفي عينيه دموع «الحائر» في أمر الوطن..وفي مستقبل المواطنين ومصيرهم!

13

انتهت الزيارة...

الرئيس ياسر عرفات، أرجأ موعد سفره إلى «أوسلو» المقرر اليوم بضع ساعات، لكي يعطي لزيارتنا حقها من وقته المشحون، ولكي يتيح للمثقفين العرب فسحة للتحاور معه، وليأخذ حقه منهم بالاستماع إلى آرائهم. انتهت الزيارة؛ وقد أخذ الرئيس ياسر عرفات حقه من المثقفين، حين استمع إلى آرائهم، لكنه لم يعط أحداً منهم حقه في الحوار معه. اكتفى بالقاء كلمة اتسمت بالعاطفة الأخوية. أفصح بها عن يقينه بأن معركة السلام، وإن كانت شائكة، ومضنية، لكنها أفضل للوصول بالمنطقة إلى الإستقرار من الحروب. لم يسهب «أبو عمار» في الحديث إلى المثقفين، فلم يروِ لهم ظمأ. لكنه أصغى باهتمام إلى ما ألقاه المثقفون من كلمات، نضحت - أيضا - بالعاطفة، والتعاطف.

وكنت آخر المتكلمين...

وتركزتْ كلماتي على مبدأ «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة».. وأوضحتُ بأن القوة، لها أشكال وأدوات عديدة، ليس بالضرورة أن تقتصر على القوة العسكرية... بل إن سلاح العقيدة، والإيمان بالحق، قد يفوق سلاح المدفعية، وعندما قلت موجها كلمتي للقائد الرئيس، وقد خطا أول خطوة عربية، في اتجاه السلام، بعد خطوة الرئيس الراحل أنور السادات، قائلا «أبا عمار.. إنك لن تسترجع بيتك إلا بالقوة».

تركزت الأسماع والأنظار لمعرفة ماذا يريد زميلهم «السوري» قوله... وإلى من يوجه هذا الخطاب (العودة إلى الصفحة ١٧ وما بعدها من الكتاب توضح الإجابة عن التساؤلات). ولم أسهب في كلمتي. كنت مدركاً أهمية الوقت، وقيمة كل دقيقة من الزمن الذي سنقتطعه من الرئيس الفلسطيني الموشك على السفر ليلتقي في «أوسلو» شمعون بيريز لإستكمال مباحثات تمس الشأن الفلسطيني بعد مرور عام على إتفاق إعلان المبادىء، وهو لا يسير قدماً إلى الأمام؛ فاكتفيت بما قلت، وتحدثت به إلى الإذاعة الفلسطينية بعد أن دعانا «أبو عمار» لإلتقاط الصور التذكارية.

انتهت الزيارة، ولم يبق إلا ما تلاها...

والحديث قد يطول عما أعقب الزيارة، وعما تلاها من ردود أفعال؛ لكنني سأعمد إلى التكثيف، والاكتفاء بتسجيل بعض الدقائق التي لا بد منها.

في كتابه «خريف الغضب» الذي وضعه الأستاذ محمد حسنين هيكل ليشرح قصة اختلافه مع الرئيس الراحل أنور السادات، والظروف والملابسات التي أدت إلى إعتقاله، مع العلم - حسب تعبير هيكل - أن «كلانا كان يطلب سلاماً قائماً على العدل في الشرق الأوسط، وكلانا كان يريد أن يرى مصر حرة ومزدهرة، والعالم العربي موحداً وقوياً». ورغم قول الأستاذ هيكل، أن كتابه «ليس حكماً على السادات» لأنه - أي هيكل - لا يعبر «عن ضغينة شخصية ضد الرئيس الراحل الذي اختلفت معه، وانتهى خلافنا إلى قراره بوضعي في السجن شأني شأن آلاف غيري في حملة اعتقالات سنة ١٩٨١».. ثم قوله «وإلى هذه اللحظة فلقد كان اختلافنا - من وجهة نظري على الأقل - اختلاف وجهات نظر واختلاف رؤى، ولم يكن فيه عامل شخصي على أي وجه من الوجوه». عندما يؤكد هيكل بأن دافعه لتأليف كتاب «خريف الغضب» لم يكن بسبب إختلاف شخصي من وجهة نظره على الأقل - كما يقول - فإنه يلقي الكرة في مرمى الرئيس الراحل، ويتهمه - إتهاماً غير مباشر - بأنه وضعه في السجن،

لأنه ـ أي الرئيس السادات ـ يحمل ضغينة شخصية له.

في كل حال، لقد عمدتُ إلى الإستشهاد بما قاله الأستاذ هيكل لأصل إلى القول، بأن ما حدث لي ـ بعد العودة من الزيارة ـ لا أعتبره يمت إلى الضغائن الشخصية، يضمرها نحوي كل من جحدني حقي في شرح وجهة نظري، وفي الرد على ما تم نشره عني من تعليقات، اتصفت بضيق أفق مَنْ كَتَبَ وَنَشَرَ. ولئن كنت أؤمن بحق كل فرد في أن يقول ما يريد، ضمن حدود الموضوعية، والأدب، وإنطلاقا من مبدأ «قد اختلف معك في الرأي ولكني استميت دفاعاً عن حقك في أن تقول رأيك»، وهو مبدأ لم يعمل به معظم من كتبوا عن زيارتي، واتصفت كتاباتهم بانعدام الموضوعية، إن لم أقل بالسلبية، وبتعمد التزوير، وتشويه الحقيقة..إنطلاقاً من المبدأ الآنف ذكره، تفرّغت لوضع هذا الكتاب.

لقد اعتبرني بعضهم من الخارجين عن «الصف العربي الموحد»!! وبعضهم وصفني بالخيانة.. وآخرون اتهموني بالعمالة للعدو الإسرائيلي.. و«أحدهم» أكد بأنني دخلت إسرائيل بجواز سفري السوري مع العلم أن هذا الـ «أحدهم» لا يعرفني معرفة شخصية، ولم أره أو أتحاورمعه، ولا أعلم من أين أتى بمعلومته... والصحيح أنني أتنقل وأسافر إلى كل مكان بجواز سفر بريطاني منذ اكتسبت الجنسية البريطانية عام ١٩٨٦ . لقد بعثت برسائل إلى جميع المطبوعات العربية (صحفاً ومجلات ونشرات) أرد على ما نشر فيها حول زيارتي مصححاً ما أوردته من «معلومات» لم تكن دقيقة، ولا صادقة، بل كانت تستهدف الدس والإفتراء والتشويه. وللأسف، لم تحترم واحدة من تلك المطبوعات العربية حقي في الرد. ولدي من الوثائق ما يثبت زيف كل ما كتب حول زيارتي... **على أنني استثني صحف «أخبار اليوم» القاهرية من وصمة الدس والإفتراء، إذ نشرت أنباء الزيارة بنصها الحرفي كما أوردتها وكالات الأنباء العالمية، دون أن تضيف أو تعلق**

عليها بكلمة واحدة. وهذا وحده يكفي للتدليل على أن هذه المؤسسة الصحفية العريقة التي أسسها «مصطفى وعلي أمين» بقيت ثابتة على احترام مبدأ «الخبر مقدس والرأي حر» وصحف أخرى قد تكون التزمت بالمبدأ نفسه، ولم تتح لي فرصة الإطلاع على ما نشرت.. ومنها صحيفتا «القدس» و«الشرق الأوسط» الصادرتان في لندن.

* * *

إنتهت الزيارة..

واحتوتنا الحافلة بعد أن ودعنا الأخوة الفلسطينيين، وفي مقدمتهم الرئيس «أبو عمار» ودرجت بنا عائدة إلى القدس عن طريق أريحا. وكان اختيار العودة إلى أريحا يهدف أولاً، إتاحة الفرصة للمزيد من الإطلاع على أوضاعها، والوقوف على أحوال سكان المدينة. ويهدف ثانياً، القيام بزيارة إلى قيادة موقع جهاز الأمن الوقائي في السلطة الوطنية الفلسطينية، ولقاء رئيسه العقيد «جبريل الرجوب»، وقد تم الإعداد والترتيب لهذا اللقاء بعد اتصالات عديدة، كان المشرف على المركز الدولي للسلام يجريها بواسطة التلفون المتنقل خلال طريق العودة، وعلى مدى المسافة الفاصلة بين غزة وأريحا، حتى تم له تحديد موعد يتمكن فيه العقيد جبريل الرجوب من إستقبالنا.

بلغنا «أريحا» وتجول بنا الأوتوبيس في أزقتها وشوارعها وبين بيوتها. لم يكن الحال فيها أفضل من الحال في غزة... أتربة ونفايات ومخلفات تملأ الأزقة والطرقات... وبيوت شبه متداعية، يرتسم البؤس على جدرانها... ويطل الحزن من نوافذها وأبوابها... ويبرز الشقاء، وملامح القهر على وجوه سكانها. بدت لي صورة أريحا كئيبة.. بل شديدة الكآبة، تركت في الحلق مرارة، وفي القلب حسرة... وزرعت في

الوجدان مشاعر إكتئاب، وملأت النفس بحزن عميق.. عميق. واللقاء بالعقيد جبريل الرجوب، لم يبدد شيئاً من هذه الأحاسيس والمشاعر...

في الساحة التي تظللها بعض الأشجار الذابلة الأوراق والمنحنية الأغصان، جلسنا ننتظر قدوم رئيس جهاز الأمن الوقائي الفلسطيني العقيد «الرجوب» تحت أنظار عدد من الرجال المسلحين. بعضنا يتساءل عن سبب تأخر وصول الرجل، الذي يفترض أنه أخذ علماً بزيارتنا، ووصولنا في الموعد المضروب!.. وزع علينا أحد «الرجال» زجاجات المرطبات، فأخذنا نتمهل في إرتشافها مترقبين وصول «العقيد» بين دقيقة وأخرى، لكن الإنتظار امتد بنا.. وحسبت أن مشاغل «العقيد» ستمنعه من المجيء، وسيرسل ممثلاً عنه ليعتذر لنا.. **وخيّل لي أن «العقيد» مشغول بقراءة رسائل لم يكتبها إليه أحد... وأنه منهمك بكتابة الردود عليها.**

كنت سادراً في تأملاتي حين سمعت نعيب غراب أسود، رأيته يحط على شجرة. قفزت إلى ذهني لوحات «غابرييل غارسيا ماركيز» وشخصيات رواياته. وانداحت في المخيلة أجواء روايته «ليس للعقيد من يراسله» وخالجتني - للآونة - فكرة «العزلة» التي يقبع بعض «الجنرالات» ضمن أسوارها، عندما لا يبقى لديهم ما يفعلونه، والمصاعب التي يواجهونها في العيش «متوحدين» مع أنفسهم، أو مع نياشينهم؛ التي فازوا بها بعدما حققوا الإنتصارات والنجاحات.

وَقْوَقات الغراب تتناهى إلى سمعي نعيباً، أو نعيقاً، بعث في جسدي قشعريرة تشبه ما يسمى بمرض الرجفة؛ اعتراني فجأة دون أن أعرف له سبباً، حتى كاد هذا الشعور يضللني، ويبعدني عن صورة «الواقع» الذي يكتنفني وأنا جالس بين الجمع في انتظار «العقيد».. لكن عيون الرجال المدججين بالسلاح والمنتشرين بين الأشجار الذابلة الأوراق، المحنيّة الغصون، والمتربصين بمحاذاة الجدران وكأنهم يتوقعون هجوماً مباغتاً، ثبتتني على مقعدي دون حراك.

بغتة.. ظهر من خلف الجدار وجه «العقيد» عاقداً حاجبيه، يمشي بخطوات وئيدة، يحف به عن يمين وشمال «عنصران» مسلحان، ويتبعه آخـــران.. ولما توقف في منتصف الساحة، وقف الجميع تحية واحتراماً، وأخذ كل واحد يتقدم منه ليصافحه، و«العقيد» ثابت في مكانه لا يتزحزح، حتى إذا فرغنا من مصافحته، جلس.. فجلسنا، ولبثت العناصر المسلحة ثابتة في مواقعها. بدأ لي وجه «العقيد» جبريل الرجوب، لا يختلف عن وجه أي «عقيد» آخر رأيته في حياتي، وبلغني صوته، وهو يرحب بمقدمنا، خشناً وجافاً. ربما طبيعة الحياة العسكرية صاغته هكذا.. وربما هكذا بدا لي؛ لأنني «أعاني» من حساسية مفرطة منذ عام ١٩٦٧ .. بل - للأمانة - فإن هذه الحساسية التي تسببها لي رؤية «العسكر» بدأت منذ عام ١٩٦٣ عندما استدعاني «الرائد» سليم حاطوم، الذي كان يحكم مبنى التلفزيون في ساحة الأمويين بدمشق، وجاءني استدعاؤه بواسطة جنديين قاداني من «الأستوديو» ودفعاني أمامهما بسلاحيهما، ولما وقفت «بين يديه» - وكان الوقت ليلاً - أمرني بمغادرة مبنى هيئة الإذاعة والتلفزيون، محذراً إياي من التفكير بالعودة ثانية.. هكذا.. وبهذه «البساطة» وجدت نفسي ملقى في الشارع، ممنوعاً من العودة إلى عملي. ومنذ ذلك وأنا أعاني من الحساسية، كلما لمحت «شيئا» يتحرك وقد طُلِيَ بلون الكاكي المموه، كدبابة، أو عربة تجر مدفعاً، أو مجنزرة تربض في مكان ما أمام إحدى المؤسسات في إحدى المدن. وتتضاعف هذه الحساسية كلما رأيت رجلاً يرتدي بدلة كتانية مرقطة، أو زياً عسكريا أنيقاً، كالزي الذي ظهر علينا به العقيد جبريل الرجوب. ولقد ظننت، أو خيِّل إلي، أنني برئت من هذه الحساسية بعد عشرين عاماً من الإقامة المستقرة في بريطانيا. إذ لم ألمح أثراً «عسكرياً» يذكرني بحساسيتي المفرطة...

حـتى إذا زرت غـزة وأريحـا عـاودتني «الحـالة».. وتلبسـتني تلك «القشعريرة» الشبيهة بمرض الرجفة!!

لم يكن «العـقـيد» جبريل الرجوب مخلوقاً خرافياً، أسطورياً ظهر علينا من أحد الكهوف.. لكنه كان رجلا يرتدي بدلة عسكرية، يمشي وئيداً، عاقداً حاجبيه، يحف به الحرس، ويتكلم بصوت أجش، خشن وجاف.. وهذا كاف ليثير حساسيتي، ويوقظ الذعر في أعماقي.. علماً بأن رجال الحرس المدججين بالكلاشينكوفات، كانوا يرتدون ملابس مدنية عادية ومألوفة.. وحين تهيأنا للمغادرة في نهاية الزيارة، ووقفت بجانب شاب من شباب الحرس، منتظراً أن يحين دوري لمصافحة «العقيد» مودعاً.. همست في أذن الشاب، أسأله:

- لماذا هذه الحـراسـة المكثفـة.. هل يخـاف «العـقـيد» من أحـد، أو من وقوع هجوم مباغت على المقر؟

وكتم الشاب ضحكة كادت تفضحه وتفضحني، وأجاب هامسا:

- مظاهر لا ضرورة لها. مظاهر لزوم المركز والمقام.. والسلطة.

وحمدت الله ان الزيارة انتهت سريعاً... بمغادرتنا أريحا، قد بدت لي خاوية على عروشها، كمدينة ضربت بقنبلة ذرية، أو كـ «عامورة» بعد خرابها و«سادوم» بعد تهدمها.. خلال ذلك، اجتاحتني أصوات الذين كانوا يصرخون من بين سطور رواية ماركيز «خريف البطريرك» هاتفين «عاش الفحل.. عاش الجنرال» **ولـم يكـن ذلك «الفحل أو الجنرال» حسب تعبير «مركيز» قادراً على التمييز بين الوطنيين الجيدين والمنافقين حيال وقوفه في وسط عاصفة الترحيب به وصيحات الهتاف له.**

* * *

إنتهت الزيارة، ولم تنته ذيولها..

بين عصر الفقر والقهر، والإحباط والبؤس، وغير ذلك من مظاهر الكآبة التي تخيم على حياة الفلسطينيين في غزة وأريحا، وعصر الرخاء والرفاهية والترف، والهدوء والنظام والنظافة، وغير ذلك مما ينعم به الإسرائيليون مسافة قطعها الأوتوبيس في زمن قياسي، فانتقلنا من «قرن» التخلف الذي يغرق فيه الفلسطينيون إلى «قرن» الرقي والتقدم الذي يغرق في منجزاته الإسرائيليون!!.. ما السر الذي يحيط هذه «القضية» التي يستعصي حلها منذ ثمانية وأربعين عاماً؟..ولماذا يتدهور الوضع الفلسطيني، والعرب أمة واحدة من الضفاف إلى الضفاف منذ مئات السنين، بينما تترسخ اركان الدولة الإسرائيلية، ويتقدم الإسرائيليون، ولم يمض على تجمعهم في «دولتهم» سوى بضع وأربع عشرات من السنين؟...

تراني وُفِّقْتُ في كشف الغطاء عن هذا السر، عبر فصول هذا الكتاب، وبات يحق لي أن أردد مع الشاعر الفلسطيني:

«ها هُوَ السرُّ تَهاوى
«والمسافات تَهَاوَتْ
«والنّوايا... بين ضدّينِ
«تَعَرّت في الشتاتْ».

أم أعيد وأردد مع الشاعر فرحات بيراني:

«وصارتْ أُمّتي تُكوَى،
«وَعَمّت شَعْبَنَا البَلوَى،
«وَأصبَحْنا بلا رعيانْ...
«ألا ما أتْفَهَ الإنْسانْ».

أم أبقى حائراً، تائهاً أمام «تحديد الفارق المترامي الأطراف بين السلام الفلسطيني

وبين السلام الصهيوني» هذاالفارق الذي نَشَدَهُ الأديب الفلسطيني سلمان ناطور، وصوّره في كتابه «كاتب غضب» عبرحوار مُتَخَيَّل بينه وبين صوت ما، كان يزوره بين الحلم والحلم، أو بين الكابوس والكابوس.

ومن الحوار، التقطت الصورة التالية:

«ـ وماذا بعد؟... سألته:

«ـ أريد السلام. قال.

«ـ مع من تريد السلام؟.

«ـ مع أي شيطان، ليس هذا هو المهم. أريد السلام مع نفسي.

قلت: شددوا الحصار عليّ بعد احتلال الضفة الغربية، وقطاع غزة، ومرتفعات الجولان، لقد انتصروا على كل شيء، ومازالوا يخافونني.

لمن يتوجه هذا الصوت ـ يتساءل ـ محمود درويش في مقدمة كتاب سلمان ناطور،ويجيب:

«إنه يتوجه إلينا... يستغيث، ويطلب حلاً منا!... نستطيع قراءته بنصوص لا تنتهي.. ويستطيع المشروع الفلسطيني أن يقول، أنه قدّم أول صيغة حل إنساني لعذاب اليهود في فلسطين مشروط بإنهاء عذاب العرب. ونستطيع أن نقرأ فيه أزمة الحياة داخل مسّادة، وخرافة السلام التي تظل خرافة بلا سلام فلسطين».

ويختتم سلمان ناطور صيحة غضبه «حين تقف عند هذاالمفترق، وتنظر غرباً وجنوباً، تعرف أن الحرب لم تبدأ بعد. وتقول لجنودك إنك حتى الآن لم تكمل المهمة التي حمّلك إياها أجدادك منذ مئات السنين».

* * *

انتهت الزيارة، ولم ينته تواتر الحقائق.

يمضي الأوتوبيس عائداً بنا إلى القدس، وتمضي أمامي صور ومشاهد الشريط الطويل؛ وقد سكن أرخبيل الذاكرة، فاحتلها احتلالاً... وشغلها على مدى خمسين عاماً، حتى غدا هاجساً يومياً يستبد بي آناء الليل وأطراف النهار. لقد حشوت ذاكرتي بمعلومات قرأتها في كتب عربية وأجنبية، وبصور شاهدتها على الشاشات السينمائية والتلفزيونية، فتراكمت تلك المعلومات وتمازجت بتلك المشاهد والصوروبات استرجاعها أمراً هيناً، ميسوراً. وفي طريق العودة من غزة إلى القدس عبر أريحا، أخذت الأحداث تطفو على سطح أرخبيل الذاكرة.

لا أحد يمكنه أن يُنكر على اليهود حقهم في الحياة. ولا أحد يستطيع ان يلغي من الذاكرة معاناتهم الطويلة، بدءاً بعصر التيه والشتات، وانتهاء بقيام «دولتهم» التي أخذوا يتجمعون على أرضها، مروراً بما لاقوه خلال الحربين العالميتين. ولا أحد يستطيع أن ينسى منظر اليهودي وهو يمشي في شوارع مدن النمسا، وبولندا، وألمانيا، وقد علّقت النجمة السداسية النحاسية التي أمر «هتلر» بتثبيتها على صدر كل يهودي، ويهودية، كعلامة تُميز اليهود عن غيرهم من الأوروبيين خلال الحرب العالمية الثانية. ولا أحد يمكنه إنكار ما عومل به «اليهودي» من إذلال ومهانة، فرضهما عليه هتلر، وبث عيون «الغستابو» في أنحاء أوروبا حيث يتواجد اليهود، لتكون مراقبتهم دقيقة، فلا يستطيع واحد منهم الفرار من قبضة هتلر في أي وقت وأي مكان. كان الألمان النازيون، يضيقون الخناق على جميع اليهود، ويشددون قبضاتهم عليهم.. مثلما كانوا يجرون حساباتهم للتخلص منهم، خشية أن ينتقموا منهم في حال خسرت ألمانياالحرب. ولم يكن أمام النازيين حل، إلا بإفناء اليهود عن بكرة أبيهم، حتى يأمنوا رد فعلهم في حال تعرضت ألمانيا للهزيمة. فالمهانة والإذلال والتجويع وكل

وسائل القمع والتعذيب والتصفيات الفردية التي مورست مع اليهود من رجال «الغستابو»، لم تدخل الإطمئنان إلى صدر هتلر الذي تفتقت «عبقريته» عن فكرة إفناء جنسهم. وصار الهاجس، البحث عن وسيلة مثلى للتخلص منهم، قبل أن تحل به الهزيمة، ويعمدوا إلى الإنتقام من الشعب الألماني بوسائل تكون أشد قسوة ووحشية من الوسائل التي عوملوا بها. وكان الحل الوحيدأمام النازية، في تطبيق مشروع إفناء اليهود،بحرقهم أحياء في أفران خاصة تم بناؤها وتجهيزها لهذا الغرض. وأخذ رجال «الغستابو» يجمعون اليهود في البلدان التي يتواجدون فيها، ويحشرونهم في معسكرات إعتقال في مدن النمسا، وتشيكوسلوفاكيا، وبولندا، وهولندا، والدانيمارك، والنرويج، فضلا عن حصرهم في المدن الألمانية، وفي الأراضي التي تمت لهتلر السيطرة عليها من روسيا.. ثم بدأت المرحلة الثانية.. بتنفيذ مشروع المحرقة في الأفران... وبلغ عدد اليهود الذين تم إحراقهم في جميع الأفران بين أربعة ملايين وستة ملايين نسمة تتراوح أعمارهم بين خمسة عشر عاما وستين عاماً، لا فرق بين امرأة أو طفل أو رجل، يكونون قادرين على العمل. **فهل فعل الفلسطينيون لليهود مثل ما فعله هتلر.. لذلك يتعرضون للقتل والإعتقال والتجويع والطرد والإستيلاء على أراضيهم.. هل فعل أحد لليهود من العرب مثل هتلر؟**

ما يزال أمر كراهية النازية لليهود سراً من أسرار الحرب الثانية لم يتم الكشف عنه.. لكن أفلاماً كثيرة صورت وعرضت لإبراز ما تعرض له اليهود على أيدي النازيين، كما أُلّفت كتب لاتحصى حول اضطهادهم وتعذيبهم وإفنائهم. أما اليهود الذين كانوا يعيشون في أميركا، وفي بعض دول أوروبا الغربية التي لم تبلغها جحافل هتلر، فقد نجوا من الأهوال. واليهود الذين كانوا يعيشون في دول حليفة لألمانيا، فقد اكتفى هتلر بمصادرة أملاكهم وتجميد أموالهم دون التعرض لحياتهم، احتراما لحلفائه.. وإذا كان

السر الحقيقي وراء إفناء هتلر لليهود بسبب الكراهية.. فإننا لا نعرف ما الذي أجج هذه الكراهية، إلا اذا أخذنا في الإعتبار «العنصرية» التي جبل عليها الألماني «النازي»، فأراد أن يقضي على «العنصرية»، التي جبل عليها اليهودي «الصهيوني» حتى لا يُبقى أمامه عنصراً منافساً لعنصريته. واللافت في الأمر، ان الألمان الذين قدموا للإنسانية خدمات جلى في مختلف حقول العلم وفروع المعرفة، يقترفون هذه الجريمة البشعة بحق الإنسان اليهودي.

واللافت أكثر، أن اليهود الذين قامت دولتهم على أرض فلسطين، فيهم علماء، قدّموا أيضاً الكثير من المنجزات الحضارية، ولكنم لا يتورعون عن ممارسة أنواع الإضطهاد والتعذيب مع الشعب الفلسطيني الواقع تحت قبضة احتلالهم. وبذلك ضربوا مثلا على أنفسهم، يدمغهم، ويصمهم وصمة عار أمام الإنسانية، لا تقل بشاعة عن الوصمة التي سجلها هتلر في تاريخ شعبه. وإذا كان اليهود قد تمكنوا من إقامة دولتهم، وبلغوا من القوة درجة جعلت من «إسرائيل» الدولة الوحيدة بين دول المنطقة، التي تستطيع ان ترفع صوتها وتقول «لا» لأقوى دولة في العالم، الولايات المتحدة الأميركية؛ فإن عليهم أن يتذكروا مرحلة من أزهى مراحل الحرية والمساواة في تاريخهم، **عاشوها في ظلال الدولة العربية الإسلامية، التي امتدت من بطاح مكة والمدينة، إلى سهوب الأندلس وآكامها. ومن هنا .. من هذه الذكرى، يجب أن تخطو إسرائيل خطواتها، إذا كان اليهود يريدون فعلاً العيش بين جيرانهم في.. سلام..**

واليهود الذين تمكنوا من أن ينفدوا بجلودهم، ويخرجوا من محنة الحرب العالمية الثانية بأرواحهم، ليستقروا دون اللجوء إلى وسائل يتخفون بها، كالوسائل التي استخدموها للهرب من جلاديهم ومضطهديهم، ومن بين تلك الوسائل المعروفة، تحوّلهم

عن دينهم، واعتناقهم المسيحية، وقد شجعتهم على ذلك الكنيسة الكاثوليكية، في غضون سنوات الحرب، فنالوا بها الحماية.. مثلما لجأوا إلى تغيير أسمائهم واستبدالها بأسماء لا تثير حولهم شبهة «اليهودية» ويريدون العيش بين جيرانهم مستقرين بعد رحلة التيه والشتات الطويلة، وآخرها هروبهم من ألمانيا بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٥ قبيل انتهاء الحرب الثانية وعبور أكثرهم إلى فلسطين عن طريق تركيا التي سمحت لهم بالمرور ـ دون توقف ـ تلبية لرغبة واشنطن، ليستقر بعضهم في سورية ولبنان، ويتابع بعضهم الطريق إلى فلسطين، ينبغي أن يعملوا على مد جسور السلام.. وعليهم أن يكفوا عن الحديث عن السلام، وفعل ما ينسفه.

* * *

إنتهت الزيارة، ولم ينته تواتر الوقائع...

والوقائع جميعها مُخَضّبة بالمرارة!!

وفي الوقت الذي يستضيف «المركز الدولي للسلام» المثقفين العرب، تُضاعف الحكومة الإسرائيلية العراقيل أمام الساعين إلى السلام... فتخطط لإحتلال واغتصاب المزيد من الأراضي العربية والفلسطينية، وتعمل على تجويع الفلسطينيين وقهرهم... واعتقالهم... ومنعهم من العمل... وتزيد في بطالتهم، وفي الوقت نفسه، تدعو المثقفين العرب إلى «مؤتمر» لتشهدهم على رغبتها «الصادقة» في الوصول إلى... سلام. ولقد تجاوزتُ مرحلة «أحجية التاريخ... والمعاناة» ووصلت إلى حل لـ «معادلة الجهاد والحرية» وهاأنذا أشرف على نهاية الحديث عن «الزيارة... وما تلاها».. وحكومة اسحق رابين التي تريد السلام،تعمل على تأجيج الصدور وشحنها بالضغائن بما تُعِدّ وتستعد له من فعل، يتنافى مع أبسط المبادىء التي يجب ان يقوم عليها السلام...

تتعاقب أيام الزيارة الرسمية، ولا نلمس مؤشراً يُؤكد حسن نية إسرائيل في مسعاها

عملياً لتحقيق السلام، وأتلقى دعوة جريدة «يديعوت أحرنوت» للقيام بزيارة إلى الجولان، **وفي الجولان أتعرف إلى المواطنين السوريين الذين يجهرون برفض الإحتلال الإسرائيلي، ويحتفظون بالهوية السورية، ويرفعون في منازلهم صور الرئيس السوري حافظ الأسد، ويقيمون له التماثيل... ويحافظون على نُصُب قائد الثورة السورية التذكاري «سلطان الأطرش».. ولقد شهد معي في جولتي على الجولان هذه الحقائق، كبير المحررين في صحيفة «يديعوت أحرنوت» إيغال سارنا، الذي شجعني على قبول الدعوة لأرى الحقائق بعينيّ.. وشهدها أيضاً المصور الذي لم يترك موقفاً إلا والتقط له الصور.. ومع إيغال سارنا والمصور، كان الصديق الشاعر نزيه خير، رفيقي الذي لازمني في الزيارة، وشهد ما شهدت، وسمع ما سمعت من مواطني الجولان السوريين الذين يترقبون اليوم الذي يتحررون فيه من الإحتلال الإسرائيلي لمدنهم وقراهم المتناثرة على ربى الجولان.** وما يزال دفء عناقهم لي وأنا أودعهم في قرية «مسعدة» يطوقني، وانفاس قبلاتهم على خديّ ماتزال ساخنة.. وملامح «مسعود» الذي هرع لإستقبالي في بيته بعد أن عرف أنني سوري، فغمرني وأحاطني بساعديه كأنه التقى أخاً له كان بعيداً عنه لزمن طويل.. ما تزال ملامح ذلك الوجه السوري الأصيل راسخة في مخيلتي.. **ولما سألته، صحيح يا مسعود أنكم راضون بالحكم الإسرائيلي؟.. رفع مسعود ساعده، وأشار بإصبعه إلى الجانب السوري وهو يردد بصوت مسموع «سأعيش سورياً وأموت سورياً.. هناك في دمشق أخي يتابع دراسته... ويأتي أيام العطلات، ويقف وراء ذلك الشريط فيراني وأراه، ونتبادل بعض الحديث بصراخ.. حتى يسمع أحدنا الآخر.. وقريباً سيزال هذا الشريط ويعود الجولان إلى حضن الوطن»**... ومثلما استقبلت

في «مسعدة» كذلك استُقبِلتُ في «مجدل شمس». وحدثني «ابو صالح الكنج» عن رفضه الهوية الإسرائيلية عندما عُرِضت عليه وعلى أسرته، وأكد لي - على مرأى ومسمع الجميع - بأن السلام لن يكون، إلا بعد أن تستعاد الحقوق السورية الكاملة...

وقال أبو صالح «حتى لو تم التوقيع على إتفاقية سلام بين الحكومة السورية وحكومة إسرائيل، فإن السلام لن يتحقق إلا بارادة الشعب السوري الذي لن يتنازل عن حقوقه مهما حدث». ثم اشار بيده إلى الشريط الشائك الفاصل بين المنطقتين وتابع يقول: «هناك.. خلف الشريط يرقد والدي الذي كان ضابطا في الجيش السوري واستشهد من أجل الوطن.. وفي يوم قريب سأزيل الشريط بيدي لأزور قبر والدي»...

وأحاديث كثيرة لا تنتهي..

إنتهت الزيارة وعدنا من الجولان إلى القدس..

في الطريق، توقفنا عند مقر «كهلاني» الذي يتجمع فيه المعتصمون من اليهود المعارضين مبدأ الإنسحاب من الجولان، فأعلنوا إضرابهم عن الطعام.. تبادلت مع بعضهم حديثاً قصيراً، واتضح لي من خلاله أن اعتصامهم وصيامهم هو جزء من لعبة سياسية يمارسونها للضغط على حكومة رابين حتى تستجيب لمطالبهم... لكنهم مستعدون لمغادرة مستوطناتهم في الجولان عندما يطلب منهم.

وقبل مغادرة الجولان، مررنابحقل من حقول الألغام في الجانب السوري يفصله عن الحدود شريط من الإسلاك الشائكة. كان «إيغال سارنا» يستمع ويكتب، وكان المصور لا يكف عن التقاط الصور... أمضينا يوما كاملاً في الجولان، وفي طريق العودة، قمنا بزيارة «آمنون شموش» في بيته القائم عند أسفل سفوح الجولان بين بيوت مستوطنة «معيان باروخ». وفي الطريق، توقفنا عند مزرعة يملكها يهودي معمر، ورثها عن أسرته

التي تمتد جذورها في فلسطين إلى مائة وعشر سنوات أو أكثر قليلاً. حدثني «إيغال سارنا» عنه ودعاني لزيارته. تقع المزرعة في منتصف الطريق عند منطقة تدعى «وادي الملك». إستقبلنا اليهودي العجوز «شفارتسمان» واستضافنا مع عائلته.. تذوقت «اللبنة» التي يصنعها ويبيعها، وتذوقت الزيتون والعسل، وقدم لي العجوز «مطربان» من عسل النحل الذي تنتجه مزرعته. أبرز لي «شفارتسمان» خلال مكوثنا في بيته أوراق ملكيته للمزرعة، وروى لي جانباً من قصة حياته مع العرب **«الذين عشت معهم حياة الإخوان أيام الحكم العثماني الذي عانينا من إضطهاده عرباً ويهوداً.. وبعد أن قامت دولة إسرائيل وطرد العرب من أراضيهم وبيوتهم، لم أعد أشعر بالسعادة.. نعم.. ستحدث حروب كثيرة.. العرب الذين طردوا من بيوتهم يحلمون بها وبأراضيهم، ولن يتخلوا عنها.. وسيحاربون حتى يستردوها.. وما استُلِبَ من أيدي الأجداد، سيسترده الأحفاد.. ولا مهرب من الحرب».كان العجوز اليهودي يتحدث واثقاً وكأن الحرب ستنشب بعد لحظات.**

* * *

تنتهي الزيارة. أحمل هدايا العجوز اليهودي «شفارتسمان» من العسل والزيتون واللبنة. وذكرياته التي يحفظها عن حياته مع إخوانه العرب تمكث في خلايا الذاكرة. أحملها مع هداياه وأعود إلى القدس. وتنتهي الدعوة الرسمية، وتنتهي بعدها جولتي في الجولان، وأتلقى دعوة من الصديق نزيه خير، للمكوث في ضيافته بضعة أيام، فانتقل من الفندق في القدس إلى «بيت الشاعر» في «دالية الكرمل» لأقضي معه وبين أفراد أسرته أياماً لم أتذوق مثل حلاوتها إلا في بيت شقيقتي الراحلة «سهام» عندما قمت بآخر زياراتي لها في حلب.

الخـــاتمـــة

عند منحنى من منحيات «دالية الكرمل»، وعلى منحدر سفح من سفوح «تلّة» كأنها جنة من الجنان المعلّقة، ينهض بيت جميل، مبني على مقربة من طريق إسفلتي يتلوى منحدراً عن الشمال، إلى وادٍ من وديان جبل الكرمل غير السحيقة، ويرتفع صعوداً حتى يتصل بعد مسافة قصيرة، بقلب المدينة الصغيرة، ويفضي إلى سوقها. ذلك البيت القائم بسقفه القرميدي الأحمر، وسط حديقة كأنها بستان صغير، ذكّرني ببيوت القرى المحيطة بمدينة «لوزان» أو «جنيف» السويسريتين،، مثلما ذكرني بالبيوت المتناثرة على طريق «جونيه» و«أنطلياس» موطن «فيروز والأخوين رحباني» في لبنان.

أمام واجهة هذا البيت، وقفت سيارة الشاعر «نزيه خير» تتبعنا الشاعرة مينا عليان بسيارتها فدعاني للنزول، ليستقبلني صغاره الذين كانوا في الداخل، بنظرات متسائلة، عمّن يكون هذا الزائر الغريب؛ الذي لم يدخل بيتهم من قبل؟!... وبعد إستقراري على مقعد في صدر حجرة إستقبال الضيوف، غادرني «نزيه» ليعود بعد لحظات، تصحبه سيدة في صدر العمر، وريّق جمالها، وليقيم بيننا جسر التعارف:

ـ سعاد زوجتي.. فاروق منجونة، صديقي وأخي وقد حدثتك عنه، وتعارفتما من قبل تليفونياً.

تصافحنا بمودة وألفة.. كأننا على معرفة شخصية قديمة، فلم تقم بيننا حدود كلفة، وقد عمّق «نزيه» هذ الشعور بيننا؛ حين قدمني بصفة «أخ وصديق». لم تعتم السيدة سعاد أن قالت:

ـ لا بد أنك في حاجة إلى شراب منعش. سأُعد لك بعض العصير، وفنجان قهوة. على كيفك.

مضت «سعاد» ـ وأسمح لنفسي بمخاطبتها باسمها المجرد ـ ليتوالى دخول «العفاريت والملائكة» فيقدمهم إليّ نزيه «رباب، شادي، فادي، زهية؛ و... راوي» صبيتان جميلتان، وثلاثة أبناء، يتدرجون على سلم العمر من الطفولة، إلى أول حدود المراهقة.

أقبلت عليهم، أقبلهم، وأعانقهم، يملؤني شعور أب يلتقي أولاده بعد غيبة طويلة.

انعقدت بين الأولاد وبيني «صداقة» إلا «راوي» أصغر إخوته، فقد حَرَنَ، منكراً علي وجودي في بيتهم، رافضاً تودّدي إليه، عازفاً عن «صداقتي» التي لم أفلح في إقناعه بأهميتها وفائدتها إلا في اليوم التالي، فأطلقت عليه إسم «واوي» وصرت أخاطبه به، فأثير حنقه وغيظه.

* * *

لدالية الكرمل، تاريخ مرتبط بتاريخ جبل الكرمل، ومتصل بوشائج تمتد جذورها، وتتغلغل إلى زمن الفتوحات المصرية في عهد «رعمسيس» الثاني، من عام ١٢٢٤ إلى عام ١٢٩٠ قبل ميلاد السيد المسيح. وقد أعار «نزيه خير» إهتمامه لمدينته الجميلة الوادعة. فوضع كتابه «دالية الكرمل في ثلثمائة عام» ملخصاً فيه تاريخ الجبل الذي لا ينفصل عنه تاريخ «دالية الكرمل»، مسجلاً قول الشاعر الفرنسي «لامارتين» الذي أحب الجبل، وهام في عشق مدنه وقراه بعدما قام بزيارة اليه قبل مائة وثلاثة وستين عاماً، فكتب عنه يصفه بقوله: «يطرح الكرمل ستاراً جميلاً من التموج لا يصل إلى نهايته إلا في البحر، تماماً كما يطرح الأجواء التي لا تتوقف الا في الأفق البعيد». وليدرج «نزيه» عبر فصول كتابه، وصفاً دقيقاً لولادة «دالية الكرمل» وعرضاً مفصلاً لنشأتها، منوهاً بالبيوت الأولى التي قامت في دالية الكرمل، «حول مقام سيدنا

إبراهيم»، الذي نسجت حوله «حكايات وأساطير.. مؤداها أن هذا الولي قام بحماية القرية وسكانها.. وأن حصانه وسيفه دخلا حرب لبنان الأخيرة. والمعروف أن الظهور، هو من صفات «الولي» الذي ظهر يوم تعرضت الدالية إلى هجوم القرى المجاورة. وهو الذي ظهر حين هزوا بابه يوم سرقت كتب الدين الدرزية». ويستطرد نزيه خير، فيروي في الفصل الثالث قصة «العقود الأولى» التي بنيت حول مقام أبي إبراهيم، فيقول إنها «تميزت بفن رفيع من فنون العمارة الشرقية، حتى أن وفود الطلاب الجامعيين من أقسام فن العمارة، يفدون إلى دالية الكرمل، لمعاينة هذه العقود، التي لم يبق منها سوى عقد واحد بجانب المقام». ولا يهمل «نزيه خير» في كتابه، تاريخ عائلات دالية الكرمل، فيورد أسماء نحو ثمانين عائلة، تعود أصول بعضها إلى مدينة «حلب» في شمال سورية، كعائلة «آل زهرالدين» وقد هاجر الجد الأعلى إلى الدالية، وعائلة «آل الزير» التي التحقت بعائلة «حمزة الزير» الذي جاء من سورية، وصاهرعائلة توفيق الشامي.. وامتزجت الأنساب بذرية «آل الخطيب». كذلك فان عائلة «آل شاهين» كما يثبت نزيه خير أن أصولها من «بلاد حلب، وكانت تدعى عائلة أبو نجيم، فقد وصلوا إلى دالية الكرمل في أوائل القرن التاسع عشر» ومثلها عائلة مصطفى الحلبي، وعائلة مشيلح وقد وصلت مع عائلة «القرّا» أو «الفرا» فضلا عن عدد من العائلات السورية التي تنتمي أصولها إلى «جبل الدروز» ومنها عائلة «وهبة» ذات الجذور الحلبية.. وعائلة «نزيه خير» وتنتمي إلى أحد ثلاثة أخوة وصلوا إلى فلسطين أوائل القرن السادس عشر، عاد إثنان منهم - في فترة لاحقة - إلى سورية، ومكث الجد الأول للعائلة في دالية الكرمل ومن ذريته «المرحوم أمين رشيد خير، أول معلم درزي في فلسطين وصل إلى دالية الكرمل من قرية «بيت جن» وتوفي في الدالية عام ١٩٦٦، وهو ما يزال معلّما في مدرسة القرية». ولقد حملني كتاب نزيه خير إلى أجواء روايتي «شهوة الرحيل إلى السرة» التي كتبتها في لندن ونشرت عام ١٩٩١، أي قبل تعرفي بنزيه خير بنحو

سنتين. وخيل لي، وأنا في بيته وبين أفراد أسرته، أنني عشت بينهم ومعهم قبل سنين بعيدة، ومن أجواء «دالية الكرمل» استلهمت أجواء «تل باب الجنان» الذي يماثل تماماً جو الدالية وطبيعتها.. فأدرت أحداث الرواية، وكأنها مستخلصة من مجريات الحياة في «الدالية».. وانبثق سؤال في ذهني «تراني عشت في الدالية قبل عشرات السنين روحاً تتقمص أحد الأجداد.. وانني التقيت بأجداد نزيه وأفراد أسرته،وهذا ما جعلني لا أشعر بوجود أي حواجز تفصلني عن أحد منهم حين التقيتهم وأمضيت أيام الزيارة بينهم، في بيتهم، وكأنني في بيتي؟» خالجتني هذه المشاعر التي أفضيت بها أمام نزيه وزوجته سعاد، فلم ألمح على وجهيهما علامة استغراب، مما أدخل إلي شعوراً يقينياً بأن «حياة» أخرى جمعتنا قبل هذا اليوم، وعشناها معاً في دالية الكرمل التي تتشابه مع «تل باب الجنان» التي تخيلتها، واخترعتها مكاناً جرت فيه أحداث روايتي.

* * *

دخلت «سعاد» وقدمت لنا أقداح العصير..

وفيما أخذنا نستمتع بارتشافه، مضت لتعد لنا القهوة، وتواصل الحوار بيني وبين نزيه... وتواصلت الدعابات بيني وبين أنجاله، ومضت الساعات المتبقية من النهار في سعادة غامرة، وفي هناء طاغٍ، لايماثلهما إلا ما غُمرتُ به - مثلما ذكرت - من سعادة وهناء مع شقيقتي «سهام» وبين أولادها وبناتها، ومع زوجها «أسعد» في بيتهم، عندما قمت بآخر زياراتي إلى «حلب».. مدينتي الأولى، ومرتع طفولتي وصباي.

وحين أرخى المساء سدوله، وانتهينا من تناول العشاء، مضت «سعاد» لتعد لي الحجرة التي سأخلد إليها؛ وعادت لنمضي السهرة معاً في أحاديث تنوعت، وامتدت بنا إلى ساعة متأخرة، شعرنا بعدها بالنعاس والتثاؤب.

في الغرفة التي احتوتني، فتحت حقيبتي، واستخرجت أوراقاً كنت كتبت عليها مقاطع شعرية وأنا في القدس.. قرأتها، واستعدت قراءتها، حتى إذا ما تدفقت خواطري وفاضت، أخذتُ، وأنا جالس على حافة الفراش، أكتب وأتابع الكتابة... ولم أتوقف حتى اكتمل لي بناء القصيدة التي كان مخاضها في القدس، وولادتها في «دالية الكرمل» وأعدت كتابتها في لندن،وعملت على تشكيلها في القاهرة، واخترت لها عنوان «على صدرها تزدهر القصائد». وحين جمعتني أمسيات معرض الكتاب في القاهرة مع نزيه خير، أسمعته القصيدة، فحملها معه إلى دالية الكرمل ليتولى الإشراف على نشرها. كان ذلك أواخر كانون الثاني - يناير مطلع العام ١٩٩٥ .

ومن القاهرة، عدت إلى بيتي في لندن، يصحبني هاجسي الفلسطيني، وقد تبلور تكوينه خلال أيام الزيارة، واكتمل الحمْل به، فكان لا بد من أن استولده عملاًيعكس ملامحي، ويروي للتاريخ، العلاقة التي توثقت بيني وبين القضية الفلسطينية، على مدى ثمانية وأربعين عاماً قضيتها من عمري مصاحباً هذا الهاجس، في إرتحالي من قطر عربي إلى قطر عربي آخر... ومن عالم إلى عالم، حتى استقر بي المقام أخيراً فوق هذه البقعة من الجزر البريطانية، وليولد هذا الكتاب، وقد جهدت أن يكون مرآة: تعكس بصفاء، وجهة نظري في مواقف كل من كان له دور في إدارة هذه «اللعبة - القضية» التي لم تنته فصولها على مسرح العالم.. ومن خلال فصوله، عرضت رأيي في ما بلّغَتْه رحلة «السلام» الذي تتجاذبه العواصم، وتتلاعب به العواصف، فأخذ يترنح بين واشنطن، وتل أبيب، وموسكو... وغيرها من عواصم الشرق والغرب، حتى بات قاب قوسين أو أدنى، حائراً في غرفة «العناية المكثفة» بين الموت على الفراش، وتحت أنابيب الإنعاش.

ويبقى السؤال الحائر...

هل ستقوم بين العرب وإسرائيل حرب أخرى، فتكون حرباً من الشراسة، لا تبقي ولا تذر، ليولد بعدها في منطقة الشرق الأوسط، وطن جديد، يكون فيه لكل فرد من أبناء هذه المنطقة مكان يليق بإنسانيته؟.. وطن يتعايش على أرضه اليهودي، والمسيحي، والمجوسي، والبوذي والكونفوشيوسي، والمسلم. وطن واحد جديد، لا تفرقة على ارضه الشاسعة، المتسعة، الممتدة، المتخمة بالثروات، بين مواطن وآخر، وطن يؤمن كل من يعيش على رقعته، أياً كانت جذوره، وأياً كان انتماؤه الديني أو العرقي بأن «لا فرق فيه بين أعجمي وعربي إلا بالتقوى».. ولا تكون فيه أهمية الفرد وقيمته، إلا بقدر حبه وإنتمائه لهذا الوطن الجديد، وبقدر العمل والجهاد في سبيل تقدمه ورفعته.

في القارة الأميركية، شعوب تنتسب إلى أجناس وأعراق وأديان، تعود بأصولها إلى الإسبان، والطليان، والألمان، والعرب، والسكسون، والغجر، وشعوب لها مسميات ما أنزل الله بها من سلطان.. لكن الجميع... ينتمون إلى وطن واحد. وفي القارة الأوروبية ما يماثل ذلك. ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تعمل حكومات الدول الأوروبية، بهدوء على توحيد شعوبها ـ مع اختلاف لغاتهم وتعدد أعراقهم ـ ليكونوا شعباً واحداً في «الدولة الأوروبية» الجديدة.

فهل يتحقق لشعوب منطقة الشرق الأوسط هذا الأمل ـ الحلم؟... ويولد الوطن الجديد.. بلا حروب؟!

إن جميع الشعوب، تكره الحروب، وتجنح إلى السلام... لكن السياسة التي تفسد كل شيء، تجعل من بعض السياسيين قادة حروب، ودعاة قتال لتتحقق لهم مطامع توسعية، فيتحولون إلى طغاة! وكم يحفظ التاريخ روايات وقصصاً عن طغاة سقطوا .. وسقطت امبراطورياتهم.

والعودة إلى ضرب الأمثلة لا يتحقق منها أي جدوى. فهل ستتحقق رؤية المزارع اليهودي «شفارتسمان» الذي عاش في إخاء مع الفلسطينيين أكثر من ستين عاماً، وتنشب حرب جديدة يسترد بها العرب بيوتهم وأراضيهم.. أم ستصل المفاوضات الدائرة إلى شاطىء السلام.. بعد أن يأخذ كل ذي حق حقه؟..

إن «أمنون شموش» الكاتب اليهودي المولود في حلب عام ١٩٢٩، والذي هاجر مع أسرته إلى فلسطين عام ١٩٣٨، أي قبل أحد عشر عاما من قيام دولة إسرائيل، كتب روايته «ميشيل عزرا سفرا وأبناؤه» التي صدرت طبعتها العربية عام ١٩٨٦، أي بعد قيام إسرائيل بثمانية وثلاثين عاماً، لم ينقطع لديه الأمل في زيارة مسقط رأسه. ولقدعاش «أمنون شموش» عمره، فعاصر جميع الحروب العربية ـ الإسرائيلية التي قضت على حياة عشرات الألوف من الشبان... لكن أمله في العودة الى مرابع طفولته لم يمت.

ويتساءل أمنون شموش، لماذا لا يتعايش الناس ويتأقلمون في وطن واحد؟ أنا حلبي المولد والأصل، وأعيش هنا.. لماذا يمنعونني من اختيار المكان الذي أحب أن أعيش فيه. ولماذا لا يسمح لي بالتنقل بين الأمكنة.. ولماذا يقيدون حرية المرء، بإقامة الحدود واصطناع الحواجز والسدود؟.. وأقول لأمنون شموش، لا بد من الوصول إلى حل... وينبغي على رجال الحكم والسياسة، أن يعملوا على تحقيق آمال شعوبهم، لماذا يا أمنون لا أحتفظ ببيتي مثلما تحتفظ ببيتك؟ لماذا لا تعمل الحكومات على توفير بيوت للجميع؟.. أنا يا أمنون في بيتك الآن... ماذا ستفعل معي لو عمدت إلى طردك منه؟

يقدم لي أمنون شموش روايته.. أقرأ الرواية قبل الشروع في كتابة هذا الكتاب. في أحد الفصول أقف عند المشهد التالي:

«عاد الأب من زيارة لقرى الدروز.. الدروز عاشوا بكثرة في حلب وضواحيها.

تحدث عن موهبة الدروز في التأقلم في بيئتهم، واستمرار حياتهم الروحية دون إثارة

غضب النمور. إنهم فلاحون نشيطون. أما نحن، نحن لم ننجح لا في هذا المجال ولا ذاك. أبناؤنا لن يكرّوا إلى الحرب فرحين»... وفي مشهد آخر، يستوقفني قوله:

«.. بعضهم إعتقد أن حرب التحرير هي الأخيرة في هذا الجيل. النبهاء عرفوا أن هذه هي البداية. استنفروا الشباب القادمين من البلدان المجاورة.. كلهم يتكلمون العربية... يعرفون البلاد وعادات أهلها. فكروا في البداية بإنشاء عدة وحدات منهم، وبعدها فضلوا تجنيدهم أفراداً». ثم ينقلني إلى مشهد آخر. «قال لها، تتكلمين كما لو كنت ولدت وترعرعت في إسرائيل. قالت: لن أخفي عليك بأنني أرغب بهذه الزيارة. وافق برطران على السفر شريطة أن يكون هو بين المسافرين.. البلاد مقدسة بالنسبة لي. قال مازحاً، هذا إذا بقي شيء مقدس في عالمي وعالم الله تعالى.. فقد أعلنت القدسية إفلاسها».. وبعد ذلك: **«وصل برطران إلى البلاد عشية عيد الغفران.. لم يكن عيداً بسبب ما حل بعد عيد الغفران المر» إشارة إلى ما تعرض له اليهود في حرب رمضان. ثم يستطرد: «ليست هذه هي المناسبة لمشاهدة البلاد وشعبها.. الآن، لا يمكنني أن أفهم كيف يستطيع اليهودي أن يكون غير صهيوني. إنها المرة الأولى التي أرى بها شعباً يدافع عن وجوده».** ويتواصل الحوار بين برطران وأخته التي تسأله في مشهد آخر «هل ترمز إلى رغبتي في المجيء إلى هنا بعد حرب الأيام الستة.. قال: إذا شئت فهو رمز. لقد استغربت كيف أثارك حماس المنتصرين القادرين على فعل شيء من التضامن. لقد جذبتك الدولة العظمى القزمة بجنون انتصارها». وتصرخ ايفيت: **«أنت كالجميع تحب اليهود مخذولين، محتقرين، ينزفون دماً .أما اليهود الأقوياء المنتصرون فلا يروقون لك».** ويرد عليها أخوها:

«الأقوياء، المنتصرون لا يروقونني سواء كانوا يهوداً أم غير يهود. فما بالك إذا كانوا يتبجحون بقوتهم وانتصارهم». وفي هذا المشهد، تصوير دقيق لغطرسة الجندي الإسرائيلي، التي يرفضها المؤلف إن كانت من يهودي أو غير يهودي. ويتابع أمنون في مشهد آخر:

«من منا لم يحلم بإيجاد ملجأ آمن؟... من اعتقد أن أبناءنا سيولدون في ظل الحروب». ثم على لسان شخصية أخرى: «كل إنسان عاقل يعرف ويعي جوهر جيراننا... كل من درس قليلاً من التاريخ». ويتدخل في الحوار محام من شخصيات الرواية، قائلا:

«إن زعماء الصهيونية والبلاد، لم يعرفوا العرب أبداً، ولم يعرفوا جوهرهم. في البداية رأوا فيهم تاج الشرق - وأرادوا أن يكونوا منهم ومثلهم.. وبعدها خاب ظنهم.. فقرروا بناء جزيرة للحضارة الأوروبية في الشرق المتخلف الساذج، الذي لا يجيد اعداد القهوة بالحليب لمن يحتلون بلاده»... ثم:

«ثمانون سنة صهيونية، ستون سنة إستيطان، خمس وعشرون سنة دولة مستقلة.. ثم.. ضربة واحدة كادت تودي بنا... سلوك إجرامي للزعامة.. مخ خفيف كلمة حقيرة في وصف فشل الصهيونية... هذا الفشل الذي أدى إلى ترمل النساء وثكل الأبناء». ثم «هذا نتيجة لسياسة الإعتقاد بظهور السيد المسيح.. **وذرائعية عشوائية سيق إليها زعماء متصلبون معقدون، نشأوا في أوروبا بين أوراق خريف الثورة الحمراء، وذووا في شمس الشرق الحارقة».** وفي ختام المشهد، قبل نهاية الفصل السابع والثلاثين، يحدد أمنون شموش على لسان إحدى شخصيات روايته بأن:

«اللامبالاة والغطرسة والإستهتار بالعرب، والاستهتار بالقيم ليس في صالحنا».

رواية آمنون شموش المطولة بتفاصيل كثيرة، ودقائق عن الحياة اليومية لأسرة يهودية، منشؤها حلب، وفروعها منتشرة في أوروبا وأميركا وفلسطين، تطرح عبر أربعين فصلا خلاصة واحدة:

حتى يضمن الجميع الإستقرار، ويحققوا للأجيال المقبلة مستقبلاً

جميلاً... فإنه لا بد من السلام... فالحروب لم تفض إلا إلى المزيد من الدمار، واليتم، والترمل... والخوف من المستقبل.

فهل تبقى المنطقة كلها أمام السؤال الحائر...

هل تقوم حرب أخرى، أم يتحقق السلام؟..

أن نظل واقفين عند حافة الحرب وشفيرها، فلن ينتج عن ذلك إلا مراوحة وترقب وتحفز، يعطل حركة التقدم والتطلع إلى المستقبل في وطن يتعايش فيه الجميع على اختلاف أجناسهم وأديانهم. وأن تتواصل الإستعدادات لحرب أخرى، فان أنهاراً من الدماء سوف تسيل وتجري دون جدوى.. فأي حرب - قد تقع - ستقود إلى حرب ثانية وثالثة وعاشرة. ولا يتحقق لطرف من الأطراف هدف... ويظل الوطن حائراً بين حافتين... في منتصف المسافة بين الحرب... والسلام.

ولا يبقى أمام القادة والزعماء، إن كانوا يريدون الخروج بشعوبهم من هذا النفق.. سوى الإقدام على إقامة السلام الشامل على أسس الحق والعدل... ليتوفر لكل فرد مكان في الوطن. وليبدأ الجميع بالعمل على توفير بيت، ومورد رزق لكل مواطن.

ولسوف يتحقق هذا الأمل، إن لم يكن عاجلاً، ففي زمن لن يتجاوز الفاتح من كانون الثاني - يناير عام ألفين. أي بعد أربع سنوات من توقيع الإتفاقية الأخيرة.. التي ستكون آخر الإتفاقيات لإلغاء ملف الحروب وإحلال ملف السلام.

وبغير ذلك، فان الشعوب التي لا تتحرك في دمائها شجاعة للدفاع عن حقها في حياة آمنة مستقرة مع الحرية والكرامة، ولا «تهتز في دمنا الكرامة حينما نعرى، ويُسرق خبزنا، ونصير عاصفة، تجتاح المدائن والملوك، وتنتهي قدراً على أعناقهم» حسب تعبير الشاعر نزيه خير في قصيدته «خطاب من العالم الثالث». لا يجوز فيها سوى القول، عليك أيتها الشعوب تقع المسؤولية في الإستسلام، وعلى الدنيا - بعدئذ - السلام...

إنتهت الزيارة...

وعدت إلى بيتي في المهجر...

وبدأت العواصف والزوابع تهدر وتزمجر...

الأصوات تعلو وتضج بالصراخ. وبدأت الإفتراءات، والمزايدات، وارتفعت الأيدي... وأخذت بعض الأقلام تصرّ صريراً يشبه النعيب. البعض يلقي التهم جزافاً، والبعض يقذف أشنع العبارات، وأبشع المفردات من قاموس السبّ والشتم... وبعض آخر يكتفي بالمقاطعة، وبمصادرة أي رغبة مني في الحوار. وثمة من يحرض على المساءلة... والاغتيال، وهذا أقصى ما يمكن تحقيقه، ضد من له رأي آخر يتعارض مع رأي الدهماء.

ويبرز بين هؤلاء وأولئك، صوت «محمد محفوظ» في مقال كتبه ونشرته صحيفة «العرب» اللندنية، مطالباً فيه كل من هاجم، وألقى التهم، وقاطع، وصادر، وحرّض، أن يعدل في محاكمة «فاروق منجونه» الذي لم يرتكب إثماً، يوازي ما ارتكبته بعض الدول من آثام بحقه، وحق سواه من المفكرين والأدباء والمثقفين العرب الذين قدّموا لتلك الدول من عرقهم ودمهم، وضوء عيونهم، ما لا يقدر ثمنه، ولم يلقوا إلا الجحود.

انتهت الزيارة...

وبدأت الرحلة الشاقة على الطريق المؤدية إلى استكشاف ملامح صورة «العدو» وتأكد لي، أن عدواً عاقلاً، خير من ألف صديق جاهل. ذلك أن العدو العاقل، يتبادل المعرفة لإستكشاف نواة الحقيقة، إنطلاقاً من محاولة التغلغل في التاريخ. وكان لا بد لكي أنهض بأعباء هذه الرحلة، من تجاهل الضوضاء؛ والإصغاء الى صوت العقل،

فالإنسان السّوي يمكنه التواصل مع الإنسان عن طريق العقل، وليس عن طريق «الروابط الطبيعية أو العرقية»، إذ تتلخص مهمة الإنسان المضطلع بدوره في بناء الحضارة، أن يتوصل إلى استكشاف مصادر الأمل، وأن يستأنف البحث في الماضي عما يمكن أن يؤثر في الحاضر، فيعمل على إستخلاص ذلك وامتلاكه بالفهم والإستيعاب، ثم يحوله الى أداة من أدوات بناء المستقبل.

ولا أرى بعد ذلك حاجة تدفعني إلى تحليل أصوات الأوثان والأصنام... ذلك أن تلك «الأصوات» أصلاً، لا وجود لها.

وأخيراً، إذا كانت أصوات «بعض» الناس تشبه في صخبها وضجيجها، أصوات «الندّابات» على القبور، أو أصوات أنواع من الطير، يتطير الناس منها ويتشاءمون، فإن الأجدر بمن يسير في طريق المعرفة لإستكشاف نواة الحقيقة، أن يسدّ أذنيه عن سماعها حسب تعبير «راندال» في «تكوين العقل الحديث» وتحليله الفلسفي، وأن يمضي نحو هدفه، ويهمل ما عداه.

هذا ما عمدت إليه وأنا بصدد البدء برحلة تأليف هذا الكتاب بعد إنتهاء الزيارة، ولقد كانت رحلة شاقة، لكنّ ما أصبته من نشوة؛ وأنا ماض فيها حتى بلغت نهايتها عند هذه السطور الأخيرة، فاق كل نشوة أخرى، لأنها نابعة من رغبتي في أن أتفهم ما يحيط بي من معالم الحياة، ومظاهرها. ويكفي أن تلتقي بعقلك مع أهل العقول المستنيرة، لتمضي قدماً في رحلتك الشاقة، وتبلغ المرمى؛ وتحقق الهدف.

ولقد أقدمت وفعلت... فماذا بقي أن يفعل الآخرون، بعدما دفعوني حسب رأي محمد محفوظ إلى «سف التراب» على مدى خمسة عشر عاماً، وما زالوا يضيّقون الحبل حول العنق؟..

مابعد الخاتمة

أما وقد تم إنجاز هذا الكتاب على الوجه الذى يراه القارىء الكريم ، بعد الفروغ من تأليفه ، وبذل كل المستطاع ليصدر بهذا الشكل ، الذى أرجو أن يكون لائقاً أو مقبولاً - على الأقل - لا يسعنى إلا أن أتقدم بخالص الإمتنان والشكر ، من كل من عاونني على إنجازه ، وفي مقدمتهم الصديق فاروق بدران الذى كرّس وقتاً مضاعفاً لتنضيد فصول الكتاب فى لندن .

و السيدة الفاضلة محاسن بدرى خليفة ، على ما بذلته من مجهود كبير فى المراجعة والتصحيح .

وأتقدم بالشكر من العاملين فى « مكتب هانى » بالقاهرة الذين تضافرت جهودهم لإخراج الكتاب إلى حيز الوجود فى فترة زمنية قياسية.

وأخيراً أخص بالشكر الآنسة رجاء درويش ، التى تولت أعمال الإتصال والمتابعة ، حتى تم صدور الكتاب على النحو الذى يراه القارىء الكريم بعد توزيعه .. والله ولى الأمر والتوفيق .

فاروق منجونة

ملتزم النشر والتوزيع

فى جمهورية مصر العربية

« مكتب هانى »

تليفون وفاكس ٣٩٢٧٤٠٤

٢١ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة.

رقم الايداع

٩٥ / ٨٧٢٨

I.S.B.N

977- 00 - 9046- 8

ثمن النسخة

12جنيهاً إسترلينياً

18دولاراً أمريكياً

THE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND

FAROUK MANJOUNEH

ED HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXE
HTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE
) * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HO
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND *FAROUK MANJOU
D HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PER
MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MAN
ED HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXE
HTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE
) * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND FA
OF A PERPLEXED HOMELAND *FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A
MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUKMAN
ED HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXEL
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MJOUNEHTHE
) * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED H
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MANJOU
) HOMELAND *FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUKMANJOU
) HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MJOUNEHTHE
) * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED H
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MANJOU
) HOMELAND *FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUKMANJOU
) HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MJOUNEHTHE
FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED H
HE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MANJOU
LAND *FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
HE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUKMANJOU
) HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MJOUNEHTHE
) * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED H
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MANJOU
) HOMELAND *FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUKMANJOU
) HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MJOUNEHTHE
* FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED H
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MANJOU
HOMELAND *FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUKMANJOU
HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MJOUNEHTHE
* FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED H
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MANJOU
HOMELAND *FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUKMANJOU
HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MJOUNEHTHE
* FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED H
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MANJOU
HOMELAND *FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUKMANJOU
HOMELAND * FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED
NEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND * FAROUK MJOUNEHTHE
* FAROUK MANJOUNEHTHE TRIOLOGY OF A PERPLEXED H

سيرة ذاتية للصراع العربي الإسرائيلي من التقسيم إلى السلام

THE TRIOLOGY OF A PERPLEXED HOMELAND

FAROUK MANJOUNEH



معادلة التاريخ والمعاناة - احجية الجهاد والحرية - الزيارة وما تلاها